المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع الأدب

الإنسان
في رؤية ابن الرومي والمتنبي بين المدح والقدح

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير فى الأدب العربى

إعداد
الطالبة : جمعة بنت سفر سعيد الزهرانى

إشراف
الدكتور : إبراهيم أحمد الحاردلو

١٤١٧هـ/١٩٩٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

كما أسجل شكري للأستاذين الفاضلين : الأستاذ الدكتور/محمد الحسين أبوسم ، والأستاذ الدكتور/حبيب حنش الزّهراني اللذين تفضلا علي بجزء من وقتهما للاطلاع على بحثي ومن ثم مناقشته آملة أن ينفعني الله بعلمها ويجزيهما عني خير الجزاء . أخيرا شكرا لكل من له يد في إظهار هذا العمل.

مدونة لسان العرب
مع تحيات أ. علاء الدين شوقي

المقدمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

"إني رأيت أنه لايكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده : لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر"(١).

هذا القول ينطبق تماما على عملي هذا ، إذ ليس من السهل البحث في الإنسان ودرسه ، فمع كثرة الأبحاث والدراسات القائمة على الإنسان وحول أنماط سلوكه ومناشطه . أقول رغم استفاضتها إلا أن هناك جوانب كثيرة لم تدرس بعد ، فالإنسان هو المتأَمَّل والمتَأَمِّل ، ولايزال معين دراسة لاينضب ، والحق أن دراسة الإنسان من وجهة أدبية أشق وأصعب من دراسته العلمية ، وقد كانت دراستي هذه حول الإنسان في رؤية شاعرين من أعلام الشعر العربي ، هما : ابن الرومي ، والمتنبي ـ بين المدح والقدح ـ حاولت أن أرسم ملامح شخصية الإنسان في العصر العباسي لتستقيم لي واضحة الملامح بينة القسمات من خلال صور الشاعرين سواء في المدح أو في القدح ، ومن ثم عرضها عرضا لائقا قدر ماأتيح لي من معرفة واستنباط ، مستأنسة قدر جهدي بما هيأه الله لي وبما نالته يدي من المراجع .

وقد كانت دراستي تقوم على المنهج الوصفي التحليلي ، دون اهتمام بالمنهج التاريخي الذي يمثله معظم الدارسين لشعر ابن الرومي وحياته ودون اهتمام أيضا بالمنهج النفسي الذي سار فيه العقاد والمازني ومن حذا حذوهما.

---

(١) العماد الأصفهاني .

وقد بذلت جهدي لتخليص نفسي أثناء كتابة هذا البحث من عوامل الرضا والسخط ، ونوازع الحب أو الكره ، حتى تكون كلمتي في إنسان العصر العباسي موضوعية خالصة ، مبعثها الضوء الذي تجمع أمامي من حقائق أكدتها صور الشاعرين الواضحة ودعمتها دراسات مستفيضة حول العصر العباسي ، وأثبتتها الموازنة والتحليل .

وكيفما كان الأمر ، فقد قسمت الرسالة إلى تمهيد وخمسة فصول ، وخاتمة ، وقد خصصت التمهيد لعرض الدراسات السابقة حول الموضوع - الإنسان - فوجدت أن أهم مصدر عرض للإنسان هو القرآن الكريم ، وحاولت أن أعرض بعض صور الإنسان التي تحدث عنها القرآن الكريم في موضع الثناء الجميل أو التقريع والعقاب الشديد ، وهذه اللفتة الأصيلة هي التي تعزز موضوع بحثي ، ثم عرضت بعض الأعمال والمؤلفات حول الإنسان وهي على كل حال كثيرة ومتنوعة ، ولكنها تقريبا واحدة لاجديد فيها ، سوى العنوان .

وعرضت بعد ذلك موقف الإنسان في عصور التغير الاجتماعي ، ومايصيب قيمه وأخلاقه من تطور أو تدهور جراء مايحدث في بيئته وينعكس على سلوكه وضربت مثالا من العصر الحديث لدور الأدب - الشعر أو النثر - في تصوير أحوال الإنسان ، وحاولت أن أدرس الإنسان في عصر قريب الشبه بعصرنا الحاضر ومن ثم استعرضت عصور التغير الكبرى في الأدب العربي فلم أجد عصرا يكاد يطابق عصرنا الحديث في معظم أحداثه وملامحه إلا العصر العباسي باعتباره من عصور التغيرالكبرى التي تزلزل القيم وتعصف بالكيان البشري .

فلامندوحة من إلقاء نظرة إلى ذلك العصر لنطّلع على بعض العوامل الرئيسية التي كان لها يد في ترقية وتطور العقلية العربية من جهة ، وتدني الأخلاق وشيوع الفساد من جهة أخرى .

والحق أن هذه العوامل والارهاصات كثيرة الأصول متشعبة الروافد ، وهيهات أن نحاول في هذه العجالة البحث عن كل أصل وكل رافد منها .. فإنها متصلة بأمور وأحداث تنوء بها كتب التأريخ والأدب ، وماقدمته في التمهيد ماهو إلا وصفا إجماليا للعصر العباسي الذي يمثل التجديد في كل شأن من شؤون الإنسان آنذاك .

بعد ذلك اخترت شاعرين من شعراء العصر العباسي لتقوم حول رؤيتهما للإنسان ـ مدحا وقدحا ـ دراستي ، وقد كان مُعولي في اختيارهما شهرتهما ، وأنهما أعمق من غيرهما أثراً فى تاريخ الشعر العباسي ، ولاأقصد بذلك أنه لايوجد بين سائر الشعراء من يرتفع إلى درجتهما أو ربما يفوقهما في بعض المناحى ، بل إنهما يمثلان العصر العباسي أفضل تمثيل وفي درسهما درس لذلك العصر والروح الشعرية فيه .

لذا آثرت دراسة صفات الإنسان من خلال صورهما ـ مدحا وقدحا ـ وقد تقدم ابن الرومي على المتنبي في الدراسة نظرا للسبق التأريخي حيث كان ابن الرومي في القرن الثالث وكانت الأحداث لما تبلغ بعد مابلغته في عصر المتنبي ـ القرن الرابع ـ ولم يكن لذيوع الصيت أو الشهرة موضع في هذا التقديم لامن قريب ولابعيد ..

وفي الفصل الأول من الرسالة : قمت بدراسة الإنسان في رؤية ابن الرومي ـ مادحا ـ واشتمل الفصل على : الصفات الخلقية التي مدح بها ابن الرومي الإنسان في عصره . ونقصد بها الصفات الحسية الظاهرة ، من جمال وجسامة وغيرها . وكان أغلب مديحه بالصفات الخلقية موجها للمرأة ـ الغزل ـ .

ثم عرضنا الصفات الخلقية التي مدح بها من كرم وشجاعة وأمانة وحسن جوار ، وقد كان يكثر المديح بالصفات الخلقية مجتمعة في نص واحد

وقلّما أفرد قيمة واحدة بنص مفرد أو أبيات خاصة بها دون غيرها من القيم الأخرىٰ . ثم عرضنا في المبحث الأخير مدائحه بالصفتين معا - الخِلْقيّة والأَخْلاقيّة - ولم أتعرض للناحية النفسية لابن الرومي خلال دراستي لنصوصه التي مدح فيها إنسان عصره لعلمي أن هذا الجانب قد أُشبع دراسة من قبل .

فى الفصل الثانى : قمت بدراسة الإنسان فى رؤية المتنبي - مادحا - وقد احتوىٰ هذا الفصل كسابقه علىٰ : الصفات الخِلْقية فى مدائح أبي الطيب ، كما احتوى كذلك علىٰ الصفات الخُلُقية أيضا ولكن لقلة النصوص والصور التى مدح فيها المتنبى بالصفتين مجتمعه لم أفرد تلك النصوص بمبحث خاص كما كان من أمر ابن الرومي ، ولكني أجملت الحديث عنها من خلال الحديث عن الصفات الخُلُقية فى مدائح المتنبى .

قد يقولُ معترض : كان الأجدر بي أن أضع فاصلا يوحي بالنقلة من جانب المديح إلى جانب - أو مقام - الهجاء - القدح - كأن أضع مثلا مبحثا أوضح فيه نتائج الفصلين السابقين وأبين رؤية الشاعرين للإنسان من خلال المدح .

ولكنى آثرت أن أترك ذلك للفصل الأخير الذي يشمل الموازنة بين رؤية الشاعرين . وربما كان ذلك رغبة مني في إثارة حس القارىء وفضوله ومن ثم أحظىٰ باطلاعه ومتابعته للبحث كاملا وقراءة جميع فصول هذه الدراسة .

ثم جاء الفصل الثالث : وفيه تحدّثت عن الإنسان في رؤية ابن الرومي - قادحا - وقد تباينت النماذج والصور التي قدح ابن الرومي في الإنسان من طريقها ، فوجدنا في هجائه نقداً وتهكما وسخرية للفرد والمجتمع على السواء ، وقد جاءت أهاجيه في بعض النواحى شبيهة بالهجاء المعروف في الشعر العربى خاصة تلك التي لم تخرج عن دائرة السب والشتم ، فقد كانت فاحشة اللفظ بذيئة المعنى ، لكنه عرف أحيانا كيف يخرج من هذه

الدائرة ويبتعد عن العموميات ليصبح شعره ملائما لشخص مهجوه بشكله الخارجى ، أو بأصله وأخلاقه ، حتىٰ نشعر أن مايقوله فيه حقيقة لامراء فيها.

وطبعي بعد هذا الفصل يأتي الفصل الرابع يحمل عنوانه : الإنسان في رؤية المتنبي ـ قادحا ـ وقد كشف لنا عن الوجه الآخر لإنسان عصره فرأيناه يقدم نماذج تكاد تكون صورة للإنسان في كل عصر وكل مكان ، وقد ساعد المتنبي في تكوين صوره وآرائه في الإنسان ثقافة قوية واسعة المدىٰ ، كما أنه نشأ في عصر هضمت فيه العلوم العقلية والفلسفية هضما ، وكان في نفسه ذكاء عجيب ، وتقلبت به أحوال الحياة المختلفة ، فذاق الحلو والمر ، وخبر الناس خبرة الذكي الواسع الإدراك ، فأحاط بكل أسرار الحياة ووصل إلىٰ أعماق الإنسان كما تناول كثيرا من مظاهر الصراع الإنساني بالبحث والتحليل العجيب . وقد سار المتنبى في قدحه مع الطبع والعاطفة الناقمة المتفجرة حتىٰ استنفد جميع مافي نفسه من احتقار وازدراء للجهل والكذب والرذائل ممثلة في أشخاص يمثلون الإنسان عندما تنحط نفسه وأخلاقه فيتخلى عن إنسانيته بعد أن يفقد مثله ومبادئه .. هذا ماكان من أمر الفصل الرابع ، وأيضا أرجأت الحديث عن النتائج التى يفترض أن تخرج بعد الحديث عن الإنسان في مقام القدح .

الفصل الخامس : وقد عقدت فيه موازنة بين الشاعرين في مجال الرؤية العامة للإنسان مستعينة في ذلك ببعض النتائج والأفكار التي كانت حصيلة الدراسة السابقة سواء في المدح أو القدح ، وكذلك الموازنة بينهما في القيمة الفنية لنصوصهما وصورهما التي قدما الإنسان من خلالها سواء مدحا أو قدحا .

وإن كنت قدمت من خلال الموازنة بعض الآراء والنماذج الشعرية التي ربما يفهم منها أنني فاضلت بين الشاعرين مفاضلة عامة ، إلا أنني أقر أنها كانت مجرد وقفات عند أمور اتضحت لي من خلال البحث والدراسة التى ربما أجملت الموازنة بين الشاعرين ليس غير .

أعقبت ذلك بخاتمة يفترض أن أقدم فيها النتائج أو ماتوصلت إليه من خلال بحثي . ومن ثم عرض توصيات واقتراحات ربما تفيد غيري .. وهذا ماجرت به عادة البحث العلمي ـ لذا لن أخرج عنه فيها ـ

وقد أطلقت لفظ ـ الإنسان ـ في العنوان لأن المراد الرجل والمرأة على حد سواء ، ولم يدخل في العنوان ذكر العصر العباسي لأن الشاعرين كانا في العصر العباسي .

اعتمدت في دراستي هذه على ديوان ابن الرومي بتحقيق عبد الأمير علي مهنا لأنه أول ماوقع في يدي ، وقد اطلعت على نسخة حسين نصار فلم أجد هناك كبير فرق بين النسختين .

وبالنسبة لديوان المتنبي فقد اعتمدت نسخة عبد الرحمن البرقوقي لعلمي أن هذه النسخة حوت فضائل النسخ السابقة وألمت بغريبها وتحققت من ذلك بالإطلاع على شرح الواحدي واليازجي والعكبري . أما بالنسبة لاختيار النماذج والصور الشعرية عند كلا الشاعرين وفي كلا المقامين ـ المدح والقدح ـ فقد تم الاختيار حسب أعلى النماذج وذلك بعد جمع النصوص وتصنيفها ـ فأرجو أن أكون وفقت في ذلك ـ

لم أتعرض أثناء دراسة النصوص لذكر الأشخاص والمناسبات لأن هدفي لم يكن التأريخ لتلك النصوص بل كان الإنسان وصفاته من خلال هذه الصور . كما لم أتعرض لعاطفة أي من الشاعرين لأنها لم تكن تعنيني في هذه الدراسة ، والتي آمل أن تفيد غيري وتضيف لتراثنا العربي الخالد لبنة . والله من وراء القصد .

التمهيد

التمهيد

يتضمن :

(١) الدراسات السابقة حول الموضوع .

(٢) الإنسان باعتباره محورا مهما فى عصور التغير الاجتماعى .

(٣) التغيرات الاجتماعية ودورها فى تغير القيم .

(٤) العصر العباسى وأبرز ملامحه سياسيا واجتماعيا .

(٥) ابن الرومى والمتنبى سبب اختيارهما .

(١) الدراسات السابقة حول الموضوع :

جدّ العلماء والأدباء في البحث عن الإنسان ، واستكشاف حقيقته ، وظنوا أن معرفتهم تقفهم على باب اليقين ، وتقدرهم على ريادة الآفاق المجهولة .

فبحثوا عنه فى عقله وقلبه ، فى بدنه وسلوكه ، في مناشطه العقلية والوجدانية ، غفلوا عن أشياء كثيرة وأسرار مابرحت مخفية ، وظفروا مما يطمحون إليه بشيء ضمنوه مجلدات ضخاما ولعلي بعملي المتواضع أضيف إلى لبناتهم لبنة .

(أ) الإنسان في القرآن الكريم :

إن أوّل مصدر عرض للإنسان سواء في خلقه وبنائه ، أو في المهمة المنوطة به ـ عمارة الأرض ـ والغاية من وجوده ـ عبادة الله ـ أو في سائر مناشطه ، هو القرآن الكريم ، فالإنسان هو المخاطب بكلام الله عز وجل ، وقد ورد ذكر الإنسان بلفظه الصريح في القرآن الكريم ٦٥ خمسا وستين مرة ، مابين وصف وعرض لخلقه وبداية تكوينه ، وبين إشادة به وتكريم إن أحسن ، وذم له وتقريع إن أساء .

وليس أدلّ على منزلة الإنسان في الكون من أن الله جعله خليفة في الأرض ولم يجعل أحدا من ملائكته لحكمة يعلمها سبحانه . وقد أكد تكريمه لبنى آدم في غير موضع من كتابه الكريم ، يقول سبحانه : {**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ**}(١).

---

(١) سورة الإسراء : آية ٧٠

وفي مناسبات شتىٰ عدّد نعمه عليهم ، وماوعد به المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وماوصفهم به في أنفسهم ، وفي سلوكهم الظاهر ، يقول سبحانه : {وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِيْنَ يَمْشُوْنَ عَلَىٰ الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الجَاهِلُوْنَ قَالُوْا سَلَاماً}(١).

وبينا يحبو القرآن الكريم الإنسان المؤمن العامل بالثناء الجميل ، والإطراء الذي يمتع الروح ، نجد البيان النبوي يمضي علىٰ نفس السَّنَن ، مؤكداً أن الإنسان لايستحق الثناء والإطراء في دنياه ، والثواب في أخراه ، إلاّ إذا التزم بدستور القرآن والسنة النبوية .

وفي مقابل هذا الإطار الأسنىٰ الذي يوشّح المؤمن العامل ، نجد معادلا آخر يزري بالإنسان ويصوره مهانا وضيعا يقول عنه القرآن : {إِنْ هُمْ إِلاّ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}(٢).

يصوره غادرا ، فَدْما نذلا يخبر عنه القرآن بقوله : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلىٰ مَافِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَام ، وَإِذَا تَوَلّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيْهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ ....}(٣).

كما يصوره أَثِراً فاجراً كذّاباً {قُتِلَ الإِنْسَانُ مَآأَكْفَرَهُ}(٤).

وفاسقاً لايؤمنُ جانبه {إِنّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً}(٥).

عدوّاً لنفسه وللنّاس {إِنّه كانَ ظَلُوماً جَهُولاً}(٦).

---

(١) سورة الفرقان : آية ٦٣
(٢) سورة الفرقان : آية ٤٤
(٣) سورة البقرة : آية ٢٠٤
(٤) سورة عبس : آية ١٧
(٥) سورة المعارج : آية ١٩،٢٠،٢١
(٦) سورة الأحزاب : آية ٧٢

والإنسان في البيان القرآني هو الذي يحمل الوصية ، وهموم المكابرة واقتحام العقبة لتحقيق وجوده الإنساني ، كما أنّه الذي يتعرض لتجربة الابتلاء ، ومحنة الغواية ، وهو في النهاية {أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلا}(١).

وهل ثم أوفىٰ وأدق بيانا من صورة إنسان أو ناس يكفرون بالله وبمنهجه ورسله ، وبالصراط الذي يُدعون إلىٰ الاستقامة عليه ، فيخبر عنهم تبارك وتعالىٰ بقوله : {خَتَمَ اللّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم وَعَلَىٰ سَمْعِهِم وَعَلَىٰٓ أَبْصَارِهِم غِشَاوَةٌ ...}(٢).

بهذه الصورة استحالوا إلى مضغة ، وفقدوا صلتهم بالإنسان ، وأهليتهم للتكريم ، فالإنسان في معرض القرآن والبيان النبوى ، مستعد للخير ، إن استجاب لدواعيه كان موضعا للثناء الجميل في الدنيا ، والثواب العظيم فى الآخرة ، ومستعد للشر ، إن استجاب لدواعيه ناله القدح والتقريع في الدنيا ، والعقاب الشديد في الآخرة . وهذه لفتة أصيلة تعزز موضوع بحثي - الإنسان بين المدح والقدح - .

(ب) **الإنسان في معرض المفسرين والباحثين :**

كثيرة هي كتب التفسير التي عالجت موقف الإنسان مستقيما أو منحرفا لكن أكثر هذه الكتب كانت تتراجع فيها صورة الإنسان وراء العناية بإبراز الأحكام ومسائل النحو والصرف والبلاغة ، ولاأقلل من قيمة البحث في هذه الفروع ، غير أنني أمّلتُ أن يبرز الأصل المستهدف في جهد المفسرين ، وإن كان للمرحوم سيد قطب خطوة رائدة في كتابه - في ظلال القرآن - فقد وصل الإنسان في القرآن الكريم بحياته الشخصية والاجتماعية .

---

(١) سورة الكهف : آية ٥٤

(٢) سورة البقرة : آية ٧

أما الباحثون الذين عناهم الإنسان فمنهم من بحث عنه في تكوينه ووظائفه من ناحية علمية ، ومنهم من ركز على بنائه العقلي ، ومميزاته النفسية أو الجسدية ، غير أن أقرب هذه الدراسات وأوثقها نسبيا مع بحثي هي تلك الدراسات التي كانت عن الإنسان في القرآن الكريم وأذكر منها تمثيلا لاحصرا :

(١) الإنسان في القرآن ـ عباس العقاد ـ نوّه فيه بالإنسان فيما لايجاوز خمس صفحات!! ثم انتقل إلى آراء العلماء والفلاسفة حول حقيقة الخلق وماهية الروح والنفس ، مستأنسا في بعض المقامات بآيات متفرقة من القرآن .

(٢) الإنسان في القرآن الكريم ـ عبد الكريم الخطيب ـ وقد نهج فيه نهج العقاد تقريبا إذ تعرض لبداية الخلق ، وقصة آدم ، وللعقل والقلب والنفس ، والحياة ، والموت ، والعقاب ، والثواب ، مستعينا بآيات القرآن مثل سابقه .

(٣) القرآن وقضايا الإنسان ـ عائشة عبد الرحمن ـ وهو عرض جديد ، لمعلومات قديمة ، وحديث عن الإنسان وأمانة مسئوليته ، وتكاليف وجوده ، وشواغل دنياه ، وهواجس أخراه ، وتعني به الإنسان العربي المسلم في العصر الحديث ، والجديد فيه محاولة ربط الإنسان في العصر الحديث بماضيه العريق .

(٤) الإنسان في الأدب الإسلامي ـ محمد عادل الهاشمي ـ وقد توقعت أن يكون قريبا من موضوع بحثي ، بما يوحي به عنوانه ، أما مادته فيبدو من طريقة عرضها حرص المؤلف على تأصيل دراسة الإنسان دراسة أدبية في إطار التصور الإسلامي ، كقصة خلق آدم عليه السلام ، ومالقي الإنسان المسلم عبر العصور من تحديات وصراعات ومحاولات ترمي إلى طمس ذاتيته المسلمة ، كحركات الشعوبية في العصر العباسي والتغريب في العصر الحديث .

(٥) ثَمّ دراسات أخرىٰ حول الإنسان عربية وأخرىٰ مترجمة لم يكن للإنسان فيها من حظ سوىٰ العنوان ، وقد حفلت بعض الدوريات القديمة بدراسات حول الإنسان في آفاق مختلفة .

(٢) الإنسان باعتباره محورا مهما في عصور التغير الاجتماعي :

الإنسان وهو يتضخم ، ويتشاخ ، ويتلمس أسباب القوة والتفوق ليبقىٰ ، فيصارع ويتكالب ويطغىٰ ، ثم الإنسان وهو يفقد توازنه وقوته ، ويختل ، وتتحلل نفسه بالشنآن والتدابر والأحقاد ، والإسراف . إلى أن تهي* علائقه الاجتماعية . هذه حال الإنسان من طفولة البشرية إلى أن أظلته حضارة العصر ، حضارةالنور الساطع ، والظلام الدامس ، العلم العظيم والجهل المُطبِق ، اليقين القاطع ، والشك المدمر ، الغنىٰ الفاحش ، والفقر المدقع ، الجمال الرائع الرفيع ، والقبح البشع الوضيع ، والتى هي مظهر لنشاط الإنسان ، تقوىٰ بقوته ، وتنحل بانحلاله .

الإنسان هذا الكائن العجيب الذي استخلفه الله في أرضه ، ولكنه في غمرة أنانيته ، وشعوره بالسيادة والسيطرة ، ينسى مهمته ، فيختل توازنه ، وتستحيل آدابه وأخلاقه إلىٰ أشكال ورموز محنطة ، ويبتعد بذلك عن الصراط المستقيم ، فيضل ويغوىٰ وينتهي أمره إلىٰ مانسمع ونرىٰ من كثرة الفتن والحروب ، حيث صار الإنسان يغدر بأخيه ، ويقتل أباه ، ويختان نفسه ..

(٣) التغيرات الاجتماعية ودورها في تغير القيم :

لايضطرب الإنسان هذا الإضطراب ، إلا في المراحل التي تتصادم فيها الحضارات ، إذ ينجم عادة عن هذا الصدام تغير هائل في الشؤون الفكرية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والفنية ، يتسرب هذا الصراع من حياة الإنسان الخارجية إلىٰ أخفىٰ خفاياه ومكنوناته ، يتسرب إلىٰ قيمه ومثله العليا ، إلىٰ ذوقه ونظام معيشته .

كما حدث للإنسان العربي إبان الصدام الحضارى المروع الذى حدث مستهل هذا العصر بين الحضارة العربية الإسلامية وحضارة أوروبا ، إضافة إلى دور الثورة التكنولوجية الحديثة التي لاتؤثر فقط علىٰ الإنتاج والنشاط المُنتج ، بل إن الإنسان نفسه احتياجاته الثقافية ، مشاربه ، وكل أنماط حياته يتغير في ظل تأثيرات هذه الثورة التي تغطي الأحوال الاجتماعية المختلفة المحيطة بالإنسان[١].

فإذا شمل التغير كل أحوال الإنسان الخارجية والداخلية ، فالمناشط الفنية التي تصدر عن الإنسان أحرىٰ بالتغير ، فقد لحق التغير العادات ، والآداب ، والسلوك العملي للإنسان ، وانعكس أثره علىٰ الأدب كما انعكس علىٰ سائر الفنون .

يقول الشاعر[٢]مصوراً تغير القيم في العصر الحديث :

لاتَكُنْ ضَيْفًا ثَقِيلاً ... يَكْرَهُ النّاسُ لِقَاءَك

لاتَكُنْ عِبْئاً عَلَيهم ... لاتُحَمِّلْهُم عَنَاءَك

فقيمة الكرم التي من أهم القيم التي يحرص عليها العربي ، أصبح الناس ينظرون إليها علىٰ أنها آداب مختلقة ، وتطفّل مرفوض .

وقد كان النثر في فنونه[٣]أوفىٰ وأمعن في تصوير أحوال الناس . فهذا

---

(١) انظر فالينتينا ايفاشيفا ، الثورة التكنولوجية والأدب ، ترجمة فخرى لبيب ، ط /بدون .

(٢) محمد الهراوى .

(٣) المقالة ، القصة ، المسرحية ...الخ .

أحمد فارس الشدياق يصور هذا التغير في "الوطني المزيف"يقول : "... من الناس من يبالغ في مدح وطنه ، ويحن إليه حنينه إلىٰ سكنه ، فيصف مروجه ورياضه ، وبروجه وحياضه ، ووهاده وجباله ، وتلاعه وتلاله ، وربوعه ودياره ، ونباته وأشجاره ، وبقوله وثماره ، ودوحه وأطياره ، وطيب هوائه ولذة مائه ، ويزعم أنّ فصوله كلها كالربيع حسنا ، وأن جميع أقطاره تتدفق بركة ويمنا ، وأن شهرا فيه خير من ألف عام في غيره...

فإن قلت له : كيف جارك الأدنى؟ لعله كان لك عونا وخدنا!!

قال : ويلى ، إنه شر جار ، وهو علىٰ البلاد عار وشنار .

فكيف جاره الذي يليه؟ عسى أنه ممن تواليه وتصافيه!!

قال : إنه شر من أخيه .

فكيف أهل الحارة طرّا؟

قال : ويلى ، أنهم كانوا عليّ شرا ، ولم أجد منهم إلا ضرا .

فكيف أهل البلد أجمعين؟

قال : ويلي ، مامنهم أمين معين ، فما كأنهم خلقوا من ماء وطين إنى قد اختبرتهم جميعا ، فلم أجد لأحد منهم من خلاق ، وإن هم إلا جهلاء أغبياء، ينقادون لمن يأمرهم من الأغنياء .

فإن قلت له : ولكن كيف اشتملت بلادكم علىٰ تلك المحاسن ، وأهلها على هذه المساوىء والشوائن؟

قال : إن أهلها الأولين كانوا من الخيرين ، فحرثوها وزرعوها ، وأمرعوها ، ثم فسد الزمان فجاءت خَلْفاؤهم فاسدة ، لكن بقيت تلك المحاسن فيها فائدة .

ولكن مامعنى فسد الزمان ، وهو لم يكن صالحا قط منذ خلق الإنسان؟ ولو كنت من الصالحين لما رأيت في غيرك خُلقا يشين ، فإنما ينظر في عيوب الناس من كان أسوأ منهم حالا . كما قال الشاعر الحكيم :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرّاً به الماءَ الزُّلَالاَ

فما أنت في طعنك علىٰ بني جنسك إلا مليم ، وإنّ امرءا يحسب جميع أهل بلاده دونه لجدير بأن يشيعوا مفتونه ، ويذيعوا جنونه ، ويتجنبوا

محضره ويتنكبوا منظره ، فياللعجب ممن يمدح وطنه ليرجع المدح إلى نفسه ، مع ذم قومه وجنسه ..."(١).

ولم يسكت الشعر عما حاق بالإنسان و ماأحدثه العصر فى أعماقه من عواطف متباينة ، ومابرز بينه وبين أخيه من تظالم وتصارع ، فالشعر الذى قيل فى إنسان العصر كثير كثير لم يغادر من شئونه شيئا ولكن!! ولما كان الإنسان فى الأدب الحديث أصعب درسا وأشق راجعت عصور التغيرالكبرى فى تاريخ الأدب العربى أنشد عصرا قريبا من عصرنا هذا ، فاستوقفنى التغير الذى حدث للإنسان العربى إبان تحوله من الجاهلية إلى الإسلام ، فقد أحدث دين الإسلام تغيرات أساسية فى مفهوم الإنسان العربى ، وفى تصوره وعلائقه ، تعدت إلى آدابه ومعاملاته ، فأقصى منها ماأقصى ونقح منها مانقح وهذب . وطبعها بطابعه الخاص ، وعندما استجاب العربى بقلبه وعقله وسلوكه للدعوة الإسلامية بعد مقاومة عنيدة ، طفق الإسلام ينظم شئون الحياة الإنسانية بقيم جديدة .

فبعد أن كانت علاقة الدم فى القبيلة هى المحرك الأول لسلوك الجاهلى والتى جعلت كل جاهلى يقول بلسان الحال :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

أصبحت علاقة الدم والنسب لاتغنيان عن علاقة الإيمان ، تلك العلاقة التى بها تنتظم الحياة الاجتماعية فى المجتمع الجديد .

ومن مداخل التغير الذى أحدثه الإسلام فى نفوس العرب ، أن عزة المجاهدين فيه غير عزة المقاتلين فى الجاهلية ، حيث كانت قبل عزة البطش والعدوان ، وأصبحت عزة الدفاع عن النفس وعن حرمات الحياة التى شرعتها ونظمتها العقيدة الجديدة . فالعصر عصر جهاد وتأسيس لاالجيل بذاته ولالبيئة خاصة ، إنما التأسيس للبشرية فى جميع الأزمنة .

---

(١) الجوائب ، عدد ٤٣٧ فى ٣ يونيو ١٩٧٠م ، نقلا عن محاضرات فى الأدب الحديث للدكتور محمود فياض ، مجموعة محاضرات ألقيت على طلاب السنة التمهيدية عام ١٤١٤هـ .

والصِّـراع محتـدم بين الكفـر والإيمان ، والنـاس قـد خرجوا بقيمهـم وعـاداتهم عـن الاستقامة التي شـرع يردهـم إليها الإسلام ، وينظـم حيـاتهم عليها ، وهو تنظيم لم يكن ليتم إلا بجدع الأنوف[١].

ولكني أبحث عـن عصـر قـريب مـن العصر الحديث كـل مـاحدث فيه زلـزلة للقيم والآداب وليـس تحولا في العقيـدة . ولعـل العصـر العبـاسي هو أقرب العصور إلى العصر الحديث .

(٤) العصر العباسي وأبرز ملامحه :

يضـاهي العصر العباسي في بعض ملامحه العصر الحديث ، فقـد تلاقت فيـه الحضـارة العـربية الإسلاميـة بحضـارات أخرىٰ تعـاملت معهـا في جميـع المجالات ـ العلمية والفنية .

في عصور التغير لاتستقر النفوس علىٰ ماألفت ، بل تضطـرب وتتناقض تُسِـفّ وتترفـع ، تتهالك وتطمـح إلىٰ القوة ، وتملك عليهـا الحيرة أقطـارها ، وهـذه حال النفس العربية في العصـر العباسي فقد تعقـدت الأمور الحياتية ، وتعقـدت معهـا علاقـات النـاس بعضهـم ببعـض ، واختلـت الأحوال بفسـاد النيـات ، فزال الأمن واختـل النظام ، وظهرت تيارات فكـرية جديدة ذات اتجاهات مختلفة ، ولم تكن هذه الحركات والثورات في الأعم حركات سياسية تهـدف إلىٰ تقـويض الدولة العبـاسية ، بقـدر ماكانت إعـادة لتشكيـل نظمها الإجتمـاعية ، والسيـاسية ، والـروح الـداخلية للثقافـة الإسلاميـة علىٰ مثال النظم والقيم الساسانية ، من تلك التيارات : التيار الفكري الاجتماعي الذي عُرف بالشعوبية .

---

(١) انظـر د. محمود فياض ، محاضرات في أدب الـدعوة الإسلاميـة ، بتصرف . مجموعة محاضرات مخطوطة ألقيت على طلاب السنة التمهيدية في عام ١٤١٢هـ .

وكان لهذه الشعوبية حماة ودعاة يعملون كثيرا بداعي العصبية القومية ، قاومها العرب ، كما قاومتها الأجناس الأخرى ، فكان صراع لغوي وديني ، وصراع عادات وتقاليد ، وكان صراع علمي ، وكان النصر في بعض الميادين لهذا وبعضها لذاك ، مما أوجد مادة قيمة للأدباء والفنانين ومن أهم أعلامها الشاعر بشار وأبو نواس ، وابن المقفع .

وقد تزامن مع هذه الحركة فتن أخرى كثيرة : ولعل أقربها حركة الزندقة التي عمل أصحابها على إحياء الديانات الفارسية ، ودبروا لتخريب المجتمع العربي ، وتشويه مثله ، ليتسنى لهم تقويض النظام الإسلامي ، وتحطيم الكيان العربي ، وتدمير الأخلاق والقيم العربية(١).

وعملا بالقانون الطبيعي الذي يقول : "إن لكل فعل رد فعل مساو له في القوة ، ومعاكس له في الاتجاه" نجد هناك رد فعل قوي تحرك في النفوس ولّدته حياة اللهو والمجون والزندقة ، فاتجه بعض الشعراء وغيرا لشعراء إلى تيار آخر هو تيار الزهد ، الذي أضاء مصابيحه من جديد ، وقاده في هذه الفترة أبو العتاهية(٢).

والعصر العباسي بشهادة أهل عصره "خوى فيه نجم الخير ، وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله ، وصار العلم عارا على صاحبه ، ولذات النفوس في اصطفاق المزاهر ، ومعاطاة الندمان ، ونبذت الصنائع ، وجُهل قدر المعروف وماتت الخواطر ، وسقطت همم النفوس ، وزُهد في لسان الصدق"(٣).

فالعصر العباسي من عصور الاضطراب التي تولد الشخصيات الفنية ، التي تحمل "ألم العصر" وتعبر عنه .

---

(١) انظر : ضحى الإسلام، أحمد أمين ، ج١ ، تاريخ الإسلام السياسى والاجتماعى ، ج٣ ، حسن إبراهيم ، تاريخ التمدن الإسلامى ، ج٤ ، جرجى زيدان .

(٢) يراجع تيار الزهد ، العصر العباسى الأول ، شوقى ضيف ، ط/سادسة ، ص٨٣ ، دار المعارف .

(٣) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، تحقيق محمد الدالى ، ط/ثانية ١٤٠٦هـ ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ص٦ .

وقد أخرج لنا العصر العباسي فنانين وأدباء شعروا بالاضطراب والخطر المحدق بالإنسان ، جرّاء هذه الفتن والقلاقل .

وإن كان هناك من لم يحس ذلك وإنّما انصرف للملذات والقشور : "فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتا في مدح قينة ، أو وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئا من تقويم الكواكب ، وينظر في شيء من القضاء وحد المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله - عز وجل - بالطعن وهو لايعرف معناه ، وعلى حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالتكذيب وهو لايدري من نقله ... هذا المعجب بنفسه ، الزاري على الإسلام برأيه ، طال عليه أن ينظر في علم الكتاب ، وأخبار الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته ، وعلوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصب لذلك وعاداه ، وانحرف عنه إلى علم قد سلّمه له ولأمثاله المسلّمون ، وقلّ فيه المتناظرون ، له ترجمة تروق بلامعنى ، واسم يهول بلاجسم"(١).

من هنا كان وجه الشبه بين العصرين - العباسي والحديث - في كثرة الحروب والفتن ، والصراعات الداخلية ، وتسرب كثير من العادات والآداب مع العناصر الوافدة من البلاد التي دخلها الإسلام والتي استقبلتها الحضارة الإسلامية ، وهضمتها وتمثلت منها مالم يصادم أصلا مقررا .

على أنه لايفوتني التنبه إلى فارق جوهري بين العصرين ، إذ كان العرب في العصر العباسي أقوياء ، يختارون مايرونه متمما لحضارتهم ، وينفون ماعداه ، أما في العصرا لحديث فالأمر جد مختلف ، حيث كان العرب ضعفاء متخلفين ، فنقلوا الغث والثمين ، بل ربما أغرتهم قوة القوي فنقلوا غثه متباهين ، واطّرحوا ثمينهم مستنكرين ، وهذا فارق له ماله في طبيعة المنقول ، وطريقة النقل .

---

(١) ابن قتيبة ، نفس المصدر ، ص٦،٧ .

ثم لما اتضحت الرؤية اخترت من العصر العباسي شاعرين كبيرين ، مختلفين في طريقة الاستقبال والتصوير وهما :

ابن الرومي (أبو الحسن علي بن العباس بن جريج ٢٢١-٢٨٣هـ)[١].

وأبو الطيب المتنبي (أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي ٣٠٣-٣٥٤هـ)[٢].

(٥) سبب اختيار الشاعرين :

لكل عصر عظماؤه ومشاهيره ، والعصر العباسي كان من أغنى العصور بالمشاهير والعظماء ، قادة ، وعلماء ، وأيضا أدباء وظرفاء ، ولكن عندما يكثر العظماء لابد أن يتميز كل عظيم بمزايا تميزه عن غيره ، ومن بين شعراء ذلك العصر تميز شاعران عن غيرهما ، ولم يكن اختيارهما عبثا ، فقد كانا أكثر من غيرهما إحساسا بالإنسان ، وبمعاناته ، في عصرهما . اتفقا في النظرة إلى الدهر والناس ، كما التقيا في العديد من الأمور الأخرى ، وإن كان الأول - ابن الرومي - يمدّ خياله مدّا ، ويتريّث أمام التفاصيل ، ويُعنى أكثر مايعنى بالأوصاف الحسية ، إلا أنّ لديه قصائد طوالا تشعرنا برغبته في إصلاح العيوب ، وهداية الناس إلى مثل أخلاقية يود لو أصبحت حقيقة واقعة يرقى بها المجتمع ، ويسمو بها الإنسان .

فابن الرومي "صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ، ويبرزها في أحسن صورة ولايترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ، ولايُبقي فيه بقية ..."[٣].

كما أنه كان "ضنينا بالمعاني حريصا عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلايزال يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه في كل وجه ، وإلى كل ناحية

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، دار صادر ، بيروت ، تحقيق احسان عباس ، ج٣ ، ١٩٧٠م .

(٢) المرجع نفسه ، ج١ ، ص١٢٠ .

(٣) المرجع نفسه ، ج٣ ، ص٣٥٨ .

حتىٰ يُميته ، ويعلم أنه لامَطمح فيه لأحد ..."(١).

وهو "أولىٰ الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه"(٢).

وقد كان ابن الرومي في عداد القلة من شعرائنا القدامىٰ الذين نبهوا إلىٰ آفات المجتمع ، وانتقدوا اختلاله .

وقد أوتي حساسية مرهفة قادرة علىٰ التقاط أدق التفاصيل وأخفىٰ الجزئيات ، كما أوتي دقةملاحظة لاتخفاها خافية .

"وقلّ من بين شعراء العرب أو غيرهم من يقاربه في دقة إحساسه بالجمال في جميع مظاهره وأشكاله"(٣).

أما القطب الآخر - ابو الطيب المتنبي - فهو شاعر جهير ، لايداجي ولايوارب ، مع أنه فنان عظيم موهوب إلا أنه كان حاد النظرة لايداجي في حبه أوكرهه ، ومن ثم كان يجري شعره في جدولين متوازيين : جدول من الحب بما فيه من نبل الرجولة وكبريائها ، وجدول من البغض بما يقترن به من افتراس وتشف مع تركيز شديد في الصورة ، إنّ عبارة ابن رشيق التي وصف بها شاعرنا بأنه "مالىء الدنيا وشاغل الناس"(٤)، تكشف عن المكانة الرفيعة التي احتلها شعر المتنبى في تاريخ الأدب العربي .

والمتنبي "إذا خاض في وصف معركة ، كان لسانه أمضىٰ من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله مقام أفعاله ، حتىٰ تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا ..."(٥).

---

(١) ابن رشيق ، العمدة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط/رابعة ١٩٧٢م ، ج٢ ، ص٢٣٨ .

(٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٨٦ .

(٣) ابراهيم المازنى ، حصاد الهشيم ، ط/سابعة ١٩٦١م ، ص٢٨٦ .

(٤) العمدة ، ج١ ، ص١٠٠ .

(٥) ابن الأثير ، المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق أحمد الحوفى ، بدوى طبانة ، الفجالة ، مصر ، ت/طبدون ، ج١ ، ص١٥،١٦ .

وأَحْسَبُ أنّ شاعرين هذا بعض ماقيل عنهما فِي القديم ، وماقيل عنهما فِي العصر الحديث يفوق الحصر ، جديران أن يُدرس الإنسان من خلال شعرهما . فقد كانا أكثر شعراء عصرهما إحساسا بالإنسان واختلال قيمه ، كما كان لعصرهما أثره الواضح فِي شعرهما ورؤيتهما للإنسان ، وسأحاول جهدى أن أكوِّن صورة لإنسان العصر العباسي ، وللإنسان بعامة من خلال صورهما مدحا وقدحا ، وكيف تكونت هذه الصورة من خلال رؤيتهما الفنية ، ومقدار ماتنبض به من جمال وتأثير .

الفصل الأول

الإنسان

في رؤية ابن الرومي - مادحاً -

الإنسان في رؤية ابن الرومي - مادحا -

يتضمن :

أولا : الصفات الخِلْقيّة في مدائحه .

ثانيا : الصفات الخُلُقية .

ثالثا : الصفات الخِلْقية والخُلُقية .

توطئة:

قد يندر من الشعراء من يجتمع له من المتناقضات النفسية مثل الشاعر ابن الرومي ، وربما يكون كثرة التردد من صفات الفنانين بعامة ، ولكنه لدىٰ ابن الرومي ظاهر للعيان ، ولايحتاج إلىٰ برهان .

يقول من ترجموا للشاعر :

إنه كان غريب الأطوار ، لايستقر علىٰ حال واحدة ، فقد يمدح اليوم إنسانا ويذمه غدا ، وهو في متناقضاته وجمعه بين الأضداد متأثر بطبيعة عصره ، إلىٰ جانب ماخُص به من عناية ودقة في عرض صوره وبسطها ، فقد يلتقط النّأْمة المستخفية فيجعلها مسموعة مدوية ، أو الصفة التي اندثرت في عصره فيجسدها لممدوحه ، "وهو وإن كان غرّد داخل سربه فيموضوع العديد من الصفات التي ألصقها بممدوحيه من مثل : الكرم ، والشجاعة ، الحكمة ، والعفة ، الذكاء ، وشرف المحتد ، إلا أن مدائحه حافلة بالمقاطع التأملية في الحرص ، والإيمان ، والشرف ، وقيمة الناس ، وتقلب الدهر ، والمجتمع المتفاوت الطبقات ، الظالم الميزان"(١).

وفي مقام الحديث عن الإنسان في رؤية ابن الرومي مادحا ، لايخفىٰ علينا أن المديح : ثناء يسبغه الشاعر علىٰ ممدوحه ، إما اعترافا بفضل ، أو رغبة في نوال . وابن الرومي يلتقي مع غيره من المداحين في الغرض وكذلك في بعض الصفات التي يمدح بها ، لكنه يختلف عنهم في التفاصيل والأسلوب - في الناحية الفنية - إضافة إلىٰ أنه قد يلتفت إلىٰ معان غابت عن الكثير من الشعراء ، فيمدح بها إنسان عصره ، رغبة منه في بعث هذه الخلال وترغيب الناس فيها ، ومن ثمّ السمو بالمجتمع وانتشاله من الوهدة التي يتردىٰ فيها ، نتيجة للاختلاط والترف الحضاري .

---

(١) د. محمد حمود ، ابن الرومى الشاعر المغبون ، دار الفكر اللبنانى ، ط/أولى ، ١٩٩٤م ، ص٩٩ .

وقد تأثر شاعرنا بثقافة عصره التي انعكست على شعره خاصة في مدائحه ـ فنحن نقرأ لابن الرومي مدائحه ونستشف منها روحًا حيّة تعلو بنا إلى عنان السماء ، واصفًا ممدوحيه بالكواكب والنجوم ، ثم يجول بنا في أرجاء النفس البشرية من خلال منطقه ورؤيته الشعرية ونظرته الخاصة بالحياة والناس ، فكثيرا مانجد في شعره أقيسة وأدلة منطقية تدل على ثقافته الواسعة بعلم الفلسفة والمنطق اليوناني ، واهتمامه بعلمي الفلك والتنجيم ، ناهيك عن العلوم والمعارف السائدة في عصره من عربية وغيرها .

أولاً : الصفات الخِلْقِيّة في مدائحه :

مدح الشعراء العرب منذ الجاهلية بالصفات الخِلْقية ، وكان الجمال من أولىٰ الصفات التي امتدحوها ، فهذا زهير[١] يشير في معرض مديحه إلىٰ جمال وجه ممدوحه وبهاء طلعته ، وغير زهير كثير[٢].

فالعربي بطبعه يهوىٰ الجمال في كل مايحيط به ، والنفس مطبوعة علىٰ حب الجمال ، تفرح وتتهلل للمناظر الجميلة السوية ، وتنفر وتنقبض من المناظر الدميمة الشائهة ، فطبعي ألاّ يغفل الشاعر العربي جانب الجمال في مدائحه لأن ذوق الجمال كان أدق وأيقظ مايكون في الإنسان العربي .

وابن الرومي كغيره من الشعراء الفنانين عشق الجمال وسعىٰ إليه فكان الجمال هدفا في حياته ، امتدح به وتذوقه ، وتأثر به سواء في الوجه أو الجسد أو الصوت والغناء الحسن الجميل ، الذي يدل على أن له ذوقا يستحسن الجميل وينفر من القبيح ، فله براعة في نعت الصوت الحسن تدل على صحة شعوره بالفن كأنه خبير بفن الغناء خبرته بفن الشعر .

وهو وإن اتفق مع سائر الشعراء العرب في بعض طبائع التقليد وميزاته فقد انفرد عنهم بطبيعة خاصة تفيض بالشعر عن الخاطر ، فقد يتقيد أحيانا في شعره بالمعاني التقليدية ، لكنه يتحرر منها حينا آخر[٣].

وكثيرا مانجد ذلك في مدائحه فهو حين يقول :

أَغَرُّ أَبلَجُ يَكْسُو نَفسَهُ حُلَلاً ... مِنَ المَكَارِمِ لاَتُبْلَىٰ عَلَىٰ الحِقَبِ

يمدح بمعنىٰ مطروق من العصر الجاهلي فكثيرا مامدح الشعراء بهذه المعاني الحسية ، لكن ابن الرومي تحرر من التقليد حين ربط بين المعنىٰ الحسي ـ جمال الوجه ، والمعنىٰ المعنوي ـ كريم الصفات والمكارم ـ بطريقة تدل

---

(١) أغر أبلج فياض يفكك عن ... أيدى العناة وعن أعناقها الربقا

(٢) بعد البعثة المحمدية هذا حسان يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجمال فيقول :

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد

(٣) د. محمد حمود ، ابن الرومى الشاعر المبغون ، بتصرف .

على ذكائه ، فهو يدرك أن الجمع بين الجمال الحسي والمعنوي أبلغ وأعظم أثرا في النفس ، وكأنه رأى أن المدح بالجمال الحسي - فقط - نقص إذ لايلبث الجمال الحسي أن يبلى ولكن جمال الروح والمحامد هي التي تخلد وتبقى مع الأيام .

وهذا ديدن ابن الرومي حين يمدح بالصفات الظاهرة الحسية ، لابد أن يجمع بينها وبين الصفات المعنوية - الجمال الروحي -، يقول في مقام آخر[١]:

وَقَدْ حُسِّنْتَ أَخْلاقاً وخُلْقاً ... فَقَدْ أَصْبَحْتَ مِصْبَاحَ القُلُوبِ

فَيَاقَمَراً يُنيرُ بِلَاأُفُولٍ ... وَيَاشَمْساً تُضِيءُ بِلَاغُرُوبِ

فهذه معانٍ مطورقة ولكن الجديد الذي أضفاه ابن الرومي عليها أنه قيّدها فالعرب اعتادوا المديح بالقمر والشمس ولكن أن يلتفت شاعر كابن الرومي إلى صفة الاستمرارية فهذا شيء جديد ، فممدوحه كالبدر إلا أن البدر يتناقص في ابراجه ثم يأفِل وهو مستمر لايأفِل ، وهو كالشمس إلا أنه يغايرها باستمرار نوره حيث لايختفي[٢]. والتعبير الإنشائي الذي دبّج به الشاعر مدحته هذه - أسلوب النداء - أضفى لونا نفسيا يوحي بالتقارب بين الشاعر والممدوح . وابن الرومي يدرك أنه متى بلغ الإنسان ذروة الجمال لابد أن يسمو خَلْقا وخُلَقا ، فأنزل ممدوحه بهذه الصفات منزلة المصباح الذي به تستبصر القلوب الجميل من القبيح ، فالناس بمثابة القلوب وهو مصباحها فما يألفه يألفه الناس وماينفرمنه تنفر منه الناس .

والعبرة في مدحه بالقمر والشمس ليست دلالة الجمال فقط ، بل العبرة الشمول والقوة ، والاعتداد بالممدوح .

فابن الرومي يدرك أن الجمال والخير لايمكن انفصالهما ، فكأنه يؤكد هنا أن جمال الممدوح الحسي أوجب أن يشف عن جمال الخلق - المعنوي -

---

(١) ديوان ابن الرومى ، شرح وتحقيق عبد الأمير على مهنا ، ط/أولى ١٤١١هـ ، ج١ ، ص٢٣٦ .

(٢) أخذ هذا المعنى الشاعر - صفى الدين الحلى - حين قال :

كالشمس إلا أنه لايختفى ... والبدر إلا أنه لايمحق

فلابد أن يرتبط الجمال بالخير ، والخير يرىٰ شاعرنا أنه يكمن في الفضائل والأخلاق التي يتمتع بها ممدوحه .

وابن الرومي حين يمدح لاينسىٰ أن يضيف لمعانيه لونا خاصا من ثقافته وعلمه ، من تلك الألوان والعلوم علمه بالفلك والتنجيم فقد عاصر ابن الرومي حركة علمية واهتماما بالغا بالفلك حتىٰ أصبح معظم معاصريه علىٰ دراية بعلم الفلك ومن المقطوعات التي ظهرت لنا فيها معرفته بالفلك قوله يمدح ويهنىء بمولود[١]:

بدرٌ وشمسٌ ولدا كوْكبا ... أقسمتُ باللّهِ لقَدْ أنْجبَا
ثلاثَةٌ تشْرِقُ أنْوارُهَا ... لأبْدَلَتْ مِن مَشْرِقٍ مَغْرِبَا
بَدْرٌ وشَمْسٌ أبَوَا مُشْتَرٍ ... مانَازَعَتْ شَرْوَاهُ أمٌّ أبَا

بدر وشمس وكوكب - ثلاثة من النجوم السيارة تزدان بهم السماء وتتباهىٰ أمام أعين الناظرين . ابن الرومي أمعن النظر في حسنها وبهائها ، فجعل الشمس في دفئها ، والقمر في جماله وسحره ، أما وأبا تزاوجا واتحدا فأنجبا كوكبا ، لايقل عنهما بهاء وضياء ، هذه الكواكب تطل علينا وتستثير حواسنا بالتغني بنورها وإشراقها وحسنها ، أراد ابن الرومي أن يظهر ممدوحيه في أبهىٰ منظر وأجمل حلة فلم يجد لهم شبيها سوىٰ في كواكب السماء .

وهناك نص آخر قريب الشبه بهذاالنص ويؤدي نفس المعاني حيث ربط فيه بين الجمال الحسي والجمال المعنوي ، يقول[٢]:

تَلُوحُ فوقَ الجَبِينِ غُرَّتُهُ ... كأنّها المُشْتَرِي أوْ الزّهَرَهْ
ياحَسَنُ الوَجْهِ والشّمائِلِ إنْ ... ردّدَ فيه مُردِّدُ نَظَرَهْ
ياحَسَنَ الهدْيِ والخَلائِقِ إنْ ... كرّر فيه مكرِّرُ فِكَرَهْ
ماذا علىٰ من يراك في بلدٍ ... أنْ لايرى شمسه ولاقَمره؟

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٤٧،٢٤٨ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص٤٥-٤٦ .

وماعلى مَنْ يَراك فى زمنٍ أن لَايَرىٰ نَـوْره ولازَهـرهْ؟
أنْتَ السِّراجُ المنيـرُ والكـلأالـ ـمُمْرِع حَفّت رياضُه غُدَره

كعـادة ابن الرومي يستغـرقه التفصيل ، فبعد أن امتـدح وضاءة وجه ممدوحه وإشراقة جبينه ، مشبها بياض جبينه بكوكبين من النجوم السيارة ـ المشتري والـزهرة ـ عاد وربط الجمال الحسي بالجمال المعنـوي فجمال الوجه وترداد النظـر فيـه بما يعود علىٰ النفـس بالـراحة والاستقـرار مـرتبطا ـ هـذا الاستقرار ـ بالخلائق العظيمة والمكارم الحسنة ، فكأن جمال الوجه ـ المظهر ـ دليل قاطع علىٰ جمال الروح ـ المخبر ـ ثم ارتقىٰ بهـذا الجمال بحيث أصبح يغني أهل البلد عن رؤية الشمس والقمر ، فهو مصدر الإضـاءة ، وبه كذلك يغنىٰ أهل الزمان عن النَّوْر ـ الثمر ـ والزهر ، فهـو أهل لكل جميل بل هو مصدر الجمال الحسي ، والمعنوي بين أقرانه ومعاصريه .

وفي البيت الأخير يظهر لنا أثر العصر في شعر ابن الـرومي فقد كثرت في العصـر العباسي الرياض والحدائق والبرك والترع نتيجـة لازدهار العمران وتقـدم الحضارة ، ويظهر أثر الحضـارة العمرانية والتقـدم الحاصـل في عصره على شعـره في الخيال الذي يوالـف بين معانيه ، وفي الصـور التي يشتقها من مظاهر الحضارة التي تقع تحت حواسه .

يقول في معنى من المعانى التي تفرد بها حين نزّه ممدوحه عن المثال[1]:

أَصِفُ الحَبِيبَ ولاأَقولُ كأَنّـه كَلّا لقَدْ أَمْسىٰ مِن الأَفْرادِ
إنّي لأسْتَحْيِي مَحَاسِن وجْهَه ألاّ أنـزّهـه عـن الأنْـدادِ

ابن الرومي يرىٰ أن في التشبيه نقص لأنه إلحاق ناقص بكامل في صفة ما ، وهو يرىٰ أن محبوبه في الحسـن فريد فكيف يوجد لـه شبيـه؟ ثم يفصل كعـادته فيقول إن حسنه عام لكن كل عضو في وجهه حسـن جميل بمفرده . وإذا استنطـق هذه الأعضاء يرىٰ لزاما عليه أن ينزهه عـن الأمثال إذ لانظير لحسنه وجماله .

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٢٩٤ .

وقريب من هذا المعنىٰ قوله[١]:

كأنّه شمسُ إصْحاءٍ وحَاشَىٰ له ... مِـنْ أَنْ يُقـاسَ إليـه بَدرُ إعْتـامِ

هنـا يشبه ممدوحه بالشمس ولكنه يقيد هذاالتشبيـه فليس التشبيه هنا بأي شمـس بل بشمـس يوم صحـو لاغيـوم فيه ولاسحـب حيـث تكون أشد إضـاءة وإشـراقا ، ثم نفىٰ أن يقـاس إليه بدر ولو كان هـذا البـدر في ليلة معتمـة شـديدة الظلمة لأن وضـاءة ممـدوحه تفوق نور البـدر حتى في أشـد الليالي ظلمة وهذا المعنىٰ طرقه في رثاء والدته حين قال عنها[٢]:

ماكُنْتِ إلاّ كَوْكَباً كانَ بيْنَنَا ... فَبَـانَ وأمْسـىٰ بَيْـنَ أَشْكَـالِهِ نَجْـمُ

فكـأنها كوكب في غير محلـه لأنها تختلف عن غيرهـا لأنها فوق مستوىٰ البشر ، ولكن بموتها خُيِّل للشاعر أنهاوجدت مكانها الطبيعـي بين أمثالها من الكواكب والنجوم في السماء .

كثيرا ماقرن ابن الرومي بين المعاني الحسية والمعنـوية مترفعا بذلك عن التشبيهات ، ومن هذا الباب قوله[٣]:

آراؤُكم ووَجُوهُكُم وسُيُوفُكم ... فِـي الحَـادِثَاتِ إذَا دَجَوْنَ نُجُـومُ

مِنْها مَعَالِمُ لِلْهُدىٰ ومَصَابِـحُ ... تَجْلُـو الـدَّجَىٰ والأَخْرَيَاتُ رُجُومُ

يرىٰ أن آراء ممـدوحيه في السـداد والحزم وصواب الحكمـة تظهر في الحادثات ، فصـواب الـرأي وبعـد النظـر تجعـل النـاس يلتفـون حولهـم ، ووجوههـم في الوضاءة والبياض كأنها مصابيح تمزق أسـتـار الليل حتي تنجلي عنه تلك العتمة ، هذه المصابيح ـ الوجوه ـ كالنجوم التي يهتـدىٰ بها ليلا .

أما سيوفهم فهي في وقت الحرب لاتنبو عنهم وتصيـب أجساد الأعداء كرجوم النجم علىٰ الشياطين .

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص١٥ .

(٢) الديوان ، ج٦ ، ص٧٤ .

(٣) الديوان ، ج٦ ، ص١٠٤ .

هـذه الصـورة الحية جمعـت الرأي ، الوجه ، السيـف في صفـات هي المضاء والصلابة والقوة ، جعلتنا نستشعر الصورة الجميلة التي وصف بها ابن الرومي ممدوحيه ، مما يبعث في النفس راحة عظمىٰ .

وبعد هذا نستطيع القول :

إنه علىٰ الرغم من كل ماطرأ علىٰ المجتمع العباسـي من تغير ، وتطور في نمط الحيـاة اليومية ، وفي العلاقـات الاجتماعيـة ، والمادة الثقافية[1] إلا أن هنـاك مـوروثات لم يستطع الإنسـان العربي خاصة الشعـراء الخروج عنهـا أو تغييرها ، من ذلك مثلا الأغراض الشعرية المتوارثة فسـار الشعراء علىٰ خطىٰ الأولين ولكن كما هو معروف أن أي تقليد لايمكن أن يبلـغ مستوىٰ الأصل مهمـا كانت درجة إتقانه ، من هذا الباب حاول ابن الـرومي أن يخرج عن التقليـد ولكن في إطار من صنعه،بحيث يحقق من خلاله المعـاني الموروثة وفي الـوقت نفسه يضيف إليها شيئا من روح عصره وثقافتـه هو . كل ذلك نجده فى أبياته التالية حين حاول أن يرقىٰ بغزله ووصفه للمرأة إلى مرتبة لاينافسه فيها غيره ، فنظر للمرأة من خلال الطبيعة والعكس .

يقول في وصف جارية مستخدماً ألوان الطبيعة[2]:

أَجْنَتْ لَكَ الوَجْدَ أَغْصَانٌ وكُثبَانُ ... فِيهِنّ نَوعَانِ تُفَّاحٌ ورُمَّانُ
وفَوْقَ ذَيْنَكَ أَعْنَابٌ مُهَدَّلَةٌ ... سُودٌ لَهُنّ مِنَ الظَّلْمَاءِ أَلْوانُ
وتَحْتَ ذَلِكَ عُنّابٌ تَلُوحُ بِهِ ... أَطْرَافُهُنّ قُلُوبَ القَوْمِ قِنْوَانُ
غُصُونُ بَانٍ عَلَيْهَا الدَّهْرُ فاكِهَةٌ ... ومَاالفَوَاكِهَ مِمّا يَحْمِلُ البَانُ
ونَرْجِسٌ بَاتَ سَارِي الطَّلِّ يَضْرِبُه ... وأُقْحُوانٍ مُنِيرُ النَّوْرِ رَيّانُ
أَلِفْنَ مِنْ كُلِّ شَيءٍ طَيِّبٍ حَسَنٍ ... فَهُنّ فَاكِهَةٌ شَتّىٰ وَرَيْحَانُ

---

(١) د. عز الدين إسماعيل ، فى الأدب العباسى الرؤية والفـن ، دار النهضة ، بيروت ط/أولى ١٩٧٥م ، ص٣٤٢ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج٦ ، ص١٧٣،١٧٤ .

استنـد ابن الرومي كعادته إلىٰ خيـال يعرف كيف يمازج بين الألـوان ويؤلـف بينها ، اتجه للطبيعـة فاستمد منها صورا رائعـة ، ففـي هذه الصورة كأنه يصف حديقة لاامرأة ، فلـولا القرائن لما أدركنـا إذا كان يصف حديقة أو امرأة لأن عناصر الجمال عنده واحدة سواء كانت في المرأة أو الطبيعـة .

فـاللّوحة هنا "صورة كُلِّيـة تلاحمت من صور جزئيـة قوية متماسكة ، يفصـل مفاتن الجسد فلاتدري أهـي المحبوبة أم هي أوصـاف لروضة غناء ، فهـي كـالغصن قدا ، وكالكثبـان أردافا ، وكالتفاح خدودا ، والـرمان ثديا، وفوق ذينك أي فوق الثديين حلمتان كحبات العنب ، وفـوق الخدين عينان كالعنب الأسود ، وتحت هذه المفـاتن أطراف أصابع لونهـا أحمـر قان لتزينها بالحنـاء ، فهـذه الأوصاف كلهـا فتنة فوق فتنة ، موصـولة بقلـوب العشاق ، الهائمين بذلك القد الذي يحمل جنة من الفواكه وعيونا ندية كعيون النرجس وثغرا أحمر مشرقا ، عذب الرضاب ، طيب النشر كالأقحوان ، ماتركت هذه المحبوبة شيئا من جمال الرياض والحدائق إلا حوته"(١).

وابن الـرومي في هـذه الصـورة قـد استقصىٰ وتتبـع كـل جزئيـة في الصـورة مـع الترابط والتلاؤم بينهـا ومـايموج فيهـا مـن ألـوان وأصوات ، وظلال وأضـواء ، وحركة ، وتشخيـص ، في قول رائع وفهـم دقيـق لطبائع العشـاق وألوان الطبيعة وظلالهـا . فقد رسم لنا بكلمـاته لـوحة فنية أبدعها بخياله وحسه .

الفنـان يقـف أمـام الجمال ـ جمـال المرأة أو الطبيعـة ـ الـذى يحسـه ويشعـر به فيحاول أن ينقل ذلك الشعور ، باللفظ والصـورة ، لكنه يظل في حسـرة من ذلك لأن العاطفة التي يستثيرها الجمال والتي قـد نسميها نشوة أو

---

(١) د. على على صبح ، الصـورة الأدبيـة فى شعـر ابن الـرومى ، رسـالة دكتـوراه ، مخطوطة فى مجلدين اشراف د. خفاجى ، ١٣٩٣هـ ، ص٢٩١ .

بهجة تكون متداخلة ، متضاعفة[١]. وابن الرومي حين يصف أو يمتدح جمال المرأة لايخرج عن التقليد المتوارث ، اللّهم إلا بعض المقاطع التي استخدم فيها الطبيعة وهو يصور لنا جمال المرأة مما يدل على أنه قد أفاد من عصره قدرة على التشخيص ورسم الملامح النفسية بالملامح المادية الخارجية يقول[٢]:

حَوْرَاءُ فِي وَطَفٍ ، قَنْوَاءُ فِي ذَلَفٍ لَفّاءُ فِي هَيَفٍ ، عَجْزَاءُ فِي قَبَبٍ
كالشَّمْسِ ماسَفَرتْ ، والبَدْرِ ماانْتَقَبَتْ نَاهِيكَ مِنْ مُسْفِرٍ حُسناً ومُنْتَقِبِ

فهذه أوصاف مألوفة في الشعر العربي شأنها في ذلك شأن تشبيه الوجه بالشمس والقمر ، وابن الرومي جمع هنا صفات الحسن التي تغزل بها شعراء العربية . فهو يرى أنها قد جمعت محاسن الوجه والشعر والجسد وهي في حسنها كالشمس والبدر فيما يبدو منها سافرا أو منتقبا ، قد جمعت الحسن بأقطاره. وقد أسرف العقاد حين رأى أن ابن الرومي متأثر هنا بالجمال الاغريقي[٣] يستحضره ويمدح به . إذ أن هذه صفات المرأة العربية حيث لايخلو ديوان شاعر جاهلي من هذه الأوصاف في الغزل والوصف الحسي .

ونتيجة للتوسع في الفتح الإسلامي ودخول أجناس مختلفة في الدين الإسلامي أصبح المجتمع في العصر العباسي خليطا من هنود وفرس وروم وعرب ، وبالتالي كثرت الجواري والمغنيات وكن كذلك خليطا من آثار الحضارات الكبيرة التي سادت في هذاالعصر ، كان من بينهن الجميلات والمثقفات مما استرعى اهتمام الأدباء والشعراء بالإضافة لما حظين به من عناية واهتمام علية القوم . وابن الرومي كفنان يستهويه الجمال في كل شيء ، حاول الربط بين جمال المرأة وجمال الطبيعة حيث رأى أن في كل منهما نموذجا للجمال الحسي

---

(١) إيليا الحاوى ، فى النقد والأدب ، الجزء الثالث ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ط/أولى ١٩٨٠م ، ص١٨٥ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج١ ، ص١٩٠ .

(٣) ابن الرومى حياته من شعره ، ط/سابعة ١٩٦٨٩م ، دار الكتاب ، بيروت ، ص٢٩٧ .

الصورة السابقة تقودنا إلى صورة لاحقة اتضح لنـا من خلالها أن ابن الـرومى كـان يؤمن بالجمال ، ويتعشقـه ، فقد جعله مصـدرا لغـزله وحبه ، يقول[١]:

غـادة زانـهـا مـن الغصـن قـد ... ومن الظبى مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخـد ... ين ذاك السـواد والتوريد
أوقد الحسـن ناره فـى وحيـد ... فوق خد ماشانـه تخديـد

سار ابن الرومى على نهج الأوائل فى وصف المرأة فقـد استعار لها من الطبيعـة مشبهـات . فالقد كـالغصن ، والمقلة والجيد استعـارهما مـن الظبى ، وهـذه معـان طـرقت مـن قبل وتعـاورها الشعـراء فى غـزلهم ، ولكـن هـذه المحبـوبة تزهو بلونين واضحين همـا اللون الأسود فى الشعـر دليل الأنوثة ، واللـون الـوردى فى الخدود دليـل الشبـاب والحيـوية . ومـن مبـالغات ابن الـرومى قـوله : "أوقد الحسـن ناره" ليدل على شدة وهـج الشبـاب فى خدها حتى لكـأن الحسن والجمال نار مشتعلـة فى خد لم يغيره كثرة البكـاء لتنعمهـا وجمـالها فى هـذه الألفـاظ ، وهـذه الصـور يصف الجمـال بنعـوت متـوارثة وأفكـار تقليـدية يحرك بها حاسـة البصر فى الصفات الجسـدية ولكنـه يفصل ويشخص فى قوله[٢]:

وغرير بحسنها قال : صفهـا ... قلـت : أمـران ، هيـن وشـديد
يسهل القول:إنها أحسن الأشـ ... ـياء طـرا ، ويعسـر التحديـد
شمس دجن،كلا المنيرين من شمـ ... ـس وبدر مـن نورهـا يستفيـد[٣]
ظبية تسكن القلـوب وترعـا ... هـا وقـمـريـة لهـا تغـريـد[٤]

أجمـل ثم فصل . فقال : إنهـا بشكل عام جمعـت الحسـن كله ولكن وصفها سهل وعسير . فسهل القول : إنها أحسن الموجودات ، ولكن يصعب تفصيـل هذا الحسن ، لأنه لاحد لجمـالها . فكلما أعاد النظـر فيه تجلى له عن

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٢٦٦ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٢٦٦ .
(٣) الدجن : الغيم المطبق المظلم .
(٤) الظبية : الغزالة ، القمرية : نوع من الحمام حسن الصوت .

مفاتن جديدة فوجهها كالشمس بل يفيض نوره على الشمس والبدر جمع بين ألَق الوجه واشعاعه ، وبين دجنة الشعر وحلكته بتشبيه واحد . فهذه المحبوبة كالظبية في الحسن ولكن مقرها في القلوب - لاالبراري - وهي كالحمامة التي تغني عذب الألحان ، ولم يقف ابن الرومي عند هذه المعاني ، فبعد أن حرّك حاسة البصر في وصف الجسد انتقل إلى حاسة السمع فحركها حين وصف الصوت .

وكأنه يربط بين جميع الحواس من خلال عمل واحد يثير كل الحواس ويرهفها ، يقول في وصف صوت المغنية وحيد[1]:

تَتغنّىٰ ، كأنّها لاتُغنّي ... من سكونِ الأوْصَالِ ، وهي تَجِيدُ
لاتَراها هُناك تَجْحَظُ عَيْنٌ ... لكَ مِنْها ، وَلَايَدُرُّ وَرِيدُ
مِنْ هُدُوٍّ وليسَ فيه انقِطاعٌ ... وسُجُوٌّ ومابِه تَبْلِيدُ
مدّ في شَأْوِ صَوْتِها نَفَسٌ كَافٍ ... كَأَنْفاسِ عَاشِقيها مَدِيدُ
وأرَقّ الدّلالَ والغُنْجَ مِنه ... وبَراهُ الشّجا فَكادَ يَبِيدُ
فَتَراهُ يَمُوتُ طَوْراً ويَحْيَا ... مُسْتَلِذّاً بَسِيطُهُ والنّشِيدُ
فِيه وَشْيٌ،وفيه حَلْيٌ من ... النّغْمِ مَصُوغٌ يَخْتَالُ فِيه القَصِيدُ

هذه المغنية يتسم غناؤها بالتلقائية والحسن وعندما عرض ابن الرومي لوصف هذا الصوت وهذا الغناء "فكأنه قد بلغ في تحسس الصوت مرتبة الموسيقيين الذين يتمثلون للأنغام ألوانا وزخارف وأوشية ، تكاد تنطبع في صفحة الخيال ، أو تكاد تدركها العين لشدة بروزها في قرارة الوجدان فهو هنا يصل بين الرؤية والسماع ، ويترجم بين الحاستين ، فينقل إلى لغة العيون ماتضمنته لغة الآذان"[2].

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٢٦٦-٢٦٧ . م : مدوّر

(٢) العقاد ، ابن الرومى حياته من شعره ص٢٩٠ .

فقد وصف الصوت أولا بدقة ، فلم يترك نبرة منه إلا وذكرها ، وأثبت كل تفاصيل هذا الصوت ، وتتبعه حتىٰ أتىٰ علىٰ كل النغمات التي ترددت فيه وزاد علىٰ ذلك صلة السامعين به ، ولم يجعله صوتا أجرد بل جعله حُلىً موشىٰ حتىٰ باتت تختال فيه أبيات القصيدة .

في هذه الصورة كل لفظة في مكانها بحيث لاتُغني لفظة عن أخرىٰ ، انظر لقوله : "فتراه يموت طورا ويحيا" فهذه المغنية تستشعر كل حواسها في غنائها بحيث يعلو ويقوىٰ في موضع القوة ، ويرق في موضع الدلال والحب فهذه الأوصاف تنطبق علىٰ من يجيد فنه ولايجد ابن الرومي أوصافا تنطبق علىٰ ذلك الصوت سوىٰ ماجادت به قريحته في هذه الصورة . فقد أعطى شاعرنا اللقطة التصويرية حقها ، وأضاف إليها مايتصل بها من ألوان وتنميق .

وله في هذا المجال تصوير رائع حتىٰ يقال : إنّ شاعرنا استطاع أحيانا أن يرىٰ بأذنيه ، ويسمع بعينيه ، بل قد يتوصل إلىٰ مايشبه تبادل الحواس إذ يمزج مابين الشم والسمع واللمس والبصر ، وحتى الذوق ، يقول فى وصف صوت إحدىٰ الجواري المغنيات[1]:

ذَاتَ صَوْتٍ تَهُزُّه كيْفَ شَاءَتْ ... مِثْلَمَا هَزَّتْ الصَّبَا غُصْنَ بَانِ
يَتَثَنَّىٰ فَيَنْفُضُ الطَّلَّ عَنْه ... فِي تَثْنِيه مِثْل حَبِّ الجُمَانِ
ذَلِكَ الصَّوتُ فِي المَسَامِعِ يَحْكِي ... ذَلِك الغُصْنُ فِي العُيونِ الرَّوانِي

غصن بان ـ يتثنى ـ حب الجمان ـ كل هذه الألفاظ تقطر بصفاء ذوقه وتذوب رقة في أشتات من مفردات اللغة ، نبعت من إحساسه في خيال جميل يحكي سحر النغم وعذوبة اللفظ ، ورقة الكلم وشفافية الصياغة ، والموسيقىٰ الخفية ، لاتبوح بروعتها إلا لحس يزداد طربا ، من كتمانها وخفائها ، وأخرىٰ خارجية تتجاوب معها الأعضاء في نشوة وطرب .

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص٢٤٤ .

هـذا الموقف أثار خيال شاعرنا فذهب كعادته إلىٰ الطبيعـة ليشكل منها صورة حية لهذا الصوت . فتذكر تمتع ناظريه بمنظر غصـن البان الرطب اللين حين تهـزه الريح الرخاء ـ الصبا ـ فيتثنىٰ نافضا عنه حبـات الندىٰ التي تشبه حب الجمـان . هذا الجمال المرئي جنـح بخيال شاعرنا ليصـور جمالا معادلا له وهو الأثر الذي يقع في النفس عند سماع هذا الصوت ، فقـد أسعفه الخيال في تصـوير ذاك الأثر ، حين رأى أن صوتها لامثيل لـه إلا غصن البان بكل مافيه . وهو بذلك يشبه المعنـوي بالمحسوس ليترجم مـاتدفق في نفسـه ونفس السامعين من غير السعادة بعد سماع هذا الصوت وذاك الغناء .

من هنا نستطيع القول : أن الطبيعة قد أرهفت حس شاعرنا ، وعمقت وجدانه ، فكـان خصيب الخيال ، رحب الأفق ، مستوفيـا أركانها ، مستقصيا أجزاءهـا ، فأودعت في تصويره الأدبي سحر الكلم ، وروعـة النسق ، وجلال الإيقـاع ، والنغم ، لوحة رائعة تلاقت فيها خطوطها الفنيـة في حركة ولون وصوت وطعم ورائحة[1].

فى نص تابع للسـابق يستطـرد ابن الرومى إلى تمييز الأنغـام فيقـول[2]:

جَهْوَرِيٌّ بلاجَفاء علىٰ السمْع ... مَشُـوبٌ بـغُـنّـة الغِـزْلانِ *
فيه بَمٌ وفيـه زيـرٌ مـن النّغـم ... وفيـه مَثَـالِـثٌ ومَثـاني *
فتَراه يَجِلُّ في السمْـع حِينًـا ... وتَراهُ يَدِقّ فـي الأَحْيـانِ
رَخَّمَتْـهُ ورقّقتْـه وضَـاهـىٰ ... فِعلهـا الأحْمـرانِ ، والأسْمـرانِ
فَهو يَحكي تَرقْرُقَ النّهْيِ فـي ... الـرِّيحِ لعَيْنَـيْ ذِي غُلَّـة صَدْيـانِ *
يَلِجَ السَّمع مُسْتمرًا إلىٰ القَلْب ... بِـلا آذِنٍ ولا اسْتِئْـذانِ *

---

(١) أ.صفيـة السـودانى ، الـوصف فى شعـر ابن الـرومى ، رسـالة مـاجستير فى الأدب العربى ، ١٤٠٩هـ ، ص١٠٥ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج٦ ، ص٢٤٤ .

* الأبيات مدوّرة .

استطرد ابن الرومي في وصف صوت إحدى الجواري مستحسنا إياه فهو واضح بعيد عن الشذوذ ، تألفه الأذن العربية ، حين تسمعه ، متجملا بغنة تزيد هذا الصوت جمالا ورخامة ، فطبقاته تجعله صالحا لكل النغمات الموسيقية ، فمرة يرق وأخرى يعلو بلحن رائع صادر من مقاطعها الصوتية السليمة وكأنه جدول رقراق ينساب في دعة وهدوء .

وابن الرومي يدرك أن تشبيه أثرٍ بأثر يُرسخ الإحساس بالجمال ، فأثر هذا الصوت الجميل في النفس لاشبيه له سوى أثر منظر ماء النهر الذي تحركه الريح في عيني الظمآن . وهذا له وقع خاص في النفس لأن حاجة الظمآن للماء تفوق حاجة أي إنسان آخر وبقدر الحاجة يكون الأثر .

هذا الصوت الدافىء يصل إلى القلب بدون واسطة ، لما فيه من نشوة وترنيم ، وابن الرومي في وصفه هذا كان دقيقا مما دل على حسه المرهف القادر على تمييز الأنغام والأصوات الجميلة عن غيرها .

فابن الرومي في هذه الصورة وغيرها يلحظ الصلات بين الأشياء بدقة ويجمع بين الأشتات في يقظة وحذر ، تستقبل حواسه الألوان المختلفة في الطبيعة فتمتزج في معامل حاسته الفنية ، فتبرز لوحة فنية منسجمة الألوان ، تفيض عن قوة وبراعة بأضوائها وظلالها وإيماءاتها"[١].

هناك مواضع في شعر ابن الرومي تدل على أن إحساس الجمال لديه إحساس عادل . فالتنوع في الوصف يرسخ هذا الإحساس ، وابن الرومي نوّع في وصفه فكما امتدح الصوت الحسن في الغناء أدرك أن الصوت الحسن نعمة من الله وقيمة عُليا يجب ترسيخها في نفس المتلقي ليحس بالجمال ، وبالتالي تسمو نفسه لكل جميل . يقول في وصف صوت قارىء للقرآن يمتدح حسن صوته وامتداد نفسه وأثره فى نفس السامع[٢]:

---

(١) الوصف فى شعر ابن الرومى ص١٠٧ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج٣ ص ٢١٣ - ٢١٤

صوتٌ نَدِيٌّ،وأَنفَاسٌ مُساعِدةٌ كـأَنّما نفَـسٌ مِنْهُـنّ أَنْفَـاسُ
يَظلُّ سَامِعَه لُدْنـاً مَفَـاصِلُـه كَأَنّما فَتَّرتْ أَوْصَالَهُ الكَـاسُ

هذا الحسن يرجع إلى طراوة الصوت ونداوته ، فلم يختلط به حشرجة ولاغصة ، بل صوته ينساب كانسياب الندى الذي يتساقط في خفاء وقد أذيب في نسيم الصباح ، فصوته أشبه بنسيم الصباح الذي تفجر من الرياض روحا أو ريحانا ، ليدب سلسا في الأسماع ، وأنفاس هذا القارىء الرطبة الممتدة هي التي تمد نداوة هذا الصوت ، بل النفس الواحد يشتمل على عدة أنفاس عند غيره من عامة الناس ، وهذا التركيب يوحي بأن المقرىء أندى نَغَماً ، وأطول نفسا ، ثم يوحي ابن الرومي من وراء ستار إلى سحر أسلوبه وأثره في النفس(١).

فالسامع للقراءة لايغيب عن نفسه بل تتيقظ جوارحه ليتدبر القرآن ولكن ابن الرومي يربط بين لذة السماع وتلك اللذة التي يجدها من يشرب كأسا لذلك يكون المقرىء في جمال صوته أمة وحده ، ورث الصوت عن أمم سلفت ، لأنه قد التقت في صوته كل المحاسن التي تفرقت في غيره ، مما يوحي أيضا بأنه واسع الاطلاع عميق الثقافة له جولاته العلمية . فاستحسان القراءة والتغني بالقرآن الكريم أمر مندوب إليه فقد استحسن عليه الصلاة والسلام قراءة ابن مسعود وحث على التغني بالقرآن .

---

(١) الصورة الأدبية فى شعر ابن الرومى ، على على صبح ، ص٤٩٦ بتصرف .

ثانيًا : الصِّفات الخُلُقيّة في مدائحه :

كل شيء في حياة العرب الأوائل متأثر بالصحراء ، نظام معيشتهم ، وطريقة تفكيرهم ، ونوع شعورهم ، وماعتادوا من كريم العادات ، وذميم الخصال ... فالصحراء هي التي جعلت العربي شجاعا متفانيا في الشجاعة ، فخورا إلى أبعد الغايات ، زاهياً بنفسه حتى الإغراق ، معجبا بقومه كل الإعجاب ، وهي التي جعلته سمح النفس ، نديّ الكف ، يجود بأنفس مالديه في الوقت العصيب ...(١).

لكن العربي لصفاء ذهنه ، وبعد نظره استطاع أن يُشرِّع لنفسه آدابا ومثلا يعتز بها ويحمي بها حياته ، فجعل من تلك الآداب والأخلاق سياجا تمنعه من العدوان . وأكبر كل من اتصف بتلك الأخلاق وامتدحه ، وذم من خرج عنها وعاداه ، وتغنى الشعراء بتلك الأخلاق وبيّنوا أن خلق العرب العز ، والشرف ، والمكارم ، يقرون الضيف ، ويجيرون الخائف ، ويوفون بالوعد .

فمكارم الأخلاق أصيلة يطبقها العربي بوازع داخلي .. فهمّتهم دائما تتوق للوصول إلى المُثل العليا . وعندما جاء الإسلام عرض لأخلاق العرب وتقاليدهم المتوارثة ، فأقرّ منها طائفة وشجع على كريم الأخلاق ، قال عليه الصلاة والسلام : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" .

وقد هذب الإسلام النظريات الأخلاقية، فاستمرت تلك القيم عبر العصور ، وتوارثهاالعرب ، وأصبح التمسك بمكارم الأخلاق مطلبا يلحون عليه في تنشئة الفرد ، فالكرم والشجاعة والعفة والنجدة متأصلة في نفوس العرب ، وقد حدد الشاعر العربي جملة صفات يمتدح بها من يرى أنه الإنسان المثالي ، وعدها من مكارم الأخلاق .

---

(١) طه أحمد إبراهيم ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص١٥ بتصرف .

فالرجل الذي يتمتع بفضائل الاخلاق من شجاعة وكرم وحسن جوار ولين جانب وأمانة وحزم بالإضافة للحكمة والدين يكون أهلا لكل مدح وثناء ، وقد امتدح شعراء العصر العباسى كغيرهم من الشعراء العرب بقيم وأخلاق حث عليها الإسلام بل وتعارف عليها العرف العالمي على أنها من مكارم الأخلاق ، ومن القيم الخلقية السامية(١).

أدرك ابن الرومي أن "الكثير من تلك القيم يعتبر من أهم الأسس القوية لبناء المجتمع السليم ، إذ لابد للمجتمع الفاضل أن يؤمن أهله بالصدق والوفاء ، ولابد أن يقدس أبناؤه الأمانة وحسن الجوار ، حتى يتآلف أفراد المجتمع ، لابد من وجود الأنفس الأبية الشجاعة التي تعتمد على الجد والعمل في تحقيق الأمل ، ولابد من الترابط الاجتماعي وتقوية العلاقات بين ذوي الرحم"(٢).

تلك بعض القيم الأخلاقية التي امتدح بها ابن الرومي كغيره من الشعراء وهي إن كانت معاني متوارثة معروفة ، إلا أن لشاعرنا بعض اللمحات الشخصية التي يضفيها على معانيه - إضافة إلى أنه يمدح بصفات وخلال أغفلها غيره - فابن الرومي في معظم مدائحه يرمي إلى إحياء بعض القيم والأخلاق التي يرى أنها اندثرت في عصره وأهملت فيبعثها ترغيبا فيها.

إضافة إلى أنه قد تنبه إلى تفشي بعض العادات والصفات الرديئة في عصره فنظر للجانب الآخر منها وحاول أن يظهر هذه الصفات بمظهر يدعو إلى الترفع عنها حين مدح بنفي هذه الرذائل عن ممدوحيه ، في محاولة منه للسمو بالإنسان والمجتمع إلى الصلاح والخير .

وابن الرومي حينما يتأثر بالمجتمع يفكر في الواقع الذي يعيشه ، ويمتزج بفكره وعاطفته ، فيستخلص من ذلك فكرة واتجاها خاصا يهدم به المجتمع أو يبنيه ، أو يستنبط قيمة إنسانية يسمو بها الواقع ويرتفع،وأحيانا

---

(١) زهدى خواجا ، الجانب الخلقى فى الشعر الجاهلى ، ط/أولى ١٤٠٤هـ ، ص٣٠١ بتصرف .

(٢) المرجع السابق ، ص٣٠٣ .

تنصهر هذه القيمة التي وصل إليها واستخلصها في نفسه مرة ومرة فيندفع المجتمع والإنسانية بها قُدما نحو الغاية المنشودة ، وقد اتخذت لها شكلا مبتكرا قويا وحيويا(١).

في عرضي التالي للنصوص سأبدأ أولاً بالنصوص التي أجمل فيها ابن الرومي معظم الفضائل والخلال ، ثم أحاول أن أعرض النصوص الأخرى التى تحدث فيها عن بعض القيم مفردة ـ وبالله التوفيق ـ

المروءة ، والنجابة ، والصباحة ، والكرم ، والشجاعة من الخلال التي أدار عليها جمهرة شعراء العربية أوصافهم ، وابن الرومي من أولئك الشعراء الذين مدحوا بهذه الخلال إلا أنه يختلف عن غيره في الأسلوب والقيمة الفنية يقول(٢):

أَخَا نِعَمٍ تَتِمُّ بِلا فَنَاءٍ ... إِذَا كَانَ التَّمَامُ أَخَا الفَنَاءِ
شَهِدْتُ لَقَدْ لَهَوْتَ وأَنتَ عَفٌّ ... مَصُونَ الدِّينِ ، مَبْذُولُ العَطَاءِ
تَغَنَّتْكَ القِيَانُ فَمَا تَغَنَّت ... سِوَى مَحْمُولِ مَدْحِكَ مِنْ غِنَاءِ
كَمُلتَ فَلَسْتُ أَسْأَلُ فِيكَ شَيئاً ... يَزِيدُكَه المَلِيكُ سِوىٰ البَقَاءِ

هَذا الممدوح ذو كرم وجود ونعم لاانتهاء لها ، هو إن سمح لنفسه باللهو في وقت الأعياد إلا أنه حريص علىٰ دينه ممتنع عما لايحل ، مترفع عما لايجمل به .

وقد جعل ابن الرومي من صفات ممدوحه هذه بمثابة المثل الأعلىٰ لكل الممدوحين ، إذاوصف بها شاعر إنسانا آخر ، أو تغنت بمثلها قينة فكأنما تتغنىٰ بصفات هذا الممدوح ، فهو مثل أعلىٰ قد كملت فيه الخلال والصفات الكريمة ، حتى لم يعد ينتقصه سوىٰ طول العمر والبقاء أو الخلود .

---

(١) الصورة الأدبية فى شعر ابن الرومى ص٢٠ بتصرف .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٣٠ .

وقد أجمل لنا الشاعر هنا بعض مظاهر العصر العباسي ، من احتفالات بالأعياد الفارسية ، وكذلك كثرة الجواري والقيان وبالتالي شيوع الغناء .

قريب من هذا المعنى قوله[١]:

بَكَتْ شَجْوَها الدُّنيا ، فَلّما تبيَّنتْ مَكَانَكَ مِنْها اسْتَبْشَرَتْ وتَغَنَّتْ
لِتَسْتَمْتِعَ الدُّنيا بِوَجْهِكَ دَهْرَها فَقَدْ طَالَما اشْتاقَتْ إِلَيْك وَحَنّتِ

هذا الممدوح اتصف بصفات عظيمة ، تفرح لها النفس وتتهلل ، حتى أن الدنيا - العصر العباسي - كانت تندب حظها لقلة العظماء والأبطال ، ولكنها عادت للبشر والغناء عندما أدركت وجودك بها ، لذا حُقّ لها أن تقلع عن الحزن والبكاء فوجهك من أكبر متع الحياة ، والاستمتاع به بعد الشوق والحنين متعة، نظراً لما شاع في العصر العباسي من لهو وغناء حتى أصبح التعبير عن أي فضيلة يكون بالغناء ، وهذا يعود لشيوع الترف وغلبته في ذلك العصر .

من النصوص الأخرى التي أجمل فيها ابن الرومي معظم الصفات والفضائل الخُلُقية قوله[٢]:

أمْوَالُه في رِقَابِ النّاسِ مِنْ مِنَنٍ لَافِي الخَزَائِنِ مِنْ عَيْنٍ وَمِنْ نَشَبِ[٣]
ذَاكَ الذي بايَنَ الأسْواءَ وانتسبَتْ إليه بيضُ الأيادي كلَّ منتَسبِ
أحْمى فَأرْعَى وآوى مَنْ يُطيفُ به في حيثُ يأمن من خوفٍ ومن سَغَبِ
فَضَيفُهُ في ربيعٍ طَولَ مدَّتِه وجَارُه كُلّ حِينٍ مِنه في رَجَبِ
كالبَحرِ مُنفجِرًا مِن كلِّ منفجرٍ والغيثِ منسكِبًا مِن كُلّ منسكَبِ
جاء السَّوادان يمتاران فاحتقبا من عِلمِه ونداهُ خيرَ محتقَبِ
مُسدَّدٌ في جواباتٍ يُجيبُ بها كأنّها أبداً مأخوذةٌ الأُهَبِ
فِيها حلاوةُ ظَرْفٍ غير مُنْتَحَلٍ إلى فَخامة علمٍ غير مُؤتَشبِ[٤]

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٤٦١ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص١٩٣-١٩٧ .
(٣) عين : الدنانير والذهب . ، نشب : مال
(٤) مؤتشب : مختلط .

تُعضِّلُ الأرضُ ضيقاً عن جَلالته ... ويسلُكُ الخُرْتَ عفواً لُطفَ مُنسربِ (١)
ساهٍ وماتُتَّقى في الرّأيِ سَقْطَتُه ... داهٍ ومَـايُنْطَـوىٰ منـه علـى رِيبِ
فَدَهْيُه للدّواهي الرُّبْدِ يَدْمَغُهـا ... وَسَهْـوهُ عن عُيوب النّاس والغِيَـبِ
لَولاَ عَجائِبُ لطفِ اللّهِ مانَبَتَـتْ ... تِلكَ الفَضَائِلُ فِـي لحْمٍ وفـي عَصَبِ
تُعطي وَوَجْهَكَ مَبْسُوطٌ يُصانِعُنا ... كَـأَنّ كَفَّـك لَم تُفْضِـل ولـم تَهَـبِ
يامَـن إِذَا ماسَأَلْنَـاه استهَلّ لنَـا ... وإنْ سَكَتْنَـا تَجَنّـى عِلّـة الطَلَـبِ

ممدوحه كثير العطاء والبذل ، أمواله ليست في الخزائن فهو غير حريص على خزن الأموال لأنه يعلم أن المال وجد لينفق لاليدخر ، يبذلها للسائلين لأنه كريم وافر العطاء ، مترفع عن السوء ، مهيب الجانب ، دياره مأوىٰ لكل من يقصده ، بها يأمن الخائف لعظم سلطانه ، ويشبع الجائع ، لكثرة عطائه ، يقول : "ضيفه في ربيع" كنى بالربيع عن الخيرات والمسرات وكنى برجب في قوله : "وجاره كل حين منه في رجب" عن الإجلال والإعظام ، فكما هو معروف أن رجب من الأشهر الحرم التي تعظمها العرب وهذا الممدوح في الكرم والبذل كالبحر والمطر تعطي في كل وقت ، علمه ونداه مقترنان ، وهما في كل وقت مسموح بها للكل ، مصيب في قوله ، لأن علمه مفيد لاتشوبه شائبة، مع كل هذا لم يعدم صفة دهره ـ الذكاء والحذق ـ لأنها صفة سائدة في عصر ابن الرومي .

وشاعرنا يدرك أن الحزم في الأمور من صفات العرب ، إذ التردد مرض نفسي يدل على عدم استقرار في تفكير الإنسان ، والحزم أصل الشجاعة ، والشخص الذي يستعين بالحيلة في مواطن الخطر شخص حازم ، فممدوحه إنسان حازم ، تضيق الأرض عنه لجلالة شأنه وعظم مكانته ، فهو مطمئن فيما يصدر عنه من رأي وحكمة .

هذا وقد أدرك ابن الرومي بعض الصفات الذميمة والأخلاق الرذيلة في مجتمعه تتنافىٰ مع تعاليم الدين الإسلامي ، فنفاها عن ممدوحه ومدحه بضدها ، وهو يتمنى زوالها من المجتمع من تلك الرذائل الغيبة والنميمة

---

(١) تعضّل : تضيق . ، الخرت : الثقب .

والذكر السيء ، وهو في ذلك متأثر بقول رسول الهدىٰ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم : *

"لاتباغضوا ولاتحاسدوا ولاتناجشوا ولاتدابروا . ولايغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله إخوانا" . أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

فهذا الممدوح لايستخدم دهاءه إلا في الأمور التي تستدعي الدهاء - مع الأعداء - وغير ذلك فهو ساهٍ عن عيوب الناس لايذكر عيب أحد ولايسيء لأحد في غيابه ، وصفات هذا الممدوح عظيمة كأفضاله حتى استنكر ابن الرومي أن تجتمع تلك الفضائل في بشر لولا عجائب قدرة الله .

وقد تعارف العرب على الكرم كقيمة وفضيلة خُلُقية محمودة ، ولكن غاية الكرم عند ابن الرومي أن هذا الممدوح يعطي العطية وهو مبسوط الوجه ضاحك الثغر يعطي بسخاء غير عابس ولامتذمر من هذا العطاء ، ومن كثرة السؤّال إذ لايكدر صفوه سوىٰ غياب طالبي رفده ، فهو متعود العطاء والبذل وإذا صادف ولم يسأله أحد أخذ في استنباط العلل حتى يعطي .

فكأنه يستدعي السؤّال للطلب ، وكأنه لاتفرح نفسه وتتهلل إلا إذاكثر سائلوه وبالتالي عمت فضائله وكثر عطاؤه ، وهذا قمة الكرم .

في قوله : "داهٍ ومايُنطوىٰ هنه على ريب" .

تلميح لصفة عمت في العصر العباسي وهي الدهاء والمكر وقد تكرر هذا المعنى في غير ماموضع ، يؤكد هذه الصفة ابن الرومي وكأنه يفتقدها أو يشير لذلك في قوله[1]:

لَهُمْ حِلْمُ إِنْسٍ فِي عَرَامَةِ جِنَّةٍ وَبَأْسُ أُسُودٍ فِي دَهَاءِ ثَعَالِب

فبالرغم أن الصفة الممدوح بها هي صفة الحلم أو هكذا نتبين من الصورة ولكن في حقيقة الأمر أن مايريد ابن الرومي توضيحه هو تفشي صفة الدهاء والمكر في أوساط المجتمع العباسي .

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٢٧ .

* انظر كتب الصحاح .

يقول في نص آخر جمع فيه لممدوحه بعض الفضائل وعلى رأسها الكرم[١]:

لَكَ الرَّأيُ والجُودُ اللّذانِ كِلاهُمَا ... زَعِيمٌ بِكَشْفِ المُطْبِقَاتِ الكَوَارِبِ
ومَازِلْتَ ذَا ضَوْءٍ وَنَوْءٍ لِمُجْدِبٍ ... وحَيْرانَ حتّى قِيلَ بَعْضُ الكَوَاكِبِ
تُغِيثُ وتَهدِي عِنْد جَدْبٍ وحَيْرةٍ ... بِمُحْتَفَلٍ ثَرٍ وأَزْهَرَ ثَاقِبِ

جمع ممدوح شاعرنا بين حسن الرأي وصوابه وبين الجود والكرم وكل منهما يكشف كربه ، فالرأي السديد يفيد في التوجيه الحسن والنصح السليم ، وكذلك العطاء والجود يفيد في دفع المضرة وإزاحة الحاجة والفاقة ، وبذلك أصبح هذا الممدوح قريب شبه بالكواكب التي يهتدي بها الحيران في تلمس الطريق وبالتالي النجاة من الضلال والهلاك .

وكذلك النوء الذي يبشر بهطول الغيث وبالتالي يكون فيه حياة للأرض والحيوان والإنسان ويكون فيه نجاة لكل الأحياء من الهلاك جوعا وقحطا .

أبدع ابن الرومي صورته المستمدة من الكواكب ، والضوء ، الرأي ، والجود وغيرها من الألفاظ التي توحي بالإيقاع الموسيقي المتحرك . ففي البيت الأخير أدّت كل لفظة معناها تغيث - جدب - تهدي - حيرة . فالجدب لفظ يدل على الحاجة والقحط أتى له بلفظ مناسب وهو تغيث ، والحيرة لفظ يدل على الضلال وفقدان الأثر أتى له بلفظ تهدي ، ومن ثم جعل لكل لفظ مقابل له حين جعل النتيجة الحتمية لكل هذه الفعال هي الهداية ، والغوث وهذان الفعلان يحصلان بفعلين من أفعال الممدوح وهما - بمحتفل ثر - أى عطاء واسع لايقتصر على ناس دون غيرهم - أزهر ثاقب - أي رأي سديد ثاقب صادر عن بصيرة وحكمة واعية .

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٢٩ .

ومن مبالغات ابن الرومى فى المديح قوله[١]:

النـاسُ أَدْهَـمُ أَنْـتَ فِيـهِ غُـرَّةٌ ... جُعِـلَ الأَفَـاضِـلُ تَحْتَهَـا تَحْجِيلا
لَو كُنتَ فِي عَصْرِ النَّبِي مُحَمَّدٍ ... أَوحَىٰ الإِلَـٰه بِمَـدْحِك التَّنْـزِيلا
فُـتَّ العَدِيـلَ فَمَـا يُقَـالُ كَـأَنَّـه ... مَنْ ذَا رَأَىٰ لَكَ فِـي الأَنَامِ عَـدِيلا؟

فهذا الممدوح لكرمه وجوده في الناس كالبياض الذي في جبهة الأدهم لو وجد هذا الممدوح في عصر النبوة لنزل في فضله قرآن ـ مبالغة ـ لاشبيه له في الفضل والجود . لذا لايقال في مدحه كأنه لعدم وجود شبيه له .

يقول في مقام آخر مصورا ممدوحه في أعظم صورة وأعلىٰ مكانة[٢]:

اَلْمَوْتُ مِن جَدِّه فإن لَعِبَتْ ... كَفَّاهُ فالجُودُ باللّهىٰ لَعِبُه
لاَتَطَأْ الأُسْدُ ماحَمَاهُ ولاَ ... تَلْقَاهُ إلاّ مُوَطَّأً عَقِبُه
مِصْبَاحُ نُورٍ يُرىٰ الخَفِيُّ بِه ... جَهْراً، ولَولاَهُ طَالَ مُحْتَجَبُه
يُصاوِلُ القِرْن أَوْ يُخَاتِلُه ... جَلْداً أَرِيباً بَعِيدَةً سُرَبُه
كاللّيْثِ فِي بَأسِه ، وآوِنَةً ... مِثْل الشُّجَاعِ الخَفِيِّ مُنْسَرَبُه
يَشْهَدُ مَاخَصَّكَ الإِلَهُ بِـه ... أَنَّك مُخْتَارُهُ ومُنْتَخَبُه
ضَنَّ بِكَ الدَّهْرُ عَنْ حَوادِثِهِ ... فَأَنْتَ مَأْمُولُه ومُرْتَقَبُه

بلغ ممدوح شاعرنا القمة في البطش والجود فهو في مقام الشجاعة فاتك يبطش بالعصاة دون رأفة ولارحمة ، وفي مقام الجود والكرم جواد كريم لايلحق به أحد ، فهو قاس في وقت الشدة ، ولين في وقت اللين واللطف ، وكأنه يعمل بالقول "لكل مقام مقال" يعطي كل موقف حقه وقدره .

وهذا الممدوح في إرشاده وبيانه للخير كأنه مصباح نور يستدل به علىٰ الأشياء . لهذا الممدوح في لقاء خصمه طرق ومذاهب ، فهو في الشجاعة والبسالة كالأسد ، وفي الفطنة والمكر كالحية ، فضائله ومحامده تشهد بأنه تم

---

(١) الديوان ، ج٥ ، ص١٥٨ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٣٥٦-٣٦٠ .

اختيـاره وانتخابه للملك مـن قبل الإله . وهو في مـأمن مـن حوادث الدهر لعظم مكارمه .

جمـال هذه الصورة يكمن في تنـاسب العلاقة بين أجزائهـا ، فـالشاعر يصـور بخياله الخصب شجاعة الممـدوح وكرمه بالإضافـة لبعض الصفات التي اشتهرت في عصره من علم ودهاء . انظر لصورته التاليـة يتضح منها كل هذه الصفات حين يقول[1]:

أَنتَ كَهلٌ الكَهول يومَ تَرىٰ الرَّأْ ... يَ ويومَ الـوَغـىٰ مِـن الفِتْيـانِ
لَك جَهْلٌ في غَيْر ماخُفْيَةِ الجَهْـ ... ـلِ وحِلْمٍ فـي غيـر مـاإدْهـانِ
وسُكُـونَ الشُّجـاعِ حِيـنَ يُداهِيـ ... ـكَ مُـداهٍ وسَـوْرَةُ الأفْعُـوانِ

فهـذا الممـدوح يملك حكمـة الشيـوخ وشجاعة الشبـان ، حليم في غير ضعـف وجاهل في وقت الغضب ، لـه دهاء يشبه فيه سكـون الشجاع - نوع من الثعابين - في وقت يكـون الـدهاء فيه أصوب ، ولكنـه في وقـت الغضب لايشبهه سوىٰ الأفعوان في تمرده وإصراره علىٰ الأخذ بثأره والانتقام لكرامته.

حرص ابن الـرومي علىٰ إيراد الصفـة وضدها ، وكـأنه يشير للقول : - بضدها تتمايز الأشياء -

عـاصر ابن الرومي تقلبات في الأوضـاع السياسيـة واطلـع علىٰ أخبار السياسة في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي ، فأثر ذلك في شعره ، وبات يتمنىٰ لو تمتع الساسة جميعا بخلق الولاة الإسلاميين الأُوَل حتىٰ يسـود السلام ويعم الأمن ويشمل العدل جميع الرعية . يقول مضفيا علىٰ ممدوحه صفات مثلىٰ في السياسة والحكم من عدل وتواضع وغيرها[2]:

مَلِكٌ ، إذا اعْتَسفَ المُلُوكُ طَرِيقَهُم
في مُلْكِهم ، رَكِبَ الطَّرِيقَ السَّبْسَبَا

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص٢٤٩ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٤٠٠ .

أَعْلاهُ طَوْلٌ أَنْ يُرىٰ متكبراً ... وحَمَاهُ عِزٌّ أَنْ يُرىٰ مُتَسَحِّبا
نَمتاحُ منه حَاتِمياً مَاجِداً ... ونُثِيرِ مِنه هَاشِمِيّاً قُلَّبا
يهتَزّ حِين يُهزُّ لُدْناً نَاعِماً ... وإذا قُرِعْتَ قَرَعْتَ صَلْداً صُلَّبا
والعَفْوُ مِنه سَجِيّة لكنّه ... يَعفُو إذا ماالعَفْوَ كان الأَصْوَبا
فَإذا جَنىٰ جانٍ تَغاضَتْ عَيْنه ... عَنْ ذَنْبه فَكأَنّه مَاأَذْنَبا
وإذَا تَتابَع في الخيانَةِ أهلُها ... جَدَّعَ الأُنُوفَ مِن الجِبَاهِ فَأَوْعَبا

جمع هذا الممدوح في ملكه مقومات الحكم الإسلامي بالإضافة للأخلاق الحميدة ، فأول تلك المقومات في نظر ابن الرومي العدل والرحمة ، فمتىٰ عم العدل في مجتمع ما سعد أهله وطالت مدة حكم هذا الوالي . وكأنه يشير إلىٰ اندثار هذه القيمة الإسلامية التي حث عليها القرآن الكريم وجعلها من أهمَ صفات الوالي أو الحاكم المسلم .

ومن القيم الأخرىٰ التي تدل علىٰ صلاح الحاكم التواضع في غير ذل . وهذا خلق الخلفاء وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذ الكبر خلق منبوذ ومطّرح في الشريعة الإسلامية .

هذا الممدوح في الكرم ينسب إلىٰ حاتم لجوده وسخائه ، وفي التقوىٰ والورع ينسب إلىٰ آل هاشم . يلحظ ابن الرومي الصفة وينظر لها من كلا جانبيها إذ يعمل فكره ويتدبر في القيمة الواحدة حتىٰ لايدع فيها مجالا لغيره يقول واصفا ممدوحه باللين والشدة في البيت الرابع أن هذاالممدوح ينطبق عليه القول : "لاتكن لينا فتعصر ، ولاقاسيا فتكسر" ، وكأنه هنا يصف ممدوحه بصفة الاتزان والوسطية إذ يجعل لكل موقف مايقتضيه من اللين والشدة من سمات الحاكم المسلم في نظر ابن الرومي والتي تمتع بها ممدوحه العفو ، والصفح ، فمن طبع هذا الحاكم المسامحة ولكن في وقت يكون فيه العفو هو التصرف الأصوب والحكيم . يغضي عن المذنب ويصبر عليه حتىٰ يرتد عن الخطأ ، فإذا تمادىٰ في الغي والخيانة لم يكن له من عقاب سوىٰ جدع الأنف من الجبهة . وهذا أقل مايمكن أن يلقاه من عقاب .

فى نص قريب الشبه بلوحة فنية ، لفنان متمكن ينسج ابن الرومي من الفضائل والأخلاق حُلّة رائعة يلبسها ممدوحه وكأننا أمام لوحة فنية متكاملة يقول(١):

أَبَىٰ أَنْ يُرىٰ الحَقُّ الّذي هُوَ بَاخِسٌ ... أَخَاهُ ، أَوْ الْعَهْدُ الّذي هُو نَاكِثُه
حَليمٌ عَليمٌ إنْ تَجَاهَلَ دَهْرُهُ ... جَوادٌ كَريمٌ إنْ أَلَحّتْ مَغَارِثُه
فَتىً يقْتُلُ الأَمْوالَ في سُبُلِ العُلا ... لتُورثَه المَجْدَ السَّنيّ مَوَارِثُه
ضَرُورٌ نَفُوعٌ عَاجِلُ النَّفْعِ ثَرُّه ... عَلىٰ مُعْتَفِيه ، آجِلُ الضّرِّ رَائِثُه
نَهىٰ جُودُهُ عَن كُلِّ سَمْحٍ وَبَاخِلٍ ... شَذىٰ القولَ حتّىٰ أَحْسَنَ القَوْلَ رَافِثُه
إذا ماتَلاقَىٰ كَيْدُه وعِدَاتُه ... فَثَمّ تَلاقَىٰ أَجْدَلٌ وأَبَاغِثُه

تدرّج ابن الرومي في سرد صفات ممدوحه فبدأ بأعلاها شأنا وهي الدين ، فممدوحه رجل علىٰ دين يُحق الحق فلايهضم لديه حق فرد ما . ولايبخس عنده حق لأنه عادل ، ومن صفات المؤمن الوفاء بالعهد والميثاق ، وهذه صفة تحلىٰ بها هذا الممدوح كما أنه حليم ، عليم ، إضافة للكرم والجود إذ يبذل المال في سبيل الثناء والذكر الحسن ، هذا الممدوح كثير النفع عاجله ، لعلمه أن خيرَ البر عاجله فهو لايتريّث في نفع الآخرين بل يسعىٰ لكل مكرمة يعرف أن من شأنها نفع المحتاج ودفع الحاجة ، وهو علىٰ العكس في مواقع الضرر لايتسرع في إصدار حكمه بل يتريّث حتىٰ لايوصف بالحُمق وحتىٰ يصدر حكمه عن بينة ، فهو يُؤجّل العقاب ولايقدم عليه حتىٰ يتبيّن مصيره ، وهو من أهل السماحة ، والقول الحسن الطيّب ، إذااستدعىٰ المقام اللين كان لينـاً ، أما في وقت الغضب فهو كالصقر إذا انقض علىٰ البغاث كيده كقوته عظيمة ، بكل هذه الصفات أصبح هذا الممدوح في نظر شاعرنا قدوة ومثلا يُحتذىٰ ، والبيت الثالث قد طَرق معناه ابن الرومي من قبل حين قال يمدح بالكرم والجود(٢):

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٤٧٥-٤٧٦ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٣٧ .

ذَلِكَ السَّيِّدُ الذي قَتَلَ اليأْ ... سَ بِأَفْضَالِهِ وأَحْيَا الرَّجَاءَ

فقد عمد لعنصر التشخيص فجعل اليأس شخصا يقتله الممدوح بالفضل والعطاء وهذه ميزة اختص بها ابن الرومي في معظم مدائحه ـ التشخيص .

تذمر ابن الرومي من بعض الصفات والأخلاق التي سادت في عصره وحاول بالكلمة أن ينبه إنسان عصره لتلك الأوبئة والآفات وذلك عندما مدح بالجانب الآخر ـ المقابل ـ لتلك الأخلاق بُغية أن يتصف الناس بالصفات الحسنة المقابلة لهذه السيئات يقول[1]:

حَكِيمٌ لامَعَاقِدُه ضِعَافٌ ... تُذَمُّ ولامَعَاهِدُه رِثَاثُ
فَلَيْسَ لَه انْتِكَافٌ عَن ثَنَاءٍ ... ولاكَرَمٌ إذَا خِيفَ انْتِكَاثُ
فَتَىً صَلُحَتْ بِهِ الدُّنْيا وكَانَتْ ... وَحَالاَهَا اضْطِرَابٌ والْتِيَاثُ
أَقَامَ بِعَدْلِه الطَّرَفَيْنِ مِنْهَا ... ولَيس كَمَعْشَرٍ جَارُوا وعَاثُوا

من خلق المؤمن الوفاء بالعهد والميثاق ، والشاعر رأى من خلال معايشته في عصر ساد فيه العنصر الأجنبي واختلطت الثقافات والعادات ، أن الأخلاق الإسلامية والقيم الاجتماعية الفضيلة قد اختلت وباتت نادرة ، مما يؤسف له فحاول بعثها في نفوس معاصريه وذلك من خلال مدائحه ، وهنا يمدح ببعض هذه الفضائل فيقول : إن ممدوحه بالإضافة لكونه وفياً بالعهد والميثاق كريم جواد صلحت الدنيا بوجوده وصحت الأمور برأيه ، فهو عدل لايجور في حكمه ولايظلم ، وهو في البيت الأخير يندد بطائفة أو فئة من المجتمع عاثوا وجاروا مستغلين سلطتهم الدنيوية ، ولم يصلحوا .

كما يرى شاعرنا أن القوة مطلب حيوي في عصر لابد أن يتصف من يعيش فيه بالقوة والدهاء ، ولكنه يؤمن أن القوة تأتي في مواضع كثيرة حين يتصف صاحبها بالأخلاق والفضائل ومنها الحكمة وسداد الرأي . يقول[2]:

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٤٧٨ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٢٢ .

مِمّنْ إِذَا أَبَتِ الخُطُوبُ أو الْتَوَتْ عَاجَ الأَبِيُّ به وقَامَ الأَعْوجُ
لاعَيْبَ فِي نُعْمَاهُ إلاّ أَنّها لِلْخَاطِبينَ وَغَيْرِهُم تَتَبَرّجُ
أضْحى المُلُوكُ وَهُم مَجَازٍ نَحْوَه لِلطّالِبينَ الخَيْرَ وهْوَ مُعَرِّجُ

فهذا الممدوح ملاذ لكل من طلب النصح لأن له حكمة صائبة في معالجة الشدائد ومواجهة المصائب ، بالإضافة لكرمه وجوده ، فهباته مثل العروس التي تلفت الأنظار بزينتها وتستلبّ العقول ، إلاّ أن نعماه وهباته تختلف عن العروس في كونها مبذولة للجميع فالكل يطمع في نوالها والظفر بها سواء المحتاج أو غيره ، فهذا الممدوح مآل لطالبي الخير ، إذا أقفل الملوك أبوابهم في وجوه السائلين فبابه مفتوح لكل طالب وكل محتاج .

طبيعة العرب التفاخر بالقوة والشجاعة سواء قوة الفرد أو قوةالقبيلة والقوم . وابن الرومي عندما يشيد في مدائحه بصفات وفضائل أخلاقية يستشف منها القوة لأن النفس البشرية تشعر بالقوة والراحة حينما تتجسد هذه الفضائل في شخص يمثل لها شيئا ، وابن الرومي يستمد القوة من ممدوحيه لذلك نراه يسبغ على ممدوحه جملة من الفضائل تدل وتؤدي كلها للقوة يقول[1]:

مُبَارَكُ الوَجْهِ مَيْمُونٌ نَقِيبَتُه يُورِي الزِّنادَ بِكفّيْه إذَا قَدَحا
مُعْطىً لسانَ فَمٍ ، مُعْطىً لِسانَ يَدٍ إنْ أَجْمَلا فَصّلا أوْ فَسّرا شَرَحا
فَتىً . إذا شئْت . لاجَهْلا ولاسَفَها
كَهْلا . إذا شِئْت . لاشَيْباً ولاجَلَحا
فَتاه شَرْخٌ شَبَابِيٌّ ، وكَهْلَه حِلْمٌ ، إذَا شَالَ حِلمٌ ناقِصٌ رَجَحا
في وَجْهِهِ رَوْضَةٌ لِلحُسْنِ مُونِقَةٌ مَارَادَ في مِثْلها طَرْفٌ ولاسَرحا
يُعطي المِزاحَ ، ويُعْطي الجِدَّ حَقَّهُما
فالمَوتُ إنْ جَدّ، والمَعْرُوفُ إنْ مَزَحا

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٣٧-٤٣ .

إنْ قَالَ : لاَ ، قَالَها لِلآمِرينَ بِها
وَلَمْ يَقُلْها لِمَنْ يَسْتَمْنِحُ المِنَحا
مَاضِي الأَدَاتَيْنِ مِنْ سَيفٍ وَمِن قَلمٍ
كَبْشَ الكِتَابَةِ ، كَبْشَ الحَرْبِ إنْ نَطَحا
لَيْثٌ إذَا زَأَرَ اللَّيْثُ الهِزَبْرُ لَه
لَمْ يَحْسِبُ اللَّيْثَ إلاّ ثَعْلَباً ضَبَحا
فَاضَتْ يَدَاهُ إلىٰ أَنْ خِلْتَ سَيْبَتَها
بَحْرَيْنِ جَاشَا لِحِينَ المَدّ فَانْتَطَحا
وجَادَ جُودَيْنِ : أَمّا الْكفُّ فانْبَسَطَتْ
بِما أَنَال ، وأَمّا الصَّدْرُ فَانْشَرَحا

هـذا الممدوح محمود المختبر ، ذكـي الفؤاد ، قد جمـع بالإضافة لحسن الـوجه حسن الرأى فقوله حسـن وفعله كذلك ، فيه صفـات الشبـاب ، من جرأة وبسـالة وإقدام ، وكـذلك صفات الشيوخ من حكمـة وحلم ، دون أن يبلغ سن الكهولة ، جميل لامثال له في البشر لكل موقف لديه حقه فلايخلط الجد بالهـزل ، اعتاد العطاء والبذل بسخاء فلايرد سائليـه ، بعد هذه الصفات المتـداولة تنبـه ابن الرومـي إلىٰ صفـة قلما مدح بها ، وهـي تجويد الكتـابة والمعـرفة بالأدب ، فهـذا الممـدوح لايضـاهىٰ في الكتـابة والأدب كمـا أنه لايبارىٰ في الشجاعة والنّزال ، فهو في الشجاعة يفوق الأسد إذ الأسد العظيم في جواره كالثعلب ، وقد فاق كذلك البحر في العطاء والجود .

ومـع هـذا العطـاء وهذه السعـة في البـذل لايضيـق بسـائليه بل يزداد انبسـاطا وسعـة في اليد والصـدر ، ليـس كغيره ممّن يتجهـم عنـد السؤال .

المثـل الأعلىٰ للإنسـان مستقـرٌ في وجدان ابن الـرومي يعبر عنـه في المواقف المختلفة بمعان متشابهة ، متقاربة ، وإنّما الاختلاف يكمن في الأسلوب والألفاظ ذات الإيحاء المختلف يقول[1]:

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٨٤،٨٥ .

أمّا النّدى فَندىٰ غَريرٍ ناشِىء والـرّأيُ رَأْيُ مُحَنَّكٍ جَحْجَاحِ
يُحْيي ويُهْلِكُ في يَدَيْ ذِي قُدْرَةٍ وَسَمْتَهُ بالسَّفَاحِ والنَّفَّاحِ
طُوفَانُ معروفٍ ونُكْرٍ مانجا أحدٌ تَعوَّذَ منهما بِوَجاحِ
فَإِذَا تَبَسَّلَ لِلْعِدا في مَأْقِط أبْصَرْتَ سَطْوَةَ قَابِضِ الأَرْواحِ
وإذا أرَاكَ نَداهُ يوماً زُهْدَه أَبْصَرْتَ زُهْدَ مُحالِفِ الأمْساحِ
وإذا أشَارَ أَوْ ارْتَأىٰ في خُطَّة أبْصَرْتَ حِكْمَةَ صَاحِبِ الأَلْواحِ
وإذا أرَاكَ مُزَاحَهُ مِنْ جِدِّه أجْنَاكَ صَفْوَ وَدَائِعِ الأَجْباحِ

هذا الممدوح في حبه للعطاء وسعة بذله كالشاب في مقتبل العمر لايفكر في عواقب الأمور فهو ينفق بغير حساب ، ولكنه في مقابل هذا له رأي وحكمة تفوق حكمة الشيوخ وصواب آرائهم .

وبعد ذلك قابل بين فعلين وصفتين لهذا الممدوح فهو يحيي بالبذل والعطاء ونتيجة لهذا العطاء والمنح الذي يحيي به يصفه بالنفاح ، فكأنه ببذله هذا نفح الحياة لغيره ، ثم هو يهلك عند لقاء الأعداء لاتأخذه بهم رأفة ولارحمة ، فينتج عن ذلك كثرة القتلىٰ حتىٰ يلقب هذا الممدوح في هذا الموقف بالسّفاح .

وهو في كلا الفعلين ـ العطاء ، البأس ـ كالطوفان لاحد له ، شجاع مغوار في الحرب ، كأنه مَلَك الموت ، ومقابل هذه الصورة الكريهة الموحية بالشدة والقساوة ، نجد صورة أخرىٰ لهذا المدوح تفيض بالرحمة والأنس واللطف وذلك في موطن الكرم والرخاء ، وهو مع كل هذه الأوصاف ـ كرم ـ شجاعة ـ علىٰ جانب كبير من التدين والزهد حتىٰ لاشبيه لزهده سوىٰ من يلبس كساء من شَعَر لشدة تقشفه .

وفي صواب رأيه وحكمته لاشبيه له سوىٰ موسىٰ عليه السلام ـ

في كل الأحوال ـ المزاح ـ الجد ـ أخلاق هذا الممدوح كالعسل طيبا وحلاوة .

اختلفت الحياة في العصر العباسي نظر الاختلاف الأجناس وتعدد الهويات ، وقد أضحى تأثر العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى - فرس - هنود - ترك ... واضحًا وملموسًا في كل مناحي حياتهم وسلوكهم اليومي . فاختلفت من جرّاء ذلك بعض القيم التي اعتادها العربي ، واندثرت بعض المكارم التي تاقت لها النفس العربية ، غير أن هناك قيمتان من أولى القيم في المجتمع العربي رأى شاعرنا أنها بدأت تقل في ناس عصره وهي البأس والجود، وقد حاول غير مرة أن يلفت نظر معاصريه إليها ، ويحث عليها من خلال مدائحه . وهذه محاولة على نفس السَّنَن لبعث هذه الخلال يقول[1]:

جَمَعَ السَّلَامَةَ والشَّهامَةَ ، إنّه ... شَخْصٌ يَحُوزُ مَحَاسِنَ الأَجْنَاسِ
لَذَكَاؤُهُ لَهَبُ الحَرِيقِ ، وحِلْمُه ... أَنْدَى وأَبْرَدُ مِن نَدَى الأَغْلاسِ
فِيه اثْنَتَانِ يَقِلُّ مَنْ يَحْوِيهِما ... فِي دَهْرِنا ، ويَجِلّ فِي المِقْياسِ
يَنْسَى صَنِيعَتَه ، ويَذْكُر وعْدَه ... أَكْرِمْ بِذلِكَ مِن ذَكُورٍ نَاسِ
وكَذا عَهِدْتُك لِيّنًا ذَا مِيْعَةٍ ... يَسِرُ الخَلائِقَ ، مِحْصَدُ الأَمْرَاسِ
ممّن تُراعِي الوَحْشُ حَوْلَ فنائِه ... وتُراعَ مِنْه الأُسْدُ فِي الأَخْيَاسِ
كَمْ خفَّ نَهضُكَ لِلدُّعاةِ وكَمْ رَسَتْ ... قَدَماكَ فِي يَوم عِراك عِمَّاسِ[2]
لكَ عَدْلُ ذِي تقوى وظُلمَ أخِي ندى ... لاظُلمَ غَصّابٍ ولابخّاسِ
فإذا وهبْتَ ظَلَمْتَ مَالَكَ مُحْسِنًا ... وإذا حَكَمْتَ وَزَنْتَ بِالقِسْطَاسِ

جمع ابن الرومي لممدوحه في هذا النص من الخلال والصفات الحميدة مايفوق به أي إنسان سواه ، فهو ذكي ، حليم ، جواد ، شجاع ، وقد تميز عن غيره بخلتين نادراً مايحوزهما إنسان في ذاك العصر ، هما نسيان الصنيعة أو المعروف الذي يقدمه ، فهو يعطي العطية ثم لايذكرها ولايمن بها ، بينما يذكر وعده ويفي به ، وكأن الشاعر هنا يُعرِّض بالناس وأخلاقها في عصره حيث قل الوفاء ، وندر الكرم ، أخلاق هذا الممدوح طيبة ، في جواره يأمن الخائف حتى الوحش لاتخافه ، بينما في الغضب تخشاه حتى الأسد في غاباتها لعظم شأنه وقوة جبروته .

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٢٧٣-٢٧٥ .
(٢) عماس : معركة في يوم شديد الظلمة .

هـذا الممدوح فيه خلة أخرىٰ ورثهـا عن أجداده العـرب وهـي إجابة الداعي ونجدة الملهوف فهو لايتوانى عن تلبيةالنداء بل يغيث الملهوف سريعا وهذه الأقدام التي تسرع يصاحبها لإغاثة الملهوف هي ذات الأقـدام الراسخة في أرض المعـركة حيـث لايولي الـزحف بل يثبـت في أرض العـراك لبسـالته وشجـاعته ، له في حكمه عدل التقـي الذي يراعي الله في أحكـامه بينما في العطـاء ظالم ، لأنه مسرف لايقتصـد ، فكأنه يظلم مالـه بالإسـراف وهو يقصد الإحسان لغيره وحكمه عادل .

في النص السابق نجد صوراً قمة في الروعة مع عـدم تكلف من الشاعر حيث أتى بالمعاني الجسيمة في رقة وسلاسة وألفاظ ذات إيحاء خاص في قوله :

لَذكاؤُه لَهَبُ الحَريقِ ، وحِلْمُه أنْدَى وأبْرَدَ مِـن نَدَى الأَغْلاسِ

قابل بين خلقين من أخلاق ممدوحه هما الذكاء والحلم ، وذهب يبحث لهما عن شبيهين فوفق أيما توفيق حين لجأ كعادته للطبيعـة يستمد عنها صوره ومشبهـاته ، فجعـل ذكاء الممـدوح في الصفاء والاتقاد كـأنه لهـب الحريق لما عهد عن النار من حرارة واتقاد ، ولم يجد في مقابل هذه الصورة الحية سوىٰ صورة أشفىٰ للنفس وهي صـورة النّدى - وأيّ ندىٰ - النـدىٰ فى وقـت الغلس ، وكلنا يعلم الفرق بين الندىٰ في أي وقت والندىٰ فى وقت الغلس - قبيل الفجر - حيث يكون أشد برودة وأعظم أثرا في النفس ، فحلم ممدوحه كهذا الندىٰ في ذاك الوقت ، والعظمة تكمن في تشبيه الشـاعر للأمر المعنوي بالأمـر المحسـوس ، هـذا عـدا المقـابلات والجنـاس والطبـاق في بقيـة أجزاء الصورة .

والمقابلة الرائعة فى قوله :

لَكَ عَدْلُ ذِي تقوىٰ ، وظُلمُ أخي ندىٰ لاظُلْم غَصّابٍ ولابَخّاسِ

فقـد امتدح هنا بالعدل وأي عدل . عدل التقي الـذي يخاف ربه لأن المرء إذا خاف ربه كـان عدلـه قائما على الخوف والحذر فلايظلم خشيـة عقاب اللـه ، وعاد وامتدحه بصفة تقابل صفة العدل ولكنه تحرز وقيـد المعنىٰ حين

قال وظلم أخي ندىً ، فممدوحه ظالم في العطاء لأنه يعطي بإسراف فيظلم ماله حين ينفقه عن آخره ، وهذا أمر محمود في نظر الشاعر .

يؤكد ذلك احترازه حين قال : لاظلم غصّاب ولابخاس ، فهو ظلم مطلوب بل محمود ليس بالبخاس ولاالغصاب .

وهذا النص يذكرنا بنص آخر تطرق فيه ابن الرومي لنفس المعاني والمكارم وإن كانت الألفاظ التي استخدمها يختلف إيحاؤها إلا أن الغرض نفسه[١]:

يامَنْ وَجَدْنَاهُ فَرْدًا فِي سِيَاسَتِهِ
إنْ صَالَ عَدَّلَ مَيْلاً أَوْ قَضَى عَدَلا
يامُؤْنِسَ الإِنْسِ والوَحْشِ التي ذُعِرَتْ
ومَنْ أخَافَ الأُسُودَ السُّودَ والجَبَلا

فهذا الممدوح فرد لاشبيه له سواء في حكمه ، أو في قضائه وعطائه ، به يأنس الناس ولاتذعر منه الوحوش ، وهو كذلك في الغضب يخيف الأسود في الغابات .

من المعاني التي طرقها ابن الرومي بألفاظ متقاربة وإيحاء مختلف قوله يمدح بالكرم[٢]:

هُو الرَّجل المَشْرُوك في جُلّ ماله ولكِنّه بِالخيْرِ والحَمْدِ مُفْرَدُ

هذاالممدوح لايبقى ماله في يده لأنه تعود العطاء حتىً كأن الناس شركاء له في أمواله ، وكأن لهم حق فيه ، ولكن هذا الممدوح وإن أشرك الناس جميعا في ماله إلا أنه تفرد بالحمد والخير لأنه هو الباذل وهو معطي المال ، لذا وجب أن يعود الشكر والحمد له وحده دون شريك وقريب من هذا قوله[٣]:

---

(١) الديوان ، ج٥ ، ص١١١ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص١١٥ .
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص١٦٤ .

يامَنْ غَدا مالَه فِي النّاس مُشْتَرَكاً ومَنْ تَوَحّد بالمعروفِ وانْفَرَدا
ومَنْ تَحلى مِن الآدابِ أحْسنها فمَا يُرىٰ أحَدٌ في ظَرْفِه أحَدا
كُن عندَ أخْلاقِكِ الزَّهْر التي جُعلت عَلَيْك مَوقُوفَةً مقصُورةً أبَدا

فهذا الممدوح لايختزن الأموال بل ينفقها حتىٰ عد الناس شركاء له فيها غير أنه انفرد عنهم بالمعروف والأخلاق الحسنة التي كأنّهاموقوفة عليه دون سائر الناس ، حتىٰ لايُرىٰ غيره متمتعا بهذه الأخلاق ، وكأنها وجدت له دون غيره ، وقريب من هذين المعنيين معنىٰ ثالث أو صورة ثالثة لنفس المعنىٰ في قوله(١):

مازِلْتَ تُشْرِكَ في ثرائِك حَاسِدًا حَتىّٰ غَدَوْتَ ولَسْتَ بالمَحْسُودِ
إلاّ علىٰ مالَسْتَ تَملُك بَذْلَه مِن صِدْق بَأْسٍ أو بِرَاعَةِ جُودِ

فهذا ممدوح آخر يعطي بسخاء حتىٰ لم يعد له حساد لأنه يعطيهم من ماله، حتىٰ صفىٰ قلوبهم من الحسد ، ولم يعد يحسد إلا علىٰ مالايستطيع أن يشرك فيه أحد لأن الأمر ليس بيده ، فكأن هذه الصفات التي لايشترك معه فيها أحد ـ الشجاعة ـ والجود ـ وقف عليه حيث لايوجد له مثيل فيها .

مع أن المعنىٰ واحد في جميع الصور السابقة إلا أن عظمة الشاعر ظهرت حين نوّع أسلوبه ، وجعل لكل صورة من الصور الثلاث دلالة خاصة وإيحاء يختلف عن سابقه، وهذا ديدن ابن الرومي حين يتعرض لقيمة ما يقلبها علىٰ كل وجه ويعرضها في كل صورة وفي كل مرة نحس لها وقعا يختلف عن سابقه وتؤدي غرضا مغايرا يظل أثره في النفس أبلغ .

شأن ابن الرومي شأن شعراء عصره يبالغ في مديحه فيقول(٢):

كِلْتا يَدَيْك يَمِينٌ لاشِمَالَ لهَا مَخْلُوقَتانِ لأَمْجَادٍ وإنْجَادِ
يَدانِ لايَفْتُرانِ الدَّهرَ مِنْ صَفَدٍ يُغْنِي فَقيرًا ، ولامِنْ فَكّ أصْفادِ
تُعطي الجَزيلَ بلاوَعْدٍ تُقدّمه ولاتُعاقِبَ إلاّ بَعْدَ إيعادِ

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٢٣٦ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص١٥٧ .

لكثرة عطاء هذا الممدوح وبذله للمال كأنه لم يخلق إلا للعطاء والحرب فيداه من كثرة عطائها وكثرة بلائها في الحرب كأنها يمين لأن العمل لايحسن إلا إذا أدي باليمين ، فعطاء هذا الممدوح للفقير يغنيه ، وعفوه عن الأسير يطلقه لايمن ولايماطل في عطائه ، يتريث في إصدار حكمه وعقابه ، لأنه لايعاقب قبل أن ينذر ، وابن الرومي هنا يشير إلى قيمة إسلامية غاية في النبل والرقي الذي تميز به التشريع الإسلامي مأخوذة من قوله تعالى يخاطب رسوله الكريم : {**وإمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الخَائِنِينَ**}(١).

إذ لابد من إعلام العدو أولاً بنقض العهد ومن ثم قتاله حتى لايكون هناك خيانة ، وقريب من ذلك قوله مؤكدا على صفة العفو عند ممدوحه ولكنه في هذه المرة يقيِّد العفو ، إذ أن ممدوحه يعفو في غير ضعف حينما يكون العفو هو الأصوب(٢):

يُعاقِبُ مَاأدْنَىٰ العِقابَ مِن التُّقىٰ ... ويَعفُو فَلايَعفُو قُعُوداً علىٰ ضَمَدْ

فهذا الممدوح حكيم صائب الرأي لايتخذ قرارا حتى يفكر فيه جيدا فلايظلم أحدا يعفو حين يكون العفو هو الأصوب ولكن دون ضعف ولاخور في حكمه لايظلم ولايجور أبداً.

في صورة مختلفة يعبِّر عن نفس المعنى السابق حين يقول(٣):

وَيَغْفِرُ للهَافِينَ غَيرَ مُقَصِّرٍ ... ولاَجَاهِلٍ مَاقَدْ أتَوا حِينَ يَغْفِرُ
ولكنْ يُثِيبَ المَحْسِنينَ مَثُوبَةً ... يُنَافِسُهم فِيها المُسِيءُ فَيَقْصِرُ

هذا الممدوح يغفر للمخطئين ليس سهوا منه ولكنه عالم ماقد جنوا ورغبة منه في الإصلاح دون عقاب ، يثيب المحسنين مثوبة تجعل هؤلاء المخطئين يتراجعون عن الإساءة ويندمون على فعلتهم ، وهذا أسلوب عال لايستخدمه إلا من له إلمام بعلم النفس والتربية .

---

(١) سورة الأنفال : آية ٥٨
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص١٨٤ .
(٣) الديوان ، ج٣ ، ص١٠٥-١٠٦ .

من المعاني القريبة من النصوص السابقة والتي عالجها ابن الرومي بصور مختلفة قوله يمدح بنفس القيم السابقة ولكن بايقاع وإيحاء مختلف[١]:

لَهُ مَواعِيدُ بالخَيْراتِ نَاجِزَةٌ ... لكنّه يَسْبِقُ المِيعادَ بِالصَّفَدِ
يُعطيكَ حقّ غَدٍ في اليومِ مُبتَدئًا ... وليْس يَجْهلُ بعَد اليومَ حقّ غَدِ

فهذا الممدوح يسبق عطاؤه وعده لسعة علمه بالمحتاج وحبه الشديد للبذل والعطاء ، لايماطل ولايسوّف في وعوده. يعطي العطية اليوم وفي نفس الوقت يعطي حق غد وكأنه يستعجل الأيام في العطاء حتىٰ لايرىٰ محتاجا ولاصاحب فاقة ، فهمّه أن يغنىٰ الجميع .

يقول في موضع آخر عارضا نفس المعاني بطريقة مختلفة[٢]:

أَخُو الرّأيِ والعزْمِ اللّذيْن كِلاهُما ... شِهابٌ سَماوِيٌّ وأَبْيَضُ قَصّالُ
لَهُ عزَماتٍ لاتُفاتُ بِفُرصَةٍ ... وفِيه أَنَاةٌ قَبلَ ذَاكَ وإمْهَالُ
يُبادِرُ إلاّ أنّهُ غَيْرُ مُرْهِقٍ ... ويُملي فَلاالإمْهالُ إذْ ذَاكَ إهْمالُ

هذا الممدوح له رأي وبأس كأنهما شهابان من السماء لسدادهما وقوتهما وهو ذو عزيمة وإصرار مع حلم وأناة فليس بالضعيف ولاالمهمل ، بل لكل مقام لديه مقال ، وهو رجل في كل موقف،يتخذ الفعل المناسب للمقام المناسب دون ضعف ولاإهمال . وهذا يذكرنا بقوله[٣]:

طويلُ التّأنّي لاالعَجُولُ ولاالذي ... إذَا طَرَقَتْه نَوْبَةٌ يَتَبَلّدُ
لَهُ سَوْرَةٌ مَكْتَنّةٌ فِي سَكِينَةٍ ... كَمَا اكْتَنّ في الغِمْد الجُرَازُ المُهَنّدُ

فهذا الممدوح معروف بحسن تصرفه وتقليبه الأمور فلايُصدر رأيا حتىٰ يتأنىٰ فيه فليس بالمتسرع الذي يصدر آراءه عن هوىٰ وحماقة .

وهو في الوقت نفسه ليس بالبليد الذي تعجزه الأمور ، بل الحكيم العالم بالفضائل يخفي غضبه ويكتمه بالسكينة التي يتحلىٰ بها حتىٰ لايوصف

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٢٨٠ .
(٢) الديوان ، ج٥ ، ص١٨٢ .
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص١١٦ .

بالحمق ، فهو في ذلك كالسيف الذي يغمد ولكنه معروف ، رغم أنه مكنون إلا أنه حاد ماض مهند ، في وقت الضرب يعمل بكفاءة .

فساد النيات ، وشيوع الفواحش ، وانتشار الخبائث في المجتمع دليل تدهور وانحلال هذا ماحاول ابن الرومي أن يشير له حينما تذمر من بعض الصفات الكريهة في مجتمعه ، نتبين ذلك من مدائحه التي يظهر فيها عكس هذه الخلال فهو يمدح بصفات كريمة ويؤديها بطريقة نادرة حين يقول(١):

يا أيّها السَّيِّدُ الّذي طَهُرَتْ ... به مِنَ المُنْكَرَاتِ بَغْدَادُ
ومَنْ غَدا وهُو لِلْخَبائِثِ تَرّاكٌ ... م ... لكٌ وللطَّيِّبَاتِ أَخَّاذُ
مُبَارِكٌ في يَدَيْه للمَالِ إهلا ... ٢ ... لُ ولِلْهَالِكِينَ إنْقَاذُ

فهذا إمام عادل صالح ، لايوجد للعمل الخبيث في أفعاله أثر فهو لايقبل الخبائث ولايقرها ، بل العكس أفعاله طيبة وتصدر عن طيّب ، هذا الممدوح بذال للمال جواد به ، ينقذ المدقعين والمعوزين بكثرة عطاياه وكريم سجاياه ، وقد سُدِّد شاعرنا في اختيار الألفاظ والصور ذات الإيحاء الديني والاجتماعي ، تأمل معي هذه الإشارة "طَهُرت به من المنكرات بغداد" لايقول هذا إلاّ إذا فَشت هذه المنكرات وعمّ الحس بها ... نتيجة الاختلاط والبذخ والترف الذي ساد في العصر العباسي .

وكأنّ ابن الرومي ضاق ذرعا بهذه الأحوال والأخلاق الفاسدة فذهب يُفتش عن شخصٍ يعيد للحياة برمتها طَهرها ونقاءها ، فما أن عثر عليه في ممدوحه هذا حتىٰ أضفىٰ عليه صفات وأسبغ عليه من المكارم ماترتفع بصاحبها إلىٰ درجات الأتقياء الذين بهم يعم النفع وتسود الطمأنينة في المجتمع .

واستخدم صيغ المبالغة ـ تراك ـ أخاذ ـ حتىٰ يظهر لنا ممدوحه في أجلّ صورة ، ووشح صورته بهذا الأسلوب الإنشائي ـ النداء ـ ياأيها ـ مما يسترعى الانتباه ويترك أعظم الأثر في نفوس السامعين .

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٣١٢ .

الإسراف في كل شيء مذموم ، نهىٰ عنه الباري جل علاه حين قال : {وَلاَتَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلىٰ عُنُقِكَ وَلاَتَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً}(١).

وابن الرومي بحكم ثقافته وتجاربه وعيٰ هذه الحقيقة وعلم أن الجمال الراسخ لايتأتىٰ من طريق المفسدة .. ولكن أمامنا نص مدح فيه شاعرنا بالإسراف مبينا أن إسراف ممدوحه يعد مكرمة لاعصيان فيه لأنه مسرف في الكرم يقول(٢):

جَوَادٌ يُنَادي الهَارِبِينَ عَطَاؤُهُ ... إِلىٰ أَيْنَ مِنِّي؟ لاَتَ حِينَ مَنَاصِ
عَصىٰ اللّهَ في الإِسْرافِ غَيْرَ مُعانِدٍ ... وَلَيْسَتْ مَعَاصِي مَاجِدٍ بِمَعَاصِي
فَضَلْتَ أَخَاكَ الغَيْثَ بِالْعِلمِ والْحِجىٰ ... وَحَاصَصْتَه في الجُودِ أَيَّ حِصَاصِ(٣)
علىٰ أنّه يمْضِي وأنْتَ مُخَيِّم ... سَمَاؤُكَ مِدْرَارٌ وَرَوْضُكَ وَاصِي(٤)

أراد الشاعر أن يصل بممدوحه - في الكرم - منزلة لايدانيه فيها أحد فنعته بالجود ثم استخدم ألوان البديع حتىٰ يمكن لصورته في النفوس ، فجعل عطاء هذا الممدوح يتحدث وينادي الهاربين - إلىٰ أين مني؟؟ ثم يجيب سريعا - لات حين مناص - أي لامجال لكم فمهما ذهبتم فمصيركم إليّ لأني سألحق بكم في كل مكان ، كل هذا تشخيص للكرم فهي استعارة مكنية حيث شبه العطاء بالإنسان حذف المشبه به وأتىٰ بأحد لوازمه ، وهي خصيصة النداء - أو الكلام - وكأن العطاء هو الذي يطلبهم ، فهو المحتاج لهم .

مع كل هذا يرىٰ شاعرنا أن المعنىٰ لايكتمل في هذه الصورة ، إذ يريد أن يبين عظم كرم ممدوحه وجزالة عطائه ، فوصفه بالإسراف - ومعروف ماللإسراف من ذم - لأن فيه معصية للخالق ، وخروج عن السنة الشريفة . فحين قال : عصىٰ الله في الإسراف ، استدرك فقال - غير معاند - أي أن

---

(١) سورة الإسراء : آية ٢٩
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٨،٩ .
(٣) حاصصته : شاركته حصة بحصة .
(٤) واصي : كثير ، متصل .

إسرافه في العطاء ليس مجرّد إسراف للمعصية ولكن حبه للعطاء والإنفاق يجعله يسرف ، لذا عدّ فعله هذا مكرمة لامعصية فيه .

جرت العادة أن يشبه الشعراء بالغيث في الكرم ولكن ابن الرومي يؤكد هنا فوقية ممدوحه ، فحين جعل الغيث أخاً لممدوحه عاد وبين أن ممدوحه قد فاق أخاه - الغيث - بالعلم والرأي السَّديد ، فهذه من خصائص الإنسان ولكن هذا الممدوح شارك الغيث في خصيصة العطاء والجود ، فأخذ حصته وافية ، بل وزاد عليها بأن جعلها مستمرة لاتنقطع . في حين أن المطر له أوقات محددة ثم يمضي وسماء هذا الممدوح دائمة المطر وروضة مونق دائم الخضرة ، فالاستمرارية هي الصفة الخاصة بعطاء الممدوح .

في مقابل هذه الصورة التي أشاد فيها شاعرنا بإسراف ممدوحه في العطاء والجود ، نجد له صورة أخرىٰ يشيد فيها بقيمة التوازن ، وهو يقلب المعنىٰ ويعيد النظر فيه فيحن لهذه العادة وهي عرض المعنىٰ بأكثر من صورة وفي أكثر من إيحاء ، وفي هذا النص يمدح بقيمة التوازن مرغبا فيها وداعيا لها يقول(١):

شَهِدْتُ لَقَدْ نادَمْتُهُ فَوَجَدْتُه ... سَمِيعاً ، فَقِيهَ القلْبِ عَنْ كُلِّ سائِلِ
أَصمَّ عَن الفَحْشاءِ والعَذلِ في الندىٰ ... طويلُ التمادي في شِقاق العَواذِلِ
يَجودُ فَيعطي ماله في حقوقه ... علىٰ منهجٍ بين السبيلَيْن عَادِلِ
هو النِّيلُ يجري في سواءٍ سبيلُه ... فَلاتَنْتَحِي عن قَصْدِه للمَعَادِلِ

فطبيعة العصر وماحصل فيه من تقدم علمي وفكري فرضت علىٰ معاصري ابن الرومي التزود بالعلم والثقافة والتبحر في أمور الدين والدنيا . فهذا الممدوح إضافة لعلمه وفقهه وخبرته بالأمور ، زاد عن غيره بالترفع عن الفواحش حتىٰ عد كالأصم عند الحديث الفاحش فهو لايصغي للفحشاء عاملا بالآية الكريمة التي تشيد ببعض صفات المؤمنين {**وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**}(٢).

---

(١) الديوان ، ج٥ ، ص٢٦٠ .
(٢) سورة المؤمنون : آية ٣

بالإضافة لترفعه عن الفحشاء ترفع وأصم أذنيه عن العذل في الكرم والجود ، فمن يعذله في العطاء يعاديه لعلمه أن كرمه متوازن معتدل ، لايسرف ولايقتر وحتىٰ في إشادة شاعرنا بقيمة التوازن لم يجد بدا من الولوج للطبيعة باحثا عن شبيه لتوازن ممدوحه في العطاء والبذل فوقع في حسه نهر النيل ومايجود به من الخيرات في غير إسراف يؤدي للغرق والموت ولاشح يؤدي للجفاف والهلاك .

في قوله : طويل التمادي في شقاق العواذل ، يذكرنا بقوله في نفس المعنىٰ[1]:

قَوْمٌ يَرَوْنَ النُّصْحَ في أَمْوالِهِم غِشّاً ، فَقَدْ سَخِطُوا عَلىٰ النُّصّاحِ

فهؤلاء قوم يرون أن المال وجد للإنفاق لاللكنز ، لذا فهم يعيبون علىٰ من يعذلهم في الكرم والجود ، ويرون نصحه ضرباً من الغش ، ولايملكون سوىٰ السخط عليه لأنه في رأيهم يمنعهم من مكرمة تخلد ذكرهم ويدعوهم لنقيصة وهي البخل .

النفس الإنسانية تستبشر وتتهلل عند رؤية شخص ما يحمل صفات الخير وفضائل الأخلاق ، وابن الرومي كفنان تاقت نفسه لهذه الصفات والمكارم ، فبحث عنها في إنسان عصره ، ولكنه في كل مرة كان يعود صفر اليدين ، وبطبعه العبقري حاول جمع تلك الفضائل وتنسيقها بألفاظ وعبارات ممتزجة بخلجات نفسه ومن ثم اسباغها علىٰ ممدوحه ليحث عليها ويرغب فيها ، يقول[2]:

فَاتِقِي الرَّتْقِ ، رَاتِقِي الفَتْقِ هَيّاً ضِي أَخِي البَغْيِ جَابِرِي المِنْهاضِ
حَامِلِي الثِّقلَ ، واضِعِي كلَّ ثِقلٍ يَنْقضُ الظَّهرَ أيّما إنْقاضِ
لهُمُ عِزّة المَصاعِيب . إنْ شِئْـ ـتَ ، وإنْ شِئْت . ذِلّة الأَخْفاضِ
وإذا دُوفِعَتْ بِهم حُجَجُ البَا طِل كَانَتْ رَهَائِنَ الإدْحَاضِ

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٨٣ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٣٦

هؤلاء القوم من ممدوحي ابن الرومي يبدأون بالعداوة - إن شاءوا - ويلمون الشعث ويقيلون عثرة الضعيف ، يتحملون المسؤوليات الخطيرة ، والأمور الجسيمة ، عمن لايستطيع النهوض بها ، هؤلاء القوم أشداء في وقت الشدة ، لطفاء في وقت الرخاء ، رأيهم وقولهم ، حجة تدحض الباطل وتزهقه .

وقد أعطى شاعرنا الصورة حقها وأضاف إليها مايتصل بها من غير تكلف ، فقد عبر بألفاظ سهلة وايقاع محبب عن معاني حسنة وقيم اجتماعية مرغوب فيها .

كثرة المحسنات البديعية من طباق وجناس ومقابلة ، أضفى على الصورة لونا خاصا ، وترك لها أثرا في النفس مشجعا على اعتناق هذه الخلال والاتصاف بهذه المكارم . قريب من هذا المعنى قوله[1]:

قَوْمٌ سَماحَتُهم غَيْثٌ ، ونَجْدَتُهم ... غَوْثٌ وآراؤُهم في الخَطْبِ شُهْبانُ
إذَا رَأَيْتَهُم أَيْقَنْتَ أَنَّهُم ... للدِّين والمُلْكِ أَعْلامٌ وأَرْكَانُ
لايَنْطِقُ الإفْكَ والبُهْتانَ قَائِلُهم ... بَلْ قَوْلُ عَائِبُهم إفْكٌ وبُهْتَانُ
ولايَرَى الظُّلمَ والعُدْوان فَاعِلُهم ... إلاّ إذا رَابَهُ ظُلْمٌ وعُدْوانُ

فهؤلاء قوم سماحتهم وسرعة نجدتهم وسداد آرائهم مشهورة بين قومهم ، همهم إقامة أركان الدين والملك ، لايكذبون ولايقولون الإفك لأن فيهم ترفع عن تلك الرذائل ، لايظلمون ولايعتدون على أحد وإن حاول معتد الاعتداء عليهم أو ظلمهم ردوا عليه ظلمه وعدوانه، لأنهم لايسكتون على ظلم ولايقبلون الضيم .

وفي نص آخر يمدح ابن الرومي قوماً آخرين بفضائل تكاد تكون نفس الفضائل السابقة ولكن في ثوب جديد وإيقاع مختلف وأثرها كذلك لابد أن يختلف يقول[2]:

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص١٧٩ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٥٧ .

قَوْمٌ مَفَارِيضُ للحُسْنَىٰ بِفَضْلِهِمُ ... فَـرْضاً يُؤَدَّىٰ وللسُّـوأىٰ مَـرَافِيضُ
تَلقاهُمُ قُعُداً عَنْ كُـلِّ فَـاحِشَـةٍ ... وَهُـم مَقَاوِيم فـي الجُلّىٰ مَنَاهِيضُ
لهم مع العِزِّ عَن مولىٰ صنيعهم ... أيدٍ قِصَـارٌ ، وأبْصـارٌ مَغَـاضِيضُ
لايُعْدِمُونَ أَثِيثَ الرِّيش جَارَهم ... إذا تَحيّفَـتْ الـرِّيشَ المفَـارِيضُ
ومنهُمُ كلُّ تصحِيحٍ إذا وَعَدُوا ... وفِـي وَعِيـدِهِـم بالشـرِّ تَمْـرِيضُ

يعـرض الشـاعر الأخلاق الكـريمة والصفات الحميـدة في غير مـاموضع وبشتىٰ الطرق ، فتارة يلصقها بجماعة وأخرىٰ يفردها لشخص بعينه ، وغرضه في ذلـك كله ترغيب قومه في هـذه الخلال وإبرازها في مجتمـع قلت فيه المثل واندثرت القيم ، فمـدح جماعة بأنهم كرام يقرضون الأمـر الحسن ويرفضون السـيء ، لايقـدمون علىٰ فـاحشة أو سـوء ، بل ينهضـون لعظـائم الأمـور ، ويتصـدون لها ، وهم مع كثرة بذلهـم وعظيم صنائعهم إلاّ أنهـم لايمنـون بها علىٰ أحد ، يغضـون أبصارهـم وهذه صفة شحيحة في عصـر راجت فيه الفتن وانتشرت الفواحش .

بلغوا غاية الكرم مع جيرانهم ، إذا تجهم الزمان ، وعـز الكرماء ، في وعـدهم بالجود شفـاء لمن يقصـدهم وهو معدم محتاج ، وفي وعيـدهم المرض والبلاء للأعداء لشدة بأسهم .

يقـول مـؤديا معنىً مكرراً بألفـاظ متقـاربة في البيـت الثـاني يعيد نفس المعنىٰ في قوله[1]:

جَبَانٌ عن السَّوءَاتِ عَنهُنّ نَاكِـصٌ ... ويلقـىٰ المَنايا مُقْـدِماً غَيـرَ نَاكِصِ
جَسورٌ علىٰ الأَهْوالِ يَحْسَرَ لِقْنَا ... وَيَدَّرِعُ المعـرُوفَ دُونَ القَـوارِصِ
يَظَـلُّ مُعـادِيـه وطَالِـبُ رِفْـدِهِ ... علىٰ شَرَفي رِفْدٍ ، وَمَوْتٍ مُغَافِصِ

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص١٣ .

فهذا مديح بما يشبه الذم ، يقول إن ممدوحه جبان ، ولكن جبنه هذا عن السوء والمنكر ، وهو جبن محمود لأن فيه خوف من الله، لايقدم على السيئات نتيجة لخوفه من الله ، أو لأنه يترفع بشخصه عن مواطن الزلل فلايدنس شرفه بتلك السيئات ، ولكنه مقابل هذا الجبن المحمود ، في مواطن القتال والنزال بطل جسور لايقارعه الأبطال لجسارته وإقدامه ، وهو يحمد له الإقدام ويذم الجبن ، فالعطاء ـ الجود ـ والبسالة والإقدام في الحروب هما خلتاه اللتان امتاز بهما عن غيره .

كثيرة مكارم الأخلاق التي يحرص الشاعر في أي عصر على نسبتها لذاته أو قومه أو السادة الذين يقصدهم بالمديح حامدا فعالهم ، ومجسدا صفات الكرم ، والنجدة والوفاء ، وصواب الرأى ، وغيرها .

ولكن ابن الرومي يضيف لهذه الخلال صفة رأى أنها منتشرة في عصره وهي الدّهاء ، حيث غلبت على الناس في العصر العباسي يقول[1]:

لَوْذَعِيٌّ ، لَه فُؤادٌ ذَكِيّ ... مَاله في ذكائِه مِن ضَرِيبِ
يَقِظٌ في الهِنَاتِ ، ذُو حَرَكاتٍ ... لِسُكُونِ القُلُوبِ ذَاتِ الوَجِيبِ
ألمَعِيٌّ يَرَى بِأَوّل ظَنٍّ ... آخِرَ الأمْرِ مِنْ وَراءِ المَغِيبِ
لايُرَوّي ولايُقَلِّبُ كَفّاً ... وأكُفّ الرِّجالِ في تقليبِ
حَازِمُ الرّأيِ لَيسَ عنْ طُولِ تَجرِبـ ... ـبٍ ، لَبِيبٌ ولَيْسَ عَنْ تَلْبِيبِ
وأَرِيبٌ ، فإنْ مُرِيغُو نَداهُ ... خَادَعُوهُ رَأَيْتَ غَيْرَ أَرِيبِ
يَتغَابَى لهُم ، وليْسَ لِمُوقٍ ... بَلْ لِلُبٍّ يَفُوقَ لُبّ اللّبِيبِ
ثابتَ الحَالِ في الزّلازِل ، مُنْها ... لٌ لِسؤّالِه انْهِيالَ الكَثِيبِ
ليِّنٌ عِطْفَهُ ، فإنْ رِيمَ مِنه ... مَكْسِرَ العُودِ كانَ جِدّ صَلِيبِ

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص١٣٠ .
(٢) مريغو نداه : الذين يودون كرمه وعطاءه .
(٣) الموق : الحمق ، اللب : العقل .
(٤) ريم : قصد وأريد .

هـذه صـورة مـن أكثر صـور ابن الـرومي جدة وطـرافة ، وإظهـارا لكوامن التفرد في الذات ، فقد أسبغ على ممدوحه معظم الفضائل والمكارم ، فهـو حكيم ، ماهر، لامثيل لـه ، مقدام يحل الأمور الصعبـة ويعـرف نهايات الأمور من بداياتها ، لايعرف التردد في الأمور كلها ، واثق من نفسه ، عاقل لبيـب فطـن ، يتظاهر بالغبـاء لمن يخدعه ، ليس لضعـف أو جهـل ولكن لحلم وحكمـة ، صامد للمصائب والبلايا ، جم العطاء ، كريم النفـس ، امتاز عن غيره بسعة الصدر ، فإذا أريد له الذل كان صلبا لايثنى ولايكسر .

البيـت الثاني طرق فيه ابن الـرومي نفس المعنى في هـذه الصـورة حين قال[1]:

فَتىً كُلُّ عِلْمٍ فَهْوَ فِي سَكَنَاتِهِ ... وَكُـلّ ذَكَـاءٍ فَهْـوَ فِـي حَرَكَاتِهِ
يُعبِّس والإنْصافُ تَحتَ عُبُوسِهِ ... وَيَضْحَـكُ والإينَـاسُ فِـي ضَحِكَـاتِهِ

فقد تعرض شاعرنا هنا لسلوك الإنسان المتلبس بالمعنـويات فمدح بالعلم وبين أن هـذا العلم يظهر في حركـات وأفعال هذا الممـدوح فلايصدر له فعل إلا ويدل على ذكـائه وعلمه وفطنته للأمور ، وهو عـادل حتى في غضبه لأن الحق مستقـر في ذاته ـ لـك اللـه ياابن الرومي ـ أي إنسـان ممـدوحك هذا بحيث يجمع تلك الفضائل كلها دون أن تخل إحداها بالأخرى .

جرت العادة أن يمدح الشعراء بالكرم والجود ويشبهـون الكريم بالبحر والغيث ، ولكن دون تفصيل ، وابن الرومى هنا يشبه جود ممدوحه بالبحر ولكنه كعادته ينظر للأمر من زاويتيه الحسنة والضارة ، فيحـذر الشاعر طالبي رفد هذا الممدوح بأنه كالبحر في كلا حاليه ـ الخير والشر ـ فكما أن فيه ري وغنى فيه غرق وهلاك ، وهذا حال الممدوح كذلك يقول[2]:

ألاَ فارْجُهُ واخْشَهُ ، إنّه ... هُو البَحْرُ ، فيه الغِنىٰ والغَرَق
ألاَ فارْجُه واخْشَه ، إنّه ... هُو الغَيثُ ، فِيه الحَيا والصَّعَق

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٤٣٠ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٣٢١ .

مُضِرٌّ بِمُلتَمِسٍ ضَرَّه ... وَفيه لِمُرتَفِقٍ مُرتَفَقْ
هُو السَّيفُ إنْ أنتَ أنحَيتَه ... لِرَأسِكَ أوْ رَأسِ قِرْنٍ فَلَقْ
هُو المَاءُ فاشْرَبْه ذا غُلَّةٍ ... وذا غُصَّةٍ ، وتَوَقَّ الشَّرَقْ
هُو النَّارُ فاصْطَلِها واسْتَضِيءْ ... بِها فِي الدُّجى ، وَتَوَقَّ الحَرَقْ

هذا الممدوح في الخير والشر مثل البحر فيه غنى بالصيد واستخراج الخيرات منه وفيه غرق لمن لايعمل بأصول النجاة والسلامة ، وهو كذلك مثل الغيث فيه حياة للأرض والناس والحيوان ، وفيه كذلك هلاك بالبروق والصواعق المهلكة .

وهذا الممدوح يجعل لكل موقف قدرا فهو في وقت الشدة شديد وهو عند اللين والرخاء لطيف رفيق ، وهو في فعليه هذين مثل السيف ماض قاطع لايفرق بين أحد ، وهو كذلك مثل الماء يحتاجه الناس في جميع الأحوال فيطفىء به الصديان ظمأه ويشربه من أصيب في أكله بغصه ليسهل بلع طعامه ولكن على كثرة فوائده هذه قد يهلك به الإنسان في حال الشرق به ، وهو مثل النار كذلك في فوائدها ومضارها ، فبها يستضيء الناس ويستدفئون وفيها كذلك هلاك بالحريق ، فهذا الممدوح قد جمع صفات عدة ففيه الصفة وضدها وهو في كل ذلك مثل عناصر الطبيعة التي لاغنى للإنسان عنها وإن كانت تحل في جانب منها بالخير وفي الجانب الآخر الشر والضر ولكن لابد من وجودها ، وانتفاع الناس بها ، ومع ذلك لاينجون من مضارها وشرها .

وفي هذه الصورة دعوة صريحة من ابن الرومي لقيمة إسلامية عظيمة لابد من الإلتزام بها حتى يتمكن الإنسان من العيش بسلام وهي قيمة "التوازن" والاعتدال في كل أمور الحياة .

وكما أدت السعة في البذل والعطاء إلى أن يشبه الممدوح بالبحر والغيث أدت كذلك إلى أن يصف الشاعر ممدوحه بتلين الوجه وبشره ، وطراوة الكف ولينها ، فكأن ذات الممدوح حين تكون قادرة على الجود

والعطاء داحرة للشح والبخل والأثرة تصبح لينة عطوفا ، يقول في كل ذلك[١]:

يُعْطِي الرَّغائِبَ جُودًا مِن طَبيعَته ... لَاكالْمُتاجِر بالْمَعْرُوفِ أَحْيانا
لايَسْتثيبُ بِبَذْلِ العُرْفِ مَحْمَدةٍ ... ولاتَراه بِما أسْداهُ مَنَّانا

الكرم في ممدوحه طبيعة وسجية من سجاياه وهذا خلق لايوجد في غيره ، وشاعرنا يعرض ببعض معاصريه الذين يعطون العطية ولهم من ورائها مقاصد شخصية ، بينما ممدوحه لاغاية له من وراء بذله وجوده فكأن هذا الخلق ميزة له دون غيره ، وإن وجد في غيره فهو تبع له أو مجرد قشور ومظاهر ، لاتتصل بالطبع والمزاج كما هي طبيعة ممدوحه الذي لايمن ولايذكر ماأسداه من نعم أبدا .

وقريب من هذه الصورة قوله[٢]:

جُدْتُم فَلاجُودَ إلاّ دُونَ جُودِكُم
وَنِلْتُمُ من عَظِيم الجُودِ ماشَطَنا
أَنْتم غُيوثٌ نَدىً تُرجىٰ وأُسْدٌ وَغَىً
تُخْشىٰ ، وأَقْمارُ لَيلٍ تَكشِفُ الدُّجُنا

لاشبيه في نظر ابن الرومي لجود ممدوحيه لأنهم فاقوا بذلك كل جواد فهم مثل الغيوث التي ترجىٰ لتحيي البلاد ، وهم كذلك كالأسد التي تخشىٰ لقوتها ، وهم كذلك مثل الأقمار في العلو والهداية ، حيث يهتدي بهم قومهم وبآرائهم في كشف الملمات والكرب الشداد ، مثل مايهتدي الضال بالنور الذي يصدره القمر ويبصر به طريقه في الليل المظلم .

إن مضامين المديح عند ابن الرومي لم تقف عند الجانب الخِلْقي أوالخُلقي ولم تقف عند حدود الخصال المألوفة التي أصبحت محدودة المعنىٰ قاصرة الأداء ، بل هناك مضامين جديدة أدخلها ابن الرومي في مدائحه ،

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص٢٦٩ .
(٢) الديوان ، ج٦ ، ص٣٠٣ .

لأنه تنبه لقيم جديدة فرضت نفسها في العصر العباسي منها قيمة العلم والأدب ، وجودة الكتابة ، وقد حاول من خلال مدائحه بهذه القيم أن يرفع الشعار المناسب لعصره يقول(١):

جَلَّ نُبلا ودَقَّ لُطفاً وأَضْحَىٰ ... والهَوىٰ والعُقُولَ طَوْعُ اقْتِيادِهِ
جَبلُ الحِلْم ، لُجّةُ العِلْم ، لا ... يُطْمَعُ في نَسفِه ، ولااسْتِنفادِهِ
تَستفيدُ الوَقارَ مِنه الرَّواسي ... وتَقِرّ البِحارُ لاسْتِمدادِهِ
أَحْنفُ الحِلْم قَيْسِه . حِين يَهفو ... كُلّ حِلْم . عَمْرُو الدَّهاءِ ، زِيادِهِ
صَفَدُ المستَميحِ مافي يَديْه ... ويَدا مَن بَغاهُ في أَصْفادِهِ
فِيه سَهلٌ ، وفِيه حَزْن وفيه ... ماكَفَىٰ مِنْ ذُعافِه وشِهادِهِ

أخلاق هذا الممدوح فوق الوصف ، لايصدر في أحكامه عن هوىٰ ، بل الهوىٰ والعقل مِقْوَدُها بيده ، في النبل جليل وفي اللطف دقيق ، يقابل بينهما بطريقة بليغة ، هذا الممدوح حليم ، حلمه كالجبال ، وعليم لايغنىٰ من العلم بل يطلب الزيادة باستمرار ، فاق بوقاره الجبال ، وبجوده البحار ، في الحلم لامثيل له إلا الأحنف بن قيس لشهرته بالحلم ، وهو في الدهاء لايقارن إلا بعمرو بن العاص داهية العرب ، وزياد بن أبيه لما شهر عنهما من الدهاء.

هذا الممدوح يعطي السائل ويجود بما في يده له ، بينما يكبل يد الباغي بالأصفاد ، ويعود كعادته فيأتي بالوصف ومقابله لدقة التصوير عنده فيبين أن هذا الممدوح فيه لين وشدة حين يقول : فيه سهل ، وفيه حزن ، وحين يشبه أخلاق هذا الممدوح بالشيء ومقابله فيقول إن أخلاقه كالعسل أحيانا وكالسم أخرى . يقول في مقام آخر(٢):

الرَّاجِحِ العَفِّ في كتابَته ... إذْ في سِواهُ نَقيصَةٌ وشَرَهْ
أَحاط عِلْماً بِكلِّ خافِيةٍ ... كأنّما الأرْضُ في يَدَيْهِ كُرَهْ

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٢١٧-٢١٨ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص٤٣ .

العـرف الغـالب في المديح أن يكـون بالبـأس والجود ، أمـا في هـذا النموذج فالمدح كله منصب على النواحى المعنوية مـن صفات الرجل كالعفة عن التبذل في الكتابة ، والطموح والوقار ، وحسن السمت .

لعل عصر ابن الرومي قل فيه التروي وتحكيم العقـل في الأمور العامة ممـا كان له أثره في نفوس النـاس ومنهم شاعرنا الـذي مدح بصفات يرجو تمثلها في قومه[1]:

حَكيمٌ ، عليمٌ ، يَغْمُرُ النّاسَ حِلْمُه ... إذَا فَرَطَتْ مِن جَهْلِ قَومٍ فَوارِطُ
علىٰ أنّه مِمّـنْ يُهـاب عَـدُوّه ... شَذاهُ ، كمَا هَابَ القَتادَةَ خَارِطُ
لذيذٌ علىٰ الأفْواه مُرّ مَسَاغُه ... إذَا هُـو رامَتْه الحُلُوقُ السَّوارِطُ
متىٰ ذِيقَ لمْ يلْفِظْهُ مِن فِيه ذَائِقٌ ... وعَـزّ فلـمْ يَسْرُطْهُ إذْ ذاكَ سَـارِطُ
ضَعيفٌ علىٰ المرءِ الضَعيفِ وإنّه ... لأشْوَسَ عدّاءٌ علىٰ الدَّهْـرِ قَاسِطُ
فَتـىً خُلِقَتْ كَفّاهُ للجُـودِ آلَـةً ... فَأُطْلِقَتا مُـذْ أُطْلِقَتْهُ القَـرَامِطُ
هُو النَّخلةُ الطُّولىٰ أبَتْ أنْ تَنالَها ... يَـدانٍ ، ولكـنْ يَنْعَهَـا مُتَسَـاقِطُ

نادرا مـانجد الإنسان العليم الـذي لايند عنه فعل دون حلم وروية ، إذ فقـد الحلم في عصر ضاع فيه العلم ، ولكـن ابن الرومـي كعـادته يحاول بعث القيم التي يرىٰ أنها بدأت تندثر فيمدح بها مرغبا فيهـاخاصة الحكام والوزراء يقـول : إن ممدوحه لعلمه يحكـم حلمه في الأمور كلهـا خاصة المستعصية ، حين يجهـل غيره ، ويفـرط في الجهـل ، وهذا الممدوح مهـاب الجانب شـديد البـأس في ذكـره حياة لأوليـائه ، لأن فعاله كلها طيبـة فهـو كريم جواد ذو خلـق حسـن ، وكـذلك في ذكره مـوت لأعـدائه لقوة بأسـه يهـابه الأعـداء ويخشـونه ، رحيم بالضعفـاء ، شـرس علىٰ الأعـداء ، معـادٍ للـدهر وتقلباته ، طبعـت نفسـه علىٰ الجود وأخذت يداه علىٰ العطـاء فكـأنه ولـد وهـو يعطـي لاشبيـه لـه ـ في رأي الشاعـر ـ سوىٰ النخلة العالية البعيـدة ، حيـث ترتفع وتتطاول في السماء وجنيها قريب يتناوله الكل مع طيب ثمارها .

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٦٩-٧١ .

كعادة ابن الرومي يقلب المعنىٰ الواحد علىٰ كل وجه ويعيد النظر فيه فيوجز ويجمل ، أويشرح ويفصل ؛ يقول في صورة مختلفة يعرض نفس المعاني السابقة تقريبا من كرم وحلم وعلم وغيرها[١]:

أَخُو خَمْسِ خِلاّتٍ حِسانٍ رَوائِعٌ ... قد اتّسقت فيه اتّساقَ البَراجمِ
جَمالٌ وإفْضالٌ وظَرفٌ ونجْدةٌ ... ورَأيٍ يُريه الغَيبَ لارَجمُ راجمِ
فَتىً يَرأَمُ المَولىٰ ويَشْمخُ لِلْعِدا ... بأنْفٍ حميٍّ لايَذِلّ لِخارمِ
يلينُ بِعِطْفٍ غَيْرِ كزٍّ لعاطفٍ ... ويأبىٰ بِعطْفٍ غَيرِ لَدْنٍ لهاضِمِ
حَلا لِشِفاهِ الذّائِقينَ وإنّه ... لكالصّابِ في أحْلاقِهم والبَلاعِمِ
يَروحُ ويغْدو مَانِحاً غَيرَ تارِكٍ ... شِماسَ المُحامي ، مَانِعا غَيرَ حارمِ
عَطَارِدُ الحُلْوَ الظَّريفِ مُسالِماً ... وبِهْرامُ الشّريرُ غَيرَ مُسالمِ

لقد امتزجت براعة المعاني وسعة الخيال مع دقة التصوير ، وتناغمت كلها في إيحاء هذه الصورة الأدبية فيحس قارئها بالراحة النفسية من خلال موسيقى الأبيات ، وتهتز نفس القارىء إجلالا لهذه المكارم ، والصفات .

هذا الممدوح امتاز بخمس خصال متناسقة متكاملة من جمال خِلقةوخُلُق فيه عطاء وجود وخفة حضور ونجدة، وإغاثة الملهوف ، والرأي الصواب يعطي كل ذي حق حقه، لين لأوليائه شديد قاس مع أعدائه ، يحلو ذكره لأوليائه ، ويغص بذكره الأعداء ، فى العطاء والجود لايحرم أحدا في السلم مثل كوكب عطارد القريب في الرخاء والفرح ، وفي الغضب لاشبيه له سوىٰ كوكب المريخ في البعد .

تنوعت أساليب ابن الرومي وتعددت صوره التي مدح بها وإن كانت معانيه متقاربة - إن لم تكن واحدة - ومع هذا فإن صوره تأسرنا ولانملك إلا الإشادة بها إذ نقف معه في كل صورة علىٰ إيحاء جديد وعرض مثير لقيمة معروفة ومكررة في مدائحه ، انظر له يقول[٢]:

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص٤٠-٤١ .
(٢) الديوان ، ج٥ ، ص١٨٠ .

هُمَ جَبلُ اللهِ الذي لَو أَزَالَه . وحَاشَاهُم . مازَال للأرْضِ زِلْزالُ
وَهُمْ آمِنَاتُ اللهِ بيْنَ عِبادِه فَلَوْ فُورِقُوا مافارَق النّاسَ بَلْبالُ
ولمْ يُخْلَقُوا أبْطالَ عَسفٍ وشِدّة ولكنّهُم بِالرِّفق واللّين أبْطالُ
علىٰ أنّهم جُودًا بِحارٌ زَواخِرُ وإنْ طُولِبُوا بالحِلْم يَومًا فَأجْبالُ
مَيامِينَ يُضْحي مَنْ تَولّوا أُمُورَه مَلِيًا بأنْ يُجبىٰ لَه الحَمْدُ والمَالُ

فهؤلاء القوم ـ في نظر الشاعر ـ وبالنسبة للناس تمتعوا بصفات وأخلاق تجعلهم كالجبال بالنسبة للأرض دعائم لاتستقر بغيرها ، فكذلك الناس بغير هؤلاء القوم لااستقرار لهم ولادعامة ، إذ بهم يأمن الناس من المخاوف والمصائب ، ولولا وجودهم لم يفارق الناس الخوف والهلع ، وهم ليسوا أشداء متعسفين ، بل رفقاء لينين ، وكأني بابن الرومي يعرِّض هنا بفئة من الحكام والوزراء في عصره اتبعوا سياسة الشدة والتعسف ، دون تفريق بين الحق والباطل . ممدوحوه في الجود بحار وفي الحلم جبال ، كرام ومن يواليهم يضمن الحمد والغنىٰ لسعة جودهم وعظم أحلامهم . قريب من هذا قوله[1]:

لِلحِلْم والرَّأيِ فيهم حينَ تَخْبُرُهم شِيخَانُ صِدْقٍ وللْهَيجاءِ فِتيانُ
جُودُ البِحارِ ، وأحْلامُ الجِبالِ لَهُمْ وهُم لَدىٰ الرَّوْع آسادٌ وجِنّانُ
قَومٌ أيَادِيهمَ مَثنىٰ بِصَفْحِهِمُ عَن ذِكرِها وأيادِي النّاسِ أَحْدَانُ

ففي حلمهم وحكمتهم شيوخ لما عهد في الشيوخ من الحكمة وصواب الرأي لخبرتهم وهم في الحروب لبسالتهم وإقدامهم شبان شجعان ، هم في الجود بحار ، وفي الحلم جبال ، في الحروب ولدىٰ الوقائع لاشبيه لهم سوىٰ الأسود الضارية والجن الطائرة ، عطاياهم تتضاعف لأنهم يكتمونها ولايتحدثون بها ، وهنا يشير لقيمة إسلامية حميدة وهي كتمان الصدقة ومالها من أجر وثواب .

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص١٨٠ .

ضياع القيم وفقدان الاستقرار نتيجة لاضطراب الأمور ، وتقلب الأحداث أدىٰ إلىٰ الاختلال في كل شيء وفقدت الحياة معناها ، كل هذا أوحىٰ لابن الرومي أن يمتدح بتلك القيم الاجتماعية رغبة في إحيائها وبعثها من جديد في نفوس العباسيين يقول(١):

لَكَ المَثَلُ الأعلىٰ علىٰ النّاس كُلهم ... وإنْ غِيظَتْ الأكْبادِ حتىٰ تَصَدّعا
علىٰ أنك المُذكي علىٰ كل خُطّة ... تَضمّنتها قَلباً من الجَمْر أصْنَعا
وأنك مَنْ سَاسَ الأمُورَ بِحكمَةٍ ... فَمَا رِيمَ ماأحْمىٰ ولاضِيمَ مارعَى
ولكنّك المَخدوعُ صَفْحاً ونائِلاً ... فَتَصْفَح وضّاحاً ، وتَمنَحُ أرْوَعا

يعلم ابن الرومي كما يعلم غيره أن المثل الأعلىٰ لابد أن يحوز علىٰ صفات وأخلاق يفضل بها غيره حتىٰ يكون قدوة ، وممدوحه هنا في مقام المثل الأعلىٰ لكل الناس وإن غيظ بعضهم ، ثم برر ذلك بأنه لم يصل لهذا المقام إلا لكونه تمتع بمكارم الأخلاق ، وامتاز عن غيره بفكر متقد وذكاء ثاقب ، كما أن رأيه وتصرفه حكيم ، لايضام لديه أحد لأنه يعطي الأمور حقها ، لايضيع لديه حق ، يصفح ويسامح المسيء حتىٰ يدرك الخطأ فيرتدع عنه ، ويعطي الجزيل دون مطل ولامنة.

يقول في صورة بليغة :

لكنك المخدوع ـ صفحا ونائلا ـ مستثيرا سمع المخاطب حتىٰ يعي القيمة الممدوح بها .

يقول في مقام آخر ممتدحا بالعفة إضافة للجود والشجاعة(٢):

نَظِيفِ السِّر عَفٍّ حينَ يَخْلو ... جَميلِ الجَهْرِ حُلْوٌ حينَ يبْدو
له خُلُقَانِ من بَأْسٍ وجُود ... يَسُوسُ كليْهما الرَأْيُ الأسَدّ
يُنادىٰ باسمه غَيثٌ ولَيْثٌ ... هِزَبرٌ يفْرِسُ القَصْراتِ وِرْدُ

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص١٠٦ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٢٧٥ .

ففي البيت الأول يشير إلى أن الرقيب لابد أن يكون داخل الإنسان وهذا سينعكس على تصرفاته وأفعاله حتما فمن حسن سره حسن جهره ، هذا الممدوح إضافة لعفته وعلو همته له خلقان يحسن بالمرء التحلي بهما وهما الجود والشجاعة الناتجة عن رأي صائب حتى تكون محمودة .

وهو في هذين الخلقين يفوق الغيث والليث ، جودا وشجاعة .

معاني مكررة ومألوفة ولكن ابن الرومي يلبسها من الصياغة الفنية مايجعلها متجددة .

"ابن الرومي شخصية عظيمة بالتجدد ، وذوقه عظيم الاستقلال ، وهو لهذا من الشعراء القليلين في العربية ، الذين جاءوا بجديد حقا ، والذين أضافوا إلى ثروة تجاربنا الإنسانية عمقا أدبيا وأثرا فنيا"(١).

فهو حين يعبر عن قيم أخلاقية يدعو لها في مديحه ، لأنه آمن بها قيما كانت سائدة في المجتمع العربى ، ثم اندثرت وشهد في عصره تخلي الناس عنها ، فلم يجد بدا من إحيائها عن طريق الشعر والمديح بها ، يقول(٢):

مُتَسَرْبِلٌ ثوبَ الشَّبابِ ولمْ يزلْ ... بالحَزْمِ فِيه والوَقَارِ تَكَهّلُ
فِيه إذا افترضَ البِدار تَسَرّع ... ولَه إذا حُذِرَ العِثارُ تَرسّلُ
حَمّالُ أثقالٍ يَقُومُ بِحمْلِها ... كالطَّودِ ليسَ بِجانِبَيه تَخَلْخُلُ
هو جَوْهَرٌ والناسُ أعْراضٌ وهُم ... يتبدّلون وليْسَ فِيه تَبَدُّلُ
وتَرى نوافِلَ ماأتَيْتَ فَرائِضًا ... والفَرْضُ عِنْدَ بَنِي الزّمانِ تَنَفُّلُ
مُتغافِلاً عنْ ذِكرِ مَاأسْدَيْتَه ... وإذَا وَعَدْتَ فَذاكِرٌ لاتَغْفُلُ
مُتواضِعًا أبدًا وقَدْرُك يعْتلي ... مُتضائِلاً أبدًا وأمْرُك يَعْبُلُ
فُقْتَ الأنَامَ صَنيعةً وصَنَائِعًا ... لازِلْتَ تَسْتعْلِي وقِرْنُك يَسْفُلُ

---

(١) د. محمد النويهى ، ثقافة الناقد الأدبى ، ط/ثانية ١٩٦٩م ، بيروت ، ص٢٦٣ .
(٢) الديوان ، ج٥ ، ص٢٥٣-٢٥٥ .

هذا الممدوح فيه حكمة الشيوخ ووقارهم ، مع أنه شاب ، فهو رجل مواقف يحمل الثقل ويفك الأسرى ، وهو في كل ذلك كالجبل الضخم ، هو كالجوهر والناس كالأشكال لأنه لايتغير، ولايتبدل ، إذا كان من صفات الناس التبدل والتحول ، وهو يعمل الصنيعة ويقدم المعروف ، ويرىٰ أنها فرض عليه ، ينسىٰ ذكرها ولكنه لاينسىٰ وعده بالعطاء ، وهذان البيتان في صميم ماننشد عن إنسان عصر ابن الرومي ، وقد وعىٰ شاعرنا جوهر ذلك الإنسان وعرض هذه الحقيقة في إطار فني مناسب ، فهذا الممدوح علىٰ عظم شأنه وعلو قدره ، متواضع وتواضعه هذا لايزري به ، بل يعليه ويرفع من قدره ، فقد فاق أقرانه في الخُلُق والأخلاق ، فلامجال للمقارنة بينه وبينهم .

حوت هذه الصورة من المعاني الإسلامية الكثير منها : صدقه السر في قوله "متغافلا عن ذكر ماأسديته" ، ومنها الوفاء بالوعد "وإذا وعدت فذاكر" والتواضع ، كل هذه الفضائل دعت لها شريعة الإسلام وأرشد لها كتاب الله العزيز وحثت عليها السنة الشريفة في غير ماموضع .

عرف الناس الوشم في عصر ابن الرومى لكن أي ناس هم الذين عرّفوه!! حاول الشاعر أن يظهر لنا صورة تدل علىٰ الوشم وجماله ، فأظهر ذلك من خلال مديحه الذي يقول فيه[1]:

فَتىً حَسُنَتْ أسْمَاؤُه وصِفاتُه ... فَأضْحَتْ بها أيْدي الكَواعِبِ تُوشَمُ
فَتىً كَمُلتْ فيه الفَضائِلُ كُلّها ... هَنِيئاً لـه الحَظّ الـوَفاءَ المُتَمَّمُ
فَلاخُلّةٌ مِنها أضَرَّت بِخُلّةٍ ... علىٰ أنّه في كُلِّها مُتَقَسَّمُ
حَليمٌ ، إذا ماالحِلْم أحْمدَ غِبّه ... وأدّىٰ إلىٰ العُقْبىٰ التي هي أسْلَمُ
جَهُولٌ علىٰ الأعْداءِ جَهْلَ نِكايَةٍ ... يُداوىٰ به جَهلُ الجَهُولِ فَيُحْسَمُ
عَفوٌّ ، إذا ماالذّنْب لم يَعْدُ حَدّه ... إلىٰ الوِتْر تَبّاعٌ قفَا الوِتْر أرْقَمُ

هذا الممدوح حسن الصفات والأخلاق مشهور بها ، فكأن هذه الأخلاق لجمالها وشهرتها وشم تحلي به الفتيات كفوفهن .

---

(١) الديوان ، ج٥ ، ص٢٨٠-٢٨٢ .

وكعادة شاعرنا يقلب المعنىٰ علىٰ كل وجه فهاهو يعيد نفس المعنىٰ السابق ولكن في صورة جديدة وبألفاظ لها إيحاؤها الخاص يقول :

فتىً حَسُنَتْ أسْماؤُه وصِفَاته فأضْحَتْ وُشُوماً في بُطونِ المَعاصِم

ولكنه زاد علىٰ هذا المعنىٰ معنىً آخر يزيده قوة ويكون له أثره في النفس فقال :

وَلَوْ وَسَمَ النّاسُ الجِباهَ بِمدْحِه إذاً لاسْتَلَذّ النَاسُ لَذْعَ المَيَاسِمِ

ومن الذى يطيق لذع النار ـ أو ماتوسم به الماشية ـ حتىٰ يستلذه ولكن مبالغة الشاعر وحرصه علىٰ إظهار تلك المعاني بالمظهر الذي يرىٰ أنه ملائم جعله ينطق بهذه الصورة ، فهذا الممدوح لعظم مكارمه وصفاته ، اجتمعت في شخصه كل الفضائل والخلال بحيث لايطغىٰ جانب منها علىٰ الآخر ، فكلها متوازنة .

كذلك رأىٰ ابن الرومي أن صفة الحلم والعفو بدأت تندثر في عصره فحاول تصويرها وتجسيدها لممدوحه حتىٰ يلفت نظر معاصريه لها ويرغبهم في التحلي بها ، فهذا عصر مليء بالعنف والقسوة والبطش ، الأحكام فيه جائرة ومتسرعة ، نادرا مانجد الإنسان الحليم المتروي الذي يزن الأمور بميزان العقل والحكمة ، ولكن ابن الرومي يعود للاحتراز فيؤكد أن هذه الصفة مطلوبة دون إسراف أو ضعف يُطمع السفهاء في الممدوح بل هو رجل مواقف يعرف متىٰ يكون العفو والحلم في مكانه ولكن إذا جهل عليه يقابل الجهل بجهل أعظم ، يعفو عن المخطىء إذا لم يتعد الأخذ بالثأر .

كثيرا ماخلط الناس بين كرم العطاء وكرم الطبع والأخلاق وفي أحيان كثيرة يكون كرم الخلق والمعاملة هما الكرم الحقيقي ، إذ التهلل والبشاشة في وجه الضيف يكون لها الأثر النفسي العظيم ، فقد يكتفي السائل باستقبال حافل وبشاشة صادقة ـ وقد لحظ شاعرنا هذه الصفة ومالها من عظيم الأثر في نفس الضيف فمدح بها حين قال[1]:

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص١٥ .

فِيه بَشَاشَةُ وَصَّالٍ وَرَونَقُهُ ... وفِيه إنْ رابَ رَيْبٌ حَدُّ صَرّامِ
وزيرُ سِلْمٍ وحَرْبٍ لاكفاءَ لَه ... مَازالَ حَمّالَ أرْمَاحٍ وأقْلامِ
إذَا ارْتأىٰ الرّأي في خَطْبٍ أُتيحَ لَه ... فِيه السَّدادُ بِفِكْرٍ أَوْ بالْهامِ
فَلَمْ يَهِمْ بَيْنَ إنكارٍ ومَعْرِفَةٍ ... ولَمْ يَخِمْ بَيْنَ إحْجَامٍ وإقْدامِ
كَم اشْترىٰ بكرىٰ عيْنَيْهِ مِن سَهَرٍ ... وبَاعَ في اللّهِ لَذّاتٍ بِآلامِ

قمة الكرم في رؤية ابن الرومي الاستقبال الحافل والبشاشة في وجه الضيف ، وهذا الممدوح يهش لضيوفه ويبش في وجوههم ولكنه في الحرب لايعرف تلك البشاشة بل يعرف الشدة والتجهم ، يجمع بين سداد الرمي بالرماح وسداد الكتابة بالأقلام فهو ذو فكر ورأي سديد ، بل هو كذلك صاحب علم ومعرفة وإقدام وبسالة في الأمور كلها ، جمع مقومات الرجولة وأسباب السيادة التي جعلت منه حاكما وقائدا بارع الأوصاف حميد الخصال وهذا الممدوح مع كل هذه الصفات له صفة خاصة بالعظماء الذين امتازوا عن الغير بها وهي طاعة الله وذلك من خلال عمل يفوق كل الأعمال وهو قيام الليل . حين ينام الناس وينعمون بالفراش الوثير يقوم هو عابدا لله في ظلمات الليل ، وهو لايتبع نفسه هواها فكم باع من ملذات وهوىٰ ابتغاء رضوان الله .

قريب من هذا المعنىٰ قوله يمدح قائدا من قواد العصر العباسي مضفياً عليه من صفات القادة والعظماء مايتمنىٰ المرء لو وجدت في شخصه حين يقول(١):

فَتىً هاجَرَ الدُّنيا وحرَّمَ ريقَها ... وهلْ رِيقُها إلاّ الرّحِيقُ المورَّدُ؟
أَباها ، وقَدْ عَنَّتْ له مِن بَناتِها ... كَواعِبُ يُصْبِينَ الحَليمَ ، ونُهَّدُ

أتىٰ بالمعنىٰ مجملا في الشطر الأول ، ثم فصله حين بين أن هذا الريق هو الخمر فهو يمدح هنا كبرياء الرجل وعزته ومن ثم ترفعه عن اللذات

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص١٢٤ .

والتهالك عليها ، ومع أن الدنيا لم تتركه فقد تعرض عليه صورا تغرىٰ وتسلب اللب وتستغوي غيره إلا أن ترفعه عن تلك الملذات جعلت منه إنسانا مثالا في القيادة والعظمة .

وفي الصورة السابقة عرض لنا ابن الرومي قيمة أخلاقية محمودة ولكن بطريقة فنان يعرض الأشياء متلبسة بلباس الزينة التي تثير الأذواق وتجذب الانتباه في صورة خيالية تجعلنا نقف أمام هذه الصورة معجبين بها وبطريقة عرضها ـ القيمة الفنية ـ .

من الناس من يأسرنا بحسن حديثه ، إذ نجد لكلامه وقعا خاصا في أنفسنا ، وقد نَحِنُّ للحديث معه في مواضع شتّىٰ وأمور مختلفة .

وابن الرومي يعي هذه الحقيقة فيمدح بها ولكنه يختار من الناس من هو أهل لهذه الصفة فرأىٰ أن هناك من جمع بين صفات الخير وفضائل الأخلاق مع رفعة مكانه وعظيم سلطانه حين قال[1]:

مَلِكٌ حَلا مَخْبُورُه ورُواؤُه ... فَحَلا علىٰ الأَسْماعِ والأَفْواهِ
عَذْبُ اللِّسانِ ولَنْ تَراهُ كَلِيلَه ... عَضْبُ اللِّسانِ ولَيْس بالعَضّاهِ[2]
نَاهِيك مِن صَمْتٍ بِلاعِيٍّ به ... وكَفاكَ مِن لَسَنٍ بغَيْرِ سَفاهِ
مُتيقِّظٌ أبَداً لِفعْلِ كَرِيمَةٍ ... وَعلىٰ الطِّلاب لشُكْرِها مُتَساهِي
مَلَكَتْ سَكِينَتُه عَلَيْه أَمْرَه ... فَكأَنّه ساهٍ وليْسَ بِسَاهِي
عَفا وعَامَل بالأَناةِ عَدُوَّه ... فَكأَنَّه لاهٍ ولَيسَ بِلاهِي
مازَال يُؤنِسُه جَمِيلَ فِعالِه ... قِدْماً ويُوحِشُه مِن الأَشْباهِ[3]

فهذا ممدوح ذو حديث عذب لايمل قد جمع بين حسن المظهر والمخبر أرهفت له الأسماع ، وسهل ذكره وجرىٰ علىٰ الأفواه لأنه متحر للصدق لايكذب ، ولاينم ، صمته إن صمت عن حكمة لاعي ، وحديثه إن تحدث عن بلاغة لاسفاهة .

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص٣٥٢-٣٥٣ .
(٢) العضّاه : الكذاب والنمام والساحر، ومنه العضيهة : أي البهتان والزور .
(٣) يُوحشه: يُفرده . أي أفعاله تجعله وحيداً بين أبناء جنسه .

وقد طرق هذا المعنىٰ من قبل حين قال[١]:

صَمُوتٌ بِلاعِيٍّ ، له مِن بَلائِه نَواطِقُ تَسْتَدْعِي الرَّجاءَ وتَزْأَدُ

هـذا الممـدوح يعمـل الخير ولايطلـب عليـه الشكـر ، ذو سكينـة غير متعجـل في الأمور وليس بالسـاهي الغافل ، وكذلك لـه أناة وحلم حتىٰ يظن من يراه أنه لاه وليس باللاهي ولكنه يجعل لكل موقف حقه الذي يستحق ، أفعاله تجعله وحيدا بين أبناء جنسه لطيب أخلاقه وتفرد صفاته .

"الإعجاب بالفضيلة وبمن يتحلىٰ بها والمشاركة الفعـالة في تكييف المعاني وبلـورة المثل العليا ، والدعـوة الصريحة إلىٰ الالتزام بهـاواعتناقها ، وتوجيه الإنســان العـربي نحو التقيـد بهـذه القيم في أخلاقـه وتصــرفاته ، وعلاقـاته وارتباطاته ، هذه الصورة كانت هدفاً أساسيا في إصلاح المجتمع"[٢].

وقـد طرق ابن الرومي هـذه الوسيلة حين مدح بصفـات منـدثرة وهو يحاول بعثها ونشرها بين الناس من ذلك قوله[٣]:

فَتىً صَرَحَتْ خَلائِقُه قَديماً فَلَيْسَتْ بِالسِّمارِ ولاالشِّهابِ
ولمْ يُخْلَقْنَ مِن أرْيٍّ جَميعاً ولكِنْ هُنَّ مِن أرْيٍّ وَصَابِ
ومَامِن كَانَ ذَا خُلُقَيْنِ شَتّىٰ وكَانا مَاجِدَيْنِ بِذي ائْتِشابِ
له حِلْم يَذُبّ الجَهلَ عنه كَذَبِّ النَّحْلِ عَن عَسَلِ اللِّصابِ
يَلينُ مُلايَناً لِمُلايِنيهِ وَيَخْشُنُ للمُخاشِن ذي الشِّغابِ
كخُوطِ الخَيْزرانِ يُريك لِيناً ويأبىٰ الكَسْر مِن عِطْفَيهِ آبِ

فهـذا الممدوح سيد في قومـه ، إذا ذكر اسمه انتهـت إليـه الفضائل ، ووقفت المكارم عليه ، لشمائله الخالصة من الرياء ، وأخلاقه الصريحة ، التي لم تمسهـا شـائبة فهـي ليست سهلـة لينـة ، أو سـائغة عـذبة ، ولكنهـا حلـوة للخلان والأصـدقاء ، مرة علىٰ الأعـداء والخصوم ، ولايدل التقـاء المتناقضين

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص١١٦ .

(٢) د. نورى حمـودى القيسـى ، الأديب والالتزام ، دا ر الحرية ، بغـداد ١٤٠٠هـ ، ص٨٢ .

(٣) الديوان ، ج١ ، ص٢٨٥ .

عنده من المرارة والحلاوة على اختلاط في النسب ولكن عن قدرة وكفاية ، فهو لايتصف بالحلم الدائم الذي يطمع السفهاء من الناس فيه ، بل إن حلمه كما يغري بالطمع يدفع عنه السفه ، كالنحل الذي يذب العشاق لعسله عن خلاياه في الوادى .

هذه الصورة تفيض بالسيادة والشرف ، والشمائل الصريحة ، والخلق الخالص ، والهيبة النابعة من نفس اشتملت على الحلاوة والمرارة ، والحلم المحمود الذى يجمع بين الرغبة والرهبة[1] قريب من هذا قوله :

فتىً نزّهَه اللهُ عَن التَّقْبيحِ والقُبْحِ

فالإنسان عندما يحسن خلقه يترفع عن القبيح والسيء من الأعمال لانه يرىُ أن من غير اللائق أن يلحق بخلقته مايشينها ، وهذه دعوة صريحة من ابن الرومي للتحلي بفضائل الأخلاق وحميد الصفات .

أن تجتمع الفضائل كلها في شخص ما فهذا حسن وأن يكون الدين أول الفضائل فهو الأحسن هكذا يقول ابن الرومي في مديحه التالي[2]:

فَتىً ، وإنْ كانَ كَهلاً في جَلالَتِهِ كَهلٌ ، وإنْ كانَ غَضّاً غُصْنُه خَضِلاَ
ماظُنّ يَوماً بِه إتْيانُ سَيِّئةٍ حَقَّتْ ، ولاظُنّ فيه صَالحٌ بَطَلا
ومَارجا فَضْلَه راجٍ فَأَخْلَفَه ولاتَمَنّاهُ إلاّ قَال : قَدْ حَصَلاَ
إذا الْتقىٰ سَيْبُه والطّالِبُونَ لَه لاقَوْهُ بَحراً ، ولافىٰ شُكْرِهم وَشَلاَ

فممدوحه شاب لازال في ريعان شبابه ولكن له هيبة الشيوخ وحكمتهم ، مترفع عن كل شائنة لايفسد الصالح من أعماله كغيره من الشباب الذين يخلطون الصالح بالفاسد ، هو أهل لكل مكرمة لايخلف الوعد ولايماطل بالعطاء ، يعطي من يرجوه ويفي بعهده ، عطاؤه كالبحر ، ولكن شكر سائليه مقابل عطائه لايعد شيئا .

---

(١) الصورة الأدبية فى شعر ابن الرومى ص٦٥٤-٦٥٥ .
(٢) الديوان ، ج٥ ، ص١١٠ .

من الصور الفريدة في مديح شاعرنا قوله[١]:

لَيْسَ لَهُ عَيْبٌ سوىٰ أنّه ... لاتَقَعُ العَيْنُ علىٰ شِبْهِه
تَسْتَضْحِكُ الآمالَ عَن بِشْره ... وتَذعَرُ الأَحْداثُ عَن نَهجِه
لمْ تُلْهه عَن سُؤْدَدٍ لَذّةٌ ... مَتىٰ تُغازِلْ غَيْرهُ تُلْهِه
أكْثَرُ شَكْوىٰ ضَيفُه أنّه ... يَغِبُّ بالبِرِّ علىٰ كُرْهِه

بدأ صورته بأسلوب المديح الذي يشبه الذم حين نفىٰ عنه العيوب ثم احترز بقوله ـ سوىٰ أنه ـ ولكن العيب الذي فيه أن لامثيل له فقد تفرد بأعماله وأخلاقه ثم عمد لأسلوب الاستعارة فجعل الآمال تضحك والأحداث تذعر ليسند لممدوحه من عظيم الخصال وحميد الصفات مايفوق بها غيره . فهو رجل همته في تعال لايتلهىٰ عن المجد حين يتلهىٰ سواه ، ومهما عرضت عليه اللذات والملاهي لايلتفت لها بينما غيره بمجرد أن تعن له اللذة سرعان ماينغمس فيها ضاربا عن المجد والسؤدد .

هذا الممدوح كريم جواد لايشتكي ضيفه سوىٰ إجباره له علىٰ البر به وإكرامه ، وهذا منتهىٰ الكرم والجود .

أن يمدح ابن الرومي إنساناً بالكرم أو البأس أو رجاحة العقل فهذا أمر معهود توارثه الشعراء كابرا عن كابر ، ولكن أن يأتي بالصفات التي تولّدت عن تطور المجتمع فيسبغها علىٰ ممدوحه فهذا هو الجديد . وقد التفت شاعرنا لصفات قلما يمدح بها الشعراء فصاغها في ألفاظ مناسبة ودلالة خاصة ، من تلك المعاني والقيم "قيمة العلم" يقول في ذلك[٢]:

أيّها الحَاكِمُ الّذي إنْ نَقُلْ فِيـ ... ـهِ نَقُلْ مُكْثِراً ومُطِيباً
والّذي لايَخافُ مادِحُه الإثْـ ... ـمَ لدىٰ مَدْحِه ولاالتكْذِيبا
والذي لمْ يَزلْ يُجاري ذَوي ... الفَضْلِ فَيَسْتَتْبِعُ الثّناءَ جَنِيبا
يَمْلأُ القلْبَ صامِتاً وتَراهُ ... يَمْلأُ الصَّدْرَ سائِلاً ومُجِيبا

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص٣٥٦ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٢٥٧.

إن قَضىٰ طبَّقَ المَفاصِلَ ، أوْسا ... عَلَ أعْيا ، أوْ قَالَ قَالَ مُصِيباً
مَالِكٌ بَعدَ مَالِكٍ ، وكَذَا الأنْجُمُ ... يَتلوَ العَقِيبُ مِنْها العَقِيبا
كُلَّ يَوْمٍ يُعلِّمُ النَّاسَ عِلْماً ... زَائداً كُلَّ راغِبٍ تَرْغِيباً

لقد امتزجت براعة المعاني وسعة الخيال ودقة التصوير ، وتناغمت كلها في إيحاء هذه الصورة الأدبية ، مما يشعرنا براحة نفسية عظيمة نحسها من خلال موسيقى هذه الأبيات ، ونشعر معها بالعظمة ، فهذا الممدوح يحسن القول فيه لأنه أهل للمديح ، لمجاراته ذوي الفضل فالثناء عليه كثير وقور في صمته ، عظيم في كلامه ، إذا حكم عدل ، وإذا أفتىٰ قال الحق لايحيد عنه ، في صفاته هذه لاشبيه له سوىٰ الإمام مالك ، فهو في العلم والفقه والعدل مثله والعلماء بين الناس كالنجوم في السماء يهتدي بها الناس ليلا،في كل يوم لهذا الحاكم علم يعلمه الناس ولايكتمه مما يزيد الناس ترغيبا في العلم والفقه .. وهذه فضيلة العلم إذا أحسن صاحبها استخدامها .

وفى هذا يقول مشيدا بفضيلة العلم ومادحا بها أحد أبناء عصره[1]:

ولَسْتَ تُلاقي عَالِمًا ذَا بَرَاعَةٍ ... بأبْرَعَ مِنه في العُلُومِ وأرْسَخا

فهذا ممدوح فاق أقرانه في العلوم حتىٰ لايوجد له مثيل وليس في عصره من هو أبرع منه في العلم ، وليس علمه مؤقتا ، بل راسخ ثابت يعي مايتعلم .

كان العصر العباسي مزيجا من الترف والبؤس ، والسعة والضيق ، والمروءات والخساسات ، كما كان عصر تقلب وقسوة ، وقلة وفاء بالإضافة لكونه عصر التدين والانحلال ، والمعنىٰ أنه كان عصر الإسراف في كل شيء وقد وجه شاعرنا نظره نحو الدين ومن يتصف بالتدين ، فرأىٰ أن صورة الإنسان التقي البر المتدين صارت شحيحة بل نادرة ، على الرغم من كثرة المتظاهرين بالدين إلا أن الحقيقة كانت عكس ذلك فنادرا مايكون الباطن

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص١٠٢ .

موافقا للظاهر ، نتيجة لكثرة الملل والطوائف في ذلك العصر ، ولكن كعادة ابن الرومي يمتدح بالقيمة رغبة منه في لفت الأنظار لها والتمسك بها يقول[١]:

وَمافَاتَهَ في الصَّوْمِ فِطْرٌ لأنّه ... مُدَارِسُ عِلْمٍ ، والدِّراسُ غِذَاءُ
ولافَاتَهَ في الفِطْرِ صَومٌ لأنّه ... مُواصِلُ صَوْمٍ عُقْبَاهُ سَواءُ

فهذا الممدوح وقته بين الصيام والعلم ، وصومه بذلك موصول لأن أيامه ولياليه بين هاتين الفضيلتين : الصوم ومدارسة العلم ، فقد جعل مدارسة العلم عبادة بمنزلة الصيام ، وبهذا يكون صومه متصلا وعاقبة كل من الصيام وطلب العلم واحدة ، إذ تؤدي إلى تربية النفس والتحلي بكريم الخصال وعظيم الصفات .

ومن الصور التي صور فيها ابن الرومي الإنسان المتدين تصويرا بارعا قويا ، أضفى عليها لمسات عبقرية ، ورسم إنسان خلاّق قوله[٢]:

وذُو طاعةٍ للّه في كُلِّ حَالَةٍ ... ومَعْصِيةٍ للنَّفْسِ عِنْدَ عُنُودِها
صَدُوعٌ بِأحْكامِ الكِتابِ مُعَوَّدٌ ... عَزائِمَهُ التَّوقِيفَ عِنْدَ حُدُودِها
أَتانا وُدْنْيانَا عَجُوزٌ فَأَصْبَحَتْ ... بِه نَاهِدًا في عُنْفُوَانِ نُهُودِها

فهذه صورة إنسان متدين قوي بالحق ، مطيع لله ، لايتبع هوى نفسه لاتأخذه في الحق لومة لائم ، لعلمه بالحدود وإقامة أمور الدين لايتعدى حدود الله ، صلحت به أمور كثيرة حتى باتت الدنيا بوجوده كأنها صبية حسنة ، لما فيه من أخلاق كريمة وصفات حسنة تبهج الذين حوله وتجعله قدوة لغيره .

في صور أخرى يعتمد ابن الرومي على عنصر التشبيه فيشبه ممدوحه في النسك والعبادة بشهر رمضان ، ثم يشبه عطاءه وجوده بشهر الفطر ،

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٣٤ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص١٢٩ .

وهذه ميزة أخرىٰ لابن الرومي وهي ملاحظة الصلات بين الأشياء ، ومن ثم الربط بينها بدقة وبراعة يقول(١):

ذَهَبَ الصَّوْمُ وَهْوَ يَحْكِيكَ نُسْكاً وأَتَىٰ الفِطْرُ وَهْوَ يَحْكِيكَ جُوداً

في محاولة من ابن الرومي لإظهار ممدوحه في مظهر الرجل المتدين الذي لايغفل عن أمر دينه ودنياه ، ركن إلى تشبيه رأي فيه الجودة إذ ليس هناك شهر يفوق شهر رمضان عبادة ، وتقرباً إلىٰ الله بالطاعات ، فجعل من ممدوحه لكثرة عبادته وإخباته فضل شهر رمضان علىٰ بقية الشهور في الدين ، وجعله في الجود والعطاء ، ومايترك بذله وسخاءه في نفوس السائلين من فرح وغبطة ، فضل عيد الفطر لما عرف عن أيام الفطر من فرح وبهجة.

ثم يستخدم التشبيه المقلوب مؤديا نفس المعنىٰ إذ يقول(٢):

أَقْبَلَ الفِطْرُ وَهوَ يَحْكِيكَ جُودًا مُطْعِمًا ، مُطْلِعاً عَلَيْك سَعُودًا

وهنا يشبه أيام الفطر في الفرح والبهجة وألوان الطعام بعد الصيام بالممدوح في العطاء والبذل دون حساب ولامنة .

ثم يعود ثانية ويمدح بنفس الفضائل السابقة ولكن في صورة جديدة فيقول(٣):

جَاءَ شَهرٌ تُحِبُّه يابْنَ يَحيىٰ لالِمَا فِيه مِن سَجَايَا المَنُوعِ
بَل لِما فِيه مِن وِفَاقِك فِيمَا يَصْحَبُ الدِّين مِن تُقىً وخُشُوعِ
وصَلاةٍ تُقيمُها كُلَّ إنْيٍ مِن سُجُودٍ تُطيلُه ورُكُوعِ
وعفَافٍ في القلْبِ والطَّرْف ح والأَطْرافِ عَنْ كُلِّ مُحْرَمٍ مَمْنُوعِ
رَهْبَةً للإلٰه بلْ رَغبَةً مِنْك م بِقَدْرٍ عَنْ الخَنَا مُرْفُوعِ

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص١٨٢ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص١٨٨ .
(٣) الديوان ، ج٤ ، ص١٠١ .

فقد لحظ الشاعر أن هناك وجوه شبه بين الممدوح وشهر رمضان من تقىٰ ، خشوع ، وطاعات من نوافل ، وصلاة وعفاف عن المحرمات رهبة للخالق ، ورغبة من الممدوح في الترفع عن الدنايا والخطايا ، وهذا الشهر يحبه الممدوح ليس لما فيه من سجايا المنوع ، أي الامتناع عن الأكل والشرب والملذات ، بل لأن فيه خلال توافق خلال هذا الممدوح ولايخفىٰ علينا في هذا المقام أن ابن الرومي يمتدح بقيم إسلامية ، يتمنىٰ بعثها ونشرها في أوساط مجتمعة قد لاتكون هذه القيمة موجودة في ممدوحه ولكنه يمدح بها ترغيبا فيها وبعثاً لها في نفوس الناس .

"طبيعة المجتمع العباسي أفسحت المجال لكل التيارات ، واستطاع أن يستوعب المجون ، والزهد في وقت واحد ، فقد عم المجتمع العباسي - كما نعلم - ثراء فاحش يتيح الاستمتاع بكل الملذات ، وفي الجانب المقابل فقر مدقع وفئات مغلوبة علىٰ أمرها فكان طبعيا أن تنشأ في هذه الأوساط نزعة إلىٰ الزهد ، يفرضها الواقع نفسه من جهة ، وتكون بمثابة صوت احتجاج سلبي علىٰ ماأصاب أهلها المترفين من انحلال خُلقي"[1]واجتماعي ، ولم يغفل ابن الرومي هذا الجانب في شعره فهاهو يصف لنا جماعة من الزاهدين في صورة تنطق بالجمال حيث يقول[2]:

تَتَجافىٰ جُنُوبُهم ... عَنْ وَطِيءِالمَضَاجِعِ
كُلّهم بَيْنَ خائِفٍ ... مُسْتَجِيرٍ وطَامِعِ
تَرَكُوا لَذّة الكَرىٰ ... لِلعيُونِ الهَواجِعِ
ورَعوا أَنْجُم الدُّجىٰ ... طَالِعًا بعْد طَالِعِ
لَوْ تَراهُم إذَا هُم ... خَطَرُوا بِالأصَابِعِ
وإذَا هُمْ تَأَوَّهُوا ... عِنْدَ مَرِّ القَوارِعِ

---

(١) عز الدين إسماعيل ، فى الأدب العباسى الرؤية والفن ص٢٩٩ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص١٢٢ .

وإذاً باشَرُوا الثَّرىٰ بِالخُدودِ الضَّوارِعِ
واستَهلّت عُيُونُهم فائِضَاتِ المَدامِعِ

يقول الأستاذ روفون جيست : "الأمر الذي يثير بعض الدهشة أن نجد ابن الرومي من المعجبين بالزهد ، ولكن ربما كانت تجذبه الأعمال التي وراء قدرته ، فيذكر الزهاد كثيرا في إعجاب ، مؤكدا إخلاصهم ومخاوفهم في صلواتهم طلبا للمغفرة والخلاص ..."(١).

بينما نقول نحن:أن ابن الرومي عندما يعجب بالزهد ويصور حال الزهاد إنما يذكر بقيمة إسلامية ، موجودة ولكنه يعرضها بطريقة فنية جديدة عن طريق الإيحاء ، وهذا الإيحاء وتلك الدلالات تفصح عن الروح الإسلامية عند شاعرنا .

وأهم مايستوقفنا في هذه الصورة خلوها من التكلف ، فهي سهلة المأخذ والمأتىٰ ، تنساب في عذوبة ، أتت ألفاظ هذه الصورة وتراكيبها موافقة للمشاعر الإيمانية ، ففيها جاذبية وبساطة تمثل الروح والقيم الإسلامية.

ليس مهما أن يقرر ابن الرومي في مدائحه واقعا لمسه ولكن من الجائز أن يصبو لواقع يتمناه ، فيعمد للقيمة ويجسدها لممدوحه ، ترغيبا فيها ، ومن تلك القيم ـ كما مضىٰ ـ القيم أو المعاني الإسلامية من ذلك قوله(٢):

تَتَحَسَّرُ الأَيّامُ عَنْك وكُلّها يَشكُو فِراقَك آسِفًا مَفْجُوعَا
رَحَلَ الصِّيامُ وشَهْرُهُ وكِلاهُما لَهِجٌ بِذكْرِكَ مَايَفِيقُ نَزُوعَا
أَقسَمْتَ بالشَّهرِ الذي أَخْضَلْتَه بالجُودِ والتَّقوىٰ ندىً ودُمُوعَا
لَبِسْتَه لُبْساً أَطابَ نَسِيمَه يابْنَ الأَطايِبِ مَحْتِدًا وفُرُوعَا
وخَلَعْتَه خَلْعَ العَرُوسِ شِعَارُها قَدْ رَدَّعَتْه مِن العَبِيرِ رُدُوعا

---

(١) روفون جيست ، ابن الرومى حياته وشعره ، ترجمة د. حسين نصار ، دار الثقافة بيروت ، ص٧٤ .

(٢) الديوان ، ج٤ ، ص١٢٩ .

وَرَفَدْتَ فِيه كُلَّ أشْعَثَ بائِسٍ ... مـازَال عَنْ طَلَبـاتِهِ مَـدْفُوعَا
أحْيَيْتَ فِي الشَّهرِ المُبارَكِ لَيْلَهُ ... وفَقِيرَهُ وقَتَلْتَ عَنه الجُوعَا
بِيدٍ إذَا قَسَتْ الأنامِـلُ فَجَّـرَتْ ... مِـن كُـلِّ أنْمُلَـةٍ لَهَـا يَنْبُـوعَا

لطيـب أخلاق هـذا الممـدوح وجوده طـابت به الأيام حتىٰ عـز عليهـا فراقه حتىٰ شهر رمضان رحل بعـد أن عمره هذا الممدوح بالأعمـال الصـالحة من تقوىٰ وصلاح ، وكأن الشهـر إنسـان يلبسه هذا الممـدوح مـن التقـوىٰ والأعمـال الصـالحة ثيـابا طيبـةكما يمتـدح أصله ونسبـه العـريق في الصلاح والتقىٰ .

وحين انتهـىٰ شهـر الصيـام شبـه بدثار العـروس الطيـب الـرائحة ، فالأعمال الطيبة التي قدمهـا الممـدوح في هذا الشهـر كـالعطر الـذي وشح به دثار العروس ، وقد أحسن هذا الممدوح في شهر الخير إلى كـل محروم بائس وأحيـا ليل هذا الشهر بالذكر والدعاء ، فقد أحسن إلىٰ الفقـراء بقتل الجوع بالعطايا والهبات التي كان يسبغها علىٰ الفقراء حتىٰ عد ذلك حياة لهم ، وهو في سخـائه يفـوق معظم الأغنيـاء الذين يجمعون الأمـوال ويبخلـون بها علىٰ الفقراء والمحتاجين بينما ينفقها هو حتىٰ عدت يداه في ذلك ينابيع .

ثم يستعين ابن الـرومي بالتشبيـه حرصا منه علىٰ إظهـار المعنىٰ بصورة لائقة بمقام المديح ، حين يقول[1]:

ذَهَبَ الّذي كانَ الصِّيامُ شِعارَه ... ولِضَيفِـهِ الإنْـزَالُ والآكـالُ
فكأنّـه رَمَضَـانُ فـي إخْباتِـهِ ... وكـأنّـه فـي جُـودِهِ شَـوَّالُ
ذَهَبَ الذي ماكانَ يَمْطُلُ وعْدَه ... ولَـهُ إذا جَارَىٰ السَّمَـاحَ مِطـالُ
مَلِكٌ تنافَسَتْ العُلا في عُمْـرِه ... وتَنَـافَسَتْ فـي يَـومِهِ الآجَـالُ
أسَـدٌ مضـىٰ وتَخلّفـتْ أشبالُـه ... وعَلـيٌّ أنْ تَسْتأسِـدَ الأشْبـالُ
يازِينَـةَ الدُّنيـا وزِينَـةَ أهْلِهـا ... وتَمَـالِ مَـنْ أعْيـا عَليْـه ثَمـالُ

---

(١) الديوان ، ج٥ ، ص١٤٦-١٤٧ .

هـذا رثاء في مقـام المدح حيـث ينعـي الشاعر مرثيـة ، ولكنـه يمدحه بصفـات وأخلاق تمجد ذكره فـإن كان ذهب هذا الممدوح فمكـارمه ومحامـده لاتزال تذكر به ، فقد كان صواماً قواماً ، كان يبخل على نفسه ليكرم ضيفه فلامثـال لـه في التقـى والصلاح إلا شهـر رمضـان ، وكـذلك لامثـال لجوده وكرمه إلا شهر شوال ، هذا الممدوح شهر بالحلم والتروي فقـد كان لايتسرع في العقـاب ، بل كان يصفح سـريعا فريد في حياته وكـذلك فريد في مماته .

ثم شبـه هذا الممدوح بالأسـد الرئبال ، وبنوه كـالأشبال ، طبعـي أن تصبـح الأشبال أسودا وهذا الممـدوح بالنسبة للدنيـا والنـاس زينة وبهجة .

والعبرة هنـا ليست بعناصـرالصورة مجتمعة ، بل الأثر الـذي تتركه في نفـوسنا وجمـال الصـورة في النـص السـابق ، نابع مـن اعتمـاد الشـاعر على التشبيه والاستعارة .

يتبـع هـذه الصـورة ، صورة أخرى يمدح فيهـا ابن الـرومي في مقـام الـرثاء وهي الصورة التي رثى فيها والدته فأسبغ لهـا من الصفات والفضائل مافاقت به غيرها حتى عد هـذا الـرثاء من أجل مدائحه فقـد كـان فيه صادق العـاطفة مـع براعته المعهودة في تصـوير المعـانى ، طـرق شـاعرنا في الصـورة التالية معاني عظيمة بطريقة رائعة تشعر قارئها بعظمة المنشىء والمرثي .

يقول في رثاء والدته مضفيا عليها معظم صفات المديح[1]:

لَقَدْ فُجِعَتْ مِنكِ اللّيالي نُفُوسَها ... بِمُحْيِيَـةِ الأَسْحـارِ حَـافِظَـةِ العَتْمِ
ولمْ تُخطِىءْ الأَيّامَ فِيك فَجِيعةٌ ... بِصَـوّامَـةٍ فِيهـنّ طَيِّـبَةُ الطَّعْـمِ
وفَاتَ بِكِ الأَيْتامَ حِصنُ كَنافَـةٍ ... دَفِـيءٌ عَلَيْهِـم لَيْلَـةَ القُـرِّ والشَّبْـمِ
رَجَعْنـا وأَفْرَدْنـاكِ غَيْـرَ فَرِيـدَةٍ ... مِـن البِـرِّ والمَعْـرُوفِ والخَيْـرِ والكَـرَمِ
فَلاتَعْدَمِي أُنْسَ المَحِـلِّ فَطَالَمـا ... عَكَفْـتِ وآنَسْـتِ المَحـارِيبَ فـي الظُّلَـمِ

يمتـدح الجانب الديني ويثني على أخلاق والدته ، فقـد كانت على دين وبر ، قـائمة بالليل تصلي وتطلب ربها ، وبالنهار صائمة ترجو المغفـرة ، تطعم

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص٧٤ .

الطعام للمحتاج وتضن به عن نفسها ، تكرم الأيتام وتعطف عليهم ، أعمالها الطيبة تؤنسها في القبر ، لأنها طالما قدمت أعمال خير من صلاة بالليل وصيام بالنهار ، والإحساس بالفقد يوجع النفس بقدر إلفها للفقيد ، وطبيعة علاقتها به ، وابن الرومي هنا يصور مشاعر فئة معينة - الأيتام - لفقدها .

وفَاتَ بِكِ الأيْتَامَ حِصْنٌ كَنَافَةٍ ... دَفِيءٌ عَلَيهِم لَيْلَةَ القُرِّ والشَّبْمِ

حيث جعلها في حنانها وعطفها على الأيتام مثل الحصن الذي يلجأ إليه الناس في الشتاء فيقيهم برد الليل وحر النهار .

وفي قوله :

أَفْرَدْنَاكِ غَيْرَ فَرِيدَةٍ ... مِن البرّ والمَعروفِ والخيرِ والكرمِ

يشير للمعنى الإسلامي الذي حث على العمل الصالح والتزود به للآخرة ومستدلا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

"إذا مات العبد يتبعه ثلاثة : أهله ، وماله ، وأعماله . فيرجع اثنان ماله وأهله ، ويبقى عمله" أو كما قال عليه الصلاة والسلام .*

"شعر المديح يعبر عن موقف الاحترام ، ونظرة الإعجاب والاعتزاز ، ويعبر عن موقف الاقتداء والاهتداء والتمثل ، وهو في جانبيه مرحلة إنسانية لها أبعادها في مجال النظرة الواقعية والمستقبلية ..."(١).

ولكن أن يدرك الشاعر ويفرق بين وظيفة الوالد والوالدة ودورهما في حياة الأبناء ، ومن ثم يمدح بهذه الوظيفة فهذا شيء أدركه ابن الرومي ولعله أول من مدح بهذه الوظائف يقول(٢):

حَلِيمٌ ، عليمٌ ، للرَّعيّةِ نَاظِرٌ ... رَؤُوفٌ بِهم ، يَحْنو عَليهم كَوالِدِ
يُرِيحُهُم إتْعابَه نَفْسَه لَهم ... ويُسْهِرَه إصْلاحَ أحْوالَ هَاجِدِ

---

(١) الأديب والالتزام ، نورى حمودى القيسى ، ص٨٣ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٢٨٩ .
* انظر كتب الصحاح .

فشاعرنا هنا يفصل بين وظيفة الأم والأب ، ويحاول تحقيق هذه الوظيفةمن خلال مديحه ، فيرىٰ أن دور الأب ووظيفته هي الحنو علىٰ الأبناء والرأفة بهم يتعب في سبيل راحتهم ، ولايضجر من هذا التعب لأن راحته في تحقيق السعادة لأبنائه ، وابن الرومي هنا يمتدح حلم هذا الممدوح وعلمه بالإضافة لحنوه ورأفته بالرعية فهو ينظر لهم كنظرة الوالد الذي يتعب نفسه في سبيل راحة أبنائه ، ويسهر علىٰ إصلاح أحوالهم وكأنه يلفت نظر الولاة والحكام إلىٰ مهمة الخليفة المنوطة به .

مقابل هذه الصورة التي يشبه فيها ابن الرومي دور الخليفة بالوالد نراه يعرض صورة أخرىٰ يشبه حرص ممدوحه وخوفه علىٰ أوليائه بحرص الأم ووظيفتها في حياة الأبناء[1]:

فَدَتْك نُفُوسُ النّاسِ مِن ذي حَيَاطَةٍ ... غَدَوْتَ لَهُم أُمّاً مُمَهَّدَةَ الحِجْرِ
تَظَلُّ مِن الأَمْرِ المَخُوفِ وَغَيْرِه ... تَضُمُّ بَنيها بالْيَدَيْن إلىٰ النَّحْرِ
فَإشْفاقُها مِن أَنْ يَمُوتُوا مِنَ الغِنىٰ ... كإشْفَاقِها عَنْ أَنْ يَمُوتُوا مِن الفَقْرِ

يمثل لنا ابن الرومي من خلال صورته هذه وظيفة الأم ، وهي الخوف والحرص علىٰ أبنائها إزاء الأمر البسيط أو الأمر العظيم ، ويشبه ممدوحه في خوفه وحرصه علىٰ جماعته بالأم التي تخاف علىٰ بنيها فتضمهم إلىٰ صدرها ، رغبة منها في تحمل الأذىٰ ودفع الضرر عنهم ، وكأنه يريد أن يبين أن الإسراف في كل شيء مهلكه ، فالحياطة والخوف الزائد يؤديان للموت ، حين قال أن هذه الأم تشفق علىٰ بنيها أن يهلكوا من الأمر الهين قبل الأمر العسير وأشار بكلمة الغنىٰ والفقر لهذين المعنيين .

بعد أن فرق بين وظيفة الوالد والوالدة ومدح بكل وظيفة علىٰ حده ، عاد وجمع بين الوظيفتين وصرّح بهما فى نص واحد حين قال[2]:

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٨٩ .
(٢) الديوان ، ج٦ ، ص١٤٢ .

مَلِكٌ غَـدا فَـوْقَ البَرِيّـةِ والأَخِشَّـةِ فِـي الخُطُـومِ
كَالوَالِـدِ البَـرّ الـرَّؤُوفِ بِنَـا وكَـالأُمِّ الـرَءُومِ
لَيثُ اللُّيوثِ إذَا الحُرُوبِ تَسَعَّـرتْ قِـرْمَ القُـرومِ
غَيْثُ الأنَـامِ إذَا الغُيُوثِ بَخِلْـنَ فِـي السَّنَـةِ الأَزُومِ
خَفَّتْ خُطاهُ إلىٰ الوَغَىٰ والحِلْـمُ أَرْجَحَ مَـن يَسُـومِ
لمْ تُلْهِه خَمْرُ المَراشِـفِ لاَ . ولاَخَمْـرِ الكُـرُومِ

فهـذا الممدوح ارتفع عن غيره بأفعاله الكريمة وخصـاله الحميدة ، حتىٰ غدا بالنسبة للرعية كالوالد والـوالدة للأبناء ، لايستغني عنهمـا ، لكل منهما دوره ووظيفتـه ، وهذا الممدوح جمع بين الوظيفتين ، هـذا الملك في الحرب مثل الأسد القوي ، شجاعة واقداما ، بينما في العطاء غيث أو كالغيث الذي يكون في سنة الجدب . فيه حياة لايتخلف عن القتال ولايتبـاطأ في الحروب . حليم يزن الأمور بعقله وحكمته . لم ينشغل عن المعالي والمكارم كغيره بالنساء أو الخمـر . وقد عبر عن النساء بخمر المراشف ، وعـن الخمر بخمر الكروم .

وهـو في هذا البيت يعرض مجال بني عصره الذين اشتغلـوا عن المكارم والفتـوح بالتغـزل ومخالطة النسـاء ، أو عكفوا علىٰ الخمـر وأدمنـوا شربها .

وهـذه أمـور شـاعت في العصـر العبـاسي وانتشرت نتيجـة اختلاطهـم بغيرهم من الأمم . وكأن ابن الرومي يتمنىٰ أن ينطبـق علىٰ معاصريه جميعا قوله[1]:

ياشقيقَ النَّدىٰ وتِربَ المَعالِي وسـراجَ الهُـدىٰ بكُـل مَكـانِ
كُثِرتْ من العُلا معَانِيك حتىٰ أَعوَزَتْنـا أسمـاءُ تِلـكَ المعانِـي
أنتَ عِيد للناسِ في كلِّ عيدٍ بل لَعَمْـرِي فِـي سَـائِر الأزمـانِ

فهذا الممدوح لجوده جعله شقيقا له ، ولسعة علمه وفقهه جعله سراجا يهـدي للمكـارم . هذا الممدوح جمـع الكثير من الفضائل والمعـانى حتىٰ حير مادحيه في أسمائها ، وجعلـه بمثابة العيد للناس في كـل وقـت ، الكل يبتهج ويفرح بعطائه وعلمه .

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص٢١١ .

ثالثا : الصِّفات الخِلْقية والخُلُقية في مدائحه :

كان ابن الرومي يزاوج في بعض مدائحه بين الجانب الأخلاقي والجانب الخلقي ، ويوائم بين الصورة والواقع ، ومن الصور التي مدح فيها بالجانبين معاً قوله(١):

مَلِكٌ أَغَرُّ مُحَجَّبٌ ... مَعْرُوفُه لايُحْجَبُ
يَغْدو بِعِرْضٍ وافِرٍ ... يَحْمِيه مَالٌ مُنْهَبُ
بَدْرٌ ، كَأَنَّ البَدْرَ ... مَقْرُونًا إِلَيْه كَوْكَبُ *
بَحْرٌ ، كَأَنَّ البَحْرَ ... مَقْرُونًا إليه مِذْنَبُ *
سَيفٌ له مِن كُلِّ ... نَاحِيَةٍ وَوَجْهٍ مضْرِبُ *
ليثٌ له فِي كُلِّ ... جَارِحَةٍ وَعُضْوٍ مِخْلَبُ *
خَلَعْتَ عليه مِن ... المَحَاسِنِ خِلْعَةً لاتُسْلَبُ *
عَذُبَتْ خَلائِقُهُ فَكَادَ ... مِن العُذُوبَةِ يُشْرَبُ *

جرت عادة الملوك والحكام أن يتخذوا حجابا ، إما للحراسة ، أو لمجرد الهيبة والسلطة ، ولكن ممدوح ابن الرومي حجابه كانوا في الظاهر فقط ، أما معروفه فلاحاجب عليه لأنه تعود البذل والعطاء ، له وجه مشرق متهلل ، يفيض جمالا وحسنا فهو بدر ، إذا اقترن به البدر بدا كوكبا صغيرا لأن هذا الوجه يفوقه في الوضاءة والإشراق ، وهو في العطاء بحر بل أعظم من البحر ، إذا اقترن به البحر بدا مذنب ـ خليج صغير لايضاهيه ـ

وهو كذلك في المضاء والبت في الأمور سيف يقطع من كلا جانبيه ، إضافة إلى أنه في الشجاعة والقوة أسد ولكنه يختلف عن غيره من الأسود بأن له في كل عضو مخلب ، دليل القوة .

هذا الممدوح ألبسته المكارم ـ جانبا خِلْقيا ـ والمحاسن ـ جانبا خِلْقيا ـ حلة وثيابا لاتسلب منه ، لأنها لاتصلح لغيره .

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٧٠ .
* الأبيات مدورة.

رقت طبائع هذا الممدوح حتىٰ غدا كالماء العذب ، وهنا تظهر براعة ابن الرومي حين يحول التصوير المعنوي إلىٰ حسي ، ثم يتمادىٰ في السمو بذلك حتىٰ تستوعبه الأذهان وتعيه القلوب ، فقد ربط بين المعاني الحسية والمعنوية بطريقة فنية رائعة .

"عندما يثق ابن الرومي في ذوق ممدوحه ، ويطمئن إلىٰ عمق إدراكه وصحة فهمه ، يعطيه صورا رائعة من أعماق ذاته ، وفيض وجدانه"(١).

ومن تلك الصور قوله مازجا بين كريم الطباع والأخلاق وبين حسن الصورة وجمال الهيئة(٢):

خُلِقَتْ يَداهُ يَدٌ لِتَجْرَحَ فِي العِدا ... ويَدٌ لِتَأْسُو جَرْحَ كُلِّ جَرِيحِ
طَلْقُ المُحيَّا واليَدَيْنِ سَمَيْذَعٌ ... سَهْلُ المَبَاءَةِ ذُو عِرَاضٍ فِيحِ
ذُو صُورَةٍ قَمَرِيَّةٍ بَشَرِيَّةٍ ... تَسْتَنْطِقُ الأفْواهَ بالتَّسْبِيحِ
بَرِعَتْ مَحاسِنُه فأقْسَم صَادِقا ... أنْ لايُعَرِّضْهُنَّ للتَّقْبِيحِ
مَلِكٌ إذا الحَاجَاتُ شَدَّ عِقَالُها ... وَثِقَتْ لَدَيه بِعَاجِلِ التَّسْرِيحِ
أحْيَيْتَ مَيْتَ الشِّعرِ بَعدَ ثَوائِه ... فِي الرَّمْسِ تَحتَ جَنادِلٍ وصَفِيحِ
حتىٰ لقَالَ النَّاسُ فِيكَ فَأكْثَرُوا ... هَذا المَسِيحُ ، ولاتَ حِينَ مَسِيحِ

اعتاد ابن الرومي أن ينظر للأمر من كلا وجهيه وهنا يمدح بالأمر وضده فبعد أن بين أن من خلق ممدوحه الشدة والقسوة علىٰ الأعداء ، عاد وأكد أنه رحيم لطيف بأوليائه ـ مقابلا بين ـ تجرح وتأسو .

فهذا ممدوح كريم بالإضافة لجماله وجسامته ، واسع المنزل رحب الفناء . صورة وجهه لعظم جماله لايملك الإنسان إذا رآه إلا التسبيح لحكمة خلقه وجماله ، لعلم هذا الممدوح بجماله وحسن خلقته ارتفع عن كل قبيح وسيء حتىٰ لايدنس خلقه وخلائقه . وهنا يدعو الشاعر بني عصره للتأمل وكأنه ينصح من حسنت صورته أن لايضيف لها مايشوبها من الأفعال السيئة

---

(١) الصورة الأدبية فى شعر ابن الرومى ، على على صبيح ، ص٣٨٦ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٦٦-٦٩ .

ومن قبح شكله ألا يضيف للقبح قبحا باقتراف القبيح من الأعمال . هذا الممدوح له رأى صائب ، وحكمة رشيدة ، فهو أهل للمديح إذ بكريم أخلاقه وعظيم أفعاله أصبح للشعر معنىً حين ينشد بمديحه ، لأفعاله الجسيمة ولعودة الحياة للشعر عند امتداحه قال عنه الناس هو المسيح ، لأنه أحيا الشعر بعد موته كما أحيا المسيح عازر .

"كان ابن الرومي يفترض في عمله جميع العلل ، وشتى الاحتمالات ، فإذا أحس أن المعنىٰ غير مكتمل ، وأن الفكرة ناقصة ألح عليها يصرفها علىٰ كل وجه ، وإذا شعر بأن صورته الشعرية غير مستوية شفعها بلفظ أو صورة ثانية ، فلاتند عنه شاردة ، ولايترك واردة ، فقد يعرض المعنىٰ في أكثر من صورة"(١).

وفي كل مرة نجد إيحاء جديدا لمعناه ووقعا مختلفا ، وفي هذه الصورة نراه يعرض نفس المعاني السابقة ولكن في ثوب جديد(٢):

مَنْ وَجْهُهُ الوَجْهُ الجَمِيلُ ... وشَخْصُهُ الشَّخْصُ الجَهِيرُ
مَن مَنّه المَنّ القَلِيلُ ... وفَضْلَه الفَضْلُ الكثيرُ
مَنْ جُودُه الجَودُ الشَّهِيرُ ... وبَذْلَه البَذْلُ السَّتِيرُ
مَلِكٌ غَدَتْ أفْعَالُهُ ... والعُرْفُ فِيها والنَّكِيرُ
يَومَاهُ يَومُ نَدىً ... ويَومُ ردىً عبوسٌ قَمْطَرِيرُ
في ذَا وذَاك كِلَيْهِما ... خَيرٌ وشَرٌّ مُسْتَطِيرُ
جُمِعَتْ لَه أشياءُ لم ... يُخلَق لَه فيها نَظِيرُ
فيه الوَسامةُ ، والنّدىٰ ... والحِلْمُ ، والرَّأيُ الزَّبِيرُ
فإذا بَدا في مَوْكِبٍ ... فكأنّه القَمَرُ المُنِيرُ
وإذا تَهَلّل بِالنّدىٰ ... فَكأنّه الغَيْثُ المَطِيرُ

---

(١) الصورة الأدبية فى شعر ابن الرومى ، على على صبيح ، ص٤٣٢ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص١١-١٣ .

جمع ابن الرومي لممدوحه في هذا النص فضائل وصفات خِلْقية وخُلُقية . فهو جميل الهيئة خليق بالمعروف ، بالإضافة لكرمه فهو لايمن على من يعطي جوده مشهور بينما بذله ستير عملا بالمعنى الإسلامي الذي يدعو ويحث على إخفاء الصدقة . تتميز أفعال هذا الممدوح وأقواله بأنها تحمل العرف والوعد للأولياء ، والتهديد للأعداء ، وتتميز أيامه بأنها متقابلة ، فيوم للعطايا والهبات ، وآخر للحروب والغزوات ، وفي كليهما خير وشر ، فبالعطاء تحيا أنفس ، وترقى عقول ، وبالقتال يأمن من في الدولة من العدوان الخارجي تفرد هذا الممدوح بمعظم الصفات والخلال الكريمة التي لاينافسه فيها أحد فكأنها وقف عليه منها الوسامة والكرم والحلم ، والرأي السديد ، فهو مثل القمر نوراً وبهاء ورفعة ، ومثل الغيث عطاء وجودا .

جرت العادة في الرثاء أن يؤلف الشاعر الفضائل ، ويزورها ، كما جرت على المبالغة في كل الوجوه ، حتى يصبح الميت مثالا أعلى للكمال كما تتمثله فضائل العصر ، فلم يكن الشاعر يلتفت للميت نفسه ، بل يقتبس من ذاكرته مايعرف من خصال حميدة ، فينظمها بأشكال مختلفة ، وينسبها للميت وابن الرومي من خلال رثاء خاله يمدحه ويسبغ عليه من الفضائل والمكارم ماتفرح له النفس . فمن القيم التي رثاها وهو يرثي خاله ماهو ظاهري ، وماهو معنوي يقول[1]:

ألا مَاتَ مَنْ ماتَ الوَفاءُ بِمَوْتِه ... فَأَعْوَزَ مَنْ يُوفي بِذِمّةِ جَارِهِ
ألا مَاتَ مَنْ مَاتَ السَّماحُ بِمَوتِه ... وكُلُّ عَطاءٍ نَقْدُهُ كِضمَارِهِ
فَتىً كانَ يَهدي الجُودُ قَصْدَ سَبيله ... وحَاشَاهُ مِن أَسْرَارِه وبِدارِهِ
فَتىً كانَ كالعَذْراءِ في ظِلِّ خِدْرِها ... وكَالأَسَدِ الرِّئْبالِ في ظِلِّ دارِهِ
مَضى قَدْ تَناهى سُؤْدُدًا غَيرَ أنّه ... مَضى نَصفًا قَدْ لاحَ شَيْبُ عِذارِهِ
خَبا قمرُ الدُّنْيا لحينِ اتِّساقِه ... فَياأَسَفاً هلّا لِحينِ سِرارِهِ

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٢١٦-٢١٧ .

بنَفْسِيَ مَن لمْ يُؤْذِنا بأَنِينِهِ ولـمْ يُؤذِ جَارَيْ بَيتِهِ بِجوارِهِ
تَبلّجَ عِنْدَ المَوتِ وابيّضّ وَجْهُه تَبلُّجَ ضَوءِ الفَجْرِ عِنْد انْفِجارِهِ

الوفاء والسماحة والعطاء ، في رأي ابن الرومي ماتت واندثرت بموت هذا الممدوح ، وكأنها كانت وقفا عليه دون غيره . فقد اتصف بالوفاء والكرم الشهير ، مع حفاظه على السر وكتمانه له ، لايحمل في قلبه حقدا ولاغدرا ، لأنه يعامل الناس بمثل مايحب أن يعاملوه . اتصف هذا المرثي كذلك بالحياء وهي صفة نادرة في ذلك العصر فقد كان كالعذراء في الحياء ، وهنا يحوم مرة أخرى على المعنى الإسلامي "الحياء شعبة من الإيمان" ولكنه في المعارك كالأسد شجاعة وإقداما .

جمع هذا المرثي من صفات الخير والسؤدد الكثير ، ومات وهو في قمة شبابه كالبدر الذى يخسف دون أن يصل لوقت السرار ، وقد تميز هذا المرثي عن غيره عند موته ، كما تميز في حياته ، فلم يكثر الأنين بل كان صابرا وعندما مات غشاه بياض مثل بياض الفجر عند طلوعه . وهذا دليل على راحة هذا المرثي عند موته . فلم يعان سكرات الموت ، وكأن ابن الرومي يريد الإشادة بخاله وأن أفعاله وأعماله كلها خير وبالتالي لم يعان عند موته .

يقول في مقام آخر مازجا بين الصفات الخِلْقية والخُلُقية(١):

كُلُّ الخِلالِ الّتي فِيكُم مَحاسِنكم تَشابَهَتْ مِنكُم الأَخْلاقُ والخِلَقُ
كأنّكم شَجَرُ الأَترجِّ طابَ معًا حَملاً ونَوْراً وطَاب العودُ والوَرَقُ

هؤلاء قوم جمعوا بين حسن الخلق وحسن الخلق فلاشبيه لهم إلا شجر الأترج الطيب الثمار والرائحة ـ وهو أول من شبه بشجر الأترج .

وقد اعتمد ابن الرومي في هذه الصورة على التشبيه الصريح لحرصه على ذكر الأداة فيه .

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٢٨٨ .

ومن الصور الفريدة التي مزج فيها ابن الرومي بين الصفات الخِلْقية والصفات الخُلُقية قوله يمدح بصفات كريمة يتمنى وجودها في أبناء عصره[١]:

كأنّه بيَنَ أحوالٍ تَدَاوَلُه ... بدرٌ تهادَاهُ شَتّىٰ من مَغازِلِه
أحْيا به اللّهُ قومًا بعْدَ هُلكِهِم ... وأَهْلَكَ اللّهُ قَومًا في غَوائِلِه
كالبحرِ أرْوىٰ بَني الدُّنيا وأَغْرقهم ... فَهُم رِواءٌ وغَرْقىٰ في سَواحِلِه
كأنّه وحْدَه جَيشٌ له لَجَبٌ ... صَواهِلُ الأرضِ شَتّىٰ مِن صَواهِلِه
للأَرْيَحِيَّةِ مَشيٌ في مَفاصِلِه ... وَلَيْسَ للرّاح مَشْيٌ في مَفاصِله
ذُو الفَضْلِ في دَهره لاعِنْد نَاقِصه ... بَلْ عِنْد كَامِله ، بَلْ عِنْد فَاضِله
يَاكَوْكبَ الدّهرِ قِدْماً في غياهِبِه ... يامَعْلَمَ الدّهرِ قِدْما في مَجَاهِله

هذا الممدوح مثل البدر في العلو والإضاءة ، بكرمه وجوده أحيا أناسا بعد فقرهم وعوزهم ، وببسالته وقوته ، ودهائه أباد قوما من الأعداء فهو بذلك يجمع بين الفعل ونقيضه : النفع + الضرر كالبحر يروي الناس منه ويغرق فيه ناس آخرين . هذا الممدوح في القوة والبأس كأنه جيش عرمرم.

لايشرب الخمر لذلك فعقله دائما متيقظ . له أريحية تغنيه عن الخمر وهذه صفات القادة العظماء لايذهبون عقولهم ، ولايفسدونها بالخمر .

فضله على الناس كلها فلايختص ناقص عن كامل ، بل الناس عنده سواسية كما أنه لحسن فعاله ووضاءة جماله مثل الكوكب في الظلام وكالعلم في المجاهل يهتدي به ويستدل على الطريق والفعل الحسن .

فهذه معظم الأخلاق الجليلة التي تطلبها أي أمة في مسئولها ، وراعيها وإن محاولة تأكيد ذكرها من شاعرنا هي توعية غير مباشرة وتوجيه فطن لأبناء عصره لهذه الأخلاق والتحلي بها ، ومن ثم السمو بالمجتمع ، لأعلى الفضائل .

---

(١) الديوان ، ج٥ ، ص١٧٦ .

كثيرا ماحام شاعرنا حول المعنىٰ الإسلامي فتارة يورد القيمة الإسلامية بارزة وأخرىٰ يلمح لها من خلال اقتباس بعض الألفاظ والمعانى من الكتاب الكريم والدليل قوله يمدح بطريقه تدل علىٰ تأثره بمعاني القرآن وأسلوبه(١):

أبلجِ الوَجْهِ كالْهلالِ بَلْ البَدرِ ... بَلْ الشَّمْسِ بَلْ فَقِيدِ المثالِ
لايُضاهِيهِ في المَحاسِنِ إلاّ ما ... تُسْدِيه كَفّهُ مِنْ فِعَالِ
أَرْيَحِيٌّ يُعطِي العَطِيّة في ... العُطْلَةِ أَضْعَافَ أُخْتِها وَهْوَ وَالِ
مُحسِنٌ مُجملٌ وليْسَ بِبِدعٍ ... ذَاك مِنْ مِثْلِهِ ولابِمُحالِ
أَحْسَنَ اللّهُ خَلْقه فَبَداهُ ... في انتساخ لِحُسْنِه وامْتِثالِ
لَيْسَ مِمَّن إذا ألَحّ شَفِيعٌ ... أَخْلَقَ الوَجْهَ عِنْدَه بِابْتِذالِ

يذكرنا ابن الرومي في تردده وهو يشبه ممدوحه تارة بالهلال ثم بالبدر وأخيرا بالشمس . ثم يعرض عن تلك المشبهات كلها ويقرر أن لامثيل له في الحسن والبهاء . فأول ماتبادر لذهنه الهلال . ثم رأىٰ في الهلال نقصا فهناك فترة يكون الهلال فيها أشد وضاءة وهي فترة تمامه حين يصبح بدرا فشبهه بالبدر . ثم رأىٰ أن الشمس أشد إضاءة من البدر حيث يستمد البدر منها ضوءه ، فعدل عن البدر إلىٰ الشمس ، وهو في هذاالتردد والبحث عن المثال الأكمل يذكرنا بالآيات التي وردت علىٰ لسان أبي الأنبياء ابراهيم عليه السلام حين حكىٰ عنه القرآن {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيهِ اللَّيلُ رَءَا كَوكَباً . قَالَ : هَٰذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ : لَآأُحِبُّ الأَفِلِينَ . فَلَمَّا رَءَا القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّم يَهدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ القَومِ الضَّالِّينَ ، فَلَمَّا رَءَا الشَّمسَ بَازِغَةً قَالَ هَذا رَبِّي هَذَا أَكبَرُ ...}(٢).

فمعروف أن أشد الكواكب السيارة إضاءة هي الشمس ثم القمر ثم الزهرة ، ولكن الشمس أنور من القمر وأضوأ من غيره ، وأكبر جرما ،

---

(١) الديوان ، ج٥ ، ص٢١١ .
(٢) سورة الأنعام : آية ٧٦-٧٧-٧٨

وأعم نفعا ، والشاعر يبحث لممدوحه عن شبيه كامل فى الحسن ، فرأىٰ أن لامثيل له سوىٰ فعاله الحسنة فهو جواد كريم ، يعطي في كل وقت ، وكل فعل حسن يأتيه ليس بدعا أو محالا عليه لأنه أهل لكل جميل ، فكما أحسن الله خَلْقه أحسن خُلُقه .

لايعبس في وجه سائليه ، ليس كغيره ممن يضجر بالسائلين ويبخل عليهم ، وعلىٰ الرغم من حرصي علىٰ تجلية القيمة الاجتماعية في النص ، فإنه يعنيني أيضا طريقة الشاعر في أدائها ، وابن الرومي وفق في إبراز القيم الممدوح بها جميلة مؤثرة بطريقة ساعدت المتلقي علىٰ استكشاف تلك القيم ، والاحتفال بها .

قلنا إن الأذهان العربية في العصر العباسي بدأت تهتم بناحية فرضتها الحضارة وهي الفلسفة والتنجيم . وقد عرض ابن الرومي ذلك في شعره يقول مادحا بجملة صفات خِلْقية وخُلُقية[1]:

يامَنْ غَدا والمُشْتَرِي جَدٌّ لَه ... والشَّمْسُ رأيٌ والهِلالُ جَبينُ
والحِلمُ سَمْتٌ والعَفافُ طَوِيَّةٌ ... والبِرُّ خِدنٌ ، والوفاءُ قَرينُ
ومَنْ اسْتفاضَ بِعدْلِه وبفَضْلِه ... حَتىٰ استَوىٰ الجَبّارُ والمِسْكينُ
ومَنْ اسْتَجَنَّ مِنْ الحَوادِثِ جارُهُ ... فَكَأنّه بَعْدَ الوِلادِ جَنينُ
تَبدُو وَوَجْهُكَ ضَاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ ... عِنْدَ السُّؤالِ وَلِلْبخِيلِ أنينُ
لازِلْتَ أفْضَلَ مَنْ يُطِيعَ إلهَه ... ويُطِيعُه التَّعميرُ والتَّمكينُ

هذا الممدوح حظه كبير وهو في الرفعة والعظم مثل كوكب المشتري ورأيه نافذ ساطع مثل الشمس في السطوع والوضوح ، فكما أن في ضوء الشمس حياة فكذلك الرأي الصائب به حياة ، هذه الصفات المعنوية لم تمنع شاعرنا من التنبه للناحية الشكلية لممدوحه فنعت جبينه بالهلال ، في الشكل ثم عاد ليبين أن الحلم علامة مميزة لهذا الممدوح ، كما أن العفة صفة والبر

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص٢٦٢ .

صاحب ورفيق له في جميع تصرفاته وفعاله ، وعرف عن ملازمة الوفاء لشخصه إضافة إلىٰ عدله الذي اشتهر به فلايظلم لديه أحد .

ومن الصفات الحميدة التي تميز بها هذا الممدوح حسن الجوار حتىٰ عد بالنسبة لجاره كالخيمة التي تظله وتحميه من ظروف الجو وقسوته .

فهو لكرمه وجوده وبره بجاره كأن جاره رغم وجوده في هذه الحياة لم يولد ، ولكن هذا الممدوح يستره ويحميه من حوادث الدهر وتقلباته فكأنه جنين في بطن أمه ، لايصل إليه الأذىٰ ، وابن الرومي يحوم مرة أخرىٰ علىٰ المعنىٰ الإسلامى الذي يحث علىٰ البر بالجار وحسن الجوار .

هذا الممدوح لايضجر عن السؤال بل يعطي وهو ضاحك مستبشر ليس كالبخلاء الذين إذا أعطوا كان لهم أنين وعبوس .

على كثرة الفضائل والمحامد التي اتصف بها هذا الممدوح إلا أن هناك ميزة عظمىٰ وهي الدين ، فهو إنسان متدين يعرف حق الله عليه .

قال الله تعالىٰ في صفة داود عليه السلام : {.. وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ والجِسْمِ}[1] أخذ هذا المعنىٰ ابن الرومي وجعله من المعاني الإسلامية التي أكثر منها في مدائحه ، فهذا ممدوح امتاز عن غيره بالزيادة في الأخلاق حيث يتحلىٰ بأكرمها وأفضلها ، وكذلك في الخلقة حيث اكتملت له صفات الحسن والجمال . يقول عنه[2]:

فتىً زِيدَ في الأخلاقِ والخَلْقِ بَسطةً
بأمثَالها نالَ الرجالُ المَعالِياَ
أتمَّ له الإحسانُ حُسْنَ رُوائهِ
وأضْحَىٰ من الإحسان والحُسن حَالِيا

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٤٧

(٢) الديوان ، ج٦ ، ص٣٦٠ .

يَقُولُ لِمَنْ يَلْحَاهُ فِي بَذْلِ مَالِهِ
أَأُنْفِقُ أَيّامي وأُمْسِكُ مَالِيا؟؟
نَسَبْناهُ والقَومُ الكِرَام إلىٰ العُلىٰ
فَكانَ صَرِيحاً والكِرَامُ مَوَالِيا .

فأخلاق هذا الممدوح وصفاته واسعة كريمة لايمتلكها غيره تم له الحسن وكذلك الإحسان في كل حال .

لجوده وحب نفسه للعطاء يرىٰ أنّ المال لم يوجد إلاّ للإنفاق إذ لابد من بذله كما تُبذل الأيّام .. فاق الكرام وأصبح عليهم سيّدا .

نخلُص من هذا الفصل إلىٰ :

* امتزاج الغزل والرثاء بالمديح ، وهذا أمر بدهي إذ أن الشاعر يعدد فضائل المرأة ـ المحبوبة ـ كما يعدد فضائل الشخص المرثي .

* لايخفىٰ علينا أن مديح ابن الرومي كان موجها لشخصيّات بعينها في عصره كما لايخفىٰ علينا أن غرضه الأول هو الاستجداء فطبعي أن تكون عاطفته في مدائحه غير صادقة ، عدا عاطفة الرثاء .

* سهولة الألفاظ والمعاني وقربها من الانفعال العربي في مدائح ابن الرومي ، فقد يشترك مع غيره من الشعراء في المعاني ولكنه يتفرد عنهم بأسلوبه الخاص وحسن معالجته لتلك المعاني .

* وجود ظاهرة التعليل وتكرار المعنىٰ الواحد في وجوه متعددة في مدائح ابن الرومي والاهتمام بجزئيات الصورة وتكاملها .

الفصل الثاني

الإنسان

في رؤية المتنبي - مادحاً -

الإنسان في رؤية المتنبي مادحا

يتضمن :

أولا : الصفات الخِلْقية فى مدائحه .

ثانيا : الصفات الخُلُقية .

توطئة

تتعاقب أحقاب التاريخ وشعر المتنبي مابرح يدوي في سمع الزمان ويلح على المثقف العربي إلحاحا ، وهناك من يعتبره المثل الأعلى للشعر العربي ذوقا وروحا وطموحا للمجد ، فالعقل فيه يطغى على الوجدان ، ومن ثم كثر الجدل حوله بين المحبين والمبغضين من أيام "الوساطة بين المتنبي وخصومه" التي نَهَد إليها القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني إلى عصرنا هذا ، إذ أن شعر المتنبي "يمثل أحاسيس العرب ويترجم عن نفسياتهم ويعرب عن عواطفهم ونزعاتهم ، كما أن شعره يترجم عن الرجولة ومضاء العزيمة ، وعن الشمم والإباء ، والخلق الرصين ، عن النظرة الجدية للحياة ، والعزوف عن السخف والهزل ، وعن اللهو والمجون"(١).

من هنا أحب العرب شعر المتنبي ، واهتموا به ، كما كان للمتنبي "وضعا أخلاقيا يجعله متميزا على سائر شعراء العربية خُلُقا وسلوكا ، وبعد غاية ، وسمو همة ، لقد كان أبو الطيب ينادي بهذه القيم جميعا ، وصاغها شعرا كأجمل مايكون الشعر ، ودبّجها قصيدا كأعظم مايكون القصيد ، حتى صار شعره مدرسة جامعة في دروس الحكمة والأخلاق ، من استمساك بالعزة والكرامة ، وترفع عن الصغائر والدنايا ، ودعوة إلى القوة في أسمى صورها ودفع إلى الهمة في أرفع معانيها"(٢).

من هنا نميل إلى القول بأن المتنبي أول من أبرز ملامح البطولة في المقاتل العربي المسلم، وأبرز من خلالها مكارم الأخلاق ، وخلال الكرم والعفة ، والسؤدد وماإليها ، إذ كان يقصد بمدائحه إنسانا بعينه ثم يخرج بمعانيه إلى الإنسان بعامة ، في أروع وأنبل وأشجع مايكون عليه الإنسان ، لذلك تقيد شعره في الظاهر بممدوح ولكنه تجرد وسما إلى الإنسانية في كل عصر .

---

(١) د. جمال الدين الألوسى ، المتنبى شاعر كل العرب ، مجلة العربى ، عدد ٢٢٦ رمضان ١٣٩٧هـ ، ص٣٧ .

(٢) د. مصطفى الشكعة ، أبو الطيب المتنبى فى مصر والعراقين ، عالم الكتب ، ط/أولى ١٤٠٣هـ ، ص٤١٠ .

لذا كان شعره موضع اهتمام الكل حتىٰ المستشرقون اهتموا به وقارنوه بمن عندهم ، ولازال الناس حتى اليوم يحفظون شعره كأنه عَلِم بمستقبل كلامه فقال(١):

وَمَاالدَّهْرُ إلاّ مِنْ رُواةِ قَصَائِدِي
إذا قُلتُ شِعراً أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدا
فَسَارَ بِه مَنْ لَايَسِيرُ مُشَمِّرًا
وَغَنّىٰ بِه مَنْ لَايُغَنِّي مُغَرِّدا

ولنا أن نرىٰ الإنسان في رؤية المتنبى من خلال ثلاثة مباحث .

أولا : المديح بالصفات الخِلْقية، ثم بالصفات الخُلُقيـة ، وأخيرا المديح بالصفات الخِلقية والخُلقية في آن معا . *

---

(١) الديوان ، شرح وتحقيق عبد الرحمن البرقوقى ، بيروت ، ط/ثالثة ١٤٠٧هـ ، ج٢ ص١٤ .

* لقلة النصوص التى جمع المتنبي فيها بين الصفتين . آثرنا عدم إفرادها بمبحث خاص.

أولا : الصِّفات الخِلْقيّة في مديح أبي الطَّيِّب المتنبي :

الجمال ، أحس العرب الأوائل به إحساسا قويا ، واهتموا بوصفه بأحسن العبارات ، وأجمل التشبيهات ، وقد انصب إعجابهم على الجمال المعنوى ، جمال الخصال والمآثر ، إضافةلجمال المظهر الخارجي وتغنوا بذلك في أشعارهم . وقد نبه القرآن إحساس الإنسان بالجمال في مظاهره الكثيرة التي لاحصر لها ولاحدود ، سواء في ذلك جمال الطبيعة المتمثل في السماء الصافية بالنجوم اللامعة ، والجبال الشاهقة ذات الألوان المتنوعة ، والحدائق ذات البهجة التي تسر الناظرين ، قال تعالى : {**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ**}(١).

وكذلك الأنعام الجميلة النافعة للإنسان والتي قال فيها سبحانه وتعالى : {**وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**}(٢).

وأيضا الإنسان بصورته الجميلة المتنوعة المحاسن : {**فِي أَيِّ صُورَةٍ مَاشَاءَ رَكَّبَكَ**}(٣).

وقد حض القرآن على تأمل الجمال المعنوي المتمثل في العمل والسلوك والأخلاق والفضائل ، كما حضّ على تأمل الجمال الظاهر للعيان المتفتح في الطبيعة ، وآيات القرآن تدلنا على ذلك .

"وقد كان رسول الإنسانية المثل الأعلى للجمال ، يدركه ويحبه ويعجب به ، وذلك لما للجمال من تأثير على إحساس الإنسان ، ومايقدمه له من لذات جمالية تختلف عن مستوى اللّذات الحسية ، ويبتعد عن الأشياء المستنكرة غير الجميلة ، كما كان يحب جمال الحديث ، وعذوبة الإيقاع ،

---

(١) سورة فاطر : آية ٢٧

(٢) سورة النحل : آية ٥،٦

(٣) سورة الانفطار : آية ٨

نظـرا لما كان يتمتع به عليـه السلام من بساطة النفس التي تعتمـد على الخلق القويم ، الذي يجمع بين الخير والجمال"[١].

والمتنبي بحكـم ثقـافته الـواسعة وتجاربه في الحيـاة أدرك هـذه الفضائل كلهـا، كمـا تنبه بشاعريته وفنـه إلى أن الجمال في ذاته حيثمـا يكـون قوة . والقبـح ضعـف . وشاعرنا ـ شـاعر القوة ـ حين يرسم الجمـال ويتغنى به في مدائحه ، وحين يحبه ويهفو إليه إنما يحب القوة في الإنسان .

من هذا المنطلق نجد المتنبي لايهمل الجمال الحسي ـ الظـاهر ـ بل يمدح به ويصـوره تصـويرا لائقـا بشـاعر يبحـث عـن القـوة في أبسـط أشكـالها ـ الجمال ـ .

وكمـا مدح المتنبي بالصفات الخلقية فقد مدح كذلـك بالصفات الخلقية وهـو يعني الجمـال المعنوي ويبحـث فيه كذلك عن القـوة . وأخيراً نجد لـه نصوصا أخرى اعتمد فيها المبحثين ـ الصفات الخلقية والخلقية ـ في آن معا .

أفاض المتنبي كما قال الأستاذ السباعي بيومي[٢] في وصف آيات الحسن والجمال ، فلم يدع شيئا من محاسن المرأة إلا تناوله ، كاشفاً عن وجه الحسن فيـه وجاعلا لعقله وخياله مـن هذا الكشف نصيباً . فمـن مظاهر الحسن التي راقته وأعجبته : إضاءة الوجه وإشراقه في سواد الشعر وحلوكته ، لأنه يرى في الجمـع بين الأضداد زيادة في الفتنـة ، وقوة في الألم . قـال يصور هذا[٣]:

كَشَفَتْ ثَلاثَ ذَوائِبٍ مِنْ شَعْرِها ... فِـي لَيْلَـةٍ فَـأَرَتْ لَيَالِـي أَرْبَعَـا
واسْتَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّماءِ بِوَجْهِهـا ... فَـأَرَتْنِي القَمَـرَيْنِ فِـي وَقْـتٍ مَعَـا

---

(١) د. صلاح الـدين بسيـونى رسلان ، القيم فى الإسلام بين الـذاتيـة والموضـوعية ، ١٤١٠هـ ، القاهرة ص٧٦،٧٧ .

(٢) غـزل المتنبي ونصيـب الخيال والفلسفـة فيـه ، صحيفة دار العلـوم ، السنـة الثالثة ١٣٥٥هـ ، العدد الأول ص١٣٢ بتصرف .

(٣) الديوان ، ج٣ ، ص٤ .

فهو يمتدح سواد شعرها ويشبهه بالليل ، ويمتدح بياض وجهها وجماله مشبها إياه بالقمر . وهو حين يصور تعدد الليل بتعدد ذوائبها ، وتعدد القمر بوجهها لايخرج عن عادة الشعراء في وصف جمال المرأة . فهذه أوصاف متعارف عليها متوارثة فى الشعر العربى .

إلا أن المتنبي يضم لهذا كله عجبه من قامة كالغصن النابت على رفلتي فلاة حين قال(١):

غُصُنٌ علىٰ نَقْوىٰ فَلاَةٍ نَابِتُ ... شَمْسُ النَّهارِ تُقِلُّ لَيْلاً مُظْلِما

لَمْ تَجْمَعُ الأَضْدَادُ فِي مُتَشَابِه ... إلاّ لِتَجْعَلَنِي لِغَرْمِي مَغْنَماً

فهو يمتدح دقة قامة هذه المحبوبة وبياض وجهها مع سواد الشعر فقد جمعت هذه المحبوبة محاسن عدة متضادة .

"ويكرر المتنبي هذه الصورة ، ويتضح فيها من فنه المتشبع بروح العصر ، وفي الكون نجد مايريد ، في ظلمة الليل وشروق القمر ، إزاء ذوائب من شعر الحبيبة ووجهها الوضاح ، ومن ثم يجمع تلك المتنافرات ويقابل بينها متكئا علىٰ مقدرته الفنية .

ويبدو أن هذه الصورة أعجبت شاعرنا ، فعاودها مع إضافة زادتها روعة ، فوجه المحبوبة شمس النهار وتقل شعرا أسود كليل مظلم ، وهي كالغصن في اعتدالها نابت علىٰ كثيبي رمل .

فهو بعد أن عثر علىٰ الألوان المتضادة في محياها وشعرها ، قام بتشكيل صورة أخرىٰ محسوسة ، استقاها من دقة قامتها ، وثقل ردفيها ، وكل هذه المتنافرات اجتمعت في متكامل الحسن ، متناسق الأعضاء"(٢).

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص١٤٥ .

(٢) د. حسن الشماع ، المرأة فى غزل المتنبى ، ط/أولى ١٤٠٠هـ ، الرياض ، ص٨١،٨٢

وهناك من المعاني مايدور في كل خاطر ، ومن الأشباح مايقع أمام كل ناظر ، ولكن لأبي الطيب افتنان ومهارة ينفثان السحر في معانيه البدهية كما يقول[١] حسن علوان فيجعلها جديدة طريفة ، شديدة الوقع ، عذبة اللحن في أذن السامع كقوله[٢]:

مِنْ كُلِّ أَحْوَرَ فِي أَنْيابِهِ شَنَبٌ ... خَمْرٌ يُخَامِرُها مِسْكٌ تُخَامِرُه
نُعْجٌ مَحَاجِرُه دُعْجٌ نَوَاظِرُه ... حُمْرٌ غَفَائِرُه سُودٌ غَدَائِرُه
أَعَارَنِي سُقْمَ عَيْنَيْهِ وَحَمَّلَنِي ... مِنَ الهَوىٰ ثِقْلَ مَاتَحْوِي مَآزِرُه

جمع صفات الحسن التى إن وجدت في المرأة كانت مضرباً للمثل في الحسن ، في العيون والجسم والشعر . وفي هذه الصورة اعتمد المتنبى على التقسيم فقد أتى بأربع صور كلها في حركة إيحائية ذات إيقاع جميل . فرقة الألفاظ ، والموسيقى الهادئة المعبرة عن هدوء الصحراء وصفائها ، والإيقاع المنبعث من الحركة الرتيبة ، والنغم الجميل مصدره حسن التقسيم وانسجام التقطيع ، فكأنه يضرب على أوتار القلوب[٣].

مع أن ماجاء في الأبيات السابقة من معان لايخرج عن نطاق المعاني المتوارثة فماذا فيها ، غير أنها بيضاء المحاجر ، سوداء النواظر ، حمراء القناع ، حمة الشعر؟ كما قال الأستاذ حسن علوان . ولكن الجمال فيها جاء من السبك الحسن والموسيقى البديعة . شأنه في كل صوره وإن كان له بعض الصور لابد أن يقرن الجمال فيها بالقوة ليتم عنده الحسن والجمال مثل قوله[٤]:

---

(١) المرأة فى شعر المتنبى ، صحيفة دار العلوم ، السنة الثانية محرم ١٣٥٥هـ ، الجزء الرابع ، ص١٨٨ بتصرف .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٢٢٠ .
(٣) المرأة فى غزل المتنبى ، د. حسن الشماع بتصرف ص٣٧ .
(٤) الديوان ، ج٢ ، ص٥٣ .

فَرَأَيْتُ قَرْنَ الشَّمْسِ فِي قَمَرِ الدُّجَىٰ مُتَأَوِّداً غُصْنٌ بِهِ يَتَأَوَّدُ
عَدَوِيَّةٌ بَدَوِيَّةٌ مِنْ دُونِهَا سَلْبُ النُّفُوسِ وَنَارُ حَرْبٍ تُوقَدُ

فهذه المحبوبة جمعت بين حسن الشمس والقمر وبين اعتدال الغصن وتمايله وزادت علىٰ ذلك بأنها من قوم لهم عزة وكرامة يدافعون عنها بالقتال والحروب . فكأنها جمعت الحسن من أقطاره مما يشعر بالقوة .

وقد اعتمد شاعرنا علىٰ التجنيس لتقوية المعنى في ـ متأودا ـ يتأود .

العناصر البدوية في الشعر العربي تكسبه ضرباً من الجلال والروعة ، وقد فطن المتنبي لذلك . إذ يشعر قارىء ديوانه بأنه يجذبه من حياته المتحضرة المعقدة ومافيها من تكلف إلى البداوة والبساطة وأحضان الطبيعة . يقول مفضلا البدويات على الحضريات[1]:

مَاأَوْجُهُ الحَضَرِ المُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ كَأَوْجُهِ البَدَوِيَّاتِ الرَّعَابِيبِ
حُسْنَ الحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وَفِي البَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ
أَيْنَ المَعِيزُ مِنَ الآرامِ نَاظِرَةً وَغَيْرَ نَاظِرَةٍ فِي الحُسْنِ والطِّيبِ
أَفْدِي ظِبَاءَ فَلاَةٍ مَاعَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الكَلامِ وَلاَصَبْغَ الحَوَاجِيبِ
وَلاَبَرَزْنَ مِنَ الحَمَّامِ مَاثِلَةً أَوْرَاكَهُنَّ صَقِيلاَتِ العَرَاقِيبِ

تغنىٰ شاعرنا بالطبع وفضله علىٰ التطبع وامتدح البدويات وجمالهن الطبعي فهن لايصطنعن الجمال. فجمالهن خلقة ، كما أنهن لايعرفن التكلف كالحضريات اللاتي يحتلن على الحسن ماقدرن علىٰ الاحتيال . وهو هنا لايتنكر للزينة ، فهو حين يفضل البدويات ويندد بتطرية الحضريات وتكلفهن ، لايثور علىٰ التزين بل علىٰ التصنع والمبالغة فيه ، فلامانع من التحلي ، ولكن اللوم يقع علىٰ الإفراط فيه ، ومحاولة القبيحة أن تجمل نفسها مزيفة حقيقتها. ولعله يدعو هنا إلىٰ قيمة إسلامية ـ التوازن ـ فهؤلاء الأعرابيات ليس من عادتهن أن يشددن خصورهن كلما برزن من الحمام لتشخيص أوراكهن كما

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٩١-٢٩٢ .

تفعل نساء الحضر . كما أنهن فصيحات لايمضغن الكلام غنجاً ولايعرفن صبغ الحواجب طلبا للزينة كما تفعل نساء الحضر[١].

فأين جمال الحضريات اللاتي كالمعيز في الألفة من جمال البدويات النافرات كالآرام. كل هذه الصفات والشمائل يحبها الشاعر الفارس ، ويأنس بها ولايرىٰ كثيرامنها متوفراً عند معظم الحضر ، لذلك فضل الأعرابيات علىٰ الحضريات لأنه رأىٰ في البدو بساطةً وبعداً عن التكلف امتدحه من خلال غزله بالأعرابيات ، فإذا لم يكن للمرأة بد من بعض مظاهر التجمل ، لم ير أبو الطيب في ذلك تجملاً بل حياءً واحتشاماً .

فإذا لبس الحسان الوشي لم يلبسنه تجملاً ، بل صيانة لجمالهن ، وإذا ضفرن غدائرهن لم يكن ذلك زينة، بل خيفة أن يختفين في الشعر لطوله وكثافته .

ولعل هذه الأوصاف من مبالغات شاعرنا في وصف الجمال والتغني به يقول[٢]:

لِبَسْنَ الوَشْيَ لاَمُتَجَمِّلاَتٍ ... وَلكِنْ كَيْ يُصَنّ بِه الجَمَالا
وَضَفَّرْنَ الغَدَائِرَ لاَلِحُسْنٍ ... وَلكِنْ خِفْنَ فِي الشَّعَرِ الضَّلاَلا

فهؤلاء المحبوبات غنيات بحسنهن عن التجمل ولكنهن يصن جمالهن بلبس الديباج . فهو ينفي عن محبوباته لبس الوشي للتجمل ، كما ينفي عنهن تضفير الغدائر للحسن . ويثبت أن ذلك في الأول لستر الجمال ، وفي الثاني خشية الضلال ، مبالغة في وصف شعر النساء بالكثرة والطول ، وماأبدع ذلك حسن تعليل .

كما قال في موضع آخر ينسب إلى العواذل الإعتراف بحسن محبوبته[٣]:

---

(١) المرأة فى غزل المتنبى ، حسن الشماع ص٧٢ بتصرف .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص٣٣٨-٣٣٩ .
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص٢٢٦-٢٢٧ .

رَأَتْ وَجْهَ مَنْ أَهْوىٰ بِلَيْلٍ عَوَاذِلِي ... فَقُلْنَ نَرىٰ شَمْسًا وَمَاطَلَعَ الفَجْرُ
رَأَيْنَ التِّي لِلسِّحْرِ فِي لَحَظَاتِهَا ... سُيُوفٌ ظُبَاهَا مِنْ دَمِي أَبَدًا حُمْرُ
تَنَاهَىٰ سُكُونُ الحُسْنِ فِي حَرَكَاتِهَا ... فَلَيْسَ لِرَاءٍ وَجْهَهَا لَمْ يَمُتْ عُذْرُ (١)

فالمتنبي هنا لم ير بأسا في تغيير ناموس الحياة ليصل إلىٰ هدفه ، فانتقل بنا إلىٰ عالم آخر حيث تشرق الشمس ليلاً ، والفجر لم يطلع بعد ، ونحن نقف أمام هذه الظاهرة مبهورين ، ونعيش مع الشاعر كما يقول الدكتور حسن الشماع : "في أجوائه الغريبة مأخوذين بسحر الإشراق في وجه الحبيب حيث أضاء ظلمة الليل المتمثل في شعرها وقد خص العواذل لأنه إذا اعترفن له بهذا مع إنكارهن عليه حبها كان هذا أدل علىٰ حسنها فعيون هذه المحبوبة قاتلة كما أن حسنها قاتل .

وفي البيت الثالث جمع بين صورتين متنافرتين ليستخلص منهما مثالاً للجمال جامعاً السكون والحركة في وجهها ، فهي ساكنةً متحركة ، ومن هذا التداخل والتفاعل يصل إلىٰ الفن الجميل ليشكل صورة لمجاز عميق قد يصل حد الفلسفة"(٢).

يبالغ المتنبي في وصف محبوبته بالحسن ، فهو حسن فائق ليس للناس عهد بسحره وفتنته فيقول(٣):

خَرِيدَةٌ لَوْ رَأَتْهَا الشَّمْسُ مَاطَلَعَتْ ... وَلَوْ رَآهَا قَضِيبُ البَانِ لَمْ يَمِسِ (٤)
مَاضَاقَ قَبْلَكِ خَلْخَالٌ عَلىٰ رَشَأٍ ... وَلَاسَمِعْتُ بِدِيبَاجٍ عَلىٰ كُنُسِ (٥)

فهو يعلو بحبيبته عن الشمس طلعة ، وعن قضيب البان تثنياً ، ويعجب كيف يضيق عليها الخلخال ، ويغطى هودجها الديباج ، إذ هي ظبية وماعهد هذا فى الظباء .

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٢٢٦-٢٢٧ .
(٢) المرأة فى غزل أبى الطيب ص٩١ .
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص٢٩٦ .
(٤) الخريدة : المرأة الخفرة الحيية
(٥) كنس : الغزال .

ثم يجعل لكلام هذه المحبوبة قوة جاذبية تستهوى الطير إليها حين قال[١]:

مُنَعَّمَةٌ مُمَنَّعَةٌ رَدَاحٌ ... تُكَلِّفُ لَفْظُهَا الطَّيرَ الوُقُوعا
تُرَفِّعُ ثوبها الأرْداف عَنها ... فَيَبقَى مِن وِشَاحَيْهَا شَسُوعا
ذِراعَاها عَدُوّا دُمْلُجَيْهَا ... يَظُنُّ ضَجِيعُهَا الزَّنْدَ الضَّجِيعا
كَأنَّ نِقابَهَا غَيْمٌ رَقِيقٌ ... يُضِيءُ بِمَتعِه البَدْرَ الطَّلُوعا

فهذه المحبوبة ضخمة ممتلئة الجسم ، حسنة الألفاظ عذبتها ، عظيمة الأرداف والذراعان ، جميلة الوجه حتى أن نقابها يضيء بضوء وجهها كما يضيء الغيم الرقيق بضوء البدر . "والمتنبي هنا يفرد الوجه عن الشعر ولكنه يقرن به بديلا يزيده فتنة وجمالا ، كأن يصور عليه قناعا يحد من ضوئه كحد الغمام الرقيق في ضوء البدر ولكنه يستفيد منه"[٢].

والمرأة التي يصفها المتنبي هي نفس العربية في الشعر الجاهلى ، الأنثى الممتلئة ، الناعمة المنعمة الطرية ، هذه الحسناء ممتلئة الجسم ، ذات ردف ثقيل ، بيضاء ، سمراء الشفتين تحمل المحاسن والأضداد كلها يقول عنها[٣]:

بَانُوا بِخُرعُوبَةٍ لها كَفَلٌ ... يَكادُ عِنْدَ القِيَامِ يُقْعِدُهَا
رَبْعَةٌ أَسْمَرُ مُقَبَّلُهَا ... سَبْحَةٌ أَبْيَضُ مُجَرَّدُهَا

فالمتنبي يقابل بين الصفة وضدها مظهرا حسن المرأة العربية في غير إفراط .

مما استهواه فأحسن التصرف في نعته وأبدع التخيل فيه : الثغر ومابه من أسنان وريقه ، ومايصدر عنه من نكهة وكلام . قال يذكر كل هذا[٤]:

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٣٥٨-٣٥٩ .
(٢) غزل المتنبي ونصيب الخيال والفلسفة فيه ، السباعى بيومى ، صحيفة دار العلوم ص١٣٣ .
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص٢٠-٢١ .
(٤) الديوان ، ج٤ ، ص١٦٧-١٦٨ .

فَتَاةٌ تَسَاوَىٰ عِقْدُهَا وكَلامُها ... ومَبْسِمُها الدُّرِي في الحُسن والنَّظْمِ
ونَكْهَتُها والمَتْدَليُّ وَقُرْقُفٌ ... مُعَتَّقَةٌ صَهْباءُ فِي الرِّيحِ والطَّعْمِ

وهو وإن امتدح ثغر محبوبته ، ووصف طيب رائحته ، وجمال أسنانها إضافةً إلىٰ حسن حديثها ، إلا أنه قد يضن في مواضع أخرىٰ بريقها أن يكون ضَربا حين يقول(١):

مَظْلُومَةُ القَدِّ فِي تَشْبِيهِه غُصُناً ... مَظْلُومَةُ الرِّيقِ فِي تَشْبِيهِهِ ضَرَّبا
بَيْضَاءُ تُطْمِعُ فِيما تَحتَ حُلَّتِها ... وعَزَّ ذَلِكَ مَطْلُوباً إذَا طُلِبا
كَأَنَّها الشَّمْسُ يُعيِي كَفَّ قَابِضِهِ ... شَعَاعُها ويَراه الطَّرْفُ مُقْتَرِبا

فهذه المحبوبة ريقها أحلىٰ من العسل ، وقدها إن شبه بالغصن ظلم ، ثم يوضح لون محبوبته ، فيقف أحياناً عند البياض الظاهر ، يردفه بما يغري بمستوره أو يطمع فيه ، ثم يجعل هذا الطمع بعيد التحقيق . فهذه المحبوبة وبياضها كالشمس شعاعها قريب ظاهر للعين بعيدة عن المنال .

ويشط به الخيال فيجعل بشرتها من بشر الدر الذي قلدته ، فكان علىٰ نحرها المشرق كالشهب علىٰ البدر في قوله(٢):

وفَتَانَةَ العَينَيْنِ قَتَّالَةَ الهَوىٰ ... إذَا نَفَحَتْ شَيْخاً رَوَائِحُها شَبَّا
لَها بَشَرُ الدُّرِّ الذِي قُلِّدَتْ به ... وَلَمْ أَرَ بَدْراً قَبْلَها قُلِّدَ الشُّهْبا

فهذه المحبوبة ساحرة العينين ، ذات جمال أخاذ ، تعيد بروائحها وطيبها الشيخ شاباً . وفي هذه الصورة مبالغةٌ تتجلىٰ في اللفظتين . فتانة قتالة وتلك القدرة الخارقة في روائحها حيث تعيد للشيخ صباه كما أنها فاقت البدر في الضياء والبياض .

فقد يلفت نظر شاعرنا في محبوبته إضافة للحسن الظاهري حسن الرائحة وطيب الحديث . ويرىٰ أن هذه أهم مقومات الجمال في الأنثىٰ .

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٣٨-٢٣٩ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص١٨٤ .

الـزيادة في المعـاني أبدا دأب المتنبي ، انظـر إلىٰ قـوله يصـف جمـال محبوباته[١]:

عَمَرك اللّه هَـلْ رأيْتَ بـدُوراً ... طَلَعـتْ فـي بَراقِـعٍ وعُقُـودِ
كُـلّ خَمْصَـانَـةٍ أرَقّ مِـن ... الخَمْـرِ بِقَلْبٍ أقسىٰ مِن الجَلْمُـودِ
ذَاتَ فَرْعٍ كَأنمّا ضَرَبَ العَنْبَـرُ ... فيـه بِمـاءِ وَرْدٍ وعُـودِ
حَالِكٍ كَالغُدَافِ جَثْلٍ دَجُوجِي ... أثِيـثٍ جَعْـدٍ بلا تَجْعِيـدِ
تَحْمِلُ المِسْـكَ عَنْ غَدَائِرِها ... الـرِّيح وتَفْتَـرّ عَـنْ شَنِيـبٍ بَرُودِ

"ينـوع المتنبي مصـادر صـوره المتعـارضة ، فهـو يصـف النسـاء بأنهـن كالبدور في الحسن ناعمات الأجسام قاسيات القلوب ، فيستقي صورته الأولىٰ من صورة مادية تتمثل في ضمـور خصرها ورقتها ، ويقـابلها بأخرىٰ معنـوية يجدها في قسوة قلبها ، فقد قابل بين الرقة التي أراد بهـا نعومتها وصفاء لونها مع الصلابة والشدة"[٢].

ثم يفرد الشعر عن الوجه ويقرنه كذلك ببديل كتضمخـه بالطيب مثلا فهذه المحبوبة طيبة رائحة الشعر ، شعرها أسود كثير جعـد ، من طيب رائحتها كأن الريح إذا مرت بها تحمل المسك من غدائرها .

وقـال ينسـب ظلم هذا الحسـن الـذي جمعته حبيبته لـه ، كظلم متنيهـا لخصرها[٣]:

فَلمْ أرَ بَدراً ضَاحِكاً قبل وجْهِها ... وَلـمْ تَـر قَبلـي مَيّتـاً يَتكلّمُ
ظَلُومٌ كَمَتْنَيْها لِصَبّ كَخَصْرِها ... ضَعِيـفٌ القُـوىٰ مِـن فِعْلِهـا يَتَظَلّـمُ
بِفَرْعٍ يُعيدُ اللّيْلَ والصُّبْحُ نَيِّرٌ ... ووجه يُعِيـدُ الصُّبـحَ واللّيْـلُ مُظْلِـمُ

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٣٩-٤٢ .
(٢) د. حسن الشماع ، المرأة فى غزل المتنبى ص٩٠ .
(٣) الديوان ، ج٤ ، ص٢٠٢-٢٠٣ .

هـذا يشير إلى ذوق الشاعر كما قال الدكتـور حسن الشماع[١]: "وربما ذوق العصـر نفسـه ، فالمرأة الجميلـة هي التي يدق خصـرها ويعظـم ردفها ، وهـذه صـورة تضع لونا للمرأة المثـالية ، فالتي يفضلهـا شـاعرنا على غيرها ، بيضـاء مشرقة المحيا ، ذات شعـر أسود كالليل ، ومن تفـاعل هـذين اللونين يخرج علينـا بصورة فنية رائعـة تظهر كفاءته وتفوقه في هـذا الفن ـ الغزل ـ فالحبيبة تنشر فرعها على وجههـا المشرق فتحيله ليلاً مظلمـا ، ثم تكشف عنه فإذا به كنور الصباح ، فالظلمة والإشراق وجدا مادتهمـا في شعرها الأسود ، ووجههـا المشرق ، فهي ضياء تبدد الظلام حيثما حلت ، وتهـزم فلوله أينما استقرت" .

وهذا يذكرنا بقوله حين جمع لمحبوبته صفات الحسن كلها في بيتين[٢]:

بَدَتْ قَمَراً وَمَالَتْ خُـوطَ بـان ... وفاحَتْ عَنْبراً وَرَنَتْ غَـزالاَ

وَجَارَتْ فِي الحُكُومَةِ ثمّ أَبْدَتْ ... لنا مِن حُسْنِ قَامَتِها اعْتِدَالا

فهـذا إلى حد مـا نفس معاني الصـورة السابقة ولكـن بتنـويع بسيط في الأسلوب كعادة المتنبي .

"قـد يستغـرب العقل الحديث جعـل المتنبي ممدوحه جميلاً ، لامعنـوياً فقط بل جسمياً أيضا ، فإذا كنا نستطيع رد تشبيهه ممدوحيه بالشمس والقمر وحديثه عن بياض وجوههم إلى الجوانب المعنوية أحياناً"[٣].

فـإننا نجد أبيـاتاً يظهر فيهـا الحسـن الجسمي واضحـاً بل صـارخاً منهـا قوله[٤]:

شَمْسٌ إذَا الشَّمْسُ لاَقَتْهُ عَلى فَرَسٍ ... تَرَدَّد النُّورُ فِيهـا مِـنْ تَرَدُّدِهِ

إِنْ يَقْبُحَ الحُسْـنَ إلاّ عِنْـدَ طَلْعَتِـهِ ... فَـالعَبْدُ يَقْبُحُ إلاّ عِنْـدَ سَيِّدِه

---

(١) المرأة فى غزل المتنبى ص٧٩ .

(٢) الديوان ، ج٣ ، ص٣٤٠ .

(٣) سهيـل عثمـان ومنير كنعان ، المحصـول الفكرى للمتنبى ، دار الإرشـاد ، بدون ، ص١٥٨ .

(٤) الديوان ، ج٢ ، ص١٨٣ .

فهذا الممدوح شمس تستمد منه الشمس نورها ، وكل حسن إلىٰ جواره قبح لأنه يفوق الحسن ، ومن الأبيات التي يهيب بأحد ممدوحيه أن يخاف الله ويستر جماله ببرقع إذ يقول[١]:

خَفْ اللّهَ واسْتُر ذَا الجَمَالَ بِبُرقُعٍ
فإنْ لُحْتَ ذَابَتْ في الخُدُورِ العَواتِقِ

فالمتنبي يصور جمال هذا الممدوح ، وينعته بأنه فاتن يهلك عشقاً ، ويظهر في هذه الصورة الأثر البدوي في شعر المتنبي . حيث وردت بعض المصطلحات والألفاظ البدوية ، أو المتعارف عليها في البيئة البدوية مثل البرقع والخدور .

ويمدح المتنبي باعتدال القامات وحسن الوجوه ويجعلها من أمارات الفروسية والنسب العريق ، والطبع السليم ، فحين يمدح بجمال الوجه لابد أن يشير إلىٰ اقتران جمال المظهر بجمال المخبر ، فهؤلاء رجال يمتدح جمال وبهاء طلعتهم حين يقول[٢]:

كبَّرْتُ حَول دِيارِهم لمّا بَدتْ مِنْها الشَّمُوسُ ولَيْسَ فِيها المَشْرِقُ

فهم في الحسن والجمال مثل الشمس نوراً وإشراقاً . وهم كالشمس علواً وشهرةً ، كل هذا يدل علىٰ تقدير المتنبي للحسن والجمال الجسمي ، إضافة إلىٰ أن له أبياتا يهجو فيها بالقبح والنواقص الجسمية .

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٨٩ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص٧٧ .

عقب هذا التفصيل نتساءل ماالذي كان يروق المتنبي من جمال الإنسان بوجه عام وجمال المرأة بشكل خاص؟ أله ذوق خاص فيما يطريه ويستحسنه؟ أم أنه الذوق العربي العام إزاء القيم الجمالية التي يستحسنها كل الشعراء؟

قبل أن نحاول إجابة هذا السؤال لايغيب عن أذهاننا أن المتنبي قد عاش في "عصر ساده فساد سياسي ، واقتصادي ، فساءت أحوال المجتمع فاندفع الناس إلىٰ تلبية المتطلبات الفردية أولاً ، والعمل علىٰ هدم المنغصات الاجتماعية لإيجاد عدل اجتماعي ، بأن يوفر كل فرد فرص العدل الاجتماعي لنفسه ، ولكن المتنبي هدفه المجتمع بأسره ، فركز علىٰ الأخلاق الفاضلة ، وعدم الاغترار بالمظاهر ، فالخلق الطيب كما يقول خير رداء يتجمل به الفرد:

وَماالْحُسْنُ فِي وَجْهِ الفَتىٰ شَرَفاً له إِذَا لَمْ يَكُن فِي فِعْلِهِ والخَلائِقِ

فإذا لم تكن أفعال الفتىٰ وأخلاقه حسنة جميلة فليس يشرف بحسن وجهه وجمال شكله"(١).

فالجمال عند المتنبي لابد أن يكون داخلياً قبل أن يكون في الشكل . إذ أن جمال الظاهر لايغني عن جمال الباطن ، وإنما يبدأ التجميل من القلب من داخل النفس أولاً ، ليأخذ الإنسان سمته الواثق إلىٰ تحقيق الكمال الإنساني المنشود . وقد استطاع المتنبي أن يعيش مع الجمال ويتكون به ، ومن ثم جعلنا نبحث معه عن الجمال في كل شيء حتىٰ تقوىٰ نفوسنا ، علىٰ اعتبار أن الجمال مظهر من مظاهر القوة . ونلمس هذا الجمال في مواطن أخرى عندما يمتدح المتنبي بالصفات الخُلُقية . نحس الجمال من خلال الألفاظ التي عبر بها عن المعاني الخُلُقية "فقد تميز شعر المتنبي بقوة الألفاظ وفخامتها وروعة المعاني وإبداعها ، وسمو الخيال ، وإشراقة وعظمة البناء وابتكاره ، وإذا كان البلاغيون قد جعلوا أركان المدح أربعة : وهي العقل والعفة

---

(١) د. زهدى صبرى الخواجا ، موازنة بين الحكمة فى شعر المتنبى ، وفى شعر أبى العلاء المعرى ، دار الأصالة ، الرياض ، ١٣٩٨هـ ، ص١٤٧-١٤٨ .

والعدل والشجاعة ، بحيث من ألم بها في قصيدة مدح متجنباً عيوب الكلام يكون قد أصاب الذروة والتوفيق ، فإن أبا الطيب يعتبر من هذه الناحية إماماً في المديح لإصابته هذه المعاني في كل مديحه ، بل وزاد عليها زيادات كثيرة كلها فطنة في الفكر ، وجزالة في اللفظ"(١).

ومن هنا نرىٰ مدائحه بالصفات الخُلقية والتي يحاول فيها بعث القيم العربية كما قال(٢):

أَحْيَيْتَ لِلشُّعراءِ الشِّعْر فامْتَدَحُوا ... جَمِيعَ مَنْ مَدَحُوهُ بِالّذِي فيكَا
وعَلَّمُوا النّاس مِنْك الجُودَ واقْتَدروا ... عَلىٰ دَقِيقِ المَعَانِي مِن مَعَانيكا

---

(١) د. مصطفى الشكعة ، فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، عالم الكتب ، بيروت ، ط/ثانية ١٩٨١م ، ص١٩٧ .

(٢) الديوان ، ج٣ ، ص١١٧ .

ثانيا : الصفات الخُلُقيّة في مديح المتنبي :

التطلع إلى القدوة أو المثل الأعلى ، وتجسيد الفضيلة والخير والنبل في الإنسان العربي ، تلك هي نظرة المتنبي لإنسان عصره ، فقد حاول من خلال مدائحه أن يوقظ في الإنسان العربي ، قيمه وأخلاقه ، حاول المتنبي أن يوقظ الإنسان المتعالي الكامن في أعماق كل عربي ، من أجل تجسيد القيم الإنسانية السامية في مجتمع إنساني سليم ، يحلم به كل عربي كما يحلم المتنبي الذي عاش في ظل ظروف افتقد فيها العربي قيم البطولة ، فالذات العربية بكل قيمها وأخلاقها "كادت أن تضيع في القرن الرابع بين ذوات أخرى أعجمية ، تحاربها لتطمس معالمها بشتى الطرق ، وبين ضعف أصاب هذه الذات العربية فلم تعد تمثيلاً لقيم الفروسية التي مجدها العرب في أشعارهم ، في هذه الظروف نشأ المتنبي يفتقد قيم البطولة فلايجدها ، ويبحث عن المثل الأعلى لطموحاته وتعاليه فلايعثر عليه"(١)، فكان لشعره انتفاضة على عوامل الفساد ، وتوكيداً للقيم المثلى ، فبنى شخصية ممدوحه على قيم مثلى يعتبرها نموذجاً للبطولة والرجولة ، وعنوانا للكمال الإنساني ، وكان أول عناصر هذه الشخصية ، الخلق النبيل ، الذي يدفع إلى الأعمال الجليلة ، وكأنه بذلك يريد أن يخلق من أهل عصره رجالاً مناضلين .

على أن شاعرنا وهو يبعث تلك القيم ويحث معاصريه على التمسك بها له رأيه في الأخلاقيات ، يظهر في كل قيمة يمتدحها ، فالكرم والجود والشجاعة والعفة ، والحلم والعفو . كل تلك القيم لأبي الطيب نظريته فيها ، نظمها فكره في عقيدته ، ونثرها لسانه في شعره ، هي ذات سياسة موحدة ، لاتناقض فيها ولااضطراب ، وشاعرنا لايدعي أنه مبتكر هذا الرأي ، فقد حث عليه الإسلام في غير موضع ، غير أنه - المتنبي - لم يعالج هذه الفكرة معالجة شاعر يتجاوز عنها إن اضطره نفاق لممدوح ، أو ينقضها إذا ألح عليه

---

(١) أيمن محمد زكي العشماوي ، قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني ، دار النهضة العربية ، ط/أولى ١٩٨٣م ، ص٧٢ .

حسن تعليل جميل ، بل صدر عنها في كل شعره بأصولها وفروعها غير ملتاثه[١].

ولعل في مدائحه بالصفات الخُلُقية مايظهر ذلك ، وسنحاول أن نعرض بعض النصوص التي يمتدح فيها شاعرنا قيماً وأخلاقيات يظهر من خلالها رأيه في تلك القيم ، بعفوية وسهولة .

الشجاعة والكرم فضيلتان إذا وجدتا في المرء دلتا على حسن سيره ، وكانتا سياجه عن دفع مايتسرب إليه من ضرر ، وصد مايلحقه من قدح وذم ومديح شاعرنا يعتمد هاتين الفضيلتين أكثر من سواهما يقول[٢]:

إنْ حَلّ فَارَقَتْ الخَزائِنُ مَالَهُ ... أوْ سَارَ فَارَقَتْ الجُسُومَ الرُّوسا
مَلِكٌ إذا عَادَيْتَ نَفْسَك عادِه ... ورَضِيتَ أوْحَشَ مَاكَرِهْتَ أنِيسا
الخَائِضِ الغَمَرَاتِ غَيرَ مُدافَعٍ ... والشَّمَّرِيّ الِمطْعَن الدِّعيسا

لقد صوّر المتنبي ممدوحه في بيت واحد صورتين مختلفتين في كثير من الألوان ، فالصورة الأولى تبين ممدوحه كريماً ذا هيبة ووقار ، وتوضح الثانية صورة البطل المقدام الذي لايعرف للهزيمة مطرحا ، ولاتقنع نفسه بغير النصر ، وقد كان لغنية المتنبي وطريقة عرضه الخاصة أثر في إبراز هذه الصورة على الوجه الحسن ، وقد عودنا المتنبي صياغة المعاني المعروفة في قوالب فنية خاصة به ، انظر إلى هذه المعاني التي استطاع أن يكسوها شاعرنا حلة خاصة[٣]:

يُعطِيكَ مُبتَدِرًا فإنْ أعْجَلْتَه ... أعْطاكَ مُعْتَذِراً كَمَنْ قَدْ أجْرما
ويَرىٰ التَّعظُّمَ أن يُرىٰ مُتواضِعا ... ويَرىٰ التَّواضُع أنْ يُرىٰ مُتَعَظِّما

---

(١) محمد مهدى علام ، فلسفة المتنبي من شعره ، صحيفة دار العلوم ، العدد الأول ، ص٦٠ بتصرف .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٣٠٥ .
(٣) الديوان ، ج٤ ، ص١٤٥-١٤٩ .

يامَنْ لِجُودِ يَدَيْه فِي أَمْوالِه ... نِقَمٌ تَعُودُ عَلَى اليَتامَى أَنْعُما
حَتىٰ يَقولَ النّاسَ مَاذا عَاقِلا ... وَيقُولُ بيتُ المَالِ مَاذا مُسْلِما

الجود في العطاء ، والتفضل قبل السؤال خلق عظيم ، وقيمة حميدة كما أن تجمل النفس بالخضوع والتواضع ، ومنعها من الترفع على الناس ، وعدم الكبر على أحد خصلة عظيمة تدل على طهارة النفس وسلامة الذوق . وهذا ماأثنى به المتنبي على ممدوحه في هذه الصورة وإن كانت معان متداولة إلا أن صياغة شاعرنا لهاواعتماده المقابلة والتجنيس أمر له اعتباره مما أخرج لنا هذه المعاني في صورة حسنة ، ثم يتبع تلك المعاني بأن صور لنا ممدوحه جواداً ليس كغيره من الكرام ، فهو يتبع الناس ليعطيهم ، وهو متلاف للمال حتى كأن بينه وبين المال عداوة ، هذه العداوة في تفريقه للمال تعود أنعماً على اليتامى وإحساناً لهم يتصرف بسخاء ويفرط في الجود حتى ينسبه الناس إلى الجنون ، ويشك الناس في إسلامه لأنه لايكاد يدخل بيت المال شيء لأنه يجود به قبل أن يصل للبيت ، وبالتالي يشك الناس بإسلامه شكهم في عقله .

يكاد المتنبي أن ينظر إلى الإنسانية بأجمعها من خلال بعض الأفراد الذين يعدون في نظر شاعرنا قمة الأخلاق والقيم . فلم يكن يستهدف الشخص بقدر ماكان يستهدف المثل الأعلى أو القيمة التي كانت تنبع من ذات الشاعر في مديحه يقول(١):

إنّما بَدْرُ بنُ عمّارٍ سَحَابٌ ... هَطِلٌ فِيه ثَوابٌ وعِقَابُ
إنّما بَدْرٌ رَزَايَا وعَطَايَا ... ومَنَايَا وطِعَانٌ وضِرابُ
مايُجيلُ الطَّرفُ إلاّحَمِدَتْه ... جَهْدَها الأَيْدي وذَمّتْه الرِّقابُ

فهذا الممدوح نفاع ضرار ، مثله في ذلك مثل السحاب فيه هلاك لقوم وحياة لآخرين ولكثرة وقوع تلك الأفعال من ممدوحه عدها الشاعر وإياه

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٦١ .

كالشيء الواحد ، ثم يبالغ فيقول[١]:

مَـابِـه قَتْـلَ أعَادِيـهِ ولكِـنْ يَتَّقِـي إخْلافَ مَـاتَرجُو الـذِّئابُ
فَلـهُ هَيبَـةَ مَـنْ لَايُتَـرَجّـىٰ ولَـهُ جُـودُ مُـرَجّـىٰ لَايُهَـابُ
طَاعِنُ الفُرسانِ فيالأَحْداق شَزرًا وعَجَـاجُ الحَـرْبِ للشَّمْـسِ نِقَـابُ
باعِثُ النفْسِ علىٰ الهَوْلِ الّذي ليْـسَ لنفْـسٍ وَقَعْـتِ فيـه إيـابُ

الـذي تعارف عليه الناس ـ كمـا يقول عبد القاهـر ـ "أن الرجل إذا قتـل أعاديه فلإرادته هلاكهم ، وأن يدفع مضارهم عـن نفسه ، وليسلم ملكه ويصفو من منازعاتهم ، والمتنبي يرىٰ أن العلة في قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلـك ، فـالمتنبي يبالغ في وصـف ممدوحه بالسخاء والجود ، وأن طبيعـة الكرم قد غلبت عليه ، ومحبته أن يصدق رجاء الراجين ، وأن يجنبهم الخيبة في آمالهم قد بلغت به هذا الحد"[٢]، وإن كان من يرجوه ذئاب تقتات بجثث أعدائه ، فقد عودها ذلك ، وهذا الممدوح مهيب كل الهيبة ، جواد غاية فى الجود ، كمـا أنه متعود علىٰ الحرب والقتـال ، يحمل نفسـه علىٰ ركوب الأمر العظيم .

هذه نظرة المتنبي للرجل الشجاع المقدام يعلل أفعـاله وفي كل علة نجد ممدوح المتنبي يختلف عن غيره ، فأفعال كل ممدوح في نظـر المتنبي لها علل خاصة به لاتنطبق علىٰ غير ممدوحه أو هكذا أراد المتنبي .

في هـذه الصورة اهتم شاعرنا بالطبـاق والمقابلة بين الألفـاظ والمعاني في البيـت الأول مقابلة بين ثواب ، عقـاب ، والبيت الثاني في رزايا وعطـايا ، وفي البيـت الثـالث مقابلة في حمـدته ، ذمتـه . كمـا أن هنـاك مـن الجناس والطباق في بقية الصور الكثير مثل الجناس في البيت الرابع يترجىٰ ومرجىٰ .

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٦٢ .

(٢) عبد القاهرة الجرجانى ، أسرار البلاغة ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المدنى بجدة ط/أولى ١٤١٢هـ ، ص٢٩٦ .

ثم هنـاك صورة فنية بديعة حين استعار للشمس نقـاب ، وهذا النقاب عبـارة عن الغبار الذى تثيره الخيـل وفرسانها في ساحة المعـركة ، فهذه صور المتنبي دائمًا تنقـع الغلة وتبعث في النفس الراحة والجمـال ، ومن ثم توحي بالقوة .

"تنوعت شخصية الممدوح أمام أنظار المتنبي ، غير أن ملامحه لم تتبـدل فالفروسية هي الصبغة الطـاغية على مـديحه ، وكـأن عصـره عصـر فـروسية وحرب دائمة ، وقـد عرف أن الشجـاعة أبرز الصفات ، والنعـوت التي تهـز نفس الممدوح وتدفعه إلى السخاء"(١). يقول المتنبي في مقام المدح بهذه القيم العربية مضفياً عليها من خياله وثقافته مايلفت الأنظار(٢):

فَتىً يشتهي طُول البلادِ ووَقْتُه ... تَضيـقُ بِه أَوْقَاتُـه والمَقَاصِـدُ
أَخُو غَـزَواتٍ ماتَغِـبُّ سُيُوفُـه ... رِقـابُهم إلاّ وسَيْحـانُ جَامِـدُ
ومِنْ شَرَفِ الإقْدامِ أنّـك فِيهِـمُ ... علـى القَتْـلِ مَـوْمُوقٌ كَـأنّك شَـاكِدُ
وأنّ دمًا أجْرَيْتَـه بِـك فَاخِـرٌ ... وأنّ فُـؤادًا رُعْتَـه لَـكَ حَامِـدُ
نَهبْتَ مِن الأعْمارِ مَالَو حَوَيْتَـه ... لَهُنِّئَـتْ الدّنيـا بأنّـك خَـالِـدُ
فَأنْتَ حُسَامُ المُلْكِ واللّهُ ضَارِبٌ ... وأَنْتَ لِـوَاءُ الـدِّينِ واللّـهُ عاقِـدُ

توافرت في هذا الممدوح كل قيم الفروسية العربيـة ، فهو أمير عربي ، شريف الأصل ، كريم معطاء ، يجاهد ويناضل عن الإسلام ، كثير الغـزوات عظيم الانتصارات ، تضيق الأوقات بهمته وفضله ، شجاع ، والشجاع محبوب حتى عنـد مـن يقتله ، حتى أن الـدم الذي يسفكه هذا المـدوح يفخـر بأنه سُفـك بيـده ، وكـذلك القلب الـذي يخيفـه هذا المـدوح ، يحمـده إعجـابا بشجـاعته وإقدامه ، يقول الأستاذ علي الجارم(٣): "نعـرف أن الناس يمدحون الملـوك بالشجاعة والإقدام ، وكثرة الغزوات ، وأن النصـر معقود بلوائهم ،

---

(١) د. محمـد التـونجى ، المتنبى مالىء الـدنيا وشـاغل الناس ، عـالم الكتـب ، ط/ثانية ١٤١٣هـ ، ص١٦٢ .

(٢) الديوان ، ج١ ، ص٣٩٨-٤٠٠ .

(٣) سـر نبوغ المتنبى ، صحيفة دار العلـوم ، العدد الرابع ، السنـة الثـانية ، ص٦٧ .

ولكن المتنبي يترك كل هذا ليتناوله صغار الفنانين ويصعد في المدح بهذه المعاني إلى أفق أعلى ، تظهر فيه خصائصه ، وتتميز مواهبه فيجعل قتل الأعداء نهباً لأعمارهم ، واغتصاباً لها ، ثم يدفعه خياله البعيد إلى فرض أن هذه الأعمار الكثيرة ، اتصل بعضها ببعض ، فكونت عمراً طويلاً غير محدود ثم يصعد إلى أوج أسمى ، فيتخيل أن ممدوحه ، حاز هذه الأعمار غير المتناهية ، والتي انتزعها من أعدائه ، ولايكتفي بالحكم بأن هذا يصل به إلى الخلود ، بل يدعي أن الدنيا بمن فيها ومافيها تهنأ بهذا الخلود ، ثم ماأجل تصوير النصر المحقق في البيت التالي .. فقد أورد أفكاراً إسلامية وانطباعات من القرآن الكريم ، ففي قوله "والله ضارب" معنى مستوحى من الدين في قوله تعالى : {وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ}(١).

لكي يستجمع المتنبي ويؤلف لممدوحه سائر الفضائل يمتدحه بغاية القوة وغاية الرحمة معاً فيقول(٢):

هُوَ البَحْرُ غُصْ فِيه إِذَا كَانَ سَاكِنَاً ... عَلىٰ الدُّرِّ واحْذَرْهُ إِذَا كَان مُزْبِدا
فَإِنِّي رَأَيْتُ البَحْرَ يَعْثُرُ بالفَتَىٰ ... وَهَذا الّذي يَأْتي الفَتَىٰ مُتَعَمِّدا

يصف ممدوحه بالجود والبطش معاً في تشبيهه بالبحر في حالتي الهدوء والهياج ، لأن البحر إذا كان هادئاً أمكن اقتناص الدر من قاعه ، وإذا كان مزبداً ألقى بمن فيه إلى مورد التهلكة ، بل إن هذا الممدوح أشد فتكاً من البحر لأن البحر يغرق الفتى من غير قصد ، وأما هو فيهلك بقصد وعمد ، وتشبيه الممدوح بالبحر كما قال الأستاذ إيليا الحاوي : "أدى للشاعر فضيلتين يمتدحه بها ، فضيلة الكرم في حال السلم ، وفضيلة الصخب والعنف في حال الحرب ، فإذا رأيته هادئاً راضياً أقبل عليه . واغترف من درره وكرمه ، وأما إذاوجدته مغتاظاً فابتعد عنه ، فإنه يرديك ويهلكك ، وتأليف الشاعر لهذه الفضائل المتناقضة ، هو سبيله لإبداع صورة الكمال لممدوحه"(٣).

---

(١) سورة الأنفال : آية ١٧
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٤ .
(٣) فى النقد والأدب ، ج٣ ،ص٢٢٢ .

على أن عظمة هذا الممدوح قد تجاوزت الدهماء ، وشجاعته قد أخضعت له الملوك الذين يلقونه سجداً يقول في ذلك(١):

تَظَلُّ مُلُوكُ الأَرْضِ خَاشِعَةً لَهُ ... تُفَارِقُهُ هَلْكَى وَتَلْقَاهُ سُجَّدَاً
وتُحْيِي لَهُ المَالَ الصَّوَارِمُ والقَنا ... وَيَقْتُلُ مايُحْيِي التَّبَسُّمَ والجَدَا
ذكيٌّ تَظَنِّيهِ طَلِيعَةُ عَيْنِيْهِ ... يَرىٰ قَلْبُه في يَومِه مَاتَرىٰ غَدا
وَصُولٌ إلىٰ المُسْتَصْعَباتِ بِخَيله ... فَلو كَانَ قِرْنُ الشَّمسِ مَاءً لأَوْرَدَا

المتنبي فنان في مدائحه ، لأنه يجعل من ممدوحه بطلاً عظيماً ويضفي عليه من الصفات العالية مايجعل سادة الناس حتى ملوكهم يتضاءلون أمام عظمته ، هذا الممدوح لايقاتل في سبيل الغنائم . فما يناله منها يبذله في الكرم والمعروف . وهو إلىٰ ذلك فائق الذكاء ، لاينفذ إلىٰ مايطالعه في يومه وحسب ، بل يستدرك ماسوف يطالعه به غده ، قبل أن يقع ، ومهما تألبت عليه الصعاب فإنه يقتحمها ويجتازها ، حتىٰ أنه لايأنف ولايجزع من الارتقاء إلىٰ النجوم . وهنا يؤكد عزم وإصرار ممدوحه علىٰ بلوغ هدفه وغايته حتىٰ لو كان الهدف في الشمس لوصل إليه .

في البيت الثاني "جعل الزيادة والوفرة حياة للمال ، وتفريقه في العطاء قتلاً ، ثم أثبت الحياة فعلاً للصوارم ، والقتل فعلاً للتبسم من باب المجاز"(٢).

ويصل شاعرنا إلىٰ قمة البراعة الفنية ، والذوق الرفيع عندما يمدح بقوله(٣):

هَنِيئاً لَكَ العِيدَ الذي أنتَ عِيدَه ... وَعِيدٌ لِمَنْ سمّىٰ وضَحّىٰ وعَيَّدا
ولَازَالَتْ الأَعْيَادُ لُبْسُك بَعْدَه ... تُسلِّم مَخْرُوقاً وتُعطي مُجَدّدا

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٤،٥ .
(٢) انظر عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ص٣٧٢ .
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص٧ .

فَذَا اليَومَ فِي الأيّامِ مِثْلُكَ فِي الوَرىٰ
كما كُنْتَ فِيهم أوْحَدًا كَانَ أَوْحدا

جعل من الأعياد زياً جميلاً لممدوحه ، وهذا الممدوح مثل الأيام الغراء في جبين الدهر الناصع ، ثم جعل ممدوحه عيداً أكبر من العيد يقول إن هذا اليوم ـ العيد ـ في فرحته ونشوته مثل هذا الممدوح في الناس بأساً وشجاعةً وكرماً .

فيوم العيد شبيه بالممدوح في تفرده علىٰ سائر الأيام ، كما تفرد هو علىٰ سائر الناس .

ثم يصف ممدوحه بالحلم الجميل عن قدرة وقوة لاعن ضعف وخوف فيقول (١):

رَأَيْتُكَ مَحْضَ الحِلْمِ فِي مَحْضِ قُدْرَةٍ ... ولَو شِئْتَ كَانَ الحِلْمُ مِنْكَ المُهَنّدا
وَلكِنْ تَفُوقُ النّاسَ رَأْيًا وحِكْمَةً ... كَمَا فَقْتَهُم حَالاً ونَفْسًا ومَحْتِدًا
يَدُقّ علىٰ الأَفْكَارِ مَاأَنْتَ فَاعِلٌ ... فَيُتْرَكُ مَايَخْفَىٰ وَيُؤْخَذُ مَابَدا

يؤكد المتنبي كعادته أن القوة في مواطن القوة حكمة والعفو والحلم في مواضع العفو قوة ، ثم ينثني إلىٰ تركيز المدح علىٰ شخص ممدوحه ووصفه بالحكمة البالغة التي فاق بها جميع الناس ، كما فاقهم بخلقه أو محتده ، حتىٰ جعل أفعاله وتصرفاته فوق مستوىٰ العقول والأفكار ، حتىٰ أن كثيرا من الناس لاتفهم من فضله إلا الظاهر وتترك الخفي .

يشير المتنبي في هذه الصورة إلىٰ فضائل إسلامية سامية ، فقد أمر الإسلام المؤمنين أن يتجاوزوا عن إساءة المسيء في سبيل الإئتلاف والمودة . كما أن أخلاق المؤمن الذي يألف ويؤلف ، توجب عليه العفو عند المقدرة فبالحلم تستأصل جذور العداوات من النفوس ، وتستل الخصومات من القلوب ، والمتنبي وهو يمدح بتلك الفضائل لايغيب عن أذهاننا أنه يدعو

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص١١ .

أبناء عصره إلى تلك القيم الإسلامية والتي منها التعامل بالمعروف في غير صلف ولاكبرياء ، آخذين بقوله تعالى : {خُذْ الْعَفْوَ ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}(١). هذه الأخلاق التي دعا إليها المتنبي وتمنى أن يتحلى معاصروه بها محافظة على القيم والمكارم العربية والإسلامية ، بعد أن اندثرت فى عصره .

وإن كان في الأبيات "يغري ممدوحه بالذين عفا عنهم فأبطرهم العفو واصطنع معهم الحلم فظنوه عجزاً ، وهو يعجب من أناة ممدوحه وحلمه ، ويتق برأيه في كلام يملؤه الوعيد"(٢).

أعجب المتنبي بالخلق الحميد ، والشجاعة الفائقة ، والكرم الواسع ، فامتدح بهذه الصفات وأثنى بها على من توسم فيهم مثالاً للإنسان العربي الأصيل يقول(٣):

لمّا وَزَنْتُ بِكَ الدُّنيا فَمِلْتَ بها ... وبِالْوَرى قَلّ عِنْدِي كَثْرَةَ العَدَدِ
مَلِكٌ إذَا امْتَلأَتْ مَالاً خَزَائِنُه ... أَذاقَهَا طَعْمَ ثَكْلِ الأُمِّ لِلْوَلَدِ
ماضي الجَنَانِ يُريه الحَزْمَ قَبْلَ غَدٍ ... بِقَلْبِه مَاتَرى عَيْنَاهُ بَعْدَ غَدٍ
ماذا البَهاءُ ولاذَا النُّورُ مِنْ بَشَرٍ ... ولاالسَّمَاحُ الذي فيه سَمَاحُ يَدٍ
أي الأَكُفِّ تُبَارِي الغَيْثَ ماتّفقا ... حتى إذا افترقا عادَتْ ولَم يَعُد

كشف المتنبي في هذه الصورة وغيرها من الصور كما يقول الأستاذ أيمن العشماوي(٤): عن إعجاب بقيم ومثل جعلت من ممدوحه الإنسان الأمثل الذي لانظير له في عين شاعرنا ، والذي يريد أن يوضحه أمام الرأي العام في عصره بوصفه رمزا للقيمة المفتقدة التي يجب على العرب أن يتمسكوا بها ، فوصف شجاعة هذا الممدوح وكرمه وصفاً يخرج بهما عن

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٩٩
(٢) طه حسين ، مع المتنبي ، دار المعارف ، ط/١٢ بدون ، ص٢٥٢ .
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص٧١-٧٣ .
(٤) قصيدة المديح عند المتنبي ص١١٧ بتصرف .

كونه مجرد وصف لصفات تستدعي المدح إلىٰ حديث زهو وإعجاب .. ولكنه يبالغ حين يقول إن هذا الممدوح أجل من أن يكون بشراً لعظم صفاته ونبل فضائله .. كما قال مبالغا(١):

تَجاوزَ قَدْرَ المَدْحِ حَتّىٰ كَأَنّه ... بِأَحْسَنَ مَايُثْنَىٰ عَلَيْه يُعابُ
أَيا أَسَداً في جِسْمِه رُوحُ ضَيْغَمٍ ... وَكَمْ أُسْدٍ أَرْواحَهُنّ كِلابُ
جَرى الخُلْفُ إلاّ فِيكَ أنّك وَاحِدٌ ... وأَنّك لَيْثٌ والمُلُوكُ ذِئَابُ

رفع المتنبي ممدوحه إلىٰ مالايطمع فيه الملوك ، إذ جعله فوق كل مدح يثني عليه به ، وامتدح قوته تلك القوة التي شغف بها شاعرنا فرأىٰ أن قوة ممدوحه وهمته ماهي إلا قوة الأسود وبطشها ، علىٰ أن هناك أسودا بأرواح كلاب ولايوجد لهذا الممدوح شبيه فهو ليث وغيره من الملوك ذئاب ، كما قال(٢):

فتىً يملأُ الأَفْعالَ رَأْياً وحِكْمةً ... ونَادِرَةً أَحْيَانَ يَرْضَى وَيَغْضَبُ
تَزِيدُ عَطايَاهُ عَلىٰ اللّبْثِ كَثْرَةً ... وتَلْبثُ أَمْواهُ السَّحابِ فَتَنْضَبُ

كما أحب المتنبي القوة وحث عليها أحب كذلك العقل والحكمة والتريث ومدح بهما ، فهذا الممدوح حليم وأفعاله تتسم بالعقلانية والحكمة في رضاه وغضبه ، كما أن جوده وكرمه عظيم يفوق جود السحاب وفضلها .

تظل الصورة المثلىٰ للبطولة تعتمل في كيان المتنبي ، وقد رسم في مدائحه كلها ملامح واحدة لبطولة خارقة ، رأىٰ فيها سمات الطبيعة العربية ، وأراد لها التحقق والحياة ، من ذلك قوله يمتدح قوة وبطولة قائد عربي(٣):

وَفَوارِسٌ يُحْيِي الحِمَامُ نُفُوسَها ... فَكأنّها لَيْسَتْ مِن الحَيَوانِ
مازِلْتَ تَضْرِبُهم دِراكاً في الذُّرىٰ ... ضَرْباً كأنّ السَّيفَ فِيه اثنانِ

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٣١٨-٣٢٦ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٣٠٥-٣٠٦ .
(٣) الديوان ، ج٤ ، ص٣١٤-٣١٦ .

خَصّ الجَماجِمِ والوُجُوه كأنّما جاءَتْ إليْكَ جُسُومُهم بِأمَانِ
قَدْ سُوّدَتْ شَجَر الجِبالِ شُعُورُهم فَكأنّ فِيه مِسَفّة الغِرْبانِ
وجَرىٰ علىٰ الوَرَقِ النّجيعُ القَاني فَكأنّه النّارِنْج في الأغْصانِ

ينطلق شاعرنا من منطلق إسلامي فيرىٰ أن قتلىٰ المسلمين في المعركة شهداء يدخلون الجنة {ولاتَحْسَبَنّ الذّينَ قُتلوُا في سَبيل اللّه أمْواتاً ، بَلْ أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبّهم يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِما آتَاهُم رَبُّهم ، ويَسْتَبْشِرُون بالّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ}(١). يقول المتنبي : إن هؤلاء الأبطال المسلمين الذين يستشهدون في الميدان فرحون بما نالوا من الشهادة ، وكأن في الموت حياة لهم ، ثم يخاطب ممدوحه القائد في تلك المعركة ، ويصف إقدامه وإيقاعه بالأعداء فيقول : "إنك تضربهم في أبدانهم ضرباً متتابعاً ، وكأن السيف الواحد وهو يضرب سيفان ، ثم خص بالضرب الرؤوس والوجوه ، لأنها أشرف الأعضاء . ثم وصف قتلىٰ الأعداء فقال : كثر قتلاهم حتىٰ أطارت الريح شعورهم وتناثرت علىٰ الجبال فغيرت خضرة الأشجار سوادا ، فكأن الغربان وقعت عليها ، ولشدة القتل جرت الدماء علىٰ ورق الشجر ، فاحمر وصار لحمرته كأنه ثمر النارنج معلقة بالأغصان"(٢).

ترىٰ كيف يكون صدىٰ هذه الصورة علىٰ المتلقين؟؟ أغلب الظن أن العجز والهوان والصغار كان قد دب دبيبه في النفوس ، وتحولت آمالهم وشهواتهم من السماء إلىٰ الأرض ، ولكن أثرها لم يكن قاصرا علىٰ مجرد التسرية والتلهية عند قائلها ، فهي المتمنىٰ الذي انفعلت به نفسه وتلظت شوقا للاقتراب منه وتحقيقه في أبناء عصره .. طمعا في القوة وبعثا للهمم العربية وإحياء للقيم الأصيلة . ولايخفىٰ علينا مافي هذه اللوحة من الصور البيانية المعبرة والمؤدية للمعنىٰ في سلاسة ووضوح . ونادرا مانجد مثل هذه الصور القوية المعبرة عن القوة في أسمىٰ معانيها ـ الجهاد في سبيل الله ـ .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٦٩
(٢) محمود حسن أبو ناجي ، الحرب في شعر المتنبي ، ج٢ ، ص٣٤ .

أخلاق السادة التي توطد للإنسان القوي نفوذه ، تتمثل في حب المخاطرة ، والقوة واحتقار الضعف ، وهذا خلق شاعرنا ، أو هي الأقنعة التي تحدث عنها النقاد المعاصرون في شعر المتنبي أضفاها على ممدوحه في قوله(١):

وَمَاسَكَنِي سوىٰ قَتلَ الأَعادي ... فَهلْ مِنْ زَوْرَةٍ تَشْفِي القُلُوبا
تَظَلُّ الطَّيرُ مِنْها في حَدِيثٍ ... تَرُدّ به الصَّراصِر والنَّعيبا
وَقَدْ لَبِسَتْ دِمَاءَهُم عَلَيهم ... حِداداً لَمْ تُشَقّ لَها الجُيُوبا
أَدَمْنا طَعْنَهم والقَتْلَ حَتىٰ ... خَلَطْنا في عِظَامِهِمُ الكُعُوبا
كأَنّ خُيولنا كانت قديما ... تُسَقّىٰ في قُحُوفِهِمُ الحَلِيبا
فَمَرّت غيرَ نافِرةٍ عليهم ... تَدُوسُ بنا الجَماجِم والتَّرِيبا

يحدث المتنبي عن نفسه أولاً بأنها لاتهدأ ولاتسكن إلا إلىٰ قتل الأعداء ثم يتمنىٰ علىٰ ممدوحه بصفته محباً للغزو ، معتزاً بقوته ، أن يغزو غزوة تشفي قلب هذا الشاعر ، فصور معركة يكثر فيها القتل حتىٰ تجتمع الطيور علىٰ جثث القتلىٰ ، وكله ثقة في ممدوحه لما عرف عن هذا الممدوح أنه قاس علىٰ نفسه ، لايحفل بنعم الحياة ، نعيمه في القوة والانتصار ، في هذه المعركة يصور شاعرنا القتلىٰ من كثرة الطعن كأن دماؤهم وقد تلطخت بها الطير ثياب حداد علىٰ هؤلاء القتلىٰ ، تعد القوة في هذه الصورة مبدأ الحياة الأول عند المتنبي ، خاصة في معاملة الأعداء ، فهو يصور شدة الطعن والقسوة في القتال حتىٰ اختلطت كعوب الرماح بعظام القتلىٰ ، ثم صور خيلهم وهي تدوس جماجم الأعداء وصدورهم ، وفرسانها عليها، حتىٰ يظن المرء أن هذه الخيول وهى تدوس جماجم هؤلاء الأعداء كانت تسقىٰ الحليب في قحوفهم فهي متعودة عليهم لاتنفر منها ، وهذه من أبشع صور القتل ، بينما يراها المتنبي قمة الشجاعة والنيل من الأعداء ، فالقسوة مع العدو والقوة في قتالهم مطلب مهم في عصر المتنبي .

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٦٤ .

أثنى المتنبي على ممدوحه في صورة أخرى بحب القتال وسفك الدماء حين قال[١]:

مَلِلْتَ مُقامَ يومٍ ليسَ فيه ... طِعَانٌ صَادِقٌ ودَمٌ صَبِيبُ
وأَنْتَ المَلِكُ تُمرِضُه الحَشَايا ... لِهِمّته وتَشْفِيه الحُرُوبُ

لقد اعتاد هذا الممدوح الجِلاد وسفك الدماء ، حتى أنه إذا امتنع يوماً واحداً عن هذه العادة يشعر بالملل ، هذا الممدوح لبعد همته وإقدامه لايرى شفاءه إلا في ممارسة الحروب ، بينما الجلوس والنوم على الحشايا في نظره مجلبة للأدواء ، ولكن يؤخذ على شاعرنا أنه لم يحدد غاية هذا الممدوح من القتال ، بل صوره أنه محب للقتال والحرب ، والإسلام ينهى عن سفك الدماء بغير حق .

وقد أحسن المتنبي تصوير المعركة في النص الأول حتى أننا نتصور أشلاء القتلى متناثرة ، والخيول تدوس جماجمهم وصدورهم ، والطيور الجارحة تنهش مابقي من أعضائهم ، وكأننا نقف مع المتنبي في هذه المعركة .

المتنبي في مديحه لمن آمن بفضائلهم وأخلاقهم ، ينقلنا إلى جو فني رفيع ، نلمس فيه جوانب البطولة ، ونحيا معانيها ، ونرتفع معه إلى مستوى إنساني ، نلتقي فيه مع الإنسان المثل . فالممدوح عنده بطل مثالي ، يتميز بكل صفات المثل الأعلى[٢]. وصفات البطولة عند شاعرنا كل متماسك ، منبثقة عن شخصية البطل الكامنة في ذاته يقول[٣]:

لَقَدْ أَمِنَتْ بِكَ الإِعْدَامَ نَفْسٌ ... تُعُدّ رجَاءَها إِيَّاك مَالا
وقَدْ وَجِلَتْ قُلوبٌ مِنْك حتّى ... غَدَتْ أَوْجَالَها فِيها وِجَالا

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٠٢ .
(٢) إنعام الجندى ، دراسات فى الأدب العربى ، ط/ثانية ، بيروت ١٩٦٧م ، ص٢٥٦ بتصرف .
(٣) الديوان ، ج٣ ، ص٣٤٦ .

سُرُورُكَ أنْ تَسرّالنّاس طَرّا تُعلِّمهُم عَلَيْك بـه الـدَّلالا
إذَا سَـألُوا شَكَرْتَهُم عَلَيْـه وإنْ سَكَتُوا سَأَلْتَهُمُ السُّؤَالا

كـل نفس ترجو عطاء هذا الممـدوح آمنة لأنها تعلم أنه جواد لايخيـب قاصديه ، هذا في حال السلم والدعة ، أما في حال الحرب والقتـال فقد تخافه القلوب حتىٰ يخاف خوفهم ، وتوجل أوجالهم، لعلم أعدائه بشدته وقوة بأسه هذا الممدوح من الطيبة والكـرم بحيـث لايحصل له السـرور والفـرح إلا إذا سر الناس جميعا ، وكأنه بذلـك يعـودهم الـدلال عليــه والطمـع في كـرمه وطيبتـه ، هـذا الممدوح لكـرمه يحب العطاء ، ويشكـر علىٰ السـؤال ، وهذا يذكرنا بقول ابن الرومى[1]:

يامَنْ إذَا ماسَأَلْناهُ استَهلّ لنا وإنْ سَكَتْنَـا تَجَنّـىٰ عِلّـة الطّلَـبِ

جميـل أن يجود الإنسـان بما لـديه في كل وقت والأجمـل أن لايحوج الناس إلىٰ سؤاله، وهذا ماتغنىٰ به شاعرينا ، فكل واحد منهما امتدح بفضيلة الكـرم . وزاد أن جعـل من كـرم ممـدوحه أنه يحتال ويستنبـط العلـة كي يسـأله المحتـاج فيعطىٰ ويجود في عصـر شحت فيه الأنفـس وبخل الأغنيـاء .

فـالمتنبي هنـا مـدح بالكـرم والبـأس ، وهـذه صفـات تهمنـا ، ونقـف متدبرين لها ، فهل اندثرت هذه الصفات في عصر شاعـرنا؟ مما دفعه للمديح بهـا وإظهارها في صور جماليـة ، وصياغتها صياغة حسنـة حتىٰ يعيد للإنسان العـربي قيمـه الأصيلة ويحثـه علىٰ التمسـك بها والحفاظ عليهـا تحقيقـا للمجد والعظمـة ، وعرض تلك القيم بطـريقة تدل علىٰ موهبة شـاعرنا الفنيـة إضافة إلىٰ تفـرده في ذلك العرض ، وكـأنه بذلك يلزم نفسـه تحرير النـاس من كل مايعانون ، لأنه يرىٰ أنهم بطبيعتهم أنبل وأقوىٰ من أن يجرفهم تيار الفساد.

التغني بالفضـائل الإنسانيـة والمدح بالمآثر كان دأب المتنبي وصـولاً إلىٰ هدف أسمىٰ هو مدح القيمـة نفسهـا وبعثهـا في نفــوس معـاصريه يقـول[2]:

ضَرُوبٌ لِهَامِ الضّاربِي الهامَ فِي الوغَى خَفِيـفٌ إذا مَـاأثْقَـلَ الفَـرَسَ اللّبَـدُ

---

(١) ديوان ابن الرومى ، ج١ ، ص١٩٧ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص١٠٦-١٠٨ .

بَصِيرٌ بأَخْذِ الحَمْدِ مِن كُلِّ مَوْضِعٍ ... ولَـوْ خَبَّـأَتْه بَيْـنَ أَنْيابِها الأُسْدُ
بِتأمِيلِه يَغْنَـىٰ الفَتَـىٰ قَبْـلَ نَيلِـه ... وبالـذِّعرِ مـن قَبْـلِ المهنَّـد يَنقَـدُ

وجد المتنبي في ممدوحه صفات تؤهله لتسنم المجد ، وتجعله يختلف عن معاصريه ، مثل الكرم والشجاعةحتىٰ غدا هذا الممدوح في نظر شاعرنا نموذجاً يحتـذى ومثلاً للإنسان العـربي الأصيل ، فامتدح شجـاعته وفروسيته وكذلك حسـن بصيرته ، وكـرمه الذي لايخيـب مؤمليه ، كما أنه لقـوته وشـدة بأسه يرهبه العدو ويتقطع من خوفه قبل قتله بالسيف هذا الممـدوح تخلق بالمكارم وهو بعد ناشىء كما يقول المتنبي(١):

أَرَىٰالقَمَرابْنَ الشَّمْسِ قَدْ لَبِسَ العُلا ... رُوَيْدَكَ حَتَـىٰ يَلبَـسَ الشَّعَـرَ الخَـدُّ
وبَـاشَـرَ أَبْكـارَ المَكَـارِمِ أَمْـرَدَا ... وكَـان كَـذا آبَـاؤُه وهُـمُ مُـرْدُ

يمتـدح المتنبي هنا بالقيم الخِلْقيـة من جمال الوجه ، وتشبيهـه بالقمر ، وكذلك يمدح القيم الخُلُقية ، فهذا الممدوح تخلق بالمكـارم التي ابتدعها ، وهو بعـد ناشىء ، فأشار المتنبي بلفـظ أبكار المكارم ليدل علىٰ ذلـك ، وقد تعرض لهـذا المعنىٰ في غير مـوضع وإن كـان الاختلاف في اللفـظ ، فتـارة يقـول : عذارياً ، وتارة يقول : أبكـارا وكلهـا بمعنىٰ أن هـذا الممـدوح يأتي بالمكـارم ابتداعاً ، لم يسبقه أحد إليها ، ولعل هذه الصورة تؤدي بنا إلىٰ الصورة التي امتدح فيها المتنبي نفسه من خلال صحبه ورجاله التي يقول فيها(٢):

سَأَطْلُـبُ حَقِّـي بالقَنَـا ومَشَـايِـخٍ ... كَـأنَّهُم مِـنْ طُـولِ مَـاالْتَثَمُـوا مُـرْدُ
ثِقَالٌ إذا لاقَـوْا خِفَـافٌ إذَا دُعَـوْا ... كَثِيـرٌ إذا شَـدُّوا قَلِيـلٌ إذَا عُـدُّوا
إذَا شِئْتَ حَفَّتْ بِي علىٰ كُلِّ سَابِحٍ ... رِجَالٌ كَأنَّ المَوْتَ فـي فَمِها شَهْدُ

فصحـب شـاعرنا أهل للحرب محنكـون ، وطـأتهم علىٰ العـدو شـديدة سريعوا الإجابة للنجدة ، يسـد الـواحد منهم مسد الجمـاعة ، هـؤلاء الرجال يستعذبون الموت فداءً لشاعرنا .. وكأني بالمتنبي في مـديحه هذا يثني علىٰ نفسه فهمتـه العـالية ، ونفسه الكبيرة لاترضـىٰ بصحبـة غير معـادلة لـه ، فـالقرين

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص١٠٦-١٠٨ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٩٢ .

بالمقارن يقتدي ، وهؤلاء الرفاق لابد أن هناك صفات وأخلاق تجمع بينهم وبين شاعرنا ، ولعل في هذه الصورة من المعاني بعض مافي الصورة السابقة فكلتاهما وصف للرجال فى مواطن اللقاء .

كان المتنبي يعشق البطولة ، ويفتتن بالمغامرين ، ومن كانت هذه شمائله يعجب بالأبطال ويتوق إلى الإتصال بهم والتعرف عليهم ، فيمدحهم ويمجد فعالهم ، ويخلد مآثرهم ، من الأبطال الذين أعجب بهم ومدحهم فاتك "فقد أعجب المتنبي بشجاعته وسخائه ، وقد أوحى له فكره ماشاء أن ينسبه إليه من كرم وشجاعة وفضل ونبل وغالى في ذلك أيما مغالاة حتى قال"(١):

كَفَاتِكٍ وَدُخُولُ الكَافِ مَنْقَصَةٌ كَالشَّمْسِ قُلْتُ ، ومَالِلشَّمْسِ أَمْثَالُ

هذا الممدوح لامثيل لجوده وكرمه ، مثل الشمس التي لامثال لها ، ومع هذا لم ينس أن يرد على من يلقبه بالمجنون بقوله :

وَقَدْ يُلَقِّبه المَجْنُونَ حَاسِدُه إِذَا اخْتَلَطْنَ وبَعْض العَقْلِ عُقَّالُ

فقد احتال المتنبي هنا لتأويل لقب ممدوحه "المجنون" على أحسن الوجوه فقال : إنما جنونه إذا تزاحمت السيوف ، واختلطت الصفوف ، فحاسده يلقبه بهذا اللقب ، لما يراه من شجاعته وإقدامه ، مع أن العقل في مثل هذه الحال لايحمد ثم يفسر ذلك بقوله :

إِذَا العِدا نَشَبَتْ فِيهم مَخَالِبَه لَمْ يَجْتَمِع لَهُم حِلْمٌ ورِئْبَالُ

يقول : هو في الحرب أسد ، والأسد لايعرف الحلم ، بذلك لايلام في عدم حلمه كما لايلام الأسد، ولايسمين مجنونا ، لأنه قد تحول في الحرب عن طبيعة الإنسان إلى طبيعة الأسد(٣)، ثم أكمل بقية فضائله في قوله(٣):

---

(١) أحمد أحمد بدوى ، المتنبى فى مصر ، صحيفة دار العلوم ، السنة الثانية ، الجزء الرابع ، ص١٠ .

(٢) على ابن سيده الأندلسى ، شرح مشكل شعر المتنبى ، تحقيق محمد رضوان الداية ، المأمون للتراث ، ط/بدون ، ص٣٠٤ بتصرف .

(٣) الديوان ، ج٣ ، ص٤٠٥ .

تَمَلّك الحَمْدَ حتّىٰ مَالِمُفْتَخِرٍ ... فـي الحَمْـد حَاءٌ ولاَمِيـمٌ ولاَدالُ
لَطُفْتَ رَأْيك في بِرِّي وَتَكْرِمَتي ... إنّ الكَـريمَ علـىٰ العَلْيـاءِ يَحْتَـالُ
حَتّىٰ غَدَوْتَ ولِلأَخْبارِ تِجْـوالُ ... ولِلْكَواكِـبِ فـي كَفَّيْـك آمَـالُ

هـذا الممـدوح محمود الأفعـال والأقـوال ، وليـس يحمـد دونه أحد ، يحتـال علىٰ العليـاء لشدة كـرمه ، وعظيم عطـاياه ، حتىٰ غـدا هـذا الممـدوح والأخبـار تجول في الآفـاق بحسـن ذكره والثناء عليه ، وصـار للكـل أمل في نوال كفيه حتىٰ الكواكب .

والمتنبي في هـذا المقـام كعـادته قـد احتفـىٰ بصورته الشعـرية ، فـأتت جديدة تطـرب الأذن لسماعهـا ، وتتوق النفس للاستزادة منهـا ، وهذا دأب المتنبي حين يمدح بشرح النفوس بطريقة عرضه للأخلاق والفضـائل الإسلامية التي نصـب نفسـه للدفاع عنهـا وبعثهـا في نفوس أبناء عصـره ، تقـديراً منـه للذات العربية وقيمها الجليلة .

الشـاعر عـادة ينظر إلىٰ الممـدوح ، ويستلهـم من تأثير شخصيتـه فيـه مدائحه أما المتنبي فإنه يمدح الشخصية المثالية التي في خياله فيقول[1]:

وماحَارَتْ الأَوْهَامُ في عظْم شَأْنِه ... بأَكْثَر مِمّا حَارَ فـي حُسْنِه الطَّرفُ
ولاَنَالَ مِن حُسَّادِه الغَيظُ والأَذىٰ ... بِأَعْظَـم مِمّا نَالَ مِنْ وَفْرِه العُـرْفُ
تَفَكُّـرُه عِلْـمٌ ومَنْطِقُـه حُـكْـمٌ ... وَبَاطِنُـه دِينٌ وظَاهِـرُهُ ظَـرْفُ

هـذا الممـدوح بلغ الغاية في العظمـة والحسن ، فـالمتعامل معـه يدهش ويحتـار في عظـم شأنه ، كمـا يحتـار الطرف في جمال خلقـه وعظيم صفـاته ، إضـافة إلىٰ علمـه وحكمتـه ، فـالشروع في الأعمـال بعـد التفكير فيهـا ، والـوقوف علىٰ عـواقبها ، ثم السير فيهـا مع التأني ـ الـروية والتـؤدة ـ هي حال الممدوح لذا فالسلامة حليفه لأنه يضرب في الأمور بفكر حاضر وجنان ثابت ، وهـذه الأعمال كلهـا نابعة من داخله الذي ينطـوي علىٰ دين قوي ،

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٣٠ .

ومايظهره للناس من الكياسة ، والظرف هو انعكاس لأخلاقه الحسنة ومبادئه القويمة .

وفي معظم مدائح المتنبي دعوة للقوة ، تلك القوة الواعية الحكيمة الخالية من الطيش والتهور ، والتي يعلن من خلالها شاعرنا عظمة الإسلام في شخص ممدوحه ، مثيراً للحماسة وحاملاً على أعداء العقيدة يقول(١):

أرَىٰ المُسلمينَ مَع المُشْرِكينَ ... إمّا لِعَجْزٍ وإمّا رَهَبْ
وأَنتَ مَعَ اللّهِ فِي جَانِبٍ ... قَلِيلِ الرُّقادِ كَثِيرِ التَّعَبْ
كأنَّكَ وَحْدَكَ وَحَّدْتَهُ ... ودَانَ البَرِيّة بابْنٍ وأَبْ

الجماعة التي تسمح لفريق منها بالظلم في صورة من صوره ، جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين ، والإسلام منهج تكافلي إيجابي ، لايسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد ، بل أمرهم بمحاربة المفسدين ، والمتنبي بعاطفته الإسلامية الغيورة آلمه ضعف المسلمين في عصره ، واجتماعهم مع المشركين ، ومعاونتهم ، بدلاً من قتالهم ، إما لخوف أو لعجز ، فتحدث عن ضرورة ترابطهم ضد أعدائهم ، ورأىٰ في ممدوحه أمل المسلمين يدافع عن كرامتهم وعن دين الله ، ينزل علىٰ أمر الجهاد ولاينام مع كثرة تعبه وعظم مسؤولياته ، وكأنه وحده الموحد لله وسائر الناس يدينون بدين النصارىٰ .

وصورة المتنبي هذه ليست من مبتكرات الخيال ، بمقدار ماهي ثمرة من ثمار تجربته ، إنها حاجة عميقة في نفس شاعرنا أملتها عليه ظروف مجتمعه وحالة الناس في عصره ، وبعدهم عن الدين وتخليهم عن قيمهم ومبادئهم الأصيلة .

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٣٢ .

"تحولت قيم الفروسية ومعاني البطولة التي تغنىٰ بها العرب في جاهليتهم وإسلامهم إلىٰ صور جديدة ، وقيم ، ودلالات جديدة عند المتنبي ، حيث تعمق المتنبي فلسفة هذه القيم مستهدفاً بث روح الشجاعة والتضحية والفداء ونبذ الشعور بالهوان الذي أوشك أن يسيطر علىٰ عقلية الإنسان في عصره"(١) من الصور التي مدح فيها بكل تلك القيم والمعاني أو بعضها قوله(٢):

وَشَيْخٌ فِي الشَّبابِ ولَيْسَ شَيْخاً ... يُسَمّىٰ كُلَّ مَنْ بَلَغَ المَشِيبَا
قَسا ، فَالأُسْدُ تَفْزَعُ مِن قُواه ... وَرَقّ فَنَحْنُ نَفْزَعُ أَنْ يَذُوبَا
أَشَدّ مِنَ الرِّياحِ الهُوجِ بَطْشاً ... وأَسْرَعَ فِي النَّدىٰ مِنْها هُبُوبَا
وقَالُوا ذَاكَ أَرْمَىٰ مَنْ رَأَيْنا ... فَقُلْتُ رَأَيْتُمُ الغَرَضَ القَرِيبَا

ينتهز شاعرنا الفرصة كما يقول سهيل عثمان ورفيقه(٣): "كي يشيد بقوة الشباب ، بل الفتيان علىٰ السيادة والوصول إلىٰ أعلىٰ المراتب ، وهي عند المتنبي دليل العقل الراجح ، والإرادة القوية ، والطبع الممتاز" . فهذا الممدوح الشاب يعد برأيه وحكمته شيخا ، في حين لايكون كل من بلغ المشيب شيخا ، وهذا الممدوح كذلك شجاع قاس في الحرب لاتأخذه بعدوه رأفة ولارحمة ، في حين أنه مع أوليائه في ساعة السلم رحيم رقيق حتىٰ أنه يخشىٰ عليه من هذه الرقة أن يذوب ، في الوغىٰ وساعة النزال يكون هذا الممدوح أشد من الريح العاتية بطشا بأعدائه بينما يكون في الكرم والجود أسرع من هبوبها ، وكذلك فاق أقرانه ومعاصريه في الرماية حتىٰ قالوا : عنه أرمىٰ من رأينا ، ولكن المتنبي يفخر بممدوحه ويرد عنه ذلك بأن مارأىٰ القوم من قوته وتسديد رمايته ، كل ذلك أقرب الأغراض لممدوحه . إذ أن هناك أغراضاً لم يدركها بعد قومه منها آباء هذا الممدوح وأجداده الذين ورثوه كل تلك القيم يمدحهم المتنبي فيقول(٤):

---

(١) أيمن العشماوى ، قصيدة المديح عند المتنبى وتطورها الفنى ، ص١١٥ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٢٦٩ .
(٣) المحصول الفكرى للمتنبى ، ص١٥٥ .
(٤) الديوان ، ج١ ، ص٢٧١ .

أَلَسْتَ ابْنَ الأُولىٰ سَعِدُوا وَسَادُوا ... وَلَمْ يَلِدُوا امْرَءًا إِلاّ نَجِيبا
وَنَالُوا مَاشْتَهَوا بِالحَزْمِ هَوْنًا ... وَصَادَ الوَحْشَ نَمْلُهم دَبِيبا

فآباء هذا الممدوح وأجداده مثالاً في الحزم والقوة والطيب ، يوجه المتنبي تساؤلاً لممدوحه والغرض منه التقرير وتأكيد تلك الفضائل والقيم التي أسبغها علىٰ ممدوحه ، فهو يعلل لها بأنها وراثة توارثها أهل هذا الممدوح فالنجابة والحزم من صفاتهم ، ويبالغ حين يجعل نمل هؤلاء القوم لعظمتهم وشجاعتهم يصيد الوحش كناية عن قوتهم .

قيم الإنسان العربي الأصيل تتمثل في الشجاعة ، والشهامة ، والكرم ، والتضحية ، والعفة ، والصبر ، والحق والجمال ، كل هذه القيم في حقيقتها قيم إنسانية خالصة ، والمتنبي يجمع تلك الفضائل كلها ليمدح بها في صورة واحدة تمثل الإنسان العربي الأصيل يقول(١):

عَفِيفٌ تَرُوقُ الشَّمسُ صورةَ وجْهِه ... وَلَوْ نَزَلَتْ شَوقًا لَحَادَ إلىٰ الظِّلِّ
شُجَاعٌ كأنّ الحَرْبَ عَاشِقَةٌ لَه ... إذَا زَارَها فَدَّتْه بِالخَيْلِ والرَّجْلِ
وَرَيّانَ لاتَصْدىٰ إلىٰ الخَمْرِ نَفْسُه ... وعطشَانَ لاتَروىٰ يَداهُ مِنَ البَذْلِ
فَتىً لايُرجّىٰ أنْ تتمّ طهَارَةٌ ... لِمَنْ لم يُطهّر رَاحَتَيْه مِنَ البُخلِ

في عصور التغير الاجتماعي تندثر القيم المثالية ، فنبحث عن العفة فلانجدها ، ولكن ممدوح المتنبي عفيف عن كل شيء مكروه أو محرم ، ولو نزلت الشمس شوقا إليه لحاد إلى الظل ، وهو متعاهد مع الحرب بينه وبينها رابطة الحب القوية ، فهو يعشقها وهي تعشقه ، ورغم شجاعته وحبه للحرب إلا أنه لايقتل لأن الفرسان والرجالة يفدونه فيها ، كما أن من عفة هذا الممدوح أنه لايشرب الخمر ولاتصدىٰ إليها نفسه لما هو عليه من صيانة وترفع عن المحارم ، كما أنه مجبول علىٰ الكرم والبذل والجود فكأن يديه عطشىٰ لاتفتر عن العطاء ، هذا الممدوح يمقت البخل ولايرىٰ مبرءا من الدنس إلا من جانب البخل وتطهر منه ، فالمتنبي في هذه الصورة أحب قيماً وتوحد بها ، وسعىٰ إليها ومجدها ، ومن خلالها تعامل مع كل شيء .

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص١٤-١٥ .

قريب من هذا النص قوله يمتدح بمعظم القيم التي سبقت بصورة أخرى (١):

وَلَاعِفَّةٌ فِي سَيْفِهِ وسِنَانِهِ ... ولكنّها في الكَفِّ والفَرْجِ والفَمِ
فَأحْسَنَ وجْهٍ فيالورىٰوجْهَ مُحسن ... وأيْمَنُ كفٍّ فيهم كَفُّ مُنْعِمِ
وأَشْرفَهُم مَنْ كَانَ أَشْرَفَ همّه ... وأَكْبر إقدَامًا علىٰ كُلِّ مُعْظِمِ

رأى المتنبي أن اجتناب مالايحل ولايجمل ، وصد النفس عن تتبع الشهوات الدنيئة عفة ، وعفة ممدوحه لاتكون في الحرب والقتال ، بل في كفه فلايأخذ من مال غيره، وفي فرجه فلايقرب الزنا ، وفي لسانه فلايقول إلا الحق ، لايأكل حراما فقد ملك عنان نفسه، وقبض علىٰ زمامها ، وجه هذا الممدوح أحسن الوجوه لإحسانه ويده أيمن الأيادي لإنعامه وجوده ، هذا الممدوح خال مما يمدح به الملوك من نسب وشرف ، لأنه استحدث لنفسه شرفا بعلو همته .

والمتنبي يميل بطبيعته الفنية إلىٰ إبراز الصورة في أكمل محاسنها ، وأسمىٰ معانيها ، مما يؤدي إلىٰ تهيئة الحس لتصور واقع الإنسان العربي من خلال مثله وقيمه التي يدافع عنها شاعرنا ويحاول بعثها .

القضاة هم أقدر الناس علىٰ أمانة التقوى ، وأقدرهم علىٰ النهوض بالتبعية وأعرفهم بمواضع المعروف والمنكر والمباح والمحظور . المتنبي فطن لذلك ولم يفته أن يمتدح القضاة بما يجب أن يتخلق به القاضي المسلم فقال (٢):

قَاضٍ إذَا الْتَبَسَ الأَمْرَانِ عَنّ له ... رَأْيٌ يُخَلِّصُ بَيْنَ المَاءِ واللّبَنِ
غَضُّ الشَّبابِ بَعيدٌ فَجْرُ ليلَتِه ... مَجَانِبُ العَيْنَ لِلْفَحْشَاءِ والوَسَنِ
شَرابُه النَّشْحُ لَالِلرِّي يَطْلُبُه ... وطُعْمُه لِقِوَامِ الجِسْمِ لاالسِّمَنِ

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٢٦٦-٢٧١ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٣٤٦ .

القَائِلُ الصِّدْقَ فيه مايَضُرُّ به والواحِدُ الحَالَتَيْنِ السِّرِّ والعَلَنِ
الفَاصِلُ الحُكْمَ عَيَّ الأَوَّلُونَ به والمُظْهِرُ الحَقَّ للسَّاهِي عَلَىٰ الذِّهَنِ
أَفْعالُهُ نَسَبٌ لَو لَمْ يَقُلْ مَعَها جَدِّي الخَصِيبُ عَرَفْنا العِرْقَ بِالغُصُنِ

ممدوح شاعرنا في هذه الأبيات قاض ذكي فطن ، له رأي وحكمة يدلي بالقول الفصل ، ويحسن توجيه الأمور ، وتبين حلول المشكلات في القضايا التي تهمه ، هذا الممدوح يطيل السهر في كسب الدين والعلم ، بينما تسهر عينه في طلب العلم والدين ، يغض بصره عن النظر فيما لايحل ، فكما أن عينه مجانبة للنوم كذلك مجانبه للفحشاء ، شأن هذا الممدوح شأن الحكماء والزهاد ، فهو لايسرف في أمور حياته ، من ذلك أكله وشرابه لايقصد بالشراب والطعام سوىٰ قوام الجسم والاستعانة علىٰ القيام بأمور دينه ودنياه ، لايطلب من ذلك السمنة ، شأن معاصرينا الذين بات جل همهم الإسراف في المأكل والمشرب ، حتىٰ أثقلتهم السمنة عن مسؤولياتهم ، والعرب تعرف أنه ليس في الأخلاق خلق أحسن بالإصلاح والنظام من الصدق فهو رأس الفضائل وأس المروءة ، وقد رأىٰ المتنبي أن ممدوحه تحلىٰ بالصدق فكملت صفاته وسمت أخلاقه ، كما أن أفعال هذا الممدوح حميدة حتىٰ أنه لايخجل منها فما يأتيه في السر والعلانية سواء ، لأنه يستمد أفعاله من خلقه الإسلامي وعقيدته الراسخة ، هذا القاضي يظهر الحق ويحكم بالعدل ، وكثيراً ماأظهر حق الخصم الغبي علىٰ الخصم الذكي ، لأنه يعمل بكتاب الله أفعال هذا الممدوح كريمة ، وخصاله حميدة ، تدل علىٰ كرم أصله ، وتقوم له مقام النسب ، حتىٰ لو لم يقل جدي فلان ، لكانت أفعاله كافية للدلالة عليه ، كما يستدل بالغصن علىٰ الأصل .

هذا الممدوح يقبل علىٰ الزائرين إقبالاً يفرحون به ، فيزول حزنهم ، وتنبسط وجوههم ، وكأنّي بالمتنبي وقد ضايقه تصرف بعض الحكام في الاحتجاب عن الزائرين ، وعدم البشاشة في وجه الضيف ، مما دعاه لدفع هذه المذمة عن ممدوحه ولفت نظر معاصريه لقيمة الابتسام والبشاشة ،

عملاً بقول الرسول الكريم*: "تَبَسُّمُك في وجه أخيك صدقة" ، فقال هو[١]:

لِلنّاظِرينَ إلىٰ إقْبالِهِ فَرَحٌ ... يُزيلُ مَابِجِباه القَوْمِ منْ غَضَن

نظر المتنبي نظرة شمولية واسعة تستهدف القيم الإنسانية الشاملة ، ومن ثم كانت مدائحه تشوفاً إلىٰ قيم إنسانية عالية ، وقد وجد في ممدوحه أصدق ممثل لتلك القيم السامية فامتدحه وأثنىٰ عليه بقوله[٢]:

سَلَكْتُ صُرُوفَ الدّهرِ حتىٰ لَقِيتُه ... علىٰ ظَهْرِ عَزْمٍ مُؤْيِدَاتٍ قَوائِمُه
فَأَبْصَرْتُ بَدْراً لايُرىٰ البدرَ مِثلُه ... وخَاطَبْتُ بَحْراً لايُرىٰ العِبْرُ عَائِمُهْ
غَضِبْتُ له لمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِه ... بلاواصِفٍ والشِّعرُ تَهذِي طَمَاطِمُه
تُحَارِبُه الأَعْداءُ وهي عَبِيدُه ... وتُدّخَرُ الأَمْوالُ وهي غَنَائِمُه
وَيَسْتَكْبِرونَ الدّهرَ والدَّهرُ دُونَه ... وَيَسْتَعْظِمُونَ المَوتَ والمَوْتُ خَادِمُه

يخبر المتنبي أنه خاض حوادث الزمان حتىٰ وصل إلىٰ ممدوحه ، فوجده بدراً في الصباحة ، وبحراً في العلم والسخاء ، ثم تعجب غاضباً لانصراف الشعراء عن التغني بقيم هذا الممدوح من فروسية وكرم وعلم ، إذ لمثل هذه القيم يكون الشعر الذي يتصوره شاعرنا ، ولايستطيع غيره من الشعراء تصوره ، فهم مشغولون بالأمور الجزئية التي فقدت الدلالة والمعنىٰ ، ثم يبالغ في مديحه حين يجعل من أعداء هذا الممدوح عبيداً له ، يحاربونه عبثاً لأنه سيدهم ، ويملك رقابهم ، وهم يدخرون الأموال التي هي من أسلابه في الحرب التي يغنمها بإقدامه وشجاعته ، ثم يصور شاعرنا هذا الممدوح بأنه أعظم من نكبات الدهر ومصائبه ، وماالموت إلا خادم له ينفذ مراده في قتاله للأعداء[٣].

في موضع آخر جعل المتنبي من أبرز صفات ممدوحه ابتعاده عن أجواء المجون ، والخلاعة، وترفعه عن الدنايا ، من ذلك إعراضه عمّا انتشر

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٣٤٩ . * انظر الصحاح
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٥٨-٦٠ .
(٣) الحرب فى شعر المتنبى ، ج٢ ، ص١٣٦ بتصرف .

في عصره يقول[١]:

لَاتَجِدُ الخَمْرُ فِي مَكارِمِه ... إذَا انْتَشَى خُلَّةً تَلافَاهـا
تُصَاحِبُ الـرّاحُ أَرْيَحِيّتَه ... فَتَسْقُطُ الرَّاحُ دُونَ أَدْنَاهَا
تُشْـرِقُ تِيجَانُـه بِغُـرَّتِـه ... إِشْـرَاقَ أَلْفَاظِـه بِمَعْنَـاهـا

هـذا الممدوح جواد كريم ، وليس ممن إذا شرب الخمر تلافت خلة عنده ، إذ مكارم هذا الممدوح عظيمة بحيث لاتتلف الخمر منها شيئا ، كما أن فعل أريحيته يفوق فعل الراح ، لأن كرمه وجوده لاحدود لهما ، هذا الممدوح إذا وضع التاج على رأسه أشرق تاجه بإشراق وجهه كما تشرق الألفاظ بمعانيها حين ينطق بها .

هـذا هو المتنبي يطوع المعاني كلها لمديحه ، سواء منها المقبول وغيره ، فكأن المعاني كلها سخرت لخدمة غرض شاعرنا .

الإنسان مطبوع على سبعة أخلاق كما قال الإمام الترمذي[٢]: "مطبوع على الغضب ، والرغبة ، والرهبة ، والشهوة ، والغفلة ، والشك ، والشرك * فالخلق كلهم أقروا بأن الله تعالى فطر الناس عليها .." وقد أدرك المتنبي ذلك فأراد أن يجعل من تلك الأخلاق موضوعاً لمديحه نراه يمتدح غضب ممدوحه مع فضائل تطغى عليه[٣]:

يَقُومُ مَقَامَ الجَيْشِ تَقْطِيبُ وَجْهِهِ ... وَيَسْتَغْرِقُ الأَلْفَاظَ مِنْ لَفْظِه حَرْفُ
وإنْ فَقَدَ الإعْطَاءَ حنّت يَمِينَه ... إليْهِ حَنِينَ الإلْفِ فَارَقَهُ الإلْفُ
أَديبٌ رَسَتْ لِلْعِلمِ فِي أَرْضِ صَدْرِه ... جِبَالٌ جِبَالُ الأَرْضِ فِي جَنْبِها قَفٌّ
جَوادٌ سَمَتْ فِي الخَيْرِ والشرِّ كفّه ... سُمُوّاً أَوَدّ الدَّهرُ أَنّ اسْمَه كَفٌّ

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٤١١ .

(٢) الإمام أبو عبد الله محمد بن على الحكيم ، م٣٢٠هـ ، أدب النفس ، تحقيق د. أحمد عبد الرحيم السايح ، ط/أولى ١٤١٣هـ ، ص٨٢ .

(٣) الديوان ، ج٣ ، ص٢٨ .

* الشرك : المقصود هنا الشراكة بين الخلق والآخر . لا الشرك في العبادة . فالحديث هنا عن الأخلاق ، وليس العقيدة . وربما يكون قد وقع خطأ مطبعي في الكتاب والمقصود الشك والله أعلم .

للمتنبي قدرة عجيبة في تحويل الأمر الكريه إلى أمر مستحب ، وهذا يتضح من وصفه لغضب ممدوحه وطريقة تناوله لهذه الصفة ومن ثم امتداحها حين أراد التعبير عن هيبة ممدوحه ، فإذا عبس روع الناس غضبه فلجأوا إلى الطاعة فقام ذلك مقام الجيش ، وإذا قال قام القليل من كلامه مقام الخطب الطوال ، فهو لبلاغته يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، والمتنبي يصل هذه الميزة في ممدوحه بمزايا وفضائل أخرى تطغى على الغضب منها الكرم وحب هذا الممدوح وتعوده العطاء ، حتى ألفت يده الإعطاء فلو لم يعط يوماً لاشتاقت يده إلى الإعطاء وحنت له كما يحن الإلف إلى إلفه إذا فارقه ، وهذه صورة توحي بكرم هذا الممدوح وسخائه ، ومن المزايا الأخرى التي مدح بها شاعرنا في هذه الصورة العلم والأدب . فهذا الممدوح ليس كغيره في العلم "فقد استعار شاعرنا لعلمه اسم الجبال لكثرته وزيادته على علم الناس ، وشدة رسوخه ومتانته ، ولما استعار لعلمه اسم الجبال ، استعار لصدره الأرض لأن الجبال لاتكون إلا على الأرض ، ثم فضلها على جبال الأرض . فضل الجبال على القفاف يعني أن جبال الأرض تصغر في جنب جبال العلم التي في صدره ، إضافة لهذا كله فإن لكف هذا الممدوح الذكر العالي وفي كل خير لأوليائه ، وشر لأعدائه ، حتى إن الدهر يتمنى أن يسمى كفا ليشارك كفه ، في الاسم ، لأن كفه مجمع الخير والشر ، وهي فيهما أغلب من الدهر"(١).

بهذه الفضائل كلها مجتمعة كان ممدوح المتنبي هو الإنسان المثال .. أراد شاعرنا أن يبعث في نفوس معاصريه هذه الفضائل فمدح بها وأسبغ عليها من روحه وطموحه الكثير الكثير .

---

(١) عبد الرحمن البرقوقي ، هامش شرح ديوان المتنبي ، ج٣ ، ص٢٩ .

بعد كل هذه المزايا ، والتي يرىٰ فيها غير المتنبي أوجه المديح كلها ، لايقف شاعرنا بمديحه عندها بل يضيف عليها مكارم أخرىٰ ، فالصدق والمساواة ، والحرية والكرامة ، والعدل والعلم . قيم أخلاقية تدفع هذه القيم وكثير غيرها الإنسان إلىٰ تغيير واقعه وحاله ، تطلعا إلىٰ الكمال المنشود ، وتأتي علىٰ رأس هذه الفضائل قيمة الشجاعة ، وقد توسم المتنبي في ممدوحه كل هذه الفضائل فقال فيه(١):

وَيُمِيتُ قَبْلَ قِتَالِه وَيَبِشُّ ... قَبْلَ نَوالِه ، وَيُنِيلُ قَبْلَ سُؤَالِهِ
إنّ الرِّيَاحَ إذَا عَمَدْنَ لنَاظِرٍ ... أغْنَاهُ مَقْبِلُهَا عَن اسْتِعْجالِه
أعْطى وَمَنّ علىٰ المُلوكِ بعَفوِه ... حَتّىٰ تَسَاوىٰ النّاسُ في إفْضالِهِ
وكأنّما جَدْواهُ مِن إكْثارِه ... حَسَدٌ لِسَائِلِه علىٰ إقْلالِه

هذا الممدوح اتصف بصفات تختلف عن صفات معاصريه ، فقد جمع إضافة للكرم والشجاعة ، عفواً عن الأسرىٰ والمذنبين ، فالعدو يخافه فيموت قبل لقائه ، والسائل يفرح لسؤاله لأنه يبش له قبل أن يعطيه ويعطيه قبل سؤاله ، فهو كالرياح لايحتاج فى الكرم إلىٰ محرك بعطاياه ، وعفوه عن الأسرىٰ والمذنبين ، تساوىٰ الجميع في فضله ، مفرط في الجود والعطاء .

تضخمت ذات هذا الممدوح ، وأصبح في نظر شاعرنا مثالاً للقائد العربي المحنك فقد تجسدت قيم أجداده العرب في شخصه ، يقول المتنبي مادحاً شجاعته(٢):

الجَيْشُ جَيْشُك غَيرَ أنّك جَيْشُه ... فِي قَلْبِه ويَمِينِهِ وشِمَالِه
تَرُدّ الطِّعانَ المُرّ عَنْ فُرسانِه ... وَتُنازِلُ الأبْطالَ عَنْ أبْطالِهِ
كُلٌّ يُرِيدُ رِجَالَه لِحَياتِه ... يامَنْ يُرِيدُ حَياتَه لِرِجَالِهِ

يصور لنا المنتنبي ممدوحه قائداً محنكاً ، يعرف قيمة فرسانه ويضن بأرواحهم أن تذهب إلا في سبيل تحقيق الأهداف ، لذا فهو يقاتل عن رجاله

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص١٨٥-١٩٠ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص١٨٥-١٩٠ .

حتىٰ عد هو جيش للجيش فمكانه غير معروف تارة يكون في قلب الجيش وأخرىٰ في الميمنة ، وساعة في شماله وهذا شأن القائد البطل يتحرك في كل أرجاء المعركة لأنه مقدام لايهاب الموت ، جرت عادة القواد أن يقدموا الفرسان لحمايتهم ، ولكن هذا القائد يضحي بنفسه فداء فرسانه ورجاله ، وهذا قمة الكرم والشجاعة ، وقد خلع شاعرنا علىٰ ممدوحه هذا المعنىٰ في صياغة رقيقة ناعمة .

لم تكن الشجاعة والتضحية هي قيم الفروسية الوحيدة التي تمثلها المتنبي في مدائحه . بل كانت تساندها قيم أخرىٰ منها الأنفة والكبرياء وعلو الهمة ، إضافة إلىٰ غزارة العلم والانشغال بالمعالي . من ذلك قوله[١]:

فَارِسِيٌّ له من المَجْدِ تَاجٌ ... كانَ مِن جَوْهَرٍ علىٰ أبْرُوازِ
نَفْسُه فوقَ كلِّ أصلٍ شَريفٍ ... وَلَوْ أنِّي له إلىٰ الشَّمْسِ عَازِي
وكَأَنَّ الفَرِيدَ والدُّرَّ واليا ... قُوتَ مِن لَفْظِه وِسَامُ الرِّكَازِ
شَغَلَتْ قَلْبَهُ حِسَانَ المَعَالِي ... عن حِسانِ الوُجُوه والأَعْجازِ
بَلَّغَتْه البَلاغَةُ الجَهْدَ بالعَفْـ ... ـوونَالَ الإسْهَابَ بالإيجَازِ
حاملُ الحَرْبِ والدِّياتِ عَنْ القَـ ... ـوْمِ وثِقْلِ الدُّيونِ والإعْوازِ

هكذا يبدو التعبير عن الصورة المثالية للإنسان المثل كما حاول شاعرنا أن يتمثلها في شخصية ممدوحه ، فلم يكن النص مجرد عرض لصفات يمدح بها الشاعر ، يقول الأستاذ أيمن العشماوى : إنما أصبحت إعادة لحياة ونظام مجتمع بأكمله ، إعادة واسترجاع لكل التقاليد المرتبطة بقيم عصر يعنىٰ به الشاعر كل العناية ، ويحاول أن يجسده بكل مكوناته أمام معاصريه، حثاً علىٰ استرجاعه ، وبعثاً للقيم المندثرة فيه ، ومن ثم المحافظة عليها ، والتمسك بها طلباً للقوة والعزة[٢].

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٢٨٧-٢٨٨ .
(٢) قصيدة المديح عند المتنبي ص١٢٠ بتصرف .

تلك القوة التي تعيد الحق إلى نصابه وتخلص الأمة مما هي فيه ، والهمة التي ينبغي أن تكون في المعالي وينشغل بها الإنسان الممدوح عن غيرها من ألوان الترف والنعم الملهية .

إضافة إلى هذه الفضائل كلها فقد أثنى شاعرنا على ممدوحيه بصفات إنسانية نبيلة متمثلة في الشجاعة والكرم ، والأمانة والحلم ، والرحمة والعفو وأيضا الإحسان للخصم يقول(١):

فَتىً لاتَسْلُبُ القَتْلىٰ يَداهُ ... ويَسْلُبُ عَفْوُه الأَسْرىٰ الوِثَاقا
يُقصِّر عَنْ يَمِينك كُلّ بَحرٍ ... وعمَّا لَمْ تُلِقْهُ ما ألاَقا

فالعدالة مع العدو قبل الصديق خلق إسلامي حميد ، وهذا الممدوح إذا قتل عدوه لم يأخذ سلبه ترفعاً عن ذلك ، ولكن عفوه يسلب أسراه قيودهم ، فهو يعفو عنهم ويطلقهم ، كما أنه جواد لايبلغ البحر شأوه في الجود ، فما يمسكه البحر من مائه على كثرته أقل مما جاد به ولم يمسكه هذا الممدوح .

فالكرم والشجاعة والرحمة والعدالة مع العدو ، والأمان لكل الناس بل لكل المخلوقات أفرع لشجرة الإيمان التي امتدت جذورها في خبايا النفس الإسلامية ، كشجرة طيبة ثمارها هذه الأخلاق الفاضلة التي مجدها المتنبي ودعا إليها وإلى التمسك بها من خلال مدائحه .

فالأخلاق الكريمة ، والشيم الحميدة ، سبب كل سعادة ، والأخلاق السيئة والطباع الدنيئة ، أصل كل شقاء ، من هنا ينطلق المتنبي في مديحه فيقول(٢):

رَجُلٌ طِينُه مِنَ العَنْبَرِ الوَرْ ... دِ وَطِينُ العِبادِ مِنْ صَلْصَالِ
فَبَقِيّاتُ طِينُه لَاقَتْ المَا ... ءِ فَصَارَتْ عُذُوبَةً في الزّلالِ
وَبَقَايا وَقَارِه عافَتْ النّا ... سَ فَصارَتْ رَكانَةً في الجِبَالِ *

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٤٦،٤٧ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص٣١٥-٣١٧ .
* الأبيات مدورة

ممدوح المتنبي عمل على إصلاح نفسه ، وتجمل بكريم الطباع ، وتكمل بجليل الخصال ، وبالتالي تحلى بأفضل السجايا ، وتخلى عن النقائص الدنايا ، فهو بذلك متمسك بدينه ، عامل بما يرضي الخالق ، حتى فاق الناس طهراً ونقاء ، فكأنه خلق من العنبر في حين خلق الناس من الصلصال ، وكأن هذه العذوبة التي في الماء ماهي إلا من بقايا طينته ، ومابقي من حلمه ووقاره ترك الناس وحل في الجبال فاستمدت الجبال رزانتها وثباتها من بقية حلمه ، بهذه الخصال وهذه المحامد أصبح ممدوحه موضع احترام وتبجيل عند كافة الناس .

يعود المتنبي بعد ذلك للجمع بين صفتين متباعدتين شأنه في ذلك شأنه في بقية صوره ، فيقول(١):

أَنْتَ طَوْراً أمَرّ مِنْ نَاقِعِ السُّمِّ وَطَوْراً أَحْلَى مِن السَّلْسَالِ

إنّما النّاسُ حَيثُ أنْتَ ومَا * النّاسُ بِنَاسٍ فِي مَوْضِعٍ مِنْك خَالِ

هذا الممدوح رغم ماحوت نفسه من الفضائل والمحامد ، إلا أن له حالين حال في وقت الحرب وأمام الأعداء وحين تعامله معهم يعد سما ، وهذا الوصف ومرارة خلقه مع عدوه ، يقابله وصف آخر عذب ، حين يكون هذا الممدوح مع أوليائه وصحبه يكون حلو الأخلاق والشمائل ، هذا الممدوح لما اتصف به من كريم الخصال ، عده الشاعر كل الناس ،لأنه رأى فيه جميع الخصال والأوصاف الكريمة المتفرقة في الناس ، ثم قال إن الناس ليسوا بناس في مكان لست فيه ، فقد سلب الناس إنسانيتهم إذا ماوجد فيهم صفات هذا الممدوح . يكرر هذا المعنى فيقول(٢):

تَحْلُو مَذَاقَتُه حَتّى إذا غَضِبَا حَالَتْ فَلَوْ قَطَرَتْ في المَاءِ مَاشُرِبا

وتَغْبِطُ الأَرْضَ مِنها حيْثُ حلّ به وتَحْسِدُ الخَيلُ منها أيّها رَكِبا

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٣١٧ . * م . البيت مدور .

(٢) الديوان ، ج١ ، ص٢٤٢-٢٤٣ .

فهذا الممدوح كسابقه عذب الأخلاق . فيه حلاوة لأوليائه ومرارة لأعدائه ، فالأرض يغبط بعضها البعض الذي يحل فيه ، والخيل يحسد بعضها البعض الذي يركبه ، وقد أتىٰ شاعرنا في هذه الصورة من المعاني الجسيمة مايجعل المرء يتوقف أمامها بعين الرضا فى هذه الألفاظ الطيعة السهلة مما يدل علىٰ اختيار المتنبي للألفاظ والتراكيب التي يسبق بها غيره في أداء المعاني وتصويرها .

ليس هناك خلة تؤكد معنىٰ العزة والكرامة إلا تمدح بها العربي ، فالعفو عند المقدرة ، وحماية الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، إضافة للكرم والشجاعة ، والوفاء والأمانة ، كل هذه القيم تغنىٰ بها العرب ، والمتنبي هنا يرىٰ أن ممدوحه تمثل هذه الخصال في أقوىٰ صورها ، فأصبح بهذه المروءة سيدا في قومه وشيخاً عليهم ، يقول مصوراً فضائل هذا الممدوح[1]:

إلىٰ الثَّمَرِ الحُلْوِ الذي طَيِّءٍ لَهُ ... فُروعٌ وقَحْطَانٍ بنَ هُودٍ له أَصْلُ
إلىٰ سيِّدٍ لَوْ بَشَّرَ اللّهُ أمةً ... بِغَيْرِ نَبِيٍ بَشَّرَتْنا بِه الرُّسْلُ
إلىٰ القَابِضِ الأَرْواحِ والضَّيغَمِ الّذي ... تُحدِّثُ عَن وَقْفَاتِهِ الخَيلُ والرَّجلُ
إلىٰ ربِّ مالٍ كلّما شَتَّ شَمْلُه ... تَجمّع في تَشْتِيتِه للعُلا شَمْلُ

جعل المتنبي ممدوحه كالثمر الحلو في جوده وحسن خلقه ، ثم رفع منزلة هذا الممدوح فقال : إن الله لايبشر عباده بأحد من الخلق إلا أن يكون نبياً ، فلو كان يبشر بغير نبي ، لبشرنا به علىٰ لسان الرسل ، ثم وصف ممدوحه لكثرة غزواته وقتله الأعداء بقابض الأرواح ، أو الأسد ولكن وقفاته وأفعاله تفوق فعل الحيوان والأسد لأن الخيل والرجال تحدث عن بطولاته ، ومواقفه الحميدة ، هذا الممدوح كلما جمع مالاً من غزواته أو فرقه علىٰ أوليائه ، تجمع له شمل المعالي .

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٣٠٢-٣٠٣ .

الدنيا في نظر الشجاع قوامها المضاء في الأمور كلها وهذا مارآه شاعرنا في ممدوحه حين قال(١):

هُمَامٌ إذا مافَارَق الغِمدَ سيفُه
وعَايَنْتَه لَمْ تَدْرِ أيهّما النَّصلُ
رأيتَ ابنَ أُمِّ المَوْتِ لَوْ أنَّ بَأْسَهُ
فَشَا بَيْنَ أَهْلِ الأَرْضِ لانْقَطَعَ النَّسلُ

فهذا الممدوح يمضي في الأمور كلها مضاء السيف ، فإذا جرد سيفه من غمده لم تدر أيهما السيف ، لكثرة غزواته جعل أخاً للموت ، فلو كان للناس بأسه لكانوا كلهم شجعانا . وعندها يقتل بعضهم بعضا فينقطع النسل لكثرة القتل ، إضافة لهذه الشجاعة وهذا الإقدام اتصف هذا الممدوح بالحلم والكرم والوفاء نجد ذلك في قوله(٢):

وَلَوْلا تَوَلِّيَ نَفسِهِ حَمْلُ حِلْمِه عَنِ الأَرْضِ لانْهدّتْ ونَاءَ بها الحَمْلُ
ونَادىٰ النّدىٰ بالنّائمينَ عَنِ السُّرىٰ فَأَسْمَعَهُم هُبُّوا فَقَدْ هَلَكَ البُخْلُ
وحَالَتْ عَطَايَا كَفِّه دُونَ وَعْدِه فَلَيْسَ لَهُ إنْجازُ وعْدٍ ولاَمَطْلُ
فَأَقْرَبُ مِن تَحدِيدِها رَدُّ فائِتٍ وأَيْسَرَ مِن إحْصائِها القَطْرُ والرَّملُ

شيوع ندىٰ هذا الممدوح يستحث القاعدين عنه علىٰ طلبه ، فكأنه يناديهم ، ويبشرهم بهلاك البخل . وقد اعتمد المتنبي هنا علىٰ الاستعارة المكنية لأداء المعنىٰ ، عطايا هذا الممدوح لم تدع مجالاً للوعد لأنه يعطيها معجلة ، ومن ثم لايعزىٰ إليه إنجاز ولامطل ، فعطاياه لايقدر علىٰ تحديدها أحد ، فرد الفائت أقرب من تحديدها ، كما أن إحصاء المطر والرمل وهما لايحصيان أيسر من إحصاء عطايا هذا الممدوح ونعمه . فأي كرم هذا الذي فاق المطر والرمل إحصاء؟

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٣٠٣ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص٣٠٥-٣٠٧ .

القيم بعامة في العصر العباسي أصبحت عرضة لتهديد خطير ـ كما نرى في العصر الحديث ـ سبعث هذا التهديد التحول الاجتماعي الحاصل في المجتمع ، مما أدى إلى الاضطراب في مقياس القيمة ومستوياتها التي تحظى بالقبول ، كل هذا امتزج بحس شاعرنا واستشعر الخطر فأخذ يدافع عن تلك القيم ببعثها في نفوس الناس من خلال مدائحه يقول(١):

مَلِكٌ سِنَانُ قَنَاتِهِ وبَنَانِهِ ... يَتَبَارَيَانِ دَمًّا وعُرْفًا سَاكِبا
يَسْتَصْغِرُ الخَطَرَ الكَبِيرَ لِوَفْدِهِ ... ويَظُنُّ دِجْلَةَ لَيسَ تَكفِي شَارِبا
كَرَمًا ، فَلَوْ حَدَّثْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ ... بِعَظِيمِ مَاصَنَعَتْ لَظَنَّكَ كَاذِبا

هذا الممدوح شجاع مقدام . كريم جواد ، لكرمه يستصغر الشيء العظيم لمن يقصده ، لخروج أفعاله عن طوق المقدرة لو حدثه أحد بهذه الفعال لظنه كاذباً ، فأفعاله ومكارمه قلما تجد من يقوم بها في زمن شح فيه العظماء وندر الأوفياء ثم يتابع مديحه بقوله(٢):

أُسْدٌ فَرائِسُها الأُسُودُ يَقُودُها ... أَسَدٌ تَصِيرُ لَهُ الأُسُودُ ثَعالِبا
ودَعَوْهُ مِن فَرطِ السَّخاءِ مُبذِّرا ... وَدَعَوْهُ مِنْ غَصْبِ النُّفُوسِ الغَاصِبا
هذَا الذي أفْنَى النُّضارَ مَواهِبا ... وعِدَاهُ قَتْلاً والزَّمانَ تَجارِبا
ومُخَيِّبُ العُذّالِ فيمَا أمَّلُوا ... مِنهُ ولَيْسَ يَرُدُّ كَفًّا خَائِبا

شبه جنود هذا الممدوح بالأسد القوية وجعل الممدوح أشد قوة من كل هؤلاء فهو كالأسد العظيم ، والأسود الأخرى قياساً به كالثعالب . والممدوح بالنسبة لغيره من القواد يعد مثل هذا الأسد الهزبر ، ثم امتدح كرم هذا الممدوح وسخاءه . وبين أنه مسرف في العطاء حتى دعاه قومه مبذراً كما دعوه من شدة فتكه وقتله للأعداء بالغاصب . وكأنه يلمح إلى ملمح خطير في عصره وهو فقدان التوازن في كل شؤون الحياة . وإن كان في مقام مديح بالبذل والعطاء ، وسعة الجود ، إلا أنه يدعو إلى قيمة التوازن وذلك

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٥٣ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٢٥٦ .

بأن يكون الإنسان وسطا في الإنفاق فلايكون مسرفا ، ولايكون مقترا ، وهذا الممدوح من عادته الإبادة فهو يفني المال بالعطاء والتفريق بين الناس ، كما أفنى الأعداء قتلا ، وكثرت تجاربه وتعرضه لصروف الزمان وتقلباته ، وقد خاب عذاله الذين يعذلونه في بذل ماله ، ولايخيب كف سائله لتعوده البذل والجود بالمال . فهذه صفات العظماء في كل جيل وعصر .

أراد المتنبي بعد ذلك أن يصف الممدوح ببسطة النوال ، فضرب له ثلاثة أمثال : البدر ـ الشمس ـ البحر . فقال(١):

كالبَدرِ مِنْ حَيثُ التَفَتَّ رَأَيتَهُ ... يُهدِي إلىٰ عَينَيكَ نُورًا ثاقِبا
كَالبَحرِ يَقذِفُ للقَرِيبِ جَوَاهِرًا ... جُودًا ويَبعَثُ لِلبَعِيدِ سَحائِبا
كَالشَّمسِ فِي كَبَدِ السَّماءِ وضَوؤُها ... يَغشَىٰ البِلادَ مَشارِقاً ومَغارِبا

هذا الممدوح من الكرم بحيث غمر عطاؤه الناس فنفعه عام للناس مثله في ذلك مثل البدر ، يستضيء به كل الناس ، وفي سعة جوده وبذله كالبحر. وهو وافر العطاء والنوال للقريب والبعيد .

وقد استطاع المتنبي في هذه الأبيات أن يكون الصورة من مكونات مشرقة تتناسب والموقف هنا ـ موقف مخاطبة أمير ، ومدحه ـ فجعل أغلب مكونات صورته ، الشمس ـ البدر . فهذا الممدوح كالشمس في كل ماتحمله لفظة الشمس من دلالات، فهي العطاء ، والضوء ، والبعد والفائدة . كذلك البدر والبحر .

هذه الصورة توحي لنا بصورة أخرىٰ من مدائح شاعرنا حين يقول(٢):

حَقٌّ الكَواكِبِ أَنَ تَزُورَكَ مِنْ عَلٍ ... وتَعُودَكَ الآسادُ مِنْ غاباتِها
والجِنُّ مِنْ سُتُراتِها والوَحشُ مِنْ ... فَلَواتِها والطَّيرُ مِن وُكُناتِها
ذُكِرَ الأنامُ لَنا فَكانَ قَصِيدَةً ... كُنتَ البَدِيعَ الفَردَ مِنْ أَبياتِها

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٥٧ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٣٥٧ .

ففي هذه الصورة مكونات طبيعية اعتمدها المتنبي في مديحه فرأىٰ أن من حق الكواكب أن تزور ممدوحه لأنه مماثل لها في العلو ، وكذلك الآساد لأنها تشبهه في الشجاعة ولعموم نفعه كل هذه الأجناس تتألم لعلته ، وقد انفرد هذا الممدوح عن سائر الناس بحسن المآثر ، وفاقهم بالمناقب والمحامد ، فكان منهم بمنزلة البيت البديع من القصيدة .

وهذا المعنىٰ يذكرنا بقوله في صورة أخرىٰ من مدائحه(١):

رَأَيتُكَ في الَّذِينَ أَرَىٰ مُلوكاً ... كأنَّكَ مُستَقِيمٌ في مُحَالِ
فَإنْ تَفُقِ الأنَامَ وأنتَ مِنهمْ ... فَإنَّ المِسكَ بعضُ دمِ الغَزَالِ

هذا الممدوح يفضل الملوك كما يفضل المستقيم المعوج ، ثم قال : "إنه فاق الأنام وفاقهم إلى حد بطل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة ، بل صار كأنه أصل بنفسه ، وجنس برأسه ، وقد احتج لدعواه حين قال "فإن المسك بعض دم الغزال" فقد أبان أن لما ادعاه أصلا في الوجود ، وذلك أن المسك قد خرج عن صفة الدم وحقيقته حتى لايعد من جنسه ، إذ لايوجد في الدم شيء من أوصافه الشريفة الخاصة ، بوجه من الوجوه ، ولافى المسك شيء من الأوصاف التي كان لها الدم دما البتة"(٢).

الإسراف في كل شيء صفة ذميمة ، ولكن المتنبي يرى أن الإسراف في الجود ، وكذلك في قتل الأعداء لايعد عيبا من هذا المنطلق يقول(٣):

أعْطَىٰ فَقُلتُ لِجُودِهِ مايُقتَنَىٰ ... وَسَطا فَقُلتُ لِسَيفِهِ مايُولَدُ
وتَحَيَّرَتْ فِيهِ الصِّفاتُ لِأنَّها ... أَلِفَتْ طَرائِقَهُ عَلَيهَا تَبعُدُ
نِقَمٌ عَلَىٰ نِقَمِ الزَّمانِ يَصُبُّهَا ... نِعَمٌ عَلَى النِّعَمِ الَّتِي لاتُجحَدُ
فِي شَانِهِ ولِسانِهِ وبَنَانِهِ ... وَجَنانِهِ عَجَبٌ لِمَن يَتَفَقَّدُ
أَسَدٌ دَمُ الأسَدِالهِزَبرِ خِضابُهُ ... مَوتٌ فَرِيصُ المَوْتِ مِنهُ تُرعَدُ

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص١٥١ .
(٢) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ص١٢٣ .
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص٥٥-٥٧ .

أصبح الإسراف في العطاء أشبه بظاهرة عامة ، يشعلها التنافس بين كبار الدولة في العصر العباسى حتىٰ باتت صفة من صفات المدح عند شعراء ذلك العصر ، فهذا الممدوح قد أسرف في العطاء حتىٰ يظن الشاعر أنه سيعطي جميع مالديه ، وعند لقاء الأعداء أسرف في القتل حتىٰ ظن شاعرنا أنه سيقتل كل مولود ، وبذلك تكون المقتنيات جميعا لجوده ، والنسل كله لسيفه ، مبالغة في المديح ، وكما أسرف هذا الممدوح في الجود والشجاعة ، أسرف المتنبي في مديحه فجعل المادحين يقفون وقد حارت أوصافهم ، كيف تحصىٰ فضائله ، لأن فضائله بعيدة عن الأوصاف ، لاتدرك . أولياء هذا الممدوح يعتزون بذلة أعدائه لما يستفيدونه من الغنائم بنكبة هؤلاء الأعداء ، خصاله كلها محمودة ، وكلها عجب لأنها لم تكمل لأحد سواه ، لشجاعة هذا الممدوح يصرع الأسد العظيم ويتلطخ بدمه ، وهو موت لأعدائه حتىٰ إن الموت يخافه ، صورة الإسراف في العطاء والقتل تتكرر عند المتنبي[١]:

إذَا ضَرَبَ الأَمِيرُ رِقَابَ قَوْمٍ ... فَما لِكَرَامَةٍ مَدّ النُّطُوعا
فَلَيْسَ بِوَاهِبٍ إلاّ كَثِيرًا ... ولَيْسَ بِقَاتِلٍ إلاّ قَرِيعَا
غَمَامٌ رُبّما مَطَرَ إنْتِقَاماً ... فَأَقْحَطَ وَدْقُهُ البَلَدَ المَرِيعَا

فهذا الممدوح غاية في كرم النفس وعلو الهمة ، فهو لايهب من المال إلا الكثير ، ولايقتل إلا الشريف العظيم ، هذا الممدوح كالغمام في النعم والنقم فقد يكون في الغمام صواعق مهلكة ، وكذلك هو ربما أمطر نقمه علىٰ الأعداء فصير مطره البلد المريع قحطا مجدبا لما يلم به من الدمار ، ومأأظننا في حاجة إلىٰ مزيد كما قال الدكتور محمد زكي العشماوي[٢] لكي نؤكد أن المتنبي قد استطاع أن يحول الموضوع التقليدي - المديح - إلىٰ رؤية ذاتية يجسد فيها موقفه ورؤيته بحيث يصبح الموضوع ذاتاً والذات موضوعاً ،

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٣٦١-٣٦٣ .

(٢) موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١م ، ص٢٤٨ بتصرف .

ويصدر العمل الفني من لحظة شعورية واحدة تنساب في أجزاء العمل وأطرافه وهذه بعض خصائص بنائه الفني ، وقد لاتتوافر لكثير من شعراء عصره .

يتبع المتنبي أسلوب المبالغة في طريقة عرضه لبعض صوره ، ومع ذلك لم يعدم الإبداع فيمدحه ، ولم يتهاون فى عرضه ، وكثيرا مانجد له تصويرا يمتاز بالجدة والإبداع من ذلك قوله(١):

ضَرُوبٌ بِأَطْرَافِ السُّيُوفِ بَنَانُهُ ... لَعُوبٌ بِأَطْرَافِ الكَلَامِ المُشَقَّقِ
كَسَائِلِهِ مَنْ يَسْأَلُ الغَيْثَ قَطْرَةً ... كَعَاذِلِهِ مَنْ قَالَ لِلفَلَكِ ارْفُقِ
لَقَدْ جُدتَ حَتَّى جُدتَ في كُلِّ مِلَّةٍ ... وَحَتَّىٰ أَتَاكَ الحَمدُ مِن كُلِّ مَنطِقِ

يريد القول بأن ممدوحه شجاع في الحرب ، بليغ لدىٰ القول قادر عليه ، حسن التصرف فيه مبدع ، كما أنه جوادكريم من عادته وطبعه العطاء في كل وقت حتىٰ أن سائله مستغن عن تكليفه العطاء مثله في ذلك مثل الغيث قطره مبذول لمن أراده .

ولقد عم جود هذا الممدوح أهل كل ملة وأهل كل لغة إذ لم يخص به قوما دون غيرهم ، لذلك حمده كل من نال فضله وإحسانه بكل لغة وفي كل مكان . وهناك صورة أخرىٰ يجمع فيها المتنبي بين بلاغة ممدوحه في الكلام وجوده حين يقول(٢):

نَطِقٌ إِذا حَطَّ الكَلامُ لِثامَهُ ... أَعطَىٰ بِمَنطِقِهِ القُلوبَ عُقُولَا
أَعْدَىٰ الزَّمانَ سَخَاؤُهُ فَسَخا بِهِ ... ولَقَد يَكُونُ بِهِ الزَّمانُ بَخِيلَا

هذا الممدوح يعرف أن لكل حادث حديث فهو لايتكلم إلا بالحكمة وبما يستفاد منه العقل . كما أنه جواد سخى ، تعلم الزمان من سخائه فسخا به ولولا سخاؤه الذي استفاده منه لبخل به علىٰ أهل الدنيا ، واستبقاه لنفسه.

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٥٤،٥٥ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص٣٥٢ .

وقد أحسن المتنبي حين جعل الجود والسخاء يعدي والعدوىٰ غير مرغوب فيها لأنها عادة تكون في الأوبئة والأمراض غير أنه خرج بها إلىٰ الفضائل والمكارم . حين جعل الممدوح يعدي الزمان بسخائه فيسخو مثله . وهو يشيد هنا بقيمة الجود ، وقد بالغ فى بعض أبياته وهو يمدح بقيمة الكرم من تلك المبالغات قوله(١):

كُلمَا قِيلَ قَدْ تَنَاهَىٰ أَرَانَا كَرَمَاً مااهتَدَت إلَيْهِ الكِرَامُ

فما هو الكرم الذي لم تهتد إليه الكرام عند أبي الطيب؟ هذا الممدوح كريم جواد وكلما قال الناس : بلغ النهاية في الكرم ، أبدع كرما لم يهتد إليه من قبله أحد من الكرام .

فالكرم من الفضائل الأخلاقية التي أصبحت تدل علىٰ قيمة الإنسان في عصر شاعرنا ، ونحن اليوم نكاد نفتقدها ، إذ أن القيمة ليست مجرد مايرغب فيه ، ولكنها ماهو جدير بأن يرغب به ، والكرم قيمة جديرة بأن يرغب بها علىٰ مستوىٰ ماينبغي أن تكون قيمة أصيلة في نفوس العرب .

"من طبائع النفس البشرية ، أنها ميالة إلىٰ حب الثناء ، عن طريق إحلالها السجايا والمزايا الخَلْقية والخُلُقية في المكانة اللائقة بها"(٢). وقد أدرك شاعرنا هذه الطبائع فمدح بالمزايا الخَلْقية والخُلُقية في صور كثيرة منها قوله(٣):

تَفضَحُ الشَّمسَ كُلَّما ذَرَّتِ ؟ الشَّمسُ بِشَمسٍ مُنِيرَةٍ سَوداءِ
إنَّ في ثَوبِكَ الَّذِي المَجدُ فِيهِ لَضِياءً يُزرِي بِكُلِّ ضِياءِ
إنمَا الجِلدُ مَلبَسٌ ، وابيِضَاضُ ؟ النَّفسِ خَيرٌ مِنَ ابيضَاضِ القَبَاءِ
كَرَمٌ في شَجَاعَةٍ وَذَكَاءٌ فِي بَهَاءٍ وَقُدرَةٌ فِي وَفَاءِ

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٦٧ .
(٢) فوزى عطوى ، المتنبى شاعر السيف والقلم ، ط/أولى ، بيروت ١٩٨٨م ، ص٤٧ .
(٣) الديوان ، ج١ ، ص١٥٨ .

استغل شاعرنا الناحية المشرقة من ممدوحه ، فالتمس العذر للونه ، وعده من المفاخر التي يشرف بها ، فالجلد ماهو إلا ملبس والعلة في النفس حين تكون بيضاء فهذا هو المطلوب . وممدوحه قد جمع إلىٰ صفاء نفسه ومجده العظيم - جمع إلىٰ كل ذلك فضائل خُلُقية حميدة ، منها الكرم ، والشجاعة ، والذكاء ، والقدرة والوفاء . فهذه الأمور أو الفضائل إذا جمعت في شخص لايعيبه ماعداها من سواد لون أو غيره "فقد جعل المتنبي ممدوحه يفضح الشمس حين تذر بوجهه الأسود ، الذي جعل لصاحبه هذه الخلاصة من الشمائل من شجاعة إلىٰ كرم إلىٰ ذكاء ، إلىٰ رونق وبهاء واقتدار وعزم"(١).

إن كان السواد في هذه الصورة مزية قد أسبغها المتنبي علىٰ ممدوحه وطوعها لمدحه . فإن هناك صورا أخرىٰ عرض فيها المتنبي وجه ممدوحه يبهر الألباب وضاءة وإشراقا ، دون أن يعرض شاعرنا للون كما فعل في الصورة السابقة يقول(٢):

هَذا الَّذِي خَلَتِ القُرونُ وَذِكرُهُ ... وحَدِيثُهُ في كُتْبِها مَشرُوحُ
أَلبَابُنَا بِجَمالِهِ مَبهُورَةٌ ... وسَحَابُنا بِنَوا لهِ مَفضُوحُ

فهذا الممدوح ذكره باق وحديثه خالد في الكتب يتناوله الدارسون بالشرح لأنه ينطق بالخبر الجميل ، لذلك يتداول الناس ذكره وأحاديثه للفائدة .

كما أن هذا الممدوح جمع إلى حسن الحديث والذكر الخالد جمال هيئة ، ووضاءة وجه ، حتىٰ أنه يبهر ألباب معاصريه بجماله ، وسعة جوده .

وقد تكررت صورة المديح بالجمال وإشراق الوجه عند المتنبي في غير موضع ، ولكن هذه الصورة رأيت أنها أقرب الصور إلىٰ المعاني السابقة . وإن كان هناك صورا أخرىٰ من هذا النوع سنعرض لها إن شاء الله .

---

(١) محمد هاشم عطية ، المتنبي وكافور ، صحيفة دار العلوم ، العدد الرابع ص٧٩ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٣٧٥ .

كـان المتنبي في مدائحه يبحث عن التوازن النفسي بين مثـاليات الذات وبين إمكان تحقيقها ، ولعله وجد في ممدوحه المثل الأعلىٰ الـذي يبحث عنه ووجد في فضائله القيمة العليا التي شغلته فقال(١):

إلى لَيثِ حَربٍ يُلجِمُ اللَّيثَ سَيفُهُ ... وَبَحرٍ نَدىً في مَوجِهِ يَغرَقُ البَحرُ
وَإنْ كَانَ يُبقِي جُودُهُ مِنْ تَليدِهِ ... شَبِيهاً بِمَا يُبقِي مِنَ العَاشِقِ الهَجرُ
فَتىً كُلَّ يَومٍ تَحتَوِي نَفسَ مَالِهِ ... رِماحُ المَعَالِي لاالرُّدَينِيَّةُ السُّمْرُ
تَباعَدَ مابَيْنَ السَّحابِ وَبَينَهُ ... فَنائِلُهُا قَطرٌ وَنائِلُهُ غَمرُ

في هـذه الصـورة وغيرها مـن صور المديح "يستحضـر شـاعرنا شخصية مثـالية ، يراها فارسا ممتطيا صهوة جواد في ساحات الـوغىٰ ، وإذاهدأ إلىٰ ساعات السلم ثثر الأموال بلاحساب"(٢). فهذا الممدوح شجاع جواد ، لايبقي جوده من ماله إلا اليسير،كما يبقىٰ من العاشق بعد الهجر . إذ يتغير حاله وتضعف قواه . هذا الممدوح تعود تفريق أمواله فيما يورثه المجـد والعلا ، من الذكر الحسن والهيبة ، فـاق بعطـائه السحـاب ، إذ أن نائل السحـاب ينقطع ، بينما نائله مستمر غدق .

بينما يقول في صورة أخرىٰ إن السحاب الذي يشبه جود ممدوحه به ليفخـر بذلـك علىٰ غيره مـن السحـاب لسعـة جود هـذا الممـدوح وعظـم عطاياه(٣):

وَإنَّ سَحاباً جَودهُ مِثلُ جُودِهِ ... سَحابٌ عَلىٰ كلِّ السَّحابِ لهُ فَخرُ

تشبيه المتنبي ممدوحه بالغيث والمطر والسحاب وأيضـا بالأسد أسلوب تقليـدي مـألوف ، ولكن أن يقلـب الأمور فيشبه السحـاب والمطـر ، وأيضا الأسـد بممدوحه فهذا أمر أقره شاعرنا بل وكرره في أكثر مـن موضع . حتىٰ لقد جعل السحاب الذي يشبه به جود ممدوحه يفخر علىٰ غيره من السحب.

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٢٢٨ .
(٢) د. محمد التونجي ، المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس ، ص١٦٣ .
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص٢٥٩ .

وقد يبالغ في وصف كرم ممدوحه فيجعله فوق البحر والسحاب فيقول(١):

لَوْ كُنْتَ بَحرًا لَمْ يَكُن لَكَ سَاحِلٌ ... أَو كُنتَ غَيثًا ضَاقَ عَنكَ اللَّوحُ
وَخَشِيتُ مِنكَ عَلىٰ البِلاَدِ وأَهلِها ... مَاكَانَ أَنذَرَ قَومَ نُوحٍ نُوحُ

فالصورة واضحة والمعنى أن هذا الممدوح في العطاء لايشبه بالبحر لأن البحر له ساحل بينما لاحد لعطائه وجوده ، وكذلك لايشبه بالغيث لأن الغيث يحمله الهواء في السحب من مكان لآخر وجوده يعجز عن حمله الهواء . فلو كان هذا الممدوح غيثا لخشى منه الطوفان الذي أنذر نوح قومه ، لأنه في العطاء والقتال لايعرف الهدوء ولاالقلة .

"المتنبي في كل حال يمدح مايحب ، ويصف مايتصور ، ويتدفق من ذاته على ذاته .. يتناول المعاني القديمة من كرم وعقل وحزم وشجاعة ، وماإلى ذلك ثم يمرها في شخصه بقوة وعنف ، وفي مرورها تلمس قلبه فتحتدم ، وتلمس أعصابه فتتوتر ، وتمس خياله فتتضخم ، وتعصف بها ثورته فتتأزم ، وينطق بها لسانه شهبا من نار تترك وراءها ألف دوي ، ويخطها قلمه وإذا هنالك صرير شديد الوقع في أذن الأيام والليالى"(٢). ومن الأبيات الدالة علىٰ ذلك هذه اللوحة التي اشتملت علىٰ ألوان المديح القديمة كلها يقول(٣):

أَلِفَ المُرُوءَةَ مُذْ نَشَا فَكَأَنَّهُ ... سُقِيَ اللِّبَانَ بِها صَبِيًّا مُرضَعَا
نُظِمَت مَوَاهِبُهُ عَلَيهِ تَمائِمًا ... فَاعتَادَها فَإِذا سَقطن تَفَزَّعَا
تَرَكَ الصَّنَائِعَ كَالقَوَاطِعِ بارِقاتٍ ... والمَعالِيَ كالعَوَالِيَ شُرَّعا
مُتَبَسِّماً لِعُفاتِهِ عَن وَاضِحٍ ... تَغْشَىٰ لَوَامِعُهُ البُروقَ اللَّمَّعَا
مُتَكَشِّفًا لِعُدَاتِهِ عَنْ سَطْوَةٍ ... لَوْ حَكَّ مَنكِبُها السَّماء لزَعزَعا

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٣٧٨ .
(٢) حنا الفاخورى ، الموجز في الأدب العربى وتاريخه ، المجلد الثانى ، ص٤١٢ ، ط/ثانية ١٤١١هـ ، بيروت .
(٣) الديوان ، ج٣ ، ص٥-٧ .

المروءة اسم جامع للخلال الحميدة ، والمتنبي هنا يثبتها لممدوحه فيقول إن هذا الممدوح ألف كل فعل طيب وكل مكرمة فكأنه لم يرضع سوى المكارم .

ولعل شاعرنا هنا يشيد بقوم هذا الممدوح ونسبه فهوكريم من أصل كريم . هذه المكارم والخلال متأصلة في نفس هذا الممدوح حتى عدت كالتمائم التي تعلق على الفتى اتقاء للعين وكأنه يأمن بها من الزمن وتقلباته فإذا لم يقم بهذه الخلال أصبح في خوف لأنه اعتادها . كالصبي إذا فقد التميمة شعر بالخوف ـ وإن كان في هذا المديح خروج من الروح الإسلامية ـ هذا الممدوح أتى من الفعال والصنائع مايخلد ذكره فأياديه ونعمه مشرقة لامعة كالسيوف القواطع ، ومعاليه مرتفعة كالرماح لايلق هذا الممدوح طالبي رفده وسائليه إلا متبسما مستبشرا بطلبهم لكرم نفسه وجوده . لايسأم من السؤال لأنه متعود البذل والعطاء .

مقابل هذا الموقف اللين مع سائليه ، نجد له موقفا قاسيا مع أعدائه فهو يظهر لهم سطوة ، ويجاهر بالقدرة عليهم ولايكاتمهم العداوة ، ولايأخذهم بغرة استعار لسطوته منكبا لما جعلها تزاحم السماء ، لأن الزحام لايكون إلا بالمناكب . فالشجاعة حين توجب الشجاعة ، والكرم حيث يطلب الكرم ، قيمتان جليلتان أسبغهما شاعرنا على ممدوحه وهو يرى فيه مثال الإنسان القوي الكريم ، والذي يتمنى أن يكون كل أفراد مجتمعه صورة عنه .

فضيلة الكرم والشجاعة لم تغن شاعرنا في مديحه فاستلهم بقية الفضائل وحاكها رداء جميلا يتدثر به ممدوحه فقال[1]:

الحَازِمَ اليَقِظَ ، الأغَرَّ العَالِمَ ... الفَطِنَ الألد الأريحيَّ الأرْوَعَا
الكَاتِبَ اللَّبِقَ الخَطِيبَ الوَاهِبَ ... النَّدْسَ اللَّبِيبَ الهِبرِزِيَّ المِصقَعا[2]

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٧ .
(٢) الندس : الفطن ، الهبرزى : السيد الكريم ، المصقع : الخطيب البليغ .

نَفْسٌ لَها خُلُقُ الزَّمانِ لأَنَّهُ مُفْنِي النُّفُوسَ مُفَرِّقٌ ماجَمَّعا
ويَدٌ لها كَرَمُ الغَمَامِ لأَنَّه يَسْقِي العِمارَةَ والمَكانُ البَلْقَعا

كل هذه المكارم التي امتدح بها المتنبي ممودحه تؤكد لنا أن مديح شاعرنا لم يكن يستهدف الشخص بقدر ماكان يستهدف المثل الأعلىٰ أو القيم التي كان يتمنىٰ المتنبي ترسيخها في نفوس الناس ، وقد حاول هنا تجسيد هذه القيم والصفات في شخص ممدوحه لاقتناعه واحساسه الداخلي بجدوىٰ تلك القيم ، وحرصه علىٰ تمسك معاصريه بها ، فلم يترك صفة من الصفات الجليلة إلا وامتدح بها ، ثم تنبه إلىٰ وجود شبه بين هذا الممدوح والزمن ، فكما أن من خلق الزمان إفناء الأشياء ، كذلك ممدوحه يفني أعداءه كما يفني ماله فهو جواد كثير الغارات ، وكذلك شبه ممدوحه بالغمام فهويعطي الغني والفقير لايفرق في عطائه بين أحد من الناس ، كما أن الغمام يسقي كل موضع - الذى به الناس والخالي دون تفريق - فالخير عنده يعم الكل .

استطاع المتنبي أن يغمر القيم الممدوح بها كلها باحساس نابع من موقفه ورؤيته للحياة في ذلك العصر فأتىٰ بها في قوالب مناسبة يقول بعد ذلك[١]:

أَبَداً يُصَدِّع شِعْب وَفْرٍ وافِرٍ وَيلُمّ شِعْب مَكارِمٍ مُتَصَدِّعا
يَهتزّ للْجدوىٰ اهْتِزازَ مُهنَّدٍ يَوَمَ الرَّجاء هَزَزْتَه يَوَمَ الوَعىٰ

هذا الممدوح يفرق شمل المال بالعطاء ، ويجمع مفرق المكارم في شخصه ، وقد جمع المتنبي في هذا البيت بين التطبيق والتجنيس "فالطباق لديه يعطي تلويناً موسيقياً هاماً ، إلىٰ جانب مافيه من تعميق للمعنىٰ وتوضيح له"[٢].

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٨ .
(٢) أيمن عشماوى ، قصيدة المديح عند المتنبى ، ص٢٢٦ .

ممدوح المتنبي كريم سخي يهتز للعطاء والبذل كما يهتز السيف يوم الحرب وهذه صورةمن صور المتنبي التي يجمع فيها بين الشيء وضده حين شبه اهتزاز ممدوحه للبذل يوم الرجاء ، وهذه صورة حسنة ـ صورة العطاء والبذل ـ بصورة اهتزاز السيف يوم الحرب ـ والحرب أمر كريه ـ وهذه سمة في شعره حين يجمع بين الشيء ونقيضه في آن واحد ، ربما يعود ذلك لإحساسه الداخلي وشعوره بالألم العظيم نتيجة إحساسه بما يظهره الشيء وضده من أمور قد تكون خافية .

"نجد في بعض مدائح المتنبي براعة تصوير ملحمي ورونق صياغة وإيمان بالقوة حلا لكل الأمور"(١). انظر إليه يقول(٢):

طَاعِنُ الطَّعنَةِ التي تَطعَنُ ... الفَيلَقَ بالذُّعرِ والدَّمِ المُهرَاقِ
ضَارِبُ الهَامِ في الغُبارِ وَمايَرهَبُ ... أنْ يَشرَبَ الَّذِي هُوَ سَاقِي
ثَاقِبُ الرَّأيِ ثابِتُ الحِلْمِ ... لَايَقدِرُ أمرٌ لَهُ عَلَىٰ إقلاَقِ

"يصور المتنبي شجاعة ممدوحه وهو يطعن الأعداء في المعركة ثابت كالطود ، باسم الثغر ، لأنه يحمل سلاحا وهو كفء لحمله ، وأهل لأن يصمد في وجوه الأعداء نضالا"(٣). ونزالا غير عابيء بالمنية فهو مؤمن بالموت لكن بطريق يرفع من قدره وماذاك إلا عن طريق القتال والنزال . هذا الممدوح لايقلقه أمر لبعد نظره ، وسعة حلمه ورجاحة عقله ، ثم يمتدح قومه وعشيرته فيقول(٤):

بَعَثُوا الرُّعبَ في قُلوبِ الأعَادِيْ ... فَكانَ القِتَالُ قَبلَ التَّلاَقِي
وَإذَا أَشفَقَ الفَوَارِسُ مِنْ وَقعِ ... القَنَا أَشفَقُوا مِنَ الإشْفاقِ
كُلُّ ذِمْرٍ(٥)يَزِيدُ فيالموتِ حُسْنا ... كَبُدُورٍ تَمامُهَا فِي المُحَاقِ

---

(١) خليل الموسى ، النزوع القومي في ذاتية المتنبي ، مجلة الخفجي ، العدد الثاني ، السنة السادسة عشر ، ص٣٠ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص١٠٤-١٠٥ .
(٣) الحرب في شعر المتنبي ، ج٢ ، ص١٠١ .
(٤) الديوان ، ج٣ ، ص١٠٦-١٠٨ .
(٥) الذمر : الرجل الشجاع .

جَاعِلُ دِرعِهُ مَنِيَّتَهُ إِنْ لم يكُن دُونَهَا مِنَ العارِ وَاقِ
كَرَمٌ خَشَّنَ الجوَانِبَ مِنهُم فَهوَ كالمَاءِ فِي الشِّفَارِ[١] الرِّقاقِ
وَمَعالٍ إِذَا ادَّعَاها سِوَاهُمْ لَزِمَتهُ جِنايَةُ السُّرَاقِ

هؤلاء القوم بعثوا خوفهم إلىٰ قلوب الأعداء قبل وصولهم بجبروتهم وقوة شكيمتهم ، إذا خاف الفرسان من وقع الرماح ، خاف هؤلاء القوم من الجبن وأن ينسبوا إليه . فتجلدوا وصبروا . حتىٰ أنهم إذا قتلوا في طلب المجد والرفعة ازداد شرفهم ، فزاد حسن ذكرهم بموتهم ، كالبدور التي تستفيد الكمال بالمحاق . كل شجاع من هؤلاء القوم يتقي العار والذكر السيء ولو بموته ، كما يتقى الفارس بالدرع الموت والهلاك ، ثم يعود ويؤكد علىٰ صفات الذات العربية فيقول إن لهؤلاء القوم كرما خشن جوانبهم علىٰ الأعداء لأن هذا الكرم يأبى عليهم أن يساموا الخسف ، ويقبلوا الإهانة ، ثم شبه ذلك الكرم بالماء فهو مع لينه وعذوبته إذا سقيته السيوف شحذت شفارها واستفادت صلابة ومضاء ، كذلك كرمهم فيه لين لأوليائهم ، وخشونة عل أعدائهم ، كما أن لهم معال شريفة لم ينلها أحد سواهم ، فكأنها حصر عليهم ، فإذا ادعاها غيرهم نسب للخيانة والسرقة .

"في القرن الرابع الهجري توسع المد الشعوبي ، وضعف سلطان الدولة العباسية وتراجع العنصر العربي ، وتراجعت معه القيم العربية نتيجة فقدان القوة التي تحميها فاستبدلت بقيم أخرىٰ فرضتها الظروف الجديدة ، وقد أحس المتنبي بفقدان العربي قيم آبائه وأجداده ، فتشبث بالماضي المجيد"[٢]، وأخذ يبحث عن شخصية تجمع تلك القيم وتدافع عنها وكأنه وجدها في ممدوحه الذي قال فيه[٣]:

---

(١) الشفار : جمع شفرة ، حد السيف .

(٢) خليل الموسى ، النزوع القومى فى ذاتية المتنبى ، مجلة الخفجى ، ع٢ ، سنة ١٦ ، ص٣٤ .

(٣) الديوان ، ج٤ ، ص١٢٣-١٢٥ .

أَتْتَ الغَرِيبَةُ فـي زَمـانٍ أَهلُـهُ وُلِدَتْ مَكارِمُهُم لِغَيـرِ تَمـامِ
أكثَرتَ مِنْ بَذلِ النّوالِ وَلَم تَزَلْ عَلَماً عَلَىٰ الإفْضَالِ والإنْعامِ
صَغَّرْتَ كُلَّ كَبِيرَةٍ وكَبُرْتَ عَـنْ لَكَأنَّـهُ وَعَـدَدتَ سِـنَّ غُـلَامِ

الناس في الحياة وفي نظر المتنبي متفاوتو الأخلاق ، متبـاينو المشارب ، منهـم من ساءت أخلاقهم فنزعـت نفوسهم إلىٰ الهوان ، وهـؤلاء لاخير فيهم ولامنفعـة تعود علىٰ المجتمع الإنساني من ورائهم ، ومنهـم من حسنت طباعه فقمع نفسه عن لذاتها ، وردعها عن شهواتها ، وعمل للمنفعـة العامة ، ومن هذا الصنف ـ الثانى ـ ممدوح المتنبي فهـو تام المكـارم كـالعلم في الفضـل ، وأفعـاله أكبر مـن أن تشبـه بشـيء ، لأنه لم يدع لأحد مـزية عليـه . هـذا ماينبغي للإنسان أن يكون عليـه في نظـر المتنبى حتىٰ يكـون جديرا بالألفـة يقول[1]:

مَلِـكٌ زُهَـتْ بِمَكانِـهِ أيَّـامُـهُ حَتَّـىٰ افتَخَـرنَ بِهِ عَلَـىٰ الأيَّامِ
وَتَخالُهُ سَلَبَ الوَرَىٰ أحلاَمَهُم مِـنْ حِلْمِـهِ فَهُمُ بِـلاَأحـلاَمِ
وَإذَا امتَحَنتَ تَكَشَّفَت عَزَماتُهُ عَـنْ أوْحَدِيِّ النَّقْـضِ والإبرَامِ
وَإذَا سَأَلْتَ بَنَانَـهُ عَـنْ نَيلِـهِ لَـمْ يَرضَ بالـدُّنيـا قَضـاءَ ذِمَـامِ

فهذا الممدوح الذي تفتخر أيامه بوجوده فيها علىٰ سـائر الأيام لكريم فعـاله أدرك أن الحلم سيد الأخلاق ، ورأس الفضائل ، وصـف الله به عباده الصـالحين وامتدحهم عليه ، فـاتصف به حتىٰ ظن لرجاحة عقلـه وسعة حلمه أنه سلب الناس أحلامهم وضمها لحلمه ، فهذا الممدوح لانظير لـه في عزماته إذا سئـل لكرمه يهم أن يعطي الدنيا كلها ولايرضيه هـذا العطاء بل يود أن يعطي ويجود بأكثر منها .

فهـذا الممـدوح مثـال للإنسـان الجدير بالتـوود لأن نفسـه تطمـح إلىٰ الكمال ، وقلبه ثابت مشرئب لنيل معالي الأمور ، في عصـر قل أن يجد المرء فيه من كانت هذه مثله وقيمه في نظر المتنبي .

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص١٢٣-١٢٥ .

اعتمد المتنبي على القوة العامة في الأخلاق الحياتية ، القوة في الطباع الإنسانية ، القوة في معاملة بني الإنسان . لذلك نجد في بعض مدائحه روح الفارس العربي الذي يجد لذته في الحرب والقتال . والبذل والعطاء من ذلك قوله[١]:

هُمُ المُحسِنُونَ الكَرَّ فِي حَومَةِ الوَغَىٰ ... وأحسَنُ مِنْهُ كَرُّهُم في المَكارِمِ
وَهُمْ يُحسِنُونَ العَفوَ عَنْ كُلِّ مُذنِبٍ ... ويَحتَمِلُونَ الغُرمَ عَنْ كُلِّ غَارِمِ
حَيِيُّونَ إلاَّ أنَّهُم فِي نِزالِهِمْ ... أقَلُّ حَيَاءً مِنْ شِفارِ الصَّوارِمِ
وَلَولاَ احتِقارُ الأُسْدِ شَبَّهتُهَا بِهِمْ ... وَلكِنَّهَا مَعدُودَةٌ في البَهائِمِ

صور المتنبي شجاعة ممدوحيه بصورة عدها محمود أبو ناجي[٢]: من الإعجاز الإنساني لصفاء ذهن شاعرنا وسمو تصوره ونبوغه ، إذ صور هؤلاء المقاتلين أبطالا في الكر والفر ، وفوق ذلك أبطال في العطاء ، هذا من جهة ومن جهة أخرىٰ التفت المتنبي إلىٰ ناحية أخلاقية وهي العفو عن المذنبين وفك الأسرىٰ ، وهذه أخلاقية الإسلام العظيمة بعكس مافعله ويفعله جنود الإلحاد بالأسرىٰ المسلمين ، إذ كانوا يفتكون بهم دون رحمة ولاعفو ومايحدث في أيامنا هذه من شنائع الملحدين ومايفعله هؤلاء بأمة الإسلام فتكا وقتلا واستباحة للأعراض ، يوضح فرق مابين المسلمين وغيرهم ، من علامات حسن الخلق : أن يكون المرء كثير الحياء ، قليل الأذىٰ ، كثير الصلاح ، وهؤلاء القوم خلقهم الحياء ، إذ لايفعلون مايستقبحه العقل ، وهذا خلق شريف يمنعهم من فعل المحرمات ومن إتيان المنكرات ، ولكن حياءهم لايمنعهم الشجاعة والإقدام فهم في الحرب صفاق الوجوه لايلينون ، فهم أشد شجاعة من الأسود ، ولولا أن الأسد في نظر شاعرنا معدودة في البهائم لشبهها بهم في الشجاعة .

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٢٤١-٢٤٢ .
(٢) الحرب فى شعر المتنبى ، ج٢ ، ص١٢٢ بتصرف .

وقد جمع المتنبي هنا بين وصفين متباعدين كعادته . جمع بين الحياء الخجول والشجاعة المتجهمة ، مما يقوي معانيه . ويختم الصورة بمدح شخص واحد منهم[١]:

إلىٰ مُطلِقِ الأَسرَىٰ ومُخْتَرِمِ العِدَا
وَمُشكِي ذَوِي الشَّكوَىٰ وَرَغمِ المُرَاغِمِ
كَرِيمٌ نَفَضْتُ النَّاسَ لَمَّا بَلَغتُهُ
كَأَنَّهُم مَاجَفَّ مِنْ زَادِ قَادِمِ

هذاالممدوح من بين جماعته الممدوحين سابقا أبت فضائله وأخلاقه علىٰ المتنبي إلا أن يفردها بهذه الصورة . فمن فضائله أنه يمن على الأسرىٰ فيطلق سراحهم ، ويحسن إلى ذوي الشكوىٰ فيجيب شكواهم ، به يستغني عن الناس طرا ، إذ الناس قياسا به كالباقي من زاد المسافر إذا جف لافائدة منه . وقد اختار المتنبي كعادته لفظا ـ نفضت ـ يؤدي المعنىٰ بطريقة توقظ الأذهان ...

رزق المتنبي استعدادا فطريا للأداء البليغ ، تمده حافظة قوية، مزودة بثروة من ذخائر اللغة ، وينجده ذاكرة مسعفة ، وتسيطر عليه سلامة ذوق يتخير بها اللفظ ، ويسبك بها الأسلوب[٢]، كل ذلك في ذكاء ، وطموح وخيال كشف عنها المتنبي في مجالات وصور عديدة منها علىٰ سبيل المثال[٣]:

مُحِبُّ النَّدَىٰ الصَّابِي إلىٰ بَذلِ مَالِهِ ... صُبُوًّا كما يَصبُو المُحِبُّ المُتَيَّمُ
وَأقسِمُ لَوْلاَ أنَّ فِي كُلِّ شَعْرَةٍ ... لَهُ ضَيْغَمًا قُلْنَا لَهُ أَنْتَ ضَيْغَمُ
أَنتَقِصُهُ مِنْ حَظِّهِ وَهوَ زَائِدٌ ... وتَبخَسُهُ والبَخْسُ شَيءٌ مُحَرَّمُ
يَجِلُّ عَنِ التَّشْبِيهِ لاَالكَفُّ لُجَّةٌ ... وَلاهُوَ ضِرغَامٌ وَلاَالرَّأيُ مِخْذَمُ[٤]
وَلاَجُرْحُهُ يُؤْسَىٰ وَلاَغَوْرُهُ يُرَىٰ ... وَلاَحَدُّهُ يَنْبُو وَلاَيَتَثَلَّمُ

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٢٤٣ ، ٢٤٣
(٢) طه طه عبد الفتاح ، سر العبقرية فى المتنبى ، صحيفة دار العلوم ص٦٠ بتصرف .
(٣) الديوان ، ج٤ ، ص٢٠٥-٢٠٦ .
(٤) المخذم : السيف القاطع .

وَلايُبْرَمُ الأمرُ الَّذِي هُوَ حَالِلٌ ... وَلَايُحْلَلُ الأمْرُ الَّذِي هُوَ مُبْرِمُ
أَلَذُّ مِنَ الصَّهْبَاءِ بِالمَاءِ ذِكْرُهُ ... وأَحسَنُ مِنْ يُسْرٍ تَلَقَّاهُ مُعْدِمُ
وَأغرَبُ مِنْ عَنقَاءَ فِي الطَّيْرِ شَكْلُهُ ... وأَعوَزُ مِنْ مُسْتَرفِدٍ مِنهُ يُحرَمُ

هذه المعاني والخلال الحميدة تغنى بها شاعرنا ومدح بها ابن الرومي قبله في غير ماموضع[1].. النفس الإنسانية لها نزعات شيطانية ولذات شهوانية فإذا هي تركت وشأنها تصبو وتسعى وراء لذتها ، فتنزل من الشر كل منزل وبالتالي تؤدي بصاحبها إلى الهلاك ، وممدوح شاعرنا في النص السابق تغلب على نفسه وكبح جماحها وقادها بعقل راجح وفكر ثابت ، فمنعها من أطماعها الدنيوية ، وكفها عن الشهوات العرضية ، فأصبح بذلك بعيدا عن مواطن الشقاء والهلاك ، ففيه كرم لايقاس وشجاعة لاتضاهى ، فجوده يفوق البحار ، وقوته تفوق الآساد ، ورأيه صائب كما أنه اختلف عن معاصريه بأخلاقه وفضائله . إضافة إلى اختلاف شكله وهيئته . فهو أغرب من العنقاء بين الطيور . كما أن ذكره وشهرته على الألسن ألذ من الخمر ، وأحسن من اليسر الذى يصيبه الفقير بعد يأس من شدة كرمه لايقصده أحد ويعود خائبا لأنه لايحرم أحد من عطاياه .

هذا هو الإنسان المثال في عين شاعرنا والذي تمنى أن يجده في كل معاصريه غير أنه حين افتقد هذه المثل والخلال في أناس عصره لم يجد بدا من تجسيدها وذلك من خلال مدائحه ، وقد اعتمد في هذه الصورة على ألوان من البديع ، مما قوى معانيه فأتت في أسلوب سهل ممتع ، وكان للمقابلات والتجنيس ، وأسلوب النفي والتأكيد ، شأن في الإيقاع الموسيقي المنسجم في هذه الأبيات .

---

(١) انظر مثلا الديوان ، ج٤ ، ص٣٦،١٠٦ ، ج٥ ، ص٢٨٠ .

في النص التالى يأتي المتنبي بمعان لائقة بمعلم نابه رائد فيقول[١]:

تَرَعْرَعَ المَلِكُ الأسْتاذُ مُكتَهِلاً ... قَبلَ اكتِهالٍ أدِيباً قَبلَ تَأدِيبِ
مُجَرَّباً فَهِماً مِنْ قَبلِ تَجرِبَةٍ ... مُهَذَّباً كَرَماً مِنْ غَيْرِ تَهذِيبِ
حَتَّىٰ أَصابَ مِنَ الدُّنيَا نِهايَتَها ... وَهَمُّهُ في ابتِدَاآتٍ وتَشبِيبِ

يمتدح حلمه وأدبه وأنهما طبعا فيه ، فقد نشأ مجربا ، لفهمه ، ومهذبا بما طبع عليه من الكرم "وكل هذه معان لائقة بأهل العلم ، وإن كان أغرب بعض الغرابة ـ كما يقول الأستاذ الشكعة ـ[٢]: في المصراع الثاني من البيت الأخير : فقد جعل ممدوحه برغم أنه أصاب من الدنيا منتهىٰ الآمال ، إلا أن همته لاتزال تصبو إلىٰ أمور كثيرة ، وكأنما هو في أول الطريق ، تماما مثل الشاعر الذي لايزال في أول القصيدة مبتدئا بالمطلع والتشبيب ، فهذا تصوير غريب ، ولكنه مقبول من شاعر يرىٰ تسلسل الأيام والآمال شبيها بتسلسل بناء القصيدة التقليدية في نطاق المديح" .

ثم ينطلق شاعرنا في خلع قلائد المديح علىٰ ممدوحه في نطاق حكمته السياسية التي من خلالها دبر أمور ملكه العريض فيقول[٣]:

يُدَبِّرُ المُلكَ مِنْ مِصْرٍ إلَىٰ عَدَنٍ ... إلىٰ العِرَاقِ فَأَرْضِ الرُّومِ فَالنُّوبِ
إذا أتَتْهَا الرِّياحُ النُّكبُ مِنْ بَلَدٍ ... فَمَا تَهُبُّ بِها إلاَّ بِتَرتِيبِ
وَلاتُجاوِزُهَا شَمسٌ إذا شَرَقَت ... إلاَّ ومِنهُ لَهَا إذنٌ بِتَغرِيبِ
يُصَرِّفُ الأمرَ فِيها طِينُ خَاتَمِهِ ... وَلَوْ تَطَلَّسَ مِنهُ كُلُّ مَكتُوبِ

"فالمتنبي هنا يرفع ممدوحه إلىٰ مراتب مافوق البشر ، إذ جعله يتحكم في قوىٰ الطبيعة ، فيحول بإرادته حدة الرياح الهوج إلىٰ لين واستواء ، والشمس لاتغرب عن مصر إلا بإرادته بعد أن تستأذنه"[٤].

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٩٣-٢٩٤ .
(٢) أبو الطيب المتنبى فى مصر والعراقين ص٢٦٨ .
(٣) الديوان ، ج١ ، ص٢٩٤-٢٩٥ .
(٤) انظر محمد هاشم عطية ، المتنبى وكافور ، صحيفة دار العلوم ، العدد الرابع ص٧٩

وقد كان لخيال المتنبي الخصب في هذه الصورة الدور الواضح في البيت الرابع جعل تصريف أمور المملكة بمجرد توقيع يقدمه هذا الممدوح بخاتمه حتىٰ وإن كانت معالم هذا الخاتم مطمسة . وهذا دليل علىٰ حسن تصرف هذا الممدوح وحنكته السياسية .

وكأن المتنبي قد رأىٰ مايجري في عصرنا حيث أصبحت المعاملات الرسمية لابد لهامن قواعد وعلىٰ رأسها توقيع أو ختم صاحب الأمر في أي حقل .

بعد هذه المكارم التي جسدها المتنبي لممدوحه في علمه وحلمه وسياسته الحكيمة لم يتخلص من طبيعته العربية وهي الإشادة بالكرم والسخاء الذي لاتشوبه منة ولايكدره مطل فيقول(١):

كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فِي مَسَامِعِهِ ... قَمِيصُ يُوسُفَ فِي أَجْفَانِ يَعقُوبِ
قالُوا هَجَرتَ إِلَيهِ الغَيثَ قُلتُ لَهُم ... إِلَىٰ غُيُوثِ يَدَيهِ والشَّآبِيبِ
إِلَىٰ الَّذِي تَهَبُ الدُّولاتِ رَاحَتُهُ ... وَلايَمُنُّ عَلَى آثارِ مَوهُوبِ
وَلايَرُوعُ بِمَغدُورٍ بِهِ أَحَداً ... وَلايُفَزِّعُ مَوفُوراً بِمَنكُوبِ

لجود هذا الممدوح وكرمه يسر إذا سمع السؤال . سرور "يعقوب بقميص يوسف" فقد عد شاعرنا أثر السؤال في ممدوحه كأثر قميص يوسف علىٰ يعقوب ـ رد بصره إليه ـ هذا الممدوح فاق غيره في الجود والعطاء ، لايتبع هباته منة ولاينغصها بالمماطلة ، حسن السيرة في رعيته ، لايظلم . لايؤاخذ أحدا بجرم غيره حتىٰ أن الكل يأمنه .

قريب من هذا النص قوله في موضع آخر يمتدح بنفس المعاني تقريبا(٢):

مَرْجُوٌّ مَنفَعَةٍ مَخُوفٌ أَذِيَّةٍ ... مَغبُوقُ كَاسِ مَحامِدٍ مَصبُوحُ
حَنِقٌ عَلىٰ بِدَرِ اللُّجَيْنِ وَماأَتَتْ ... بِإِسَاءَةٍ وَعَنِ المُسِيءِ صَفُوحُ
لَوْ فُرِّقَ الكَرَمُ المُفَرَّقُ مَالَهُ ... فِي النَّاسِ لَمْ يَكُ فِي الزَّمَانِ شَحِيحُ

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٩٥-٢٩٧ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٣٧٤ .

أَلِفَتْ مَسَامِعُه المَلامَ وغَادَرَتْ سِمَةً عَلَىٰ أَنْفِ اللِّئَامِ تَلُوحُ

هـذا الممدوح يحمد في كـل وقت ، فكأنه يُسقىٰ كـأس المحـامد غبوقاً وصبـوحاً ، يفـرق المال وكـأنه حَنِـقٌ عليه دون إساءة ، ولكنـه يصفـح عن المسيء ولايؤاخذه بجرمه ، لو فُرق كرم هذا الممدوح في النـاس لصار الناس كلهـم أسخيـاء ، مسامع هذا الـرجل أهملت لوم من يلـومه علىٰ الجود ، فلم يبال به ، ومضىٰ علىٰ سخائه ، وغيره ممن أطاعوا اللائم وأصغـت مسامعهم إليـه ، صـاروا لئاما ، يُرىٰ عليهـم أثر اللؤم كما ترىٰ السمـة علىٰ الأنف .

ولايخفىٰ مافي هذه الصورة من جمال وقوة سبك تُشنِّف الآذان ، وتمتع الأذواق . وقد كان "لقوة الشاعرية في المتنبي ، ولغزارة مادته ، وسعة ثقافته وسلامـة منطقه ، أثر بعيد الغـور في سلامة تفكيره ، وجنـوحه إلىٰ الأسلوب المنطقي كلما زاول معنىً من المعاني ، إذ لايكتفي باللّمحة العجلىٰ ، بل يفكر ثم ينظـم ، لذا تصل الحقائق والأخيلـة علىٰ صورة منطقيـة محكمـة ، راضها بيـان طيِّـع ، وصاغها شاعر ملهـم ، فكان لها في النفـس مستقـر ووقع رائع خالد"(١).

وهـذا دأب شـاعرنا في كل الصـور التي عرضناها ممـا يخلـد القيم التي مدح بها وأثنىٰ بها علىٰ ممـدوحيه ، ويرغب في التمسـك بها والدفاع عنها .

كـان المتنبي يبحث عن القوة والبطولة ، والقيم الأصيلـة التي عزت في عصـره وأناسـه ، وقد كان مثـاله في كـل ذلك الشخصيـة العـربية الأصيلة . يقول(٢):

بِمَنْ تَقشَعِـرُّ الأَرْضُ خَـوفـاً إذا مَشَـىٰ
عَلَيهَـا وتَـرْتَـجُّ الجِبَـالُ الشَّـوَاهِـقُ
فَتَىً كالسَّحابِ الجُوْنَ يُخْشىٰ ويُرْتَجىٰ
يُرَجّىٰ الحَيا مِنْها وتُخْشىٰ الصَّوَاعِقُ

---

(١) محمود البشبيشي ، الحيوية في شعر المتنبي ، صحيفة دار العلوم ص١٢٣ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص٨٦ .

وَلِكنَهَا تَمضِي وَهٰذَا مُخَيِّمٌ وَتَكذِبُ أحيَاناً وَذَا الدَّهْر صَادِقُ

هـذا الممدوح يخاف منه في البـأس والحرب حتىٰ أن الأرض تهـابه إذا مشـىٰ عليها ، وتتحرك الجبـال خوفا منه لشدة بأسه وقـوته . وهـو في حال السلم والحرب لاشبيـه لـه سـوىٰ السحاب الداكن . مـرجو مهيـب ، فيه نفع وضـرر ، بل هو يفوق السحـاب ، لأنها تمضي ، وهو مقيم ، والسحـاب قـد تبرق ولكن دون مطر ، فتكذب أحيانا ، وهو صادق العطاء لايتأخر .

وهذا الإنسان صنائعه معروفة تلهج بذكره المشارق والمغارب ـ الناس ـ ليس في الجود وحسب ، وإنما في القتال والشجاعة كما قال المتنبي[١]:

تَخلَّى مِنَ الدُّنيا لِيُنسَىٰ فَما خَلَت مَغـارِبُها مِـنْ ذِكْـرِهِ والمَشـارِقُ
كأنَّكَ في الإعْطَاءِ لِلْمـالِ مُبْغِـضٌ وَفِـي كُـلِّ حَرْبٍ لِلْمَنِيَّـةِ عَـاشِقُ
فَمَا تَرْزُقُ الأقْدَارُ مَنْ أنتَ حَارِمٌ وَلاتَحـرِمُ الأقْـدَارُ مَـنْ أنتَ رَازِقُ
وَلاَتَفْتُـقُ الأيَّـامُ مَـاأنـتَ رَاتِـقُ وَلاتَرتُقُ الأيَّامُ مَاأنـتَ فَاتِـقُ

لجوده وسخائه ينفق المال دون أن يتردد فكأنه يكره المال ، لسعة بذله ولإقدامه وشجاعته كأنه عاشق للحرب بل عاشق للمنية يطلبها في كل حين . لاتخالفـه الأقدار فيما يصنـع من رزق وحرمان ورتق وفتـق فهي موافقة له .

وقـد حاول المتنبي أن يعبر عـن الصـورة المثـالية للإنسـان العـربي في شخصيـة هـذا الممـدوح . فالعـربي محب للكـرم وشجـاع مقـدام في الحرب .

وقـد زاد المعنىٰ قـوة أسلـوب النفي والتأكيد الـذي اعتمـده الشاعر .

"أكثر النفـوس البشـرية ولعـا بالثنـاء ، وحبـا للمبـاهاة ، ورغبـة في المفاخرة ، نفوس الفنانين من شعراء ، وأدباء ، ورسامين ، ومن إليهم ، لأن لهـم مـن مـوهبتهم الفذة ، وثقتهـم بذاتهـم ، مـايجعلهـم يعتقـدون حينـا ، ويتوهمون أحيانا ، أنهم من غير طينة البشر"[٢].

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٨٦-٨٩ .
(٢) فوزى عطوى ، المتنبى شاعر السيف والقلم ، ص٤٧ .

والمتنبي شاعر فنان امتدح نفسه ـ فخرا ـ أثناء مديح غيره يقول[١]:

فَلَمَّا رَآنِي مُقبِلاً هَزَّ نَفسَهُ ... إِلَيَّ حُسَامٌ كُلُّ صَفحٍ لَهُ حَدُّ
فَلَمْ أَرَ قَبْلِي مَنْ مَشَى البَحرُ نَحوَهُ ... وَلاَرَجُلاً قَامَتْ تُعانِقُهُ الأُسْدُ

فالشاعر هنا يفخر بنفسه وإن كان الغرض المديح لشخص بعينه ، ولكن نفس المتنبي المتعالية أبت إلا أن تشارك ممدوحها صفات المدح ، فهو يريد أن يقول : إن ممدوحه شجاع وجواد كريم ، ورأىٰ أن هاتين الصفتين هما أمهات الفضائل ، ومن خلالهما أشار لنفسه وأنه شجاع كما أنه كريم . إذ لايعقل أن يقدم جبان علىٰ السيف ، ولايعقل أن يقترب كذلك الجبان من الأسد فكيف به يعانقها . إلا إذا كان مفرط الشجاعة ، ويؤكد ذلك المتنبي حين ينفي عمن سواه الإقدام علىٰ هذه الأفعال .

"هكذا كان شاعرنا يرىٰ نفسه قبل أن يرىٰ ممدوحه ، وأحيانا قد يضع نفسه وممدوحه علىٰ درجة واحدة من التساوي ، فالمتنبي كان يسعىٰ إلىٰ تحقيق غايات قصوىٰ ، وكانت هذه الغايات ماثلة في ذاته ، فعثر في ممدوحه علىٰ المثل الذي تتجسد فيه تلك القيم ، فتم بذلك التزاوج بين الذات والمثل علىٰ مستوىٰ القيم"[٢]. انظر إليه يقول بعد ذلك[٣]:

وَمَنْ بُعْدُهُ فَقرٌ وَمَنْ قُربُهُ غِنَىٰ ... وَمَنْ عِرْضُهُ حُرٌّ وَمَنْ مَالُهُ عَبدُ
وَيَصطَنِعُ المعرُوفَ مُبتَدِئًا بِهِ ... وَيَمنَعُهُ مِنْ كُلِّ مَنْ ذَمُّهُ حَمْدُ
وَيَحتَقِرُ الحُسَّادَ عَنْ ذِكرِهِ لَهُم ... كأَنَّهُمُ فِي الخلقِ مَاخُلِقُوا بَعدُ
وَتَأمَنُهُ الأعدَاءُ مِنْ غَيرِ ذِلَّةٍ ... وَلَكِنْ عَلى قَدرِ الَّذِي يُذنِبُ الحِقدُ

هذا الممدوح كريم جواد ، لامغمز فيه ، عزيز عزة الحر ، ماله مبذول في سبيل المجد يعطي المستحقين قبل سؤالهم ، ويمنع معروفه عن كل ساقط ، هذا الممدوح يعلم أن الحقد والحسد صفتان مذمومتان تأكلان حسنات

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٩٦-٩٧ .
(٢) أيمن العشماوى ، قصيدة المديح عند المتنبى ، ص١٣٠ .
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص٩٨ .

صاحبهما ، وهما منشأ العداوة والبغضاء ، وممدوح شاعرنا عاقل ، فك نفسه من تلك الأغلال ، وخلص من كابوس هاتيك الخصال ، فسعد حاله ، وفاز بالرضا والرضوان حين ترفع عن ذكر حساده حتىٰ عدهم لم يخلقوا بعد فأعداء هذا الممدوح يأمنون جانبه لأنه عادل لايرضىٰ بالظلم ، ولكن عقابه يكون بقدر الذنب الذي يقترفه المذنب .

"مديح المتنبي بالشجاعة والقتال نزعة عربية حرة في عصر عانىٰ فيه العرب الإنقسام والتناحر ، ومكايد الفرس والترك ، فكان بذلك صاحب رسالة تدعو إلى تحرير العرب من ربقة العجم وتجديد حياتهم ، وذلك بردهم إلىٰ مثلهم العليا السابقة"(١). انظر إليه يصور ممدوحه بطلا مقداما لايهاب الموت . إذا ماوقف في ساحة القتال كانت وقفته أروع مثال علىٰ البطولة والثبات ، فكأنه في جفن الموت والموت عنه نائم(٢):

وَقَفتَ وَمافِي المَوتِ شَكٌّ لِواقِفٍ ... كأنَّكَ فِي جَفنِ الرَّدَىٰ وَهُوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ الأبْطالُ كَلمَىٰ هَزيمَةً ... وَوَجهُكَ وَضَّاحٌ وثَغرُكَ باسِمُ
تَجاوَزتَ مِقدَارَ الشَّجاعَةِ والنُّهىٰ ... إلَى قولِ قَوْمٍ : أنْتَ بالغَيبِ عَالِمُ

هذا الممدوح بطل مقدام لايهاب الموت ، بل من طبيعته أنه يقبل علىٰ الموت راضيا لإيمانه أن من طلب الموت وهبت له الحياة ، وصف شاعرنا ممدوحه ببعض قيم الفروسية التي تمثل غاياته القصوىٰ ، فوصفه بالإقدام والتصميم ، وقوة العزيمة ، والوضوح غير المتخوف ، والفطانة التي تتجاوز حد العقل ، والشجاعة التي تتجاوز حد شجاعة الآخرين ، لقد استطاع المتنبي في هذه الأبيات كما يقول الأستاذ أيمن عشماوي(٣): "وهو بصدد التعبير عن بعض جوانب الصورة المثالية للإنسان العربي . أن يعيد إلىٰ

---

(١) د. زكي المحاسني ، المتنبي ، دار المعارف بمصر ، ط/رابعة ١٩٧١م ، ص٢٩ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص١٠١-١٠٣ .
(٣) انظر قصيدة المديح عند أبي الطيب المتنبي ص٦٤ .

مضمون القصيدة ذلك الإيقاع الحماسى الذي كان يتردد في مدائح العصر الجاهلي" .

هذا البطل الذي لايهاب الموت يحتقر كل ماعدا الشجاعة والانتصار فهاهو لايتأثر بمنظر القتلىٰ والمنهزمين من الأعداء بل يشرق وجهه ويفتر ثغره عن ابتسامة النصر والفخر "وعندما صور المتنبي حالة الأبطال المنهزمين ، المثخنين بالجراح ، الذين تعلو وجوههم الكآبة ، حسن أن يقابل تلك الصورة بصورة مضادة لها ، وهي صورة ممدوحه بوجهه المشرق وثغره المبتسم ، رغم فداحة الخطب وهول الفاجعة ، فقد استفاد المتنبي من الجمع بين المتشابهات في البيت الأول كما استفاد من الجمع بين المتنافرات في البيت الثانى "(١).

أظهر هذا الممدوح من العزم والإقدام والجلد علىٰ المخاوف ماتجاوز به حد الشجاعة والعقل إلى مايقول قوم من أنه يعلم الغيب ، ويعرف أعقاب الأمور قبل حلولها ، لذلك كان رابط الجأش لايؤثر فيك منظر الجثث والقتلىٰ ، وخيبة وانكسار المنهزمين .

في الأبيات السابقة صورة بيانية ، عفوية بسيطة ، غير أنها تنقل إلينا موقفا بطوليا قل أن نجده عند غير المتنبي .

يتابع بعد ذلك شاعرنا بقية صوره التي يمتدح بها هذا البطل العربي ، وقد تحكم في جيش الأعداء قتلا وأسرا ، فيقول(٢):

نَثَرتَهُمُ فَوقَ الأُحَيدِبِ كُلِّهِ ... كمَا نُثِرَتْ فَوقَ العَرُوسِ الدَّرَاهِمُ

تَدُوسُ بِكَ الخَيلُ الوُكُورَعَلَى الذُّرَىٰ ... وَقَد كَثُرَت حَوْلَ الوُكُورِ المَطَاعِمُ

---

(١) محمد عبد الرحمن الهدلق ، الثقافة النقدية لأبى الطيب المتنبى ، مجلة جامعة الملك سعود ، الآداب ، مجلد ٦ ، ١٤١٤هـ ، ص٤٢٩ .

(٢) الديوان ، ج٤ ، ص١٠٤ .

"هـذا البطل مغرم بمظاهر القـوة ، ومن مظاهرها القتلىٰ والجرحىٰ وقـد تفـرقت جثثهـم علىٰ الجبـل . بمثـل هـذه المشاهد تطيـب نفـس هـذا الممدوح وتطـرب ، ومـامعنىٰ هذا أن يقتـل النـاس أمامه فحسـب ، فـالبطل إنسان ، ومـاهو بالجائع إلىٰ الدم ، بيـد أنه يرىٰ الموت واجبا في الـدفاع عن الكرامة وبلوغ المجد"(١).

وكـان للاستعارة في هذه الصـورة أثرها "فحين اتفـق في الحرب تساقط المنهـزمين علىٰ غير ترتيب ونظـام ، كما يكون في الشـيء المنثـور ، عبر عنه المتنبي بالنثر ، ونسـب ذلـك الفعـل إلىٰ الممدوح ، إذ كـان هـو سبـب ذلك الانتثار"(٢).

ثم يتـابع بعـد ذلك فيمدح بالنـاحية الـدينية ويربط ذلـك بالجهـاد في سبيل الله فيقول(٣):

وَلَستَ مَلِيكاً هَازِماً لِنَظِيرِهِ ... وَلكِنَّكَ التَّوحِيدُ لِلشِّركِ هازِمُ
تَشَرَّفُ عَدنَانٌ بِهِ لارَبِيعَـةٌ ... وَتفتَخِرُ الدُّنيَا بِهِ لاَالعَوَاصِـمُ

يعتقـد المتنبي أن الحرب بين المسلمين والروم في هـذه الصورة ، ليست بين ملكين علىٰ أرض أو أطمـاع معينـة ، بل هي حروب العقيـدة الإسلاميـة التـوحيدية أمام جحافل الشـرك الأكبر في ذلك الوقـت ، فبذلك هذه الحرب بين التوحيد والشرك .

مـن هذا المنطلق وجب أن تعتز العـرب جميعا وتفتخـر بقائد المسلمين في هذه الحرب ـ ممدوح الشاعر ـ فقد رفع شأنهم وأعلىٰ في الـدنيا ذكرهم ، وثبـت علىٰ الحق دولتهـم ، فـالمعاني الإسلاميـة مستقـرة في قلـب شـاعرنا . يقول(٤):

---

(١) إنعام الجندى ، دراسات فى الأدب العربى ، ص٢٥٨ .
(٢) عبد القاهر الجرجانى ، أسرار البلاغة ، ص٥٨ .
(٣) الديوان ، ج٤ ، ص١٠٧ .
(٤) الديوان ، ج٢ ، ص٨٠ .

كأنّ سَخَاءَكَ الإسْلامُ تَخْشىٰ إذَا ماحُلْتَ عَاقِبَةَ ارْتِدَادِ

فهذا الممدوح يدين بالسخاء ويعتقده كما يدين بالإسلام ، ويعد تحوله عنه كالردة عن الإسلام ، فيخاف التحول كما يخاف الردة التي عقابها القتل ودخول النار ، وبذلك يدرك ممدوح شاعرنا أن عليه مسؤولية خاصة عن تصرفات نفسه وسلوكه الشخصي ، وتمثل ذلك في تمسكه بدينه وحبه لخصال الخير ثم قال(١):

وقَدْ مَزَّقْتَ ثَوبَ الغِي عَنهُم وقَدْ أَلْبَسْتَهُم ثَوبَ الرَّشَادِ

هذا الممدوح أخرج قومه من ضلال المعصية إلىٰ رشد الطاعة ، لأنه يعلم أن عليه مسؤولية عامة عن تصرفات غيره وسلوك الآخرين عملا بالآية {واتَّقُوا فِتْنَةً لاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُم خَاصَّةً واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ}(٢). وقوّىٰ هذا المعنىٰ أسلوب البديع في المقابلة بين الغي والرشاد ـ التمزيق ، واللبس ـ

يسعىٰ المتنبي جاهداً إلى ابتكار صور شعرية جديدة ، فيها توافقاً يتناسب مع طموحه وسعيه وبحثه عن الجديد ، حين يقول(٣):

عَرَبِيٌّ لِسَانُه ، فَلْسَفِيٌّ رَأيُه ، فَارِسِيَّةٌ أَعْيَادُهُ
كُلّما قَال نَائِلٌ : أَنَا مِنْه سَرَفٌ ، قَالَ آخَرٌ : ذَا اقْتِصَادُهُ
ظَالِمُ الجُودِ كُلّما حَلّ رَكْبٌ سِيمَ أَنْ تَحْمِلَ البِحَارُ مَزَادَهُ
ماسَمِعْنا بِمَنْ أَحَبّ العَطَايَا فَاشْتَهىٰ أَنْ يَكُونَ فِيهَا فُؤَادَهُ

المتنبي في مديحه يشير إلىٰ أحداث عصره وماساد فيه من أمور دخيلة علىٰ العرب ولكنه يطوع كل ذلك لمديحه فممدوحه عربي اللسان ، حكيم الرأي نظراً لانتشار علم الفلسفة في عهده ، كذلك متأثر بالفرس فأعياده

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٨٢ .
(٢) سورة الأنفال : آية ٢٥
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص١٥٠-١٥٦ .

مستمرة ، كثير العطاء قد بلغ القمة في الكرم والجود . فكلما استعظم منه نائل يعد سرفا، أعقبه نائل أعظم منه يعد النائل الأول الذي كان يستشرف اقتصادا بإضافته إلى الثاني[١]. ومبالغة في المديح وصفه بالظلم في الجود ، من شدة كرم هذا الممدوح وجوده يتمنى لو يعطي قلبه من ضمن العطايا ، قريب من هذا المعنى قوله يمتدح قيمة الكرم والجود[٢]:

تَشبِيهُ جُودِكَ بِالأَمْطارِ غَادِيَةً ... جُودٌ لِكَفِّكَ ثَانٍ نالَهُ المَطَرُ
تَكَسَّبُ الشَّمسُ مِنكَ النُّورَ طَالِعَةً ... كَمَا تَكَسَّبَ مِنْها نُورَهُ القَمَرُ

المتنبي يعلم أن نظام الحياة يقضي على الإنسان أن يسعى ويعمل لطلب الرزق من وجوهه المشروعة ، حتى لايمد يده للناس . ولكنه هنا يرى أن ممدوحه يكفي الناس هذا العناء ، فهو كريم دائم العطاء بغير سؤال . حتى أصبح تشبيه جوده وعطائه بالأمطار ، جود ولكنه للمطر ، ينال المطر هذا الشرف حين يشبه عطاء هذا الممدوح به ، لأن هذا الممدوح في نظر المتنبي فاق المطر في الجود ، كما فاق الشمس في النور والضياء ، والشهرة ، فالشمس في نظر شاعرنا تكسب النور من طلعة هذا الرجل كما تكسب القمر منها نوره ، وهنا قلب للمقاييس الطبيعية ، ولكن المتنبي يحل لنفسه كل شيء في سبيل الارتفاع بممدوحه إلى مراتب تفوق البشر . وغرضه من ذلك الارتفاع بالقيمة التي يمدح بها ، وحث الناس في عصره على التمسك بها والدفاع عنها .

من المناقب التي عدها المتنبي لممدوحه وأشاد بها قيم العلم ، والفصاحة وحسن الخط والكتابة إضافة لبقية القيم التي تغنى بها مرارا ، يقول[٣]:

إنَّ كُوتِبُوا أو لَقُوا أو حُوَرِبُوا وُجِدُوا
في الخَطِّ واللَّفْظِ والهَيْجَاءِ فُرْسَانَا

---

(١) شرح مشكل شعر المتنبي ، ص٣٢١ بتصرف .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٢٠٢ .
(٣) الديوان ، ج٤ ، ص٣٥٨-٣٦٠ .

كَأَنَّ أَلْسُنَهُمْ فِي النُّطْقِ قَدْ جُعِلَتْ عَلَىٰ رِمَاحِهِمِ فِي الطَّعْنِ خِرْصَانَا
كَأَنَّهُمْ يَرِدُونَ المَوْتَ مِنْ ظَمَأٍ أَوْ يَنْشَقُونَ مِنَ الخَطِّيِّ رَيْحَانَا

هؤلاء القوم خطباء مفوهون ، وكتاب فضلاء ، فرسان في الكتابة والبلاغة والحرب فكلامهم بالغ الأثر في النفوس ، وأسلحتهم ماضية نافذة ، مضاء ألسنتهم فى النطق ، فكأن ألسنتهم قد جعلت خرصانا علىٰ رماحهم ، وهنا أتىٰ بتشبيه مقلوب وحول وجه الكلام مبالغة في مضاء ألسنة ممدوحيه وذلاقتها حتىٰ صارت الأسنة تشبه بها ، هؤلاء القوم لسهولة الحرب عليهم واسترواحهم إليها صار الموت عندهم لذيذا ، كالماء للظمآن ، وصارت الرماح شهية كالريحان الذى يشم . هؤلاء العظماء إن كانوا باطشين بأعدائهم مهابين في أعين الناس ، فإنهم بين أصدقائهم وفي مجالس إخوانهم دمثين رقيقين ، أحاديثهم حلوة ، تجذب القلوب إليهم ، فهم بذلك يفرقون بين العدو والصديق بحزمهم وبعد نظرهم يقول(١):

الكَائِنِينَ لِمَنْ أَبْغِي عَدَاوَتَهُ أَعْدَىٰ العِدَا ولِمَن آخَيْتُ إِخْوَانَا
خَلَائِقٌ لَوْ حَوَاهَا الزَّنجُ لانقَلَبُوا ظَمْيَ الشِّفاهِ جِعادَ الشَّعرِ غُرْآنَا
وَأنفُسٌ يَلمَعِيَّاتٌ تُحِبُّهُمُ لَهَا اضْطِرَارًا وَلَوْ أَقْصَوْكَ شَنْآنَا
الوَاضِحِينَ أُبُوَّاتٍ وأجبِنَةً وَوَالِداتٍ وأَلْبَاباً وأذْهَانَا

هؤلاء القوم لهم محامد وخصال جميلة ، لو اتصف بها الزنج علىٰ قبح صورهم لغطت هذا القبح وصاروا مع سوادهم كأنهم بيض ومع غلظ شفاههم كأنهم ظمي الشفاه .

وقد استطاع المتنبي بنظرته الثاقبة وتعمقه في واقع الإنسان وأخلاقه ، أن يبصر الجمال والقبح ويشعرنا بأن الجمال الظاهر ماهو إلا نتيجة لجمال الأخلاق ـ الباطن ـ وهؤلاء القوم لهم أنفس ذكية فطنة . يحبهم المرء لأجلها حتىٰ من عادوه لايملك إلا أن يحبهم لما اتصفوا به من خلائق وفضائل ،

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٣٥٨-٣٦٠ .

ولأن الإنسان جبل على حب الجمال في كل شيء أصبح حب هؤلاء القوم ضرورة لجمال خصالهم وفطنة أنفسهم .

ثم يعرض لقضية النسب التي اعتاد العرب التمدح بها ، فيقول : إن هؤلاء القوم معروفو الآباء ، وأنسابهم طاهرة ، ووجوههم حسنة متهللة كرما ، كما أنهم مشرقوا العقول والأذهان ، يخرج بعد ذلك من مديح الجماعة ، إلى الفرد ، فيختار من هؤلاء القوم فردا يغدق عليه من الفضائل والصفات الحميدة ، والقيم العربية ، مايوحي بتعلق المتنبي وحبه لفضائل العرب وأخلاقهم التي يتمنى بعثها والتمسك بها في معاصريه . وهكذا .

فممدوح المتنبي في أغلب أحواله بطل عظيم ، يفوق الواقع ، بل ربما يسمو على الممكن ، سواء في بأسه أو في كرمه ، فالخلتان متلازمتان في وجدان العربي ، فلاشجاعة بغير كرم ، ولاكرم بغير شجاعة ، وهما معا نسيج متلاحم في صورة الإنسان البطل عند شاعرنا يقول[١]:

أَنتَ الَّذِي سَبَكَ الأَمْوَالَ مَكْرُمَةً ... ثُمَّ اتَّخَذْتَ لَهَا السُّؤَّالَ خُزَّانَا
عَلَيْكَ مِنكَ إِذَا أُخْلِيتَ مُرْتَقِبٌ ... لَمْ تَأْتِ فِي السِّرِّ مَالَمْ تَأتِ إِعْلَانَا
فَإِنَّ مِثلَكَ بَاهَيتُ الكِرَام بِهِ ... وَرَدَّ سُخْطًا عَلَى الأَيَّامِ رِضْوَانَا
وَأنتَ أبعَدُهُم ذِكرًا وأكبَرُهُم ... قَدرًا وَأرْفَعُهُم فِي المَجدِ بُنيانَا
قَدْ شَرَّفَ اللَّه أرْضًا أنْتَ سَاكِنُهَا ... وشَرَّفَ النَّاسَ إذ سَوَّاكَ إنْسَانَا

نسب المتنبي فضائل الأخلاق ، ومحامد الصفات لممدوحه ، في هذا النص . تلك الفضائل والصفات التي تحقق للبشرية غايتها من الأمن والسكينة والتي أوردها البارى - عز وجل - فى نصف آية من كتابه العزيز {إِنَّ اللَّهَ يَأمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وإِيتَآءِ ذِى القُرْبَىٰ}[٢]. هذه الفضائل التي لو سرت في مجتمع لساده الود وغشيته الرحمة ، وعمه الحب والإخاء . من تلك

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٣٦٠ -٣٦١ .
(٢) سورة النحل : آية ٩٠

الفضائل التي حوتها نفس الممدوح الكرم وبذل المال فقد سبك أمواله وأحالها مكارم ثم جعلها في أيدي الناس فكأنه اتخذ المحتاجين خزانا لها . كما أن من محامد أخلاقه ، أنه لايفعل في الخلاء مالم يفعله في الملأ ، لأن الرقيب عنده في نفسه ، مثل هذا الممدوح يقصر الكرام عن مكارمه . ويفوق كل الكرام في الذكر والقدر ، والشرف والمجد ، حتىٰ عد وجوده في الناس شرف لبني الإنسان لعظم أخلاقه تشرف الأرض التي يسكنها علىٰ غيرها فبهذه الفضائل وهذا المديح نفىٰ شاعرنا عن ممدوحه بقية المساويء التي تفسد المجتمعات وتشقي الأمم ، والتي أجملها سبحانه وتعالىٰ ونهىٰ عنها في النصف الآخر من الآية الكريمة : {... **وَيَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**}(١).

البيت الأخير في النص السابق مع أبيات قريبة منه يوضح لنا أن المتنبي في كل فرصة يحاول أن يرفع من شأن ممدوحه ويجعل ماحوله يفخر به ، انظر إلى قوله(٢):

أكَارِمٌ حَسَدَ الأرضَ السَّماءُ بِهِمْ وقَصَّرَتْ كُلَّ مِصْرٍ عَنْ طَرَابُلسِ

فالمعنىٰ تقريبا نفسه . يقول إن هؤلاء القوم لفضلهم حسدت السماء الأرض لوجودهم عليها ، كما قصرت كل البلدان وتأخرت عن البلد الذي يسكنوه . كما قال(٣):

كَفَىٰ ثُعَلاً فَخْرًا بِأَنَّكَ مِنهُمُ وَدَهرُ لِأَنْ أمسَيتَ مِنْ أَهلِهِ أَهْلُ

فالمعنىٰ ذاته ، يقول يكفي قبيلتك فخرا أنك منها لفضائلك ومحامدك كما يكفي هذا الدهر الذي أنت فيه أنك عشت فيه . هكذا تتقارب معاني المتنبي فهو لايترك فرصة لتأكيد المعنىٰ إلا استغلها .

---

(١) سورة النحل : آية ٩٠

(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٣٠٠ .

(٣) الديوان ، ج٣ ، ص٣٠٧ .

يعمد المتنبي إلىٰ توجيه الأنظار إلىٰ عظمة ممدوحه الحربية وفخامة قدره وعلو همته فيقول[١]:

ضَاقَ الزَّمَانُ وَوَجْهُ الأرضِ عَنْ مَلِكٍ ... مِلْءِ الزَّمَانِ وَمِلْءِ السَّهلِ والجَبَلِ
فَنَحنُ فِي جَذَلٍ والرُّومُ في وَجَلٍ ... والبَرُّ في شُغُلٍ والبَحْرُ فِي خَجَلِ
مِنْ تَغلِبَ الغَالِبِينَ النَّاسَ مَنصِبُهُ ... وَمِنْ عَدِيٍّ أعَادِي الجُبْنِ والبَخَلِ

فالمدح هنا كما يقول الأستاذ الشكعة[٢]: "فيه من القوة الشيء الكثير لأنه يرفع من شأن هذا الممدوح بحيث يجعل الزمان في ضيق من أمره ، لأنه أحقر من أن يتسع لمثله ، ويجعل الأرض في حيرة من أمرها لأنها أضيق من أن تتسع لفضله وعظمته ، ثم يلحق المتنبي هذه المعاني بمعان أخرىٰ في بيت تال تصارعت فيه المحسنات بما حوىٰ من تقسيم حسن بهيج ، فقد صور المسلمين فرحين بأميرهم لانتصاراته المتتالية وصور الأعداء خائفين وجلين ، فالبر مشغول بما حمل من الجيوش الجرارة ، وأما البحر وهو رمز الجود والكرم فإنه خجل لتقصيره إذا ماشبه بهذا الممدوح السخي الكريم" .

هذه الشجاعة وهذا الكرم صفتان اجتمعتا لممدوحه ، ولكنه يرىٰ أنهما سلوك اجتماعي متوارث فيرجع ذلك إلىٰ سلف الممدوح حين يشير إلىٰ أصله ويجعل من قبيلة الممدوح صفة يمتدح بها جماعته حين اشتق من قبيلة - تغلب - صفة - غالبين - فقد تغلبت قبيلة الممدوح علىٰ الناس نجدة وشجاعة ، ثم اشتق كذلك من جده - عدي - صفة العداوة ، فجعل أهل هذا الممدوح أعداء للبخل والجبن ، فهذا إنسان المتنبي حين يكون أهلا للمدح لايترك شاعرنا صغيرة ولاكبيرة تتعلق بهذا الممدوح إلا نسج منها حلة يرتفع بها صاحبها عن غيره ، فالقبيلة والجماعة والنسب كلها عند المتنبي أمور يمتدح بها ، وبهذا يجتمع لممدوح المتنبي كل الأخلاق الحميدة ، فهو قد

---

(١) الديوان ،ج ٣ ، ص٢٠٤ .
(٢) أبو الطيب المتنبي فى مصر والعراقين ص١٤١ .

جمع بين وظيفية دينية تخلص الروح من الخوف والقلق - الجهاد في سبيل الله - ووظيفة دنيوية تخلص النفس من الهموم بدحر الفقر - الكرم والعطاء - .

ثم يسترسل المتنبي بعد ذلك في وصف ممدوحه والإشادة بأخلاقه وفضائله ولكنه قبل ذلك يوضح أن هذا الممدوح خير قائد في خير أمة فيقول(١):

إنَّ الهُمَامَ الَّذِي فَخَرُ الأنَامِ بِهِ ... خَيْرُ السُّيُوفِ بِكَفَّيْ خَيرَةِ الدُّوَلِ

فهذا البيت مدخل إلى صفات الممدوح الأخرى التى يبدأ المتنبى بتعدادها صفة تلو أخرى وكلها من حميد الأخلاق وكريم السجايا .

المتنبى فى مدائحه يشيد بالذات العربية ويفخر بها وبكل مايمت للعروبة بصلة حتى اللباس يقول مشيرا للفرق بين اللباس العربى وغيره(٢):

وَفِي صُورَةِ الرُّومِيِّ ذِي التَّاجِ ذِلَّةٌ ... لِأبلجَ لاتِيجانَ إلاَّ عَمائِمُهْ
تُقَبِّلُ أفْوَاهُ المُلُوكِ بِساطَهُ ... وَيَكبُرُ عَنْها كُمُّهُ وَبَراجِمُهْ
قِيَاماً لِمَنْ يَشْفِي مِنَ الدَّاءِ كَيُّهُ ... وَمَنْ بَيْنَ أُذْنَيْ كُلِّ قَرْمٍ مَواسِمُهْ
لَهُ عَسْكَرَا خَيلٍ وطَيرٍ إذَا رَمَى ... بِهَا عَسكَراً لَم يَبقَ إلاَّ جَماجِمُهْ
أَجِلَّتُهَا مِنْ كُلِّ طَاغٍ ثِيَابُهُ ... وَمَوْطِئُهَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ مَلاَغِمُهْ

هذا العربي مشرق الوجه لاتاج له إلا عمامته ، عند مثول الملوك بين يديه تقبل بساطه لعظم شأنه وهيبته ، يرد بالطعن والضرب من عصاه إلىٰ طاعته ، كما يرد من به داء بالكي إلىٰ الصحة ، لشجاعة هذا الممدوح وإقدامه في الحرب صوره المتنبي وله عسكران ، علىٰ أنه لايهمنا مافي هذه الصورة الكلية من صور جزئية ، بما فيها من استعارات وكنايات بقدر مايهمنا الصورة الكلية أو العامة ومافيها من تفنن في الابتكار ذكره له

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٢٠٥ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٥٣-٥٤ .

القدماء كما قال الأستاذ أيمن العشماوي[١]: "فالمتنبي هنا يريد أن يصف قوة جيش الممدوح وتعوده على النصر حتى أصبح لازمة من لوازمه ، فجعل له جيشين ، جيش من الخيل والفرسان ، وجيش من جوارح الطيور التي تعودت أن تسعى بسعي جيشه انتظارا لما تلقاه من مصاحبتها لهذا الجيش من جثث الأعداء ، وقد جعل الشاعر الجيشين سحابتين[٢] تستظل إحداهما بالأخرى ، ورجح استظلال السحابة العليا بالسحابة التي تحتها تحقيقا للمعنى وإن كان قلبا للصورة الحسية ، ثم جعل السحابة السفلى تسقي السحابة العليا ، وهو أيضا أمر لاترضاه النظرة الحسية ، بينما لم ير المتنبي أي غرابة في هذه الصورة ..." .

تعودت خيل هذا الممدوح أن تدوس كل طاغ من طغاة الأعداء ، حتى أن هذا الممدوح يسلب ثياب كل طاغ من ملوك العدو ويتخذ منها أجلة لخيله ، ويوطيء حوافرها وجه كل باغ فيهم ، وذلك إمعانا في قتلهم وبلوغ الغاية من الظهور عليهم ، وهي لاشك صورة للقوة طالعنا بها شاعرنا بأسلوب عظيم قوي ، وروح فدائية ، وعزة عالية مرغبا في القوة .

المعالى ضربين : طبعي (الفضائل النفسانية : كالشجاعة والكرم والفهم والعفة) ، ومقتنى : (كالمال والجاه والثروة) المتنبي كان على علم بهذه المعالي فلم يفته أن يمدح بها فقال[٣]:

إِذاً كَسَبَ النَّاسُ المَعَالِيَ بالنَّدَى ... فَإِنَّكَ تُعْطِي فِي نَدَاكَ المَعَالِيَا
فَقَدْ تَهَبُ الجَيْشَ الَّذِي جَاءَ غَازِيَا ... لِسَائِلكَ الفَرْدِ الَّذِي جَاءَ عَافِيَا
وَتَحْتَقِرُ الدُّنْيَا احتِقَارَ مُجَرِّبٍ ... يَرَى كُلَّ مَافِيهَا وَحَاشَاكَ فَانِيَا

يقول : إنما يجود الجواد ليحصل له العلو والشرف بالجود ، بينما ممدوح المتنبي يعلى من يعطيه ويشرفه . فإذا كان قصارى جهد أفضل الناس

---

(١) انظر قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني ، ص١٩١ .
(٢) سحاب من العقبان يزحف تحتها ... سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه
(٣) الديوان ، ج٤ ، ص٤٢٧ .

اكتساب المعالي بالندىٰ ـ العطاء ـ فإن هذا الممدوح يعطي المعالي فتدل البلاد وتكسب الأجناد ، فعطاياه تشرف المعطين ، فتفضي بهم إلىٰ المعالي . وماكان سببا للمعلاة فهو معلاة[١]. فهذا الممدوح غاية في الجود والشجاعة والكرم ، بحيث لو سأله سائل جيشا أتىٰ يغزوه لوهبه له دون مماطلة ، ولأنه مجرب وعالم بالدنيا يحتقرها لعلمه أن مافيها مصيره الفناء .

قريب من هذه الصورة قوله[٢]:

يَرُوعُ رَكَانَةً وَيَذُوبُ ظَرْفاً ... فَمَا نَدْرِي أَشَيْخٌ أَمْ غُلاَمُ
وَتَملكُهُ المَسَائِلُ فِي نَدَاهُ ... وأَمَّا فِي الجِدَالِ فَلاَيُرَامُ
وَقَبضُ نَوَالِهِ شَرَفٌ وَعِزٌّ ... وقَبْضُ نَوالِ بَعْضِ القَومِ ذَامُ
أَقَامَتْ فِي الرِّقابِ لَهُ أَيادٍ ... هِيَ الأَطْوَاقُ والنَّاسُ الحَمَامُ

هذا الممدوح جمع بين وقار الشيوخ ، وظرف الفتيان ، بالإضافة لذلك فهو جواد كريم ، ذو علم وفهم ، لايلحق به أحد في الجود ولاينافسه أحد في العلم ، قبول عطاءه شرف وعز لآخذيه ، بينما عطاء غيره من اللئام عار وذلة ، نعم هذا الممدوح وأياديه قد أحاطت برقاب الناس ، كالأطواق في أعناق الحمام ، وقريب من هذه الصورة قوله في نفس المعنىٰ[٣]:

إِذَا استَعْطَيتَهُ مَافي يَدَيْهِ ... فَقَدْكَ سَأَلْتَ عَنْ سِرٍّ مُذِيعَا
قَبُولُكَ مِنْهُ مَنٌّ عَلَيْهِ ... وَإلاَّ يَبتَدِيءْ يَرَهُ فَظِيعاً

فهذا الممدوح مثل سابقه ، سريع الأريحية ، يعطي مايملك ، ولايضن بما فى يده ، هو مع جوده وشجاعته وبعد همته ، يعتبر الأخذ منه من عليه ويرىٰ إذا عمد سائله للسؤال أن في ذلك أمر مشين له . فهو يريد أن يعطي قبل السؤال ، ولعل المتنبي بهذا يلفت نظر معاصريه من الأثرياء إلىٰ صدقة السر وفضائلها دون أن يحتاج السائل لإذاعة طلبه ، وإراقة ماء وجهه .

---

(١) شرح مشكل شعر المتنبي ص٢٨١ بتصرف .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص١٩٦ .
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص٣٦١ .

دارت رحىٰ العصر في القرن الرابع الهجري علىٰ كثير من صفات الخير في صدور الناس فصارت تطحن خيره ، وتدمر فضله ، حتىٰ لم يبق منها في صدور كثير منهم إلا خيالات باهتة ، وأشلاء ممزقة . كل هذا علىٰ مرأىٰ من المتنبي ومسمع فهاله ماآل إليه أمر القيم من تدهور فأخذ يحاول بعث هذه القيم بمدائحه .. يقول(١):

فَتىً فَاتَتْ العَدْوَىٰ مِنَ النَّاسِ عَينُهُ ... فمَا أرْمَدَتْ أَجْفَانَهُ كَثرَةُ الرَّمْدِ
وَخَالَفَهُم خَلْقاً وَخُلقاً وَمَوضِعاً ... فَقَدْ جَلَّ أنْ يُعدَىٰ بِشَيْءٍ وَأنْ يُعْدِي

فهذا الممدوح كريم الخلق خال من العيوب ، إذ هو أجمل الناس خلقا وأنبهلم خلقا ورتبة حتىٰ فاق الناس ، وقد جعل المتنبي الرمد مثلا للعيوب المعدية . فقال : كثرت العيوب في الناس لكن هذا الممدوح سالم منها فلم تعده لشرف عنصره وصفاء جوهره . كما أنه لايعدي بصفاته العظيمة أحد لأنها خاصة به وهي مافاق الناس بها . ثم أكمل فضائله فقال(٢):

أَأَحْزَمَ ذِى لُبٍّ ، وَأكرَمَ ذِي يَدٍ
وَأشجَعَ ذِي قَلبٍ وَأرحَمَ ذِي كِبدِ
وَأحسَنَ مُعتَمٍّ جُلُوساً وَرِكبَةً
عَلَى المِنبَرِ العَالِي أَو الفرَسِ النَّهدِ

بهذه الصفات كلها تفرد هذا الممدوح عن غيره فهو حازم كريم ، شجاع ، رحيم ، بل هو أحسن وأجل الناس جميعا وقد عبر بلفظ معتم عن كل من يلبس العمامة ـ العرب جميعا ـ في جلسته أو في اعتلاء المنبر والفرس لاشبيه له . وقد اعتمد علىٰ أسلوب التفضيل في إقرار هذه الفضائل ونسبتها لممدوحه .

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص١٦٩ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص١٧١ .

وقريب من هذه الصورة والفضائل التي عدها شاعرنا لممدوحه قوله[١]:

مُتلِفٍ مُخْلِفٍ وَفِيٍّ أَبَيٍّ عَالِمٍ حَازِمٍ شُجَاعٍ جَوَادِ

فقد جمع المتنبي من الفضائل والقيم العربية أغلبها في بيت واحد حين رأى هذه القيم تندثر فما عاد الخير خيرا بشكله الحقيقي . فقد حرفته الأضواء وصحفته الآراء في ذلك العصر وغيرت الشهوات الفضائل والقيم فأين نوازع الجود ودوافع الكرم؟ وأين الإقدام والشجاعة؟ أين النجدة والمروءة؟

عصر المتنبي كان يفتقد كل هذه الخصال وهذه الأخلاقيات مما حدا بشاعرنا إلىٰ التفنن في إحياء هذه الفضائل وبشتىٰ ألوان المديح حتىٰ يؤكد لنفسه وجود هذه المثل ، وإن كانت خيالا وأمنيات في نفسه ، لكنه لم يفقد الأمل في بعثها وترغيب النفوس فيها من خلال مدائحه وتعظيمه لكل من حمل فضيلة أو ساعد علىٰ نشرها .

ممدوح المتنبي من العزة بحيث لايتمنىٰ شيئا لأن كل أمنياته طوع يديه كما أن خلقه الإسلامي لايرضى بالغيبة في مجلسه أو كما يقول عنه المتنبي[٢]:

تُمْسِي الأَمَانِيُّ صَرْعَى دُونَ مَبْلَغِهِ فَمَا يَقُولُ لِشَيْءٍ لَيتَ ذَلِكَ لِي
وَمَاسَمِعتُ ، ولاَغَيْرِى بِمُقتَدِرٍ أَذَبَّ مِنْكَ لِزُورِ القَوْلِ عَنْ رَجُلِ
لِأَنَّ حِلمَكَ حِلمٌ لاَ تَكَلُّفُهُ لَيسَ التَّكَحُّلُ فِي العَينَينِ كَالكَحَلِ
وَمَاثَنَاكَ كلاَمُ النَّاسِ عَنْ كَرَمٍ وَمَنْ يَسُدُّ طَرِيقَ العَارِضِ الهَطِلِ
أَنْتَ الجَوَادُ بِلاَ مَنٍّ وَلاَ كَدَرٍ وَلاَمِطَالٍ وَلاَوَعْدٍ وَلاَمَذَلِ[٣]
أَنتَ الشجَاعُ إِذَا مَالَم يَطَأ فَرَسٌ غَيْرَ السَّنَوَّرِ وَالأَشْلاَءِ وَالقُلَلِ[٤]

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص١٣٨ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص٢٠٦-٢١١ .
(٣) المذل : الضجر والقلق .
(٤) السنور : لباس من جلد كالدرع ، سميت به دروع الحديد ، القلة : أعلى الرأس.

يشير المتنبي في مديحه إلىٰ سوء حال العصر الذي يعيش فيه . فقد رأىٰ قوالب الخير في النفوس وقد استبدلت برذائل الشر ، ورأىٰ الأحوال وقد تبدلت وسرت الغيبة والبهتان ، وفشت النميمة والآثام ، وانتشر الفجور وغدا الشح فضيلة والكرم مغرما ورذيلة ، كل هذا أوحىٰ لشاعرنا أن يعيد للإنسان العربي قيمه وعاداته الحميدة من خلال بعثها بمديحه لبعض من حافظ عليها . وقد تبين لشاعرنا مدىٰ أهمية تلك القيم وتأصيلها في النفوس فأخذ يمدح بها . وفي هذه الصورة مدح بفضائل عدة منها الحلم ، وعدم الغيبة ، والكرم والجود الذي لايتبعه منة ولايكدره مماطلة ، والشجاعة التي لاتقاس.

يقول الأستاذ زهدى الخواجا[١]: "العظمة والقوة تخلقان السبيل ، وتمهدان الوعر وكأن المتنبي غمس هذا القول بقرارة نفسه ، فعلقت بأهدابه مايعتلج في دخيلته من إيمانه بالقوة سبيلا لتحقيق الأمور الخطيرة" . فهذا الممدوح قد استطاع بقوته أن يترفع عن كلام الناس وعذلهم لكرمه ، فلاشيء يعترضه ، فهو كالسيل العرم يطغىٰ علىٰ كل مايصادفه ، ولن يقف أمامه شيء .

وقريب من المعنىٰ السابق في الجود والكرم دون مِنّة قوله في موضع آخر[٢]:

يُعْطِي فَلاَمَطْلَةٌ يُكَدِّرُهَا ... بِهَا وَلاَمِنَّةٌ يُنَكِّدُهَا

فكأن المتنبي يشير إلىٰ ملمح مهم في عصره وهو قلة العطاء ، والمن به أو المماطلة والتسويف في الكرم والبذل . فامتدح بعكس هذه الملامح التي رآها في عصره آخذا بالآية الكريمة[٣]: {**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَايُتْبِعُونَ مَآأَنفَقُوا مَنًّا وَلَآأَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ**} .

---

(١) موازنة بين الحكمة فى شعر أبى الطيب والحكمة فى شعر أبى العلاء ص١٦٣ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٢٩ .
(٣) سورة البقرة : آية ٢٦٢

المسلم يدرك أنه مسؤول عن البشرية ، لأنه فهم من معنىٰ الخلافة والعبادة والأمانة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهم من كل هذا مسؤوليته العامة ووجد مصداق فهمه في قوله تعالى : {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}(١).

ويجتمع لدىٰ المتنبي إيمان عميق بدوره هذا وإيجابيته ، فيستشعر قيمة الإيمان بالمثل العليا لأنها جزء من تحقيق ذاتية الإنسان(٢)فيمتدح بهذه المثل في قوله(٣):

الأَدِيبُ المُهَذَّبُ الأَصْيَدُ الضَّرْبُ ... الذَّكِيُّ الجَعدُ السَّرِيُّ الهُمَامُ
والَّذِي رَيْبُ دَهرِهِ مِنْ أُسَارَاهُ ... وَمِنْ حَاسِدِي يدَيْهِ الغَمَامُ
يَتَدَاوَىٰ مِنْ كَثرَةِ المَالِ بالإقْلاَلِ ... جُودًا كَأَنَّ مَالاً سَقَامُ
حَسَنٌ فِي عيُونِ أعْدَائِهِ ... أَقبَحُ مِنْ ضَيْفِهِ رَأتْهُ السَّوَامُ

هذا الممدوح ملك عظيم ، ماض في الأمور ، كريم شريف ، لايحدث الدهر شيئا إلا بإذنه ، جعل لهذا الملك أسرىٰ ومنهم صروف الدهر ونوائبه وقد أطلق هذا الممدوح يديه بالبذل والكرم حتىٰ صار السحاب ، حاسدا ليديه لقصوره عنهما في البذل والسخاء ، كأن المال الكثير سقام ، وبذله والإقلال منه دواء ، فهذا الممدوح يبذل المال ليقل وهذه صورة من صور المتنبي الفريدة .

هذا الممدوح حسن كل صفاته حسنة ، ولكنه في نظر أعدائه لعظم صفاته وحميد فعاله أقبح من ضيف هذا الممدوح في عيون ماله الراعي ، لأنه ينحر إبله للضيوف "بدأ فجعله حسنا علىٰ الإطلاق ، ثم أراد أن يجعله قبيحا في عيون أعدائه علىٰ العادة فى مدح الرجل بأن عدوه يكرهه ، فلم يقنعه ماسبق من تمهيده وتقدم من احترازه في تلافى مايجنيه إطلاق صفة

---

(١) سورة البقرة : آية ١٤٣

(٢) د. أبو اليزيد العجمى ، حقيقةالإنسان بين القرآن وتصور العلوم ، ت،ط/بدون ، ص١٥٧ بتصرف .

(٣) الديوان ، ج٤ ، ص٢١٨-٢١٩ .

القبح ، حتى وصل به هذه الزيادة من المدح ، وهي كراهة سوامه لرؤية أضيافه ، وحتىٰ حصل ذكر القبح مغموراً بين حسنين ، فصار كما يقول المنجمون : "يقع النحس مضغوطا بين سعدين ، فيبطل فعله وينمحق أثره"(١).

هذا إنسان المتنبي وهذه حال المتنبي في المدح يطري صاحبه حتىٰ تعد أيام هذا الممدوح كلها خير وسعادة ويثني علىٰ ممدوحه بما يراه حسن من الأفعال والخصال الحميدة ، حتىٰ لكأنه منزه عن الخطأ والعيوب . فهل كان هذا انعكاساً لنفسيته هو؟ أو عرضاً لمبادئه وقيمه التي آمن بها وترسّخت في نفسه؟ أم هذه الصورة التي تمنىٰ لإنسان عصره أن يكون عليها؟؟

أداء الحق ، ونصرة المظلوم ، وحماية الجوار ، وعزة الإنسان ، إضافة لكرامة الفرد ، وجمال الإحسان في كل شيء ، تلك هي الأخلاق الإسلامية بل هي أسمىٰ ماتتطلع إليه البشرية في عصر المتنبي وفي كل العصور ، افتقد المتنبي هذه الأخلاق في معاصريه فأثنىٰ بشيء منها علىٰ ممدوحيه يقول(٢):

أَرىٰ كُلّ ذي مُلْكٍ إِلَيْكَ مَصِيرُه ... كَأَنّك بَحْرٌ والمُلُوكُ جَدَاوِلُ
إِذَا مَطَرَتْ مِنهُم ومِنْك سَحَائِبٌ ... فَوَابِلُهُم طَلٌّ وَطَلُّك وَابِلُ
كَرِيمٌ مَتَىٰ اسْتَوهِبْتَ ماأَنْتَ رَاكِبٌ ... وقَدْ لَقِحَتْ حَرْبٌ فَإِنّك بَاذِلُ
تُدَبِّرُ شَرْقَ الأَرْضِ والغَرْب كفّه ... وَلَيْسَ لَهَا وَقْتاً عَن الجُودِ شَاغِلُ

الخير العميم الذي يتمثل في الجود والعطاء ، إضافة للشجاعة والإقدام وكل خلق كريم ، لايميل مع الهوىٰ ولاينحرف مع الأغراض ، قوة في نظر شاعرنا ، وقد طرق هذا المعنىٰ ابن الرومي(٣)وإن اختلف الأداء ، إلا أن هذا يشعرنا أن المثل الأعلىٰ للإنسان كما كان مستقرا في وجدان ابن الرومي

---

(١) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ص٢٥٣ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص٢٣٦-٢٣٩ .
(٣) انظر ديوانه ، ج٢ ، ص٢٨٠ .

فكذلك عند المتنبي يعبر عنه في المواقف المختلفة بمعان تتشابه وتتقارب عندهما ، فالتصوير هنا وهناك بارع قوي . وهذه المعاني قد صورها لنا المتنبي في لوحة فنية رائعة حين قال(١):

إنكَ مِنْ مَعشَرٍ إذاَ وَهَبُوا ... مَادُونَ أعمَارِهِمْ فَقَد بَخِلُوا
قُلُوبُهُم فِي مَضَاءٍ مَاامتَشَقُوا ... قَامَاتُهُم فِي تَمَامِ مَااعْتَقَلُوا
أَنتَ لعَمْرِي البَدرُ المنِيرُ ... ولكِنَّكَ فِي حومَةِ الوَغَى زُحَلُ

يعطي شاعرنا كل مظهر من مظاهر الحياة موسيقاه الخاصة ، وألفاظه الخاصة ، والتناسب دائم رائع بين ألفاظه ومعانيه ، وهو وإن لم يأت في الصورة السابقة بجديد في المعاني إلا أنه استطاع أداء تلك المعاني بطريقة مميزة ، فقد امتدح أسلاف ممدوحه وعدهم قمة في الكرم ، لايرضون بأقل من أعمارهم عطاء إذا سئلوا ، شجعان إذا لقوا ، جمع لممدوحه صفتين متقابلتين في تشبيهين رائعين ، فهو في الحسن والشهرة بدر يتفاءل به أولياؤه ولكنه في الحرب - زحل - نحس يهلكهم دون رحمة . وقد عرض ذلك المتنبي في جزالة تلائم مافى هذا العرض من سهولة ويسر .

كل مجتمع ، وكل عصر له خبراته وله عاداته وتقاليده الإيجابية والسلبية والتعامل معها ينبني على أساس من ذاتيات الأفراد أو الفئات ، والعصر العباسي شاع فيه الترف والبذخ ، وبالتالى انتشرت وسائل اللهو والمجون ، ومن تلك الوسائل الغناء والشرب . سخر المتنبي كل هذا لمديحه ولم يغفله ، يقول(٢):

فَأَصبَحَ بالعَوَاصِمِ مُستَقِرًّا ... ولَيسَ لِبَحرِ نَائِلِهِ قَرَارُ
وَأَضْحَى ذِكْرُهُ فِي كلِّ أَرْضٍ ... تُدَارُ على الغِناءِ بِهِ العُقَارُ
تَخِرُّ لهُ القَبَائِلُ سَاجِدَاتٍ ... وَتَحْمَدُهُ الأَسِنَّةُ وَالشِّفَارُ

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٣٣٣ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٢١٣ .

فهـذا الممـدوح جواد سخي ، جوده كـالبحر لاقـرار لـه ، اشتهـر بين الناس بالكرم والجود ، فذكره وشهرته قد ملآ الآفاق ، حتىٰ أصبـح الجواري يتغنين بذكـره في مجامـع الغنـاء ودور الشـرب ، لمنعـة هـذا الممدوح وشدته تخضع له القبائل وتثني عليه الرماح والسيوف لشجاعته وبسالته إضافة لجوده وكرمه .

ثم يمزج شاعرنا تلك الفضائل الخِلْقية بفضائل خُلُقية فيقول(١):

كَأَنَّ شُعَاعَ عَيْنِ الشَّمْسِ فِيهِ ... فَفِي أَبْصارِنَا مِنْهُ انْكِسَارُ

لجلالـة هـذا الممدوح وعظـم خَلْقـه ، لاتملأ الأبصـار منـه ، إجلالا له لايستطيـع النـاظر إليه أن يرفـع بصـره فيه هيبة له ، فكـأنه بذلـك الشمـس لاتستطيـع العين النظـر فيهـا لقـوة شعـاعها . ثم يتـابع سـرد بقيـة الفضـائل فيقول(٢):

وَأَنْتَ أَبَرُّ مَنْ لَوْ عُقَّ أَفْنَىٰ ... وَأَعفَـىٰ مَـنْ عُقُـوبَتُهُ البَـوَارُ

وَأَقْدَرُ مَـنْ يُهَيِّجُـهُ انتِصَـارُ ... وَأحلَـمُ مَـنْ يُحَلِّمُـهُ اقتِـدَارُ

وَمَافِي سَطوَةِ الأربَابِ عَيبٌ ... وَلَافـي ذِلَّـةِ العُبْـدَانِ عـارُ

العفـو أو الصفح عند القدرة من شيم الكرام ، والمتنبي يريد القـول : أن ممـدوحه مـن الكرام ، فـأتىٰ بصفات تدل علىٰ ذلك وامتـدح بهـا ، منها العفـو مع القدرة ، إذ ليس مـن عادة الكرام سرعة الانتقـام ، فهذا الممدوح من أبر الملوك القادرين علىٰ البطـش ولكنه أعفاهم ، وهـو كـذلك أقدر من يبتهج وينتشي بالنصر ولكنه أحلم الجميع لقدرته علىٰ كـل هذه الفعال .. ثم يختم كـل هـذا بأن جعل ممـدوحه رب وسطوته لاعيب فيهـا ، وجعـل قومه عبيـد وذلتهم له لاعار فيها .. وهـذه عادة المتنبي حين يبـالغ في المدائح يقدم الأسباب والعلل حتىٰ لايكون في كل هذا حجة عليه .

---

(١)،(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٢١٣ ، ٢١٦

ولعلنا بدأنا نلاحظ التشابه الوارد في مدائح المتنبي فمعانيه تقريبا واحدة تدور حول الشجاعة والكرم ، والحلم والذكر الحسن ، يدل على ذلك تقارب الكثير من المدائح وإليك بعض الصور التي تشكل مع هذه الصور تقاربا واضحا .

من الصور المتشابهة في مدائح المتنبي والتي تحمل معان واحدة تقريبا قوله(١):

أَنتَ الذِّي بَجِحَ الزَّمَانُ بِذِكرِهِ ... وَتَزَيَّنَتْ بِحَدِيثِهِ الأَسْمَارُ
وَإِذَا تَنَكَّرَ فَالفَنَاءُ عِقَابُهُ ... وَإِذَا عَفَا فَعَطَاؤُهُ الأَعمَارُ
وَلَهُ وَإِنْ وَهَبَ المُلُوكُ مَوَاهِبٌ ... دَرُّ المُلُوكِ لِدَرِّهَا أَغبَارُ

فهذه معان طرقها المتنبي من قبل وأكثر المديح بها ولكنه في كل مرة يأتي بها في صور مغايرة وكأنها تسمع لأول مرة ، فالذكر الحسن لهذا الممدوح والعفو والمكارم كلها معان دارت عليها مدائحه ، فالزمان يبتهج مفتخرا إذا ماذكر هذا الممدوح في جملة أهله ، وتحسن الأسمار بالحديث عنه ، وعقابه هلاك ، وعفوه بترك القتل فكأن الأعمار من عطاياه ، عطايا الملوك بالقياس إلى عطايا هذا الممدوح ، كاللبن القليل إلى اللبن الكثير ، ولكن الجديد الذي يطرقه المتنبي بعد هذه الفضائل ترفع ممدوحه عن العار والصغائر حين يقول(٢):

لِلّهِ قَلبُكَ مَايَخَافُ مِنَ الرَّدَى ... وَيَخَافُ أَنْ يَدْنُو إِلَيكَ العَارُ
وَتَحِيدُ عَنْ طَبَعِ الخَلَائِقِ كُلِّهِ ... وَيَحِيدُ عَنكَ الجَحفَلُ الجَرَّارُ
يَامَنْ يَعِزُّ عَلَى الأَعِزَّةِ جَارُهُ ... وَيَذِلُّ مِنْ سَطَوَاتِهِ الجَبَّارُ

يتعجب شاعرنا من قوة ممدوحه وشجاعته فلايخاف الموت بل يقدم عليه ، ولكنه يخاف العار ، ولعل من العار الجبن والفرار من الحرب ، وقد أراد شاعرنا أن يؤكد شجاعة هذا الممدوح فاختار هذا الأسلوب ليدل به

---

(١)،(٢) الديوان ، ج٢ ، ص١٩١-١٩٢ .

علىٰ مزايا ممدوحه وبسالته في مواقف البطولة ، ثم يرىٰ من ممدوحه خلقا رفيعا يختلف فيه عن معاصريه ، فالطبع السائد في مجتمعه كله طبائع لايقرها المتنبي وبالتالي ممدوحه معرض عنها ، يهرب من اللؤم ودنس الأخلاق ، كما يهرب منه الجيش العظيم لشجاعته وقوة عزيمته .

هذا الممدوح يعز في جواره الذليل لأنه كريم لايغتصب لديه حق ولايعتدىٰ علىٰ من في جواره ، بينما يذل المعتدي وإن كان جبارا ، لأنه عادل لايجرؤ أحد علىٰ الاعتداء علىٰ جاره ومن في عهدته ، يؤكد هذا المعنىٰ النص التالى[١]:

أَبلَجَ لَوْ عَاذَتِ الحمَامُ بِهِ ... ماخَشِيَت رَامِيًا ولاَصَائِدْ
أَوْرَعَتِ الوَحشُ وَهْيَ تَذكُرُهُ ... مَارَاعَها حَابِلٌ وَلاَطَارِدْ
وَمُمْطِرَ الموْتِ والحيَاةِ مَعاً ... وأَنتَ لاَبَارِقٌ وَلاَرَاعِدْ

فهذا الممدوح عزيز الجانب ، مهيب ، من لجأ إليه أو استأمن بذكره أمن ، حتىٰ الطير والوحش ، إذا كانت في حماه أمنت من الخطر الخارجي ، وهذا الممدوح يمطر علىٰ أعدائه الموت بالقتل ويحيي أوليائه بالبذل والعطاء ، فهو بذلك مثل السحاب فيه الخير والشر ، ولكنه يختلف عنها بأنه لابارق ولاراعد .

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص١٧٦ .

"المسلم يدرك أن عبوديته لله شرف وكرامة ، كما يدرك أن معنىٰ العبادة الواسع يقتضيه أن ينظر إلى الناس بعين العطف ، وتحمل المسؤولية عنهم ، وهو بذلك يحقق انسانيته"(١). وانطلاقا من هذا المبدأ امتدح المتنبي من يجود بماله في سبيل الله ، ومن يقدم في الحرب دون جبن كل ذلك حين قال(٢):

أَمِيرٌ أَمِيرُ عَلَيهِ النَّدَىٰ ... جَوَادٌ بَخِيلٌ بِأَنْ لَايَجُودَا
يُحَدِّثُ عَنْ فَضلِهِ مُكرَهًا ... كأَنَّ لَهُ مِنْهُ قَلباً حَسُودَا
وَيُقدِمُ إلاَّ عَلىٰ أنْ يَفِرَّ ... وَيَقدِرُ إلاَّ عَلَى أَنْ يَزِيدَا

نفس معنىٰ البيت الأول ورد عند أبي تمام من قبل(٣)وإن اختلفت الصياغة ، فالمتنبي يريد أن يبهر ممدوحه من جهة كما يقول الدكتور طه حسين(٤): وكان صادقا في تصويره ، فهو يصطنع المبالغة ، لكنه لايتكلفها ليخدع بها ممدوحه عن نفسه وماله ، المتنبي يرىٰ هذا الممدوح هو الأمير ، ولايؤمر عليه سوىٰ الجود والكرم ، كما أنه الجواد كل الجواد فلايبخل علىٰ الناس إلا بالبخل ، وإذا مدح كره المدح وضاق به ، فكأنه يحسد نفسه ، ويقدم علىٰ كل شيء إلا علىٰ الفرار من الحرب ، حتىٰ لايرمىٰ بالجبن والهزيمة كما أنه يقدر علىٰ كل شيء إلا علىٰ أن يزيد حظه من الفضيلة لبلوغه أقصاها .

ثم يتابع المتنبي بعقله الكبير ، وقلبه الثائر صفات ممدوحه ويثني عليه فيقول(٥):

قَتَلتَ نفُوسَ العِدا بالحدِيدِ ... حَتَّىٰ قَتَلتَ بِهِنَّ الحَدِيدَا
فَأَنفَدتْ مِنْ عيشِهِنَّ البَقَاءَ ... وأَبقَيْتَ مِمَّا مَلكتَ النُّفُودَا
كَأَنَّكَ بِالفَقر تَبغِي الغِنَىٰ ... وَبالمَوتِ في الحَربِ تَبغِي الخُلُودَا

---

(١) د. أبو اليزيد العجمي ، حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم ، ص١٦٠ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٨٧ .
(٣) ألا إن الندى أضحى أميرا ... على مال الأمير أبي الحسين
(٤) مع المتنبي ص٢٢٧ بتصرف .
(٥) الديوان ، ج٢ ، ص٨٩ .

من كثرة فتك هذا الممدوح بعدوه استخدم الحديد - السيوف - حتىٰ بلي وصار هشا من الاستخدام فأهلك أعداءه وفرق ماله كأن الفقر عنده لفرط جوده هو الغنىٰ . فهو غني بالله تعالىٰ حيث أن المال مال الله ينفقه علىٰ الفقراء وذوي الحاجة ، فوصل بذلك الغاية في إدراكه قيمة المال حين ينفق يعلم أن إنفاقه في وجوه الخير يدخر له في ميزان حسناته .

كما أدرك أن الموت في سبيل الله هو سر خلود المؤمنين في الجنة لأنه يعلم أن المقاتلين في سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون ، فطلب الموت وأقدم عليه دون خوف . هذه حقيقة الإنسان المسلم في نظر المتنبي يجمع صفات الخير ويجعل من أعمال الحياة الدنيا امتدادا للآخرة ، وبالتالي يكسب المعالي في الدنيا . ويفوز بالرضوان في الآخرة .

بعد هذه الوقفات مع ممدوح شاعرنا نعود لنرى انطباع شاعرنا عن هذه الأخلاق ، فبعد أن عدد فضائل ممدوحه كان لابد له أن يختم صورته تلك بأبيات تمجد هذه الخلائق في معان قوية تستمد قوتها من مبالغات شاعرنا وطباقه، حين يؤكد لنا أن القيم هي كل شيء للإنسان ، وبدونها لامعنىٰ لانسانيته ، يقول[1]:

خَلاَئِقُ تَهدِي إلَى رَبِّهَا ... وآيَةُ مَجدٍ أَرَاهَا العَبِيدَا
مُهَذَّبَةٌ ، حُلوَةٌ ، مُرَّةٌ ... حَقَرْنَا البِحَارَ بِهَا والأُسُودَا
بَعِيدٌ عَلَى قُرْبِهَا وَصْفُها ... تَغولُ الظُّنُونَ وَتُنْضِي القَصِيدَا
فَأَنْتَ وَحِيدُ بَنِي آدَمٍ ... ولَسْتَ لِفَقْدِ نَظِيرٍ وَحِيدَا

هذه القيم وهذه الأخلاق تعمل علىٰ تأكيد انسانية المرء ، ومن ثم السمو بها من درجة إلىٰ أخرىٰ أعلىٰ منها . وهذا الممدوح أثبت وجوده لتحليه وتَخَلُّقه بهذه الفضائل . فأَخْلاَقِه من كرم وفضل وإقدام ، ومحامد شيمه دلت عليه ، فكانت آية مجده علىٰ غيره ، حلوة مع الأولياء ، مرة علىٰ

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٩٠ .

الأعداء ، قد حقر الناس البحار والأسود قياسا به ، لأنه يربو عليها في الجود والشجاعة ، هذه الخلائق التي للممدوح يصعب وصفها ، لأنها تفوق الظن وترهق القصيد ، حتىٰ عد هذا الممدوح وحيدا لانظير له في هذه الخصال وهذه الأخلاق ، وقد أجاد المتنبي في هذه الصورة كغيرها فمعانيه واضحة مستوفاة ، يدركها الذوق ، وافية شاملة ، لاتبرح الأذهان ولاتفارق الخيال . انظر إليه يقول(١):

تَمضِي المَوَاكِبُ والأبصَارُ شَاخِصَةٌ ... مِنْهَا إِلَىٰ المَلِكِ المَيْمُونِ طَائِرُهُ
قَدْ حِرْنَ فِي بَشَرٍ فِي تَاجِهِ قَمَرٌ ... فِي دِرْعِهِ أَسَدٌ تَدْمَىٰ أَظَافِرُهُ
حُلْوٌ خَلاَئِقُهُ شُوسٍ حَقَائِقُهُ ... تُحْصَىٰ الحَصَىٰ قَبْلَ أَنْ تُحْصَىٰ مَآثِرُهُ
تَضِيقُ عَنْ جَيْشِهِ الدُّنْيَاوَلَو رَحُبَتْ ... كَصَدْرِهِ لَمْ تَبِنْ فِيهَا عَسَاكِرُهُ
إِذَا تَغَلْغَلَ فِكْرُ المَرءِ فِي طَرَفٍ ... مِنْ مَجْدِهِ غَرِقَتْ فِيهِ خَوَاطِرُهُ

لاتنظر العيون لغير هذا الممدوح فقد بهر الجميع بنور وجهه المشرق ، وقد تعجب الجميع واحتاروا في هذا البشر الذي في لبسه للتاج قمر ، وفي درعه ساعة الحرب ليث أظافره تقطر دما لكثرة قتلاه ، أخلاقه حلوة معسولة وحقائقه محمية ممنوعة لايقدر أن ينال منها أحد ، فهي ممتنعة امتناع المتكبر ، كما أن مآثره عديدة لاتحصىٰ فقد فاقت الحصىٰ عددا ، كما أنه عظيم الحلم واسع الصدر ، بل هو أوسع حلما من الأرض ، قوته عظيمة وجيشه كبير ، حتىٰ أن الأرض تضيق عنه ، أدنىٰ مجد هذا الممدوح يستغرق الفكر والخواطر لمن أراد أن يصفه ، لأن فضائله وصفاته بلغته مجدا لايطول سواه .. ولايخفىٰ مافي هذه الصورة من بناء فني أدىٰ لكمال الصورة واكتمال المعاني بطريقة تمتع الأذواق وترضي العقول .

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٩٠،٢٢٣ .

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، وصوره على أكمل صورة ، وزينه بالعقل والتدبير ، وكما أراد له هذا الخَلْق السوي ، لم يرض له ولم يقبل منه إلا الخُلُق الرضى ، فأصبح ضروريا تزكية النفس بمحامد الأخلاق . يقول المتنبي (١):

صَلاَةُ اللَّهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ ... عَلَى الوَجْهِ المُكَفَّنِ بِالجَمَالِ
عَلَى المَدْفُونِ قَبلَ التُّربِ صَونَاً ... وقَبْلَ اللَّحْدِ فِي كَرَمِ الخِلاَلِ
حَصَانٌ مِثلُ مَاءِ المُزْنِ فِيهِ ... كَتُومُ السِّرِّ صَادِقَةُ المَقَالِ
وَلَيْسَتْ كَالإِنَاثِ ولاَاللَّوَاتِي ... تُعَدُّ لَهَا القُبُورُ مِنَ الحِجَالِ
وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا ... لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
وأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنَا مَنْ وَجَدْنَا ... قُبَيْلَ الفَقْدِ مَفْقُودَ المِثَالِ

المقام هنا ـ رثاء ـ ولكن شاعرنا حوّله للمديح بالصفات والمحامد الخِلْقية التي امتدحها ، فقد امتدح الجانب الخِلْقي ـ جمال الوجه ـ والجانب الخُلُقي . فهذه المرأة لم يغير الموت جمال وجهها ، وقد كانت قبل موتها مصونة ، وكان كرم الخلال يمنعها ويعفها عن كل مالايليق . وبعد أن وصفها بالحصانة والعفة وشبهها بماء المزن فى الطهارة والنقاء ، جعلها كاتمة للسر ، وكتمان السر من أفضل الأخلاق وأكبر الفضائل ، به تصان الأعراض وتحفظ الأرواح ، ثم وصفها بصدق المقال مطلقا ـ وهذا أجل مايمدح به المرء ـ بعد ذلك حلق شاعرنا إلى القمة فى تفخيم مقامها حين جعلها تفوق غيرها من النساء . بل وفضلها على كثير من الرجال ، ولايكتفي بذلك بل يحسن تعليله بمثال من طبيعة الحياة ، فيضرب لها مثلا بالشمس ويضرب للرجال مثلا بالهلال ، ويخرج من ذلك بأن الشمس وإن كانت مؤنثة خير من الهلال وإن كان مذكرا حين يقول :

وَمَاالتَّأنِيثُ لاسِمِ الشَّمْسِ عَيبٌ ... وَلاَالتَّذكِيرُ فَخرٌ لِلهِلاَلِ

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص١٤٤-١٥٠ .

فالشرف عند المتنبي يثبت للمسميات من حيث أنفسها ، وأوصافها لامن حيث أسمائها .. يختم هذه الصورة بأن جعل من هذه المرأة لعظم قدرها وكريم خلالها وحيدة لانظير لها . لذلك عد فقدها من أعظم الأمور .

لقد أحب المتنبي الجمال المطلق في كل شيء وتمنى أن يراه في ممدوحيه فمدح بما تمنى أن يراه فصاغ مديحه في نعوت قادت إليها موهبته الفنية . من تلك النعوت والأوصاف قوله[١]:

قَوَاصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكَ غَيْرِهِ ... وَمَنْ قَصَدَ البَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاقِيَا
فَجَاءَتْ بِنَا إِنسَانَ عَينِ زَمَانِهِ ... وَخَلَّتْ بَيَاضًا خَلْفَهَا وَمَآقِيَا

مال المتنبي في بعض مدائحه إلى المبالغات المبطنة والألفاظ التي تحمل عدة معاني ، وقد جعل ممدوحه فى هذه الصورة بحرا ، ومن عداه ضحضاحا ووشلا ، وإنسان عين الزمان ، والناس كلهم مآق وحماليق . يقول الأستاذ الشكعة[٢]: "الإنسان لايمدح إلا بمحاسنه ، والسواد لم يكن مزية أبدا عند أسود حتى يمدح به ، كما أن العمى ليس محمدة عند الضرير حتى يثنى به عليه ، فإنه من أقسى الأشياء على المرء أن يذكر بعيب فيه ، حتى ولو كان القائل من الحصافة واللباقة بحيث يقلب العيب مزية ، والقبح إلى حسن ، والبشاعة إلى وسامة" .

ولكن المتنبي حين مدح بالسواد أتى بصورة شريفة تناسب مقام المديح فأشرف مافي العين إنسانها ـ سوادها ـ لأن حسن النظر إنما هو به ، وكذلك ممدوحه لزمانه كإنسان العين ، أي أنه أشرف بني دهره ، وأعلى عامر عصره ، وإنما الملوك غيره لعين دهرهم كالبياض والمآقي . وحسن ذلك أن ممدوحه أسود .

ثم والى سرد بقية فضائل هذا الممدوح في نسق واقتدار فقال[٣]:

تَرَفَّعَ عَنْ عُونِ المَكَارِمِ قَدرُهُ ... فَمَا يَفعَلُ الفَعلاَتِ إِلاَّ عَذَارِيَا
يُبِيدُ عَدَاوَاتِ البُغَاةِ بِلُطْفِهِ ... فَإِنْ لَمْ تَبِدْ مِنْهُمْ أَبَادَ الأَعَادِيَا
يَدِلُّ بِمَعنَىً وَاحِدٍ كُلَّ فَاخِرٍ ... وَقَدْ جَمَعَ الرَّحمَنُ فِيكَ المَعَانِيَا

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٤٢٣-٤٢٤ .
(٢) أبو الطيب المتنبى فى مصر والعراقين ، ص٢٥٧ .
(٣) الديوان ، ج٤ ، ص٤٢٥-٤٢٦ .

هـذا الممدوح أتىٰ بالمكارم ابتـداعا ، لم يسبقه غيره إليهـا وأشار بقوله عذاريا ـ إلىٰ ذلك . فقد شبـه المكارم بالفتيات العـذارىٰ وجعل الممدوح هو الـوحيد الذي يقدم عليهن ، كمـا أنه يسل سخائم الأعـداء بلطفـه وبرفقه ، وحسـن معاملته فإن لم تذهب أحقادهم أبادهم دون رأفـة ولارحمة . يقول : إن النـاس يفخـرون بالمنقبة الـواحدة ، من الكرم أو الشعـر أو الشجـاعة ، وهـذا الممـدوح جمع الله لـه جميع المناقب وخصه بما تفـرق في النـاس من المزايا والمحامد .

ولكـن مـع جدةصور المتنبي في هـذه الأبيات إلا أن أثرهـا في النفـس لايقـاس بأثر بقية مدائحه ربما لأنه يوجه مديحه لغير عـربي وقد عهد عنه حبه للعرب وتعصبه لهم واعتداده بالذات العربية .

في النصوص السابقة صور كثيرة مدح فيها شاعرنا بالصفات الخُلُقية والخِلْقية في آن معا ، وإن وردت تحت مبحث المديح بالصفات الخُلُقية فما ذاك إلا لأن الغالب فيها الناحية الخُلُقية ، أو الفضائل المعنوية ، ولكن في نصوص أخرى نجد المديح بالصفتين متساو بحيث لانستطيع إيرادها تحت مبحث من هذين المبحثين*، لذا فضلنا إفرادها بمبحث خاص هو المديح بالصفات الخِلْقية والخُلُقية . من تلك النصوص التي زاوج فيها المتنبي بين الجانب الأخلاقي والجانب الخِلْقي قوله(١):

وَلَو تَنْزِلُ الدُّنيَا عَلَى حُكْمِ كَفِّهِ ... لَأَصْبَحَتِ الدُّنْيَا وَأَكثَرُهَا نَزْرُ
أَرَاهُ صَغِيرًا قَدْرَهَا عُظْمُ قَدْرِهِ ... فَمَا لِعَظِيمٍ قَدْرُهُ عِنْدَهُ قَدْرُ
مَتَى مَايُشِرْ نَحْوَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهِ ... تَخِرَّ لهُ الشِّعْرَىٰ وَيَنخَسِفِ البَدْرُ
تَرَ القَمَرَ الأَرْضِيَّ والمَلِكَ الَّذِي ... لَهُ المُلْكُ بَعْدَ اللَّهِ وَالمَجدُ والذِّكْرُ
كَثِيرُ سُهَادِ العَينِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ ... يُؤَرِّقُهُ فِيمَا يُشَرِّفُهُ الفِكْرُ
لَهُ مِنَنٌ تُفْنِي الثَّنَاءَ كَأَنَّمَا ... بِهِ أَقْسَمَتْ أَنْ لَايُؤَدَّىٰ لَهَا شُكْرُ

صفات هذا الممدوح الخِلْقية والأخلاقية ، صفات فريدة عجيبة في عصر كعصر المتنبي ، فهو جواد لو كانت الدنيا في كفه لفرقها علىٰ الناس ، لأنه عظيم يرىٰ قدر الدنيا حقيرة ولايحفل بها . في وجهه نور يضاهي نور القمر والشعرىٰ فهو بذلك قمر أرضي . فالمقابلة والمجانسة التي بين الألفاظ في هذه الصورة ، وإ كانت واضحة مثل (عظيم ، صغير ، قدرها ، قدره) إلا أنها قد صيغت ببراعة وحملت معنىٰ انسانيا ، استطاع شاعرنا في هذه الصورة كما في غيرها "أن يوظف اللغة توظيفا فنيا ، تمكن من خلاله أن يحقق القيمة الجمالية المتفاعلة مع رؤيته ، والتي كان لمعمارها شأن خاص عند المتنبي ، اختلف فيه تماما عن غيره ، حتىٰ صار عالمه اللغوي الخاص به"(٢).

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٢٢٨،٢٢٩ .

(٢) انظر أيمن العشماوى ، قصيدة المديح عند المتنبي ، ص٢٣٧ .

* ولكن لقلة الصور والنصوص فضلنا إدراجها ضمن مبحث الصفات الخُلُقية .

لقد كانت مدائح المتنبي تسبغ على الممدوح ثوبا رائعا من البطولة ، والخلق الكريم ، وقد ارتفع شاعرنا بممدوحه إلىٰ مستوىٰ المثل والقدوة بضخامة شعره ، وجزالة معانيه ، ولعلنا في هذه العجالة غير قادرين علىٰ الإلمام بكل مامدح به شاعرنا جامعا فيه الجانب الخِلْقي والأخلاقي ، ومع ذلك لابد من المحاولة .

كثيرا مايلجأ المتنبي في شعره إلى الإفراط ، شأنه في ذلك شأن كثير من الشعراء ، بل إن عصره كان عصر إفراط في كل شيء من ذلك قوله[١]:

إِنْ كَانَ قَدْ مَلَكَ القُلُوبَ فَإِنَّهُ ... مَلَكَ الزَّمَانَ بأَرْضِهِ وَسَمائِهِ
والشَّمسُ مِنْ حُسَّادِهِ والنَّصْرُ مِنْ ... قُرَنَائِهِ والسَّيْفُ مِنْ أَسْمائِهِ
أَيْنَ الثَّلاثَةُ مِنْ ثَلاثِ خِلاَلِهِ ... مِنْ حُسنِهِ ، وَإِبائِهِ ، وَمَضَائِهِ
مَضَتْ الدُّهُورُ وَماأَتَينَ بِمِثْلِهِ ... وَلَقَدْ أَتَىٰ فَعَجَزْنَ عَنْ نُظَرَائِهِ

استطاع المتنبي إضافة لتغنيه بالأهداف النبيلة والقيم الأخلاقية والإنسانية ، أن يجعل مدائحه حديث نفس ، وحديث جماعة تنقل مشاعر النفس ، وتعالج قضايا المجتمع والناس ، لذلك غالبا مانحس في مدائحه أننا حيال شخصية متشابهة كثيرا في الفروسية والكرم والأصل ، والقوة ، وإنما تتباين هذه الشخصيات عند شاعرنا في رجاحة العقل ، أو البطولة الفائقة ، وذلك في مجالات معينة[٢].

وفي هذا النص قد جمع المتنبي لممدوحه الفضائل الخِلْقية والخُلُقية ، فرأى أن لاأحد يشبهه ، فقد فاق الشمس حسنا وشهرة ، وقد اقترن النصر به فأينما سار فهو منصور ، فهو أشد إباء للذل من النصر لأن النصر حليفه وفي مضائه يغلب السيف . بهذه الصفات وهذه المكارم تفرد ممدوح المتنبي

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص١٣٧ .
(٢) د. محمد التونجي ، المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس ، ص١٦٣ بتصرف .

فلم يأت الـزمان بمثله فيما مضىٰ ، ولما أتىٰ عجزت الـدهور عن الإتيان بنظير له . هذا مثل قوله[١]:

لَمْ تَلْقَ هذَاالوَجهَ شَمسُ نَهارِنَا إلاَّ بِوَجْهٍ لَيـسَ فِيـهِ حَيَـاءُ
فَبِأَيِّمَا قَدَمٍ سَعَيْتَ إلـىٰ العُـلاَ أَدُمُ الهِلاَلِ لِأَخمَصَيـكَ حِذَاءُ
لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الوَرَىٰ اللَّذْ مِنْكَ هُوَ
عَقِمَتْ بِمَولِدِ نَسْلِهَا حَوَّاءُ

فـالمتنبي يرىٰ أن لاحاجة للشمس مع وجود هذا الممـدوح لنور وجهه ووضـاءة جبينه ، كما جعل الهلال نعلا لقـدم هذا الممـدوح لأنه في بلـوغه المجد والعلياء ترفع عن الهلال ، كما أنه بفضائله وأخلاقه فاق الورىٰ الذي هو منه في جماله وشرفه وعد أفضل أهله ولو لم يكن منهـم لكانت حواء في حكم العقيم ولكنها به صارت ذات ولد .. لأنه جمع خلال الأفاضل ومكارم الأخلاق حتىٰ كأنه جميع الورىٰ . وهذا من مبالغات شاعرنا ، فقد جعل من المعنىٰ في البيـت الأول أمرا غريبا حين استعار للشمـس وجها ليس فيه حياء حين تظهر في مكان وجد فيه هذا الممدوح وكأنها تنافسه في الضياء والشهرة وكثيرا مايعتمد المتنبي في أسلوبه علىٰ الاستعارة والتشبيـه مما يزيد المعنىٰ قوة ورسوخا في الذهن .

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص١٥٥ .

الشاعر الموهوب هو الذي يتوصل بفنه إلىٰ أعمق أعماق الإنسان ويظهر خفاياه في أداء عذب جميل ، ومن ثم يرتفع بقرائه إلىٰ أرفع مدارج الكمال والجمال والمتعة ، وقد أفلح المتنبي في ذلك ، حين جعل من تصوير الجمال جمال سري يشعرنا بالقوة ، وقد ربط بين الجمال المعنوي والشكلي فقال[١]:

إِذا بَدَا حَجَبَتْ عَينَيْكَ هَيبَتُهُ ... وَلَيسَ يَحْجُبُهُ سِتْرٌ إِذَا احْتَجَبَا
بَيَاضُ وَجْهٍ يُرِيكَ الشَّمْسَ حَالِكَةً ... وَدُرُّ لَفْظٍ يُرِيكَ الدُّرَّ مَخْشَلَبَا
وَسَيْفُ عَزمٍ تَرُدُّ السَّيفَ هِبَّتُهُ ... رَطْبَ الغِرَارِ مِنَ التَّأْمُورِ مُخْتَضِبَا

تنبه المتنبي إلىٰ فطرة الإنسان وأنه يميل إلىٰ المحسوس أكثر من غيره ، فاستطاع بذكائه أن يجعل من الصور الثابتة رسما جميلا يأسر القلوب بجماله فقد توصل إلىٰ ذلك بغير الجمال ، فهو كثيرا مايدخل الضياء والنور في صوره الثابتة ، فيحس القارىء كأنه أمام صورةمنيرة ، كما يستفيد في صوره من ربط المعنوي بالحسي كي يقربه للسامع فينفعل معه ويرىٰ بنفسه بدلا من التخييل[٢]. انظر إلىٰ قوله وقد استخدم الطبيعة في صورته[٣]:

الصَّوْمُ والفِطرُ والأعْيَادُ وَالعُصُرُ ... مُنِيرَةٌ بِكَ حَتَّىٰ الشَّمْسُ والقَمَرُ
تُرِي الأهِلَّةَ وَجْهاً عَمَّ نَائِلُهُ ... فَمَا يُخَصُّ بِهِ مِنْ دُونِها البَشَرُ
مَاالدَّهْرُ عِنْدَكَ إلاَّ رَوْضَةٌ أُنُفٌ ... يَامَنْ شَمَائِلُهُ فِي دَهْرِهِ زَهَرُ

فهو يمتدح بالنواحي الخُلُقية من دين وكرم وجود ، إضافة للنواحى الخِلْقية من بهاء وجمال فقد عم نور هذا الممدوح كل شيء لأنه في نظر شاعرنا جمال للدين والدنيا ، وقد عم نفعه جميع المخلوقات ، حتىٰ أن أخلاقه أحسن مافي دهره ، وقد شبه الدهر بالروضة وجعل أخلاق هذا

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٤٠ .
(٢) أحمد عبد الله المحسن ، مقدمات سيفيات المتنبي ص١٠٩ بتصرف ، دار العلوم ، ط/أولى ١٤٠٣هـ .
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص١٩٩،٢٠٠ .

الممدوح في دهره كالزهر في الروضة . يقول في صورة أخرى[١]:

أَرىٰ النّاس الظّلام وأنتَ نورٌ وإنّي منهمُ لَإِلَيْكَ عَاشِ

ضاقت نفس شاعرنا بأناس عصره وإن كان يرىٰ في ممدوحه شخصا يختلف عنهم في قيمه وبطولاته التي آمن بها ، ولكن ذلك لايمنع تذمر المتنبي من بعض معاصريه حتى عرّض بهم في كل مناسبة ، ففى هذا البيت يرى أن معاصريه بل الناس كلهم ظلام وممدوحه نور . وليس الظلام والنور الذين قصدهما شاعرنا هنا حقيقيين ، فهو يريد أن يشبه فساد الناس ويمتدح شخصًا واحدا رأىٰ فيه مبادىء وقيم لازالت سليمة تلك القيم التي أحبها المتنبي وأشار لذلك في الشطر الثانى ، فالناس في عينه ظلام وممدوحه هو النور .

نخلص من هذا الفصل إلى أن :

* مديح المتنبي كان موجها للصفة أكثر من الشخص الممدوح ، لذا فإن مديحه مناسب للإنسان في كل زمان .

* عظمة نفس المتنبي وطموحه انعكست علىٰ شعره فأتت لغته وتراكيبه قوية جزلة .

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٣٢٢ .

الفصل الثالث

الفصل الثالث

الإنسان في رؤية ابن الرومي - قادحا -

توطئة

نظراً للتقدم والتطور الحاصل في العصر العباسي والذي شمل كل شيء ، فقد حصل تطور في جانب الهجاء ، حيث بلغت الحضارة أوجها ، واستنفذ الإنسان طاقته في التحري عن كل مايوسع آفاقه ويزيد ثقافته . إضافة إلى كل مايعلي شأنه غير عابىء بالطريقة . فانحلت الأخلاق وتساوت الرذيلة في أحيان كثيرة بالنسبة إليه مع الفضيلة فظهر نوع جديد في الهجاء ، هذا النوع هو أكثر أنواع الهجاء تعقيدا ، وأعمقها تجربة إنسانية ، فهو الهجاء الذي يعلن نقمة الفرد على المجموع ، وثورته على مايشهد في المجتمع من اختلال في المقاييس والقيم .. فبينما كان الهجاء القديم يتولى الدفاع عن القبيلة ، أصبح الهجاء في العصر العباسي يتولى الدفاع عن القيم والحقيقة ، وغدت مشكلة الشاعر العباسي مشكلة قيم وحضارة واستحقاق ، وأصبحت قضيته هي قضية العدالة الاجتماعية والمصير الإنساني[١].

فابن الرومي يختلف عن شعراء الهجاء قديما في الموقف الذي صدر عنه كل منهم ، فالقدماء وقفوا في أهاجيهم موقفا أخلاقيا ، أي أنهم ثلبوا مهجوّيهم بالقيم الفردية المنعكسة انعكاسا اجتماعيا ، كالبخل واللؤم ، والعار والهوان وغيرها . أما ابن الرومي فلم يقتصر في هجائه على تلك الحدود الأخلاقية ، أي على الخير والشر في الناس والفضيلة والرذيلة ، بل نظر في معنى أعمق : معنى السعادة والتعاسة ، والنجاح والفشل ، والعدل والظلم ، فالهجاء الأخلاقي استحال في بعض جوانبه إلى هجاء فلسفي ، وجودي[٢].

---

(١) ايليا الحاوى ، فن الهجاء وتطوره عند العرب ، بيروت ، بدون ، ص٥٩٧،٩ بتصرف .

(٢) ايليا الحاوى ، نفس المرجع ، ص٥٨٦ ، وابن الرومى فنه ونفسيته من خلال شعره ، بيروت ، ط/ثانية ١٩٨٠م ، ص١٧٦ بتصرف .

إضافة إلى أنه يرى في هجائه للناس حقا لاباطل فيه يقول[1]:

قِيلَ لي : لِمْ ذَمَمْتَ كُلَّ البَرايا وَهَجَوْتَ الأَنَامَ هَجْوًا قَبِيحًا؟
قُلْتُ : هَبْ أَنَّنِي كَذَبْتُ عَلَيْهِم فَأَرُونِي مَنْ يَسْتَحِقُّ المَدِيحَا؟

فالناس في نظره ينوءون بالعورات والرذائل ، ومياسم الضعة والتشويه والمنكر . حتى أنه لايوجد بينهم من يستحق المديح في نظره .

ولقد تطرّف ابن الرومي في هجائه كما تطرّف - سابقا - في مدائحه ، فهو في الحالتين على حدود الإسراف في المغالاة ، فكما كان يمدح فيرفع إلى السماء ، فإنه أيضا يهجو فيخفض إلى الأرض . فجانب القدح والذم له شأن كبير في فنه الساخر ، اللاذع الموجع ، حتى يخرج من يذمه عن نطاق الإنسانية ، وسنعرض لجانب الهجاء عند ابن الرومي ، أو نعرض الإنسان في رؤية ابن الرومي - قادحا - وأظن أننا سنخرج بصورة لإنسان ذميم منفر تصور الإنسان القبيح في العصر العباسي تصويرا بشعا .

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٩٦ .

كان ابن الرومي في عداد القلة من الشعراء الذين نبهوا إلى آفات المجتمع وانتقدوا اختلاله ، ومن الآفات الأخلاقية التي ذمها وندد بأهلها البخل والنهم وله صور بديعة في ذلك منها قوله(١):

إذا غَمَرَ المَالُ البَخيلَ وَجدْتَه ... يَزيدُ به يُبسًا وإنْ ظُنّ يَرطُبُ
ولَيسَ عَجيبًا ذَاك مِنهُ فإنّه ... إذا غَمَرَ الماءُ الحِجَارَةِ تَصْلُبُ

لقد وُفِّق شاعرنا كما يقول د. عبد الحميد جيدة(٢): "وُفِّق باعطاء هذه الصورة عن البخيل الذي يجمع المال ، كلما زاد ماله ازداد جفافه وتصلبه ، وهولايدري ذلك لأن شهوة جمع المال قد طغت عليه ، وأفقدته دقة الحس فأصبح المال غايته الوحيدة لايفكر إلا به ، فهو محور تفكيره ومأكله ومشربه فيزيده المال يبسا بينما يشعر أن في زيادته رطوبة له وانعاشا لنفسه وروحه ، ويقرب ابن الرومي إلينا صورة البخيل الذي يزداد صلابة بكثرة ماله بصورة الحجر الذى تغمره المياه فيزداد تصلبا" .

فالبخل من الظواهر الاجتماعية التي عاينها ابن الرومي في عصره وذمها وهجا أصحابها ، ورأى أن شخصية البخيل سالبة غير فاعلة لتحقيق مصلحة الجماعة يقول(٣):

أَبديْتَ صَفْحَةَ قَسْوةٍ وخشونةٍ ... مِنْ دُونِ تَافِه نَيْلك المَطلوبِ
فكأنّك الينبوتُ في إبْدائِه ... شَوْكاً يَذُودُ به عن الخَرّوبِ
لَو كَان نَائِلُكَ المحجَّب نائِلاً ... لَعذرتُ مَنْعَةَ بابك المحجوب
ياضَيفَهَ : أبْشِرْ فإنّك غانِمٌ ... أجْرَ الصِّيام وليس بالمكتُوب
ومصحَّحُ الأَضْياف يَسلَمُ ضيفُهُ ... من كل داءٍ غيرَ داء الذيب(٤)

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص١٤١،١٤٢ .
(٢) الهجاء عند ابن الرومى ، بيروت ١٩٧٤م ، ط/بدون ، ص٣٠٧ .
(٣) الديوان ، ج١ ، ص٣٣٢ .
(٤) الذيب : كناية عن الجوع .

صفة البخل انتشرت في عصر ابن الرومي وذلك نتيجة لتكالب الناس على المادة ، حتى أن الأغنياء والتجار في ذلك العصر كانوا يتهربون من واجبات الضيافة ، وكان البعض يبخل بماله ويتكثر به حتى يعوض بها هوان أصله الاجتماعي ، وهذه الصفة - البخل - صفة ذميمة تتعارض مع المثل العربية في الكرم ، ومايحض عليه الاسلام ، وابن الرومي كناقد للقيم التي شاعت في عصره لاعجب أن يهجو البخلاء في عصره ، ويذم البخل .. وله في ذلك صور عديدة تنفر من البخل وترغب في قيمة الكرم .. عرضها لنا بطرق مختلفة .

على أن له أبياتا "يصور البخل فيها تصوير سخرية داخلية ، زاعماً فيه أنه جبلة وطبع تخوف من الحاجة ، دون أن يخلو صاحبه من اللؤم وافتقاد الكرامة ، ويترع فيها إلى تحديد البخل تحديداً جامعاً ، مؤدياً له نموذجاً تحليلياً ، لايخلو من الواقعية رغماً عن خلوه من الرؤية الشعرية"(١).

وقد يذهب بعض من حُرموا قدرة الاستبصار والذوق ، إلى أن صور ابن الرومي السابقة في تصوير البخل وهجاء البخيل ، مكررة أو معادة ، ولكنها في الحقيقة مختلفة فقد تلتقي بعض الصور الجزئية هنا مع مثيلاتها هناك - في نص آخر - من حيث المفردات لكن إيحاءها هنا غيره هناك ، مع تشابه المفردات أوتقاربها من تلك الصور قوله في البخيل وصفة البخل(٢):

غَدَوْنا إلى مَيْمُونَ نَطْلُبُ حَاجَةً ... فَأَوْسَعَنَا مَنْعاً وَجَيزاً بِلامَطْلِ
وقَالَ اعْذُرُونِي إنّ بُخْلِي جِبِلّةٌ ... وإنّ يَدِي مَخلُوقَةٌ خِلْقَةَ القُفْلِ
طَبِيعَةُ بُخْلٍ أَكَّدَتْها خَلِيقَةٌ ... تَخَلّقْتُها خَوْفَ احْتِياجِي إلى مِثْلِي

---

(١) ايليا حاوى ، فن الهجاء ، ص٥٥٨ .
(٢) الديوان ، ج٥ ، ص١٣٤ .

فابن الرومى هنا يصور البخل تصوير سخرية داخلية ، وينزع فيها إلى تحديد البخل تحديدا جامعا ، مؤديا له نموذجا تحليليا ، لايخلو من الواقعية رغما عن خلوه من الرؤيا الشعرية العميقة ، ولايكتفى بذلك فهو يلاحق المعنى ، ويقلبه على كل الوجوه ، فيتبدى له من زاوية جديدة ، ويبدو له أن للمعنى الواحد علاقة بكل معنى آخر ، وبكل ظاهرة تقع عليها حواسه[١]. يقول مصورا المعنى السابق بطريقة مختلفة[٢]:

تَجَنَّبْ سُلَيْمانَ قُفْلُ النَّدَى فَقَدْ يَئِسَ النَّاسُ مِنْ فَتْحِه

ابن الرومي يرى أنّ امساك اليد والحرص على المال مثل الخزانة التي عليها قفل محكم لايفتح حتى لاتنفق الأموال ، وهو حين يهجو البخيل ويصف يده بالقفل ، إنما يدعو لإظهار المال وانفاقه بدلا من كنزه ، من ذلك قوله[٣]:

إنّ كفّيْكَ لَقِفْلٌ مُحْكَمٌ يابْنَ حُرَاشَهْ
لَيسَ يَنْجُو الفِلْسَ مِنْ كَفّيْك إلاّ بِالحُشَاشَهْ
ضَيِّقُ الصَّدرِ بَخيلٌ ضَيَّقَ اللّهُ مَعَاشَهْ

ـ نعوذ بالله من البخل وضيق الصدر ـ فإن البخل لايُورِّث سوى ضيقة بالصدر ، ونفور من الجماعة والائتلاف ، خوفا على المال ، وحبا في الازدياد منه والحرص عليه ، وقد عرض لناشاعرنا البخل وشبه يد البخيل بالقفل في أكثر من صورة ، وفي كل صورة نلمس إيحاء جديدا ، وطريقة جديدة من غير تكلف ولاتعنت ، فلكل صورة عطرها الخاص وسحرها المميز لغة ومعنى ، وهذا من سمات شعر ابن الرومي الفنية ، حيث يلح على فكرة واحدة ، ويعرضها بصور فنية مختلفة . انظر إليه يعد البخل في نظر البخيل حكمة[٤]:

---

(١) ايليا الحاوى ، ابن الرومى فنه ونفسيته من خلال شعره ، ص١٥٨ بتصرف .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٤٧ .
(٣)،(٤) الديوان ، ج٣ ، ص٣٣٧،١٥٤ .

هَلْ حِكْمَةٌ أَنّ قِفْلَ كَفِّك ⌐ لايُفْتَحُ إلاّ بِمِفْتَحِ العُذْرِ ؟!

"ابن الرومي في صوره الهزلية لم يقلع عن الطريقة التي كان يسلكها في رسم المشاهد ، وعن براعته في دقة المراقبة ، واثبات الحركة ، وبعث الصور البعيدة الايحاء ، وقد أفضت به دقة التصوير إلى تمثيل الدمامة في أتم أشكالها ، حتى كأنها تنطق بنفسها عن معايبها ، وجره حبه للتقصي إلى استقراء مقابح الذين يسخر منهم إلى نهايتها"(١). ولعل من أشهر تلك الصور وصفه للبخيل وذمه للبخل ومنها قوله(٢):

يُقَتِّرُ عِيسى عَلىٰ نَفْسِه ... وَلَيْسَ بِبَاقٍ ولاَخَالِدِ
فَلو يَسْتَطِيعُ لتَقْتِيرِه ... تَنَفَّسَ مِنْ مِنْخَرٍ وَاحِدِ

فهو بذلك يتتبّع العاهات النفسية والجسدية ويترسمها في غلوائه ، حتى يبدع لها نموذجا إنسانيا ثابتا نقع عليه في أي مكان وزمان .

انظر إلى صورة من صوره التي يذم فيها البخل ويهجو البخيل الذي لايكرم ضيفه(٣):

بَخِيلٌ يُصَوِّمُ أَضْيَافَه ... وَيَبْخَلُ عَنْهُمْ بِأَجْرِ الصِّيَامِ
يَدُسُّ الغُلاَمَ فَيُولِيهِمَ ... جَفَاءً فَيَشْتُمُ مَولَىٰ الغُلاَمِ
فَيحْتَالُ بَخلاً لِأَنْ يَفْطِروا ... عَلىٰ رَفَثِ القَوْلِ دُونَ الطَّعَامِ
لَقدْ جَاءَ باللُّؤمِ من خَصِّه ... وتمّ لَه البُخلُ كُلّ التَّمَامِ

والحق أن صور ابن الرومي هذه كلها وإن كانت تثير فينا الإحساس بالمتعة ، لكنها تتبع مانستشرف إليه من إبداع صورة البخل على نحو مايوحي قول ربنا تبارك وتعالى : {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ}(٤). فالوقاية تكون من أخطار تحبط عمل الإنسان وتهلكه ، وهذه

---

(١) حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ط/عاشرة ، ١٩٨٠/م ، ص٥٣٩،٥٤٠ ، المكتبة البولسية .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص١٦٠ .
(٣) الديوان ، ج٦ ، ص١١ .
(٤) سورة الحشر : آية ٩

الأخطار هي أخطار الشح التي لاتنتهي عند حد ، منها شح الغني على الفقير ومنها شح الغني على وطنه وعلى نفسه وأهله ، وكما يكون الشح بالمال وله ألف صورة وصورة يكون بالدم ، والنفس الشحيحة تعرف بفظاظتها ، وانطوائها كأنها تحجرت فانقطعت أواصرها بالحياة ، وبالأحياء .. فهانت على نفسها كما هانت على غيرها[١].

كَسَبْتُم يَسارًا واكتَسَبْتُم بِبُخْلِكُم شَنَارًا عَلَيكُم باقيًا غَيرَ بَائِدِ

فقد يحول بين المرء والكرم أمور منها ، ذلة النفس وتأخير واجب الضيف فإذا كان الإنسان ذليل النفس فقد تأبى عن الخير ، لذا فإن الناجين من آفة الشح - البخل - هم المفلحون في دنياهم ، والمفلحون في أخراهم ، لأنهم استجابوا لدواعي الفطرة الزكية وأطاعوا الله ، وتيقنوا من أنه الرزاق ذو القوة المتين .

كان ابن الرومي يؤمن بالحدود والقيم ، ومفهوم الإنسان وغايته من نفسه ومن الحياة ، كماكان يعي وظيفة المجتمع ، ومعنى الحضارة ، ويعز عليه أن يقيم في عصر افتقد فيه معنى الكفاءة والأخلاق ، فاغتصبت القيم، واستحلت وداخلها كل دخيل ، ولم تكن تطيب له تلك الحياة الفاقدة الكرامة ، الضائعة الناموس ، لذا وقف من عصره موقف محاكمة ونقض ، لايكتفي بالتعرض للفرد الواحد ، بل تعرض للمجتمع بكامله ، لأخلاقه ومبادئه وقيمه ، فقد تنكر له وأنكر عليه وأشار إلى كل مافيه إشارة اتهام[٢]. وقد وصل شاعرنا إلى أسمى مراتب الهجاء الاجتماعي حين تناول ظاهرة اجتماعية تعيب المجتمع والإنسانية كلها فقال[٣]:

---

(١) د. محمود فياض ، محاضرات فى أدب الدعوة ، ص٩٠ بتصرف .
(٢) ايليا سليم الحاوى ، ابن الرومى فنه ونفسيته من خلال شعره ، ص١٦٩ بتصرف .
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص٢١٤ .

رَأَيْتُ حَمّالاً مُبِينَ العَمىٰ ... يُعْثَرُ بالأَكْمِ ، وفي الوَهْدِ
مُحْتَمِلاً ثِقْلاً علىٰ رَأسِه ... تَضْعُفُ عَنْه قُوَّةُ الجلْدِ
بَيْنَ جَمَالاتٍ وأَشْباهِها ... مِنْ بَشَرٍ نَامُوا عَنِ المَجْدِ
أَضْحَىٰ بِأُخْرىٰ حَالَةٍ بَينَهم ... وكُلّهم في عَيْشَةٍ رَغَدِ
وكُلهم يَصْدُمُه عَامِدًا ... أَوْ تَائِهَ اللُّبِّ بِلاعَمْدِ
والبَائِسِ المِسْكِينِ مُسْتَسْلِمٌ ... أَذَلّ للمَكْرُوهِ مِنْ عَبْدِ
ومَااشْتَهَىٰ ذاكَ ولكنّه ... فَرّ مِن اللُّؤْمِ إلىٰ الجُهْدِ
فَرّ إلىٰ الحَمْلِ عَلىٰ ضَعْفِهِ ... مِنْ كَلَحَاتِ المُكْثِرِ الوَغْدِ

فابن الرومي في هذا النص لم يكن مرتاحاً للتفكك الاجتماعي الذي عم عصره ، ولم يعجبه تخلي معاصريه عن قيم الشهامة والمروءة التي تتجسد في مساعدة الضعيف ورعاية المحتاج . وهو يثور علىٰ مجتمعه والوضع الشاذ لمعاصريه ، وينعي عليهم وعلىٰ مجتمعه التناقض العجيب وفقدان العدالة الاجتماعية ، ويعرض لفئة من أبناء عصره ، فينكر عليهم الهوان الذي يلاقونه ورضاهم بالذل بعد العز والشرف حين يقول(١):

لاأُحِبّ الرَّئيسَ ذَا العِزِّ يُضحي ... جَارُه والرِّجَالُ مُسْتَعْبِدُوهُ
حَامِلٌ مِنّة لَهم إنْ كَفَوْهُ ... شَرُّهم ، دَاخِرٌ إنْ اضْطَهَدُوه

فابن الرومي يرىٰ أن الذل والهوان اللذين يلحقان بالإنسان لايكونا إلا إذا فقد عزة نفسه وكرامتها . وهو هنا يثور علىٰ بعض معاصريه الذين رضوا بالهوان ويحثهم علىٰ الثورة والتمرد علىٰ البغي والطغيان الذي انتشر في عصره خاصة من الوزراء والحجاب الأعاجم .

وكأني بابن الرومي من خلال الصور السابقة ينقد المجتمع الظالم نقداً مراً بل يرفضه ..

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٢٠٧ .

وضع ابن الرومي يده على آفات المجتمع ، فرآه فئتين : فئة من السفهاء خفت عقولهم ، وفئة من ذوي الرجاحة ومن أجلاء الناس . يقول منتقداً مجتمعه[١]:

طَارَ قَوْمٌ بِخِفَّةِ الوَزْنِ حَتّىٰ ... لَحِقُوا رِفْعَةً بِقَابِ العُقَابِ
ورَسا الرّاجِحُون مِن جلّة النّاس ... رُسُوَّ الجِبالِ ذَاتِ الهِضَابِ

... ...

فَلْيَطِرْ مَعشَرٌ ويَعْلُو فَإنّي ... لاأراهُم إلاّ بِأَسْفَلِ قَابِ
لاأَعُدُّ العُلُوَّ منهُم عُلُوّاً ... بل طفوا ، يَمِينَ غَيرَ كِذابِ
جِيَفٌ أَنْتَنَتْ فَأَضْحَتْ عَلىٰ ... اللُّجّة والدّر تَحْتَها في حِجَابِ
وغُثاءٌ عَلا عُباباً مِنَ اليَمِّ ... وغَاصَ المَرْجَانُ تَحْتَ العُبابِ

ماأبرع ابن الرومي في سخريته بما لايرضاه في مجتمعه من ظلم . إن أصحاب التفاهة الذين كان ينبغي لهم أن يلزموا أماكنهم لاصقين بالأرض ، هم الذين أتاح لهم هذا المجتمع الظالم التفوق والامتياز ، وهيأ لهم رفيع المناصب والثروة والجاه ، أما أصحاب العقول الراجحة من ذوي الحكمة والعلم ، فقد قعد بهم المجتمع الظالم عن إدراك مايجب أن يدركوه بمواهبهم وقدراتهم ، فظلوا مبعدين عن كل خير .

ويتابع شاعرنا نقده لمجتمعه ، فيقول إن علو الأرذال اللئام هو طفو كما تطفو الأجسام الخفيفة على وجه الماء ، ولايقف عند تصويرهم بالطفو بل إنه يظهر نوعية الأجسام الطافية فقال إنها جيف منتنة ، بينما كرام الناس كالدر الذي يبقى راسياً في قاع البحر ، وأرذال الناس كالأوساخ تطفو فوق الأمواج بينما المرجان النادر يغوص تحتها ، وهكذا زاوج شاعرنا بين الخيال والحقيقة[٢].

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٣١٤-٣١٥ .
(٢) عبد الحميد جيده ، الهجاء عند ابن الرومى ، ص٢٨٨ بتصرف .

لم تخل الحياة الإنسانية في عصر ابن الرومي وأظنها لاتخلو في أي عصر وأي زمن من بواعث السخط ودواعي التذمر ، وابن الرومي رأىٰ وأحس مافي عصره من ظلم وغبن وخلطٍ بين الفساد والتناقض فراعه ذلك واستنكر من الإنسان هذه الأفعال فقال[١]:

ألاَ إنّما الدُّنيا كَجيفَةِ مَيْتَةٍ ... وَطِلاَّبُهَا مِثْلَ الكِلاَبِ النَّوَاهِسِ
وأَعْظَمُهُمْ ذَمّاً لَهَا وأَشَدُّهُم ... بِهَا شَغَفاً قَوْمٌ طِوَالُ القَلانِسِ

فهذه صورة الإنسان الذي يشغف بالحياة ، ويجد ويهرع ويتكالب ويطمع ، ويظلم ليغنم نعم الحياة قبل سواه . يهزأ به ابن الرومي لأنه يقترف مايقترف ، ويطغىٰ ويظلم من أجل جيفة ، ويعيب علىٰ الوزراء في عصره خاصة تشبثهم وشغفهم بالدنيا مع ذمهم لها وكنىٰ عنهم بطوال القلانس ، وهي نوع من لباس الرأس شاع بين الوزراء والأعيان في العصر العباسي .

"الهجاء يقوم على أساس وجود مثل أعلىٰ ينشده الشاعر ، فإذا تعارض هذا المثل مع شخص ، أو نظام اجتماعي ، دافع الشاعر عن مثله الأعلىٰ عن طريق هدم النموذج المخالف ، من هنا كان في الهجاء قوة بناء إلىٰ جانب مظهره الهدّام ، ويظهر ذلك في الهجاء الاجتماعي بصفة خاصة"[٢]. ويظهر البعد الاجتماعي فى قول ابن الرومي[٣]:

لوْ تَراهُ ثانياً مِن عِطْفِه ... مائِلاً في السَّرجِ من فَرْط الصَّلَفْ
شَامِخًا بِالأَنْفِ مِنْ نَخْوَتِه ... فَهْوَ لَوْ يُسْتَرْعَفُ الخَلّ رَعَفْ
نَحْنُ أَحْيَاءٌعلىٰ الأَرْضِ وَقَدْ ... خَسَفَ الدَّهْرُ بِنَا ثُمّ خَسَفْ
أَصْبَحَ السَّافِلُ مِنّا عَالِيا ... وَهَوىٰ أَهْلُ المَعَالِي والشَّرَفْ

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٣١٤ .
(٢) عبد الحميد جيده ، الهجاء عند ابن الرومى ، ص٢٨٧ .
(٣) الديوان ، ج٤ ، ص٢١٦ .

يَسْفُلُ النَّاسُ ويَعْلُو مَعْشَرٌ قَارَفُوا الأَقْرَافَ مِن كُلِّ طَرَفْ
جِيَفٌ تَطْفُو عَلىٰ بَحْرِ الغِنَىٰ حِينَ لاتَطْفُو خَبِيئَاتُ الصَّدَفْ

في هذه الصورة يهجو شاعرنا ذلك المرء المتكبر ، المتعاظم بنفسه ظاهرا ويهجو مجتمعه إذ رفعه دون جدارة ، فهذه الأبيات وغيرها من صور ابن الرومي يذكيها شعور بالظلم والاختلال الاجتماعي في عصر انقلبت فيه الموازين عصر تكالب ودس واحتيال ، وفي هذه الصورة يظهر لنا ابن الرومي ساخطا علىٰ العصر وأبنائه ، طافح النفس بالمرارة والألم ، وقد رأىٰ الأمور في غير نصابها .

علىٰ أنّنا لو رجعنا إلىٰ القرآن الكريم والسنة الشريفة ، فيما عرضا له من شؤون الخلق ومعاملاتهم ، لوجدنا مايدل على مايردع الظالم عن غيه ويدل المسلم علىٰ الخير سواء في السلوك الإنساني الظاهر أو المعاملة الحسنة ، ونبذ كل مامن شأنه الفرقة والجفاء بين الناس ، كما يقول ابن الرومي الذي ساءه بعض المتكبرين[1]:

عَبُوسٌ إذا حيَّيْتُه بِتَحيّة فَيالَك مِن كِبْرٍ وَمِن مَنْطِق نَزْرِ
إذا مَارَآنِي عَاد أَعْمىٰ بلاعَمى وَصُمَّ سَمِيعًا مَابِأُذْنَيْهِ مِن وَقْرِ

فأين هذا من تعاليم ديننا الحنيف الذي دعىٰ للألفة والمحبة وأمر برد التحية بأحسن منها أو مثلها {وإذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوهَا}[2]. فابن الرومي هنا يشكو من الخلق العام الذي تحدر إليه أبناء عصره حتىٰ باتوا في غطرسة وكبر لايتخلقون بأخلاق الإسلام ، ولايتأدبون بالآداب العربية الأصيلة .

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص١٧ .
(٢) سورة النساء : آية ٨٦

وابن الرومي بهجائه يثير حقيقة القيم التي ينبغي أن يقدر بها الناس ، فلايقتصرون على مايجلبه لهم الدهر من مظاهر حمقاء ، بل لابد أن يصدر فعل المرء عن عقل وعلم وإلا فما لحياته فائدة ، يقول في بعض معاصريه الحمقى الذين اكتفوا من الحياة باللذة ولم يحفلوا بالعلم والأدب(١):

طَوَلٌ وعَرْضٌ بِلاعَقلٍ ولاأدبٍ ... فَلَيْسَ يَحْسُنُ إلاّ وَهْوَ مَصْلُوبُ
رُمْحٌ طَويلٌ ولكِنْ في جَوانِبِهِ ... شَتَىٰ وَصُومٌ ، فَخَيْرٌ مِنْه أَنْبُوبُ
فِيلٌ وأَوْزَنُ مِنْه لَوْ يُوازِنُه ... في الحِلْمِ والعِلْمِ لافي الجِسْمِ يَعْسُوبُ

يجرد ابن الرومي المهجو من العقل ، والأدب ، فلايحسن في عين الناظر إلا وهو مصلوب . فلئن طال وعرض وثقل وزنه ، فهو فارغ فراغ الأنبوب ، سخيف ، لاعلم له ولاحلم . "فابن الرومي يسلب مهجوه الفطنة والكياسة والعلم ، ويلصق به كل عيوب الحضارة التي يجمعها التبذل ، والتهالك على اللذات"(٢). هذا وقد أصبح المجرد من المعرفة والثقافة في عصر ابن الرومي - الجاهل - لاوزن له ولاقيمة ، معرضا للهجاء والذم ، وابن الرومي ساءه الجهل الذي عم أبناء عصره واغتاظ منهم فهجاهم وقال(٣):

وأَعْجَبُ مِنْهُم مَعْشَرٌ لَيْسَ فِيهِمُ ... بِشِعْرِي ، ولاشَيْءٍ مِن الشِّعْرِ مُعْجَبُ
بَراذِينُ ، ألْهاها قَدِيماً شَعِيرُها ... عن الشِّعر ، تَسْتَوْفي القضيمَ وتَرْكَبُ(٤)
من اللاّئي لاتَنفَكُّ تَجري سَواكِناً ... بِفُرسَانِها تِلقاءَ نارٍ تَلَهَّبُ
وأَعْجَبُ مِنهم جَاهِلُونَ تَعاقَلُوا ... وكُلّهمُ عَمّا يُتَمَّمُ أَنْكَبُ
أَغِثّاءُ مافيهم أَدِيبٌ عَلِمْتُه ... ولاقابلُ التّأدِيبِ حينَ يُؤَدَّبُ

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٣٣٠ .
(٢) عباس العقاد ، ابن الرومى حياته من شعره ، ص٢٣٤ .
(٣) الديوان ، ج١ ، ص١٤٧ .
(٤) براذين : جمع برذون وهو نوع من الدواب يتخلل بياضه سواد ، عظيم الخلقة غليظ الأعضاء .

شبه ابن الرومي معاصريه الذين لاعلم لهم بالشعر ولاتذوقه بالدواب التي تحاول الجري بفرسانها وهي ساكنة تجاه نار تلهب ، فيفشل هؤلاء القوم في الارتقاء إليه وملاحقته ، ثم يعلل عدم لحاقهم به تعليلا منطقيا يؤيده شعره المميز ، إذ به ينتصر على نقصهم وجهلهم ، فما هم إلا خفافيش أو بهائم لاتفهم[١]:

خَفَافِيشَ أَعْشَاها نَهارٌ بِضَوْئِهِ ... ولاءَمَها قِطَعٌ مِن اللَّيْلِ غَيْهَبُ
بَهائِمُ لاتَصْغِي إلىٰ شَدْوِ مَعْبَدٍ ... وأَمّا عَلىٰ جَافِي الحُدَاءِ فَتَطْرَبُ

فابن الرومي يعيب على معاصريه جهلهم وقلة فهمهم للشعر وتذوقه ويلقي عليهم الذنب في عدم فهم شعره لجهلهم بمعاني الكلام عامة . فهم كالبهائم التي لايطربها الجيد وكنىٰ بشدو معبد - على الغناء أو الصوت الجميل وهو أشهر المغنين قديما كان ذا صوت حسن وغناء جميل - بينما يطربهم صوت الحدأ .

في هجاء ابن الرومي انعكست حياة المجتمع والعصر بكل جوانبهما ، وهو انعكاس طبيعي لاتزييف فيه ولامبالغة في التخيل كما يقول عبد الحميد جيده[٢].. حيث يمكننا أن نقف على طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية في عصره وطبائع الناس التي كونتها مؤثرات العصر ، فيعرض للسلطة والحكام ، ويتحدث عن الطغيان والجور وقسوة الحجاب من ذلك قوله[٣]:

وَمِنْ شِيَمِ الحُجّابِ أَنّ قُلُوبَهُم ... قُلُوبٌ عَلىٰ الأَحْرَارِ أَقْسىٰ مِنَ الصَّخْرِ
وأَنّهم لَو مَلّكوا القَطْرَ أَوْ وَلُوا ... خَزائِنَه خَافُوا النَّفادَ عَلىٰ القَطْرِ
يَخافُونَ أَنْ يَحْظَىٰ سِواهُم بِحَظِّهم ... فَهُمْ مِن سُؤَالِ السَّائِلِينَ عَلىٰ وَحْرِ

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص١٤٩ .
(٢) الهجاء عند ابن الرومي ، ص٢٣٢ بتصرف .
(٣) الديوان ، ج٣ ، ص١٨ .

فابن الرومي هنا يهجو فئة من المجتمع الذي يعيش فيه وهي فئة الحجاب ، وهي فئة قاسية ، قلوبهم أقسىٰ من الصخر كما يقول شاعرنا فقد كان يحس بكل مضطهد في مجتمعه ، وإن كان أحد المضطهدين الذين عانوا من ظلم المجتمع وهو إن اتخذ الهجاء سلاحا يدافع به عن نفسه وعن أمثاله أمام بطش القوة في عصر اختلت فيه جميع الموازين ، فلقد طلب الحق كما طلب العدل الاجتماعى وإن اختلفت الطرق التي سلكها في ذلك .

فابن الرومي ينكر الظلم والجبروت ويهجوه ممثلا في شخص أصحابه من ذلك قوله[١]:

أَيَّامُكُم يَابَنِي الجَرَّاحِ قَدْجَرَحَتْ ... كُلَّ القُلُوبِ فَفِيها مِنْكُمُ ثَارُ
مَامِنْكُمُ رَجُلٌ تَمَّتْ رِيَاسَتُه ... إلاّ مَشُومٌ عَظِيمُ الكِبْرِ جَبّارُ
لاَقَدَّسَ اللّهُ بِالإقْبَالِ دَوْلَتَكُم ... فَإِنّ إِقْبَالَكُم لِلنّاسِ إِدْبَارُ

من ذلك يمكن القول : أن هجاء ابن الرومي إنساني بالدرجة الأولىٰ، إنه باختصار يعبر عن توتر القيم الحضارية والمثل العليا ، وتحكم الأغبياء ، والجهلة والمرائين ، والمنافقين ، بمصير الفقراء والبسطاء ، والفنانين ، كماعبر عن عدم التكافؤ الاجتماعي في ذلك العصر . فقد تحقق له أن عصره كان عصر تفكك واختلال[٢]. ولعل ابن الرومي في هجائه الذين بيدهم السلطة أو الأمر كان يرمي إلى ردع الظالمين ، والأخذ علىٰ يد المفسدين الذين حرموه من أبسط حقوقه الإنسانية . أو هكذا يرىٰ .

أَيَلْتَمِسُ النّاسُ الغِنَىٰ فَيُصِيبُهُم ... وأَلْتَمِسُ القُوتَ الطَّفِيفَ فَيَلْتَوِي؟

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٢١٢ .
(٢) د. محمد حمود ، ابن الرومى الشاعر المغبون ، ص١٢١ بتصرف .

فابن الرومي في عصره "من أعلام الفكر والواعين الأحرار الذين اضطهدهم ذوو السلطان ، لوعيهم مصادر الظلم الاجتماعي ، ولتعبيرهم عن هذا الظلم بمختلف ألوان التعبير"(١). وقد نجد لابن الرومي نصوصا تكمن قيمتها في أنها تعبر عن تجربته هو ، من ذلك رؤيته للصداقة في زمنه .

"من الظواهر الاجتماعية في عصر ابن الرومي التي هجاها ، وأظهر ضيقه بها فساد أخلاق الناس وقلة وفائهم حتى من بين من يظنهم الإنسان أصدقاءه"(٢). وهو يرى أن للعصر دوره في فساد الأصدقاء ، ويطالب بتجنب صحبة الناس وعدم الاستكثار من الأصدقاء فيقول(٣):

عَدُوَّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ ... فَلاتَسْتَكْثِرَنّ مِنَ الصِّحابِ
إذَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ غَداً عَدُوّاً ... مُبِيناً ، والأُمُورُ إلىٰ انْقِلاَبِ
وَلوْ كَانَ الكَثِيرُ يَطِيبُ كَانَتْ ... مُصَاحَبَةُ الكَثِيرَ مِنَ الصَّوابِ
ولكِنْ قَلّ مااسْتَكْثَرْتَ إلاّ ... سَقَطْتَ عَلىٰ ذِئَابٍ فِي ثِيابِ

ابن الرومي يرى في إنسان عصره ذلك النموذج المتقلب ، والمتلون الذى لايحسن أن يكون صديقا ، فهو نموذج يتجرد من كل قيمة إنسانية ، لذلك حذر منهم فهم ذئاب في ثياب ، كثير فيهم الغدر قليل منهم الوفاء .. وكثير هم الذين نخدع بصحبتهم ، ولاندرك حقائقهم ، لكن الكذب والنفاق لابد أن يظهر وينكشف صاحبهما ولو بعد حين ، وعندها يزداد الإنسان خبرة وفهما لطبائع الناس ، وابن الرومي يعرض لنا ذلك في قوله(٤):

وإخوانٍ اتَّخَذْتُهُم دُرُوعًا ... فَكَانُوها ، ولكِنْ لِلأَعَادِي
وخِلْتُهُم سِهَامًا صائِبَاتٍ ... فَكَانُوها ، ولكِنْ فِي فُؤادِي
وقالوا:قَدْ صَفَتْ مِنّا قُلوبٌ ... لَقَدْ صَدَقُوا ولكِنْ مِنْ وِدَادِي

---

(١) د. محمد حمود ، ابن الرومى الشاعر المغبون ، ص٤٥ .
(٢) عبد الحميد جيده ، الهجاء عند ابن الرومى ، ص٣١١ .
(٣) الديوان ، ج١ ، ص٢٤٦ .
(٤) الديوان ، ج٢ ، ص٣٠٥ .

وبعد أن حذّر من الناس وانتقد الصداقة في عصره لفسادها علّل ذلك ورأىٰ أن الأصدقاء في مجتمعه لاهم لهم سوىٰ الشماتة بالصديق وعدم الصبر عليه ، ويرىٰ في ذلك فقدان العربي لقيمه وشمائله التي منها العفو[١]:

ياصاحباً رضي النَّذالةَ صاحِبًا ... وغَدا يُعُدُّ مُؤاكِليه أراقِما
أَبغضْتَ من طَعْم الطَّعامِ فريقُه ... سمٌ لديك فما تُجامِلُ طاعما
هَلّا لفَيْتُك عِنْد أوّلِ زلّةٍ ... مِنّي كريمَ العفْو أو مُتكارما

وليس هذا كل شيء . فإنسان عصر ابن الرومي لم يفقد إحساسه بالصداقة وأهمية الصديق فقط ، بل وصل الأمر بتغير نفسه واتصافه بالخيانة أنه أصبح كما يقول ابن الرومي يجد لذته في آلام الغير[٢]:

يَضْحَكُ مِنْ كُلِّ مَابَكَيْتُ لَه ... كَأنَّ لَذّاتِه بآلامِي

والبيت لايحتاج في نظري لأي تعليق فقد أدّىٰ ابن الرومي المعنىٰ حقه فليس بعد التلذذ بآلام الغير ، دناءة نفس وسوء أخلاق .

ابن الرومي "رجل مفطور علىٰ الحنان ورعاية الرحم ، والأنس بالأصدقاء والإخوان"[٣]، ولقد كان من أكثر الشعراء إحساسا بمكانة الصديق وأهميته ، والصداقة عنده قيمة إنسانية عظيمة ، لكنه يتذمر من أولئك الذين لايقدرون الصداقة ، ولم يعرفوا إلا بالغدر والخيانة من ذلك قوله[٤]:

حُلْوُ الصَّدَاقَةِ مُرَّها فَصَدِيقُه ... شَرِقٌ بِمَاءِ إِخَائِه مُتغَصِّصُ
ماإنْ يزَالُ علىٰهوَاي مُخَالِفاً ... ومُعَانِدا لِلْحَقِّ حِينَ يُحَصْحِصُ
تُرضيكَ جُمْلَةُ أَمْرِه فِي وُدِّه ... لكِنّها تُشْجِيكَ حِينَ تُلَخَّصُ

---

(١)،(٢) الديوان ، ج٦ ، ص٧٥،١١٣ .
(٣) عباس العقاد ، ابن الرومي ، ص٢٣٩ .
(٤) الديوان ، ج٤ ، ص٥ .

فهذه الأبيات رائعة في معناها ، وقليلا مانجد مثل هـذه المشاعر المركبة فهـو يشير إلىٰ ندرة الأوفيـاء في زمنه ويرىٰ أن لاصديق علىٰ الحقيقـة . وإن وجد هذا الصديق ورضيت منه بعض أحواله ، سيسوءك مـاتبديه الأيام من هذا الصديق حين تلم بك ملمة لاتجده لذلك قال ابن الرومي[1]:

ولي أصدقاءٌ كثيرُو السَّلام ... علـيّ ومَافِيهِـم نَـافِـعْ
إذا أنا أَدْلَجْتُ فـي حَاجَـةٍ ... لَهَـا مَطْلَـبٌ نَازِحٌ شَـاسِعُ
فَلِـي أبَـدَاً مَعْهُـمُ وَقْـفَـةٌ ... وَتَسْلِيمَـةٌ وَقْتَهَـا ضَائِـعُ
أُولئِـكَ لاَحَيَّهُـمْ مُـؤْنِـسٌ ... صَـدِيقاً ولاَمَيِّتُهُـمْ فَـاجِعُ

يرىٰ شاعرنا أنّ الناس لئام ، لايصاحبون المرء إلا في السراء ويتخلون عنـه في الضـراء ، فهم في رأيه يجسـدون الطمع ، والخيـانة ، لـذا نراه يحذر غيره من الركون للأصحاب والأخلاء فما هم أهل للصداقة يقول[2]:

رأيتُ الأخِلاّءَ في دَهْرِنـا ... بِظَهْـرِ المَـوَدَّةِ إلاّ قَليلاَ
بِطاءً عن المُبتَغِي نَصْرَهم ... إلـىٰ أنْ يُغـادَر شِلْـواً أكيلا
فَـإنْ حَشَـدُوا لِأَخٍ مَـرَّةً ... أَدلُّـوا عَليـه دَلالاً ثَقِيـلا
فَلاتَفْزعَنَّ إلـىٰ نَصْـرِهـمْ ... وكُـن للمَظـالِـم ظَهْـراً ذَلِيلا

علاقة الصداقة كما يراها ابن الرومي علاقة إنسانية لها حرمتها توجب الولاء والمعونة بين أطرافها ، ولكن في عصر شاعرنا فسـدت النفوس والنوايا فبـات الإنسان لايجد صديقا صادقا يركن إليه وقت الشـدة بينما يجدهم بكثرة في وقت الرخاء والنعمة ، وابن الرومي كان علىٰ علم بطبائع الناس لذا حذر من الإكثار من الصحاب أو الاعتمـاد عليهـم ، لعلمـه أنهـم قليلي الـوفاء ، كثيري الخيانة والغدر . وهذه إشارة إلى فساد عصره .

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص١٢٧ .
(٢) الديوان ، ج٥ ، ص١٩٦،١٩٧ .

يقف ابن الرومي موقف المدافع عن القيمة الإنسانية المتمثلة في "فن الغناء" فهو يذهب إلى أنّ الجمال وحدة متكاملة لاتتجزأ ، لايداني قبحا ولايلازمه ولايصدر عنه ، لذلك نراه يثأر للجمال في شتى وجوهه ومظاهره حين يهجو أحد المغنين في عصره فيصور قبح صوته إلى قبح هيئته ومنظره فيقول(١):

وإنْ تَبَدّىٰ بِصَوْتٍ خَرَّ سَامِعَه ... للبَرْدِ مَيْتاً ، ولَوْ دَرَّعْتَه سَقَرا
تَخَالَهُ أبداً مِنْ قُبْحِ مَنْظَرِه ... مُجَاذِباً وَتَراً ، أَوْ بَالِعاً حَجَراً
كَأَنّه ضِفْدَعٌ فِي لُجّةٍ هَرِمٌ ... إذا شَدا نَغَماً أَوْ كَرّرَ النَّظرا

فابن الرومي يهجو الصوت القبيح أيا كان مصدره ، فالأصوات المنكرة تجلب الهمّ والغم إلى قلب السامع ، نراه يهجو مغنيا آخر هجاء مرا يقوم على أساس التنكيل بصوته وهيئته فيقول(٢):

يَفْتَحُ فَاهُ مِنَ الجِهَادِ كَمَا ... يَفْتَحُ فَاهُ لِأَعْظَمِ اللُّقَمِ
تَظْهَرُ فِي وَجْهِهِ إِسَاءَتُه ... كَأَنّها مَسْحَةٌ مِنَ الحِمَمِ
يَسْوَدُّ مِنْ قُبْحِ مَايَجِيءُ بِه ... حَتّىٰ كَأَنَّ قَدْ أُسِفَّ بالفَحَمِ
يَشْدُو بِصَوتٍ يَسُوءُ سَامِعَهُ ... تَبَارَكَ اللّهُ بَارِىءُ النَّسَمِ
أبحَّ فيه شُذُورُ حَشْرَجَةٍ ... مَنْظُومَةٍ في مقاطعِ النَّغَمِ
نَبْرَتُهُ غُصّةٌ وهِزّتُه ... مثلُ نَبِيبِ التُّيُوسِ فِي الغَنَمِ

يشير ابن الرومي هنا إلى أثر الصوت القبيح ـ الغناء ـ في النفوس . أثر سيء ، ووجه هذا المغني أسود من فرط إساءته للناس بغنائه ، كما أن صوته أبح متحشرج ، كأن به غصة يشبه صوت التيوس ، وهكذا انفعل شاعرنا بغيرته على الجمال الفني في الصوت والأداء فصاغ لنا هذا الانفعال في

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص١٨٢ .
(٢) الديوان ، ج٦ ، ص٩ ـ ١٠

صور فنية رائعة ، تبلغ حدا كبيرا من الدقة في الوصف والبراعة في السخرية من الابداع في ربط العناصر المصاحبة للغناء ، مثل وجه المغني وملامحه ، وأثر غنائه ، وهيئته في نفوس السامعين[١].

لقد اعتمد ابن الرومي في هجاء صوت هذا المغني وهيئته التي يكون عليها عند غنائه ، اعتمد السخرية ، فتولىٰ قبح الصوت - عاهة يسيرة - وفتّق لها بتعليل كثير ، وأتىٰ بتشبيهات غاية في البراعة ، وقد وُفق فيها باستثارة التهكم والاستخفاف بالمغني وصوته .

"كان ابن الرومي فناناً بارعا أوتي ملكة التصوير ولطف التخيل والتوليد ، وبراعة اللعب بالمعانى والأشكال ، فإذا قصد شخصا أو شيئا بهجاء صوّب إليه "مصورته" الواعية ، فإذا ذلك الشخص أو ذلك الشيء صورة مهيأة في الشعر تهجو نفسها بنفسها ، وتعرض للنظر مواطن النقص من صفحتها"[٢]. من ذلك صوره في هجاء المغنيين والجواري ،و هو يدافع عن الجمال كقيمة يقول[٣]:

صوتُها بالقلوبِ غَيرُ رقيقٍ ... بل له بالقلوب عُنفٌ وبطشُ
وتُغني فتُورثُ السَّمعَ وَقْراً ... فَعَلَيْها لمن تغنَّته أرْشُ[٤]
تَدَّعي غُنّة الشبابِ وَيأبى ... ذَاك صوتٌ لها جريْش أجَشُّ
فإذا رقَّقَتْهُ بِالجَهْدِ منْها ... خِلْتَ أنّ في حَلْقِها شَعيرًا يُجَشُّ
تَتناغَىٰ وَعَودُها بِنَهيقٍ ... كنهيقِ الحمارِ نَاغَاهُ جَحْشُ

---

(١) عبد الحميد جيده ، الهجاء عند ابن الرومى ، ص١٤٨ بتصرف .
(٢) عباس العقاد ، ابن الرومى حياته من شعره ، ص٢٣٣ .
(٣) الديوان ، ج٣ ، ص٣٣١ .
(٤) الوقر : الصمم . الأرش : الدية .

فابن الرومى هنا يشمئز من الصوت القبيح الذي يجلب الملل والضجر ويبعث على النفور الشديد ، ثم يجمع ابن الرومي بين قبح الصوت وقبح الهيئة عند الغناء في مهجوه ، فيسخر منه يقول(١):

تَضْغَطُ الصَّوتَ الذّي تَشْدُو به ... غُصَّةٌ في حَلْقِها مُعْتَرِضَهْ
فَإذَا غَنَّتْ بَدا فِي جِيدِها ... كُلُّ عِرْقٍ مِثْلَ بَيْتِ الأَرَضَهْ

ويظهر لنا من صورته هذه معرفته بأصول فن الغناء حيث يعتمد على سهولة المخرج وطلاقة اللسان ولكن من يهجوها هنا جاهلة بأصول هذا الفن فهى تتكلف في غنائها ، وفي ذلك عَنَت لها ولسامعها كما قال(٢):

إذا تَغَنَّتْ رَحَلَتْ نِعْمَةٌ ... عَنْ أَهْلِها ، وانْصَرَفَتْ غِبْطَهْ
فِي الصَّوتِ مِنْها أبَداً بَحَّةٌ ... تُوهِمُنِي أنَّ بِها خَبْطَهْ
نَغْمَتُها نَغْمَةُ مَزْكُومَةٍ ... قَدْ جَمَعَتْ فِي أَنْفِها مَخْطَهْ

فهذه المظاهر : سوء الغناء ، رداءة الصوت ، قبح الأداء تتضافر جميعا لتصور معنىً واحدا ، هو معنى القبح الظاهر على وجه المهجو والمنبعث من صوته وغنائه . وابن الرومى في اعتكافه على تقليب المعاني ومزاوجتها واعتمالها في نفسه ، يقع على مظاهر وصور كثيرة يعبر بها عن القبح في كل مجالاته ، تدل في نفس الوقت على عمق إحساس شاعرنا بما حوله وحسن تصويره لكل ذلك .

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٥٢ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٦٥ .

ابن الرومي حين يهجو صوتاً كريها فإنه يجرد صاحبه من مذهبه الفني في الغناء كما حدث في هجاء مغنياً،فقد هجاقبح صوته وفساد طريقة تعليمه للصبيان الضرب على الطنبور أو الغناء،في صورة فنية رائعة تبلغ حداً كبيرا من الدقة في الوصف والبراعة في السخرية حين قال(١):

أَبُو سُلَيْمَانَ لاَتَرْضَىٰ طَرِيقَتَه ... لاَفِي غِنَاءٍ ، ولاَتَعْلِيمُ صِبْيَانِ
لَه إذَا جَاوَبَ الطُّنْبُورَ محتفلاً ... صَوتٌ بمصرَ وضَرْبٌ في خُراسانِ
عِواءُ كلب علىٰ أوتارِ مَندفَةٍ ... في قُبحِ قرْدٍ وفي استكبارِ هَامانِ
وَتحْسِبُ العينُ فكّيه إذا اخْتَلَفَا ... عِنْدَ التَّنغُّمِ فَكَّيْ بَغلِ طَحّانِ
وأقذَرُ النّاسَ أسناناً وأَطْفَسُهم ... وأَشْبَه النّاسِ أَخْلاقاً بِإنْسانِ

اعتمد ابن الرومى في هذه الصورة الأسلوب التأليفي الذي يولّد الغلو من جمع معان عديدة في معنى واحد ، فقد مثل ضربه على الطنبور بعواء الكلب الممتزج بأصوات أوتار المندفة ، يضاف إلىٰ ذلك قبح وجهه الذي يشبه قبح القرد ، وابن الرومى يعلم تأثير هيئة المغني على المستمعين لذا هجا وسخر من هيئة هذا المغني الذي ضم إلىٰ هذا القبح الكبر والتعالى ثم يختم أبياته هذه بصورة ساخرة حين شبه فكيه وهو يغني بفكي البغل . يقول الأستاذ محمد حمود : "فتأمل كلمة طحان ، فليس تمام القافية وحدها بهذه الكلمة بل الصورة المعنوية هي التي تمت بها أحسن تمام ، لأن السخر لن يستوفى في هذا التشبيه إلا إذا تمثلنا في موقف الغناء الممتع بغلا من بغال الطحانين العجاف الجياع ، يتنغم ويستكبر بأنغامه استكبار هامان ، ولو كان من البغال الفارهة المترفة لنقصت الصورة وفترت فيها قوة السخرية وقوة التشبيه"(٢).

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص٢٨٨ .
(٢) ابن الرومى ، الشاعر المغبون ، ص١١٨،١١٩ .

لقد كان للقيم نصابها بالنسبة لشاعرنا ، وهو لايبرح يشكو من افتقادها وعبث معاصريه بها ، وقد نقم على مجتمعه وأناسه لتخليهم عن معنى الإنسان فيهم ، وغدا شعره مرآة لاقطة تنعكس فيها آفات العصر وعاهاته كلها .. إذ لم تكن تطيب له تلك الحياة الفاقدة للكرامة الضائعة الناموس ، لذا أرسل أهاجيه في مجتمعه وأبناء عصره(١).

وهجاء ابن الرومى لفئات المجتمع المختلفة دليل على مراقبته ونقده لشرائح المجتمع ، وكثيرامايفتح أعيننا على مثالب ونقاط ضعف في عصره ، لاتبعد كثيرا عن مثالب عصرنا ، ولكن من أين لنا بشاعر ناقد كابن الرومي يُصورها ويُبرزها في صورة فنية هادفة؟؟

العربي في كل زمان يتفاخر بلغته ، وفصاحته ، فالعربية لغة القرآن ، ويفهمها كل العرب ، والعرب لم يعرفوا للعربية إلا أسلوبا واحدا قبل اختلاطهم بالعجم ، فالفصحى كانت سجية على كل لسان ، وفى العصر العباسي بعد الاختلاط بالأعاجم ، انتشرت اللكنة ، فكان الشاعر العربى ، يعتزّ بلغته وفصاحته ، ويسخر ويهزأ ممّن يَلْحِن بلسانه . وابن الرومي وإن كان أصله غيرعربى ، إلا أن لسانه عربي فصيح ، تنبه لهذه العيوب ـ اللكنة والعجمة ـ فهجا أصحابها وعيّرهم بعدم فهم اللغة من ذلك قوله(٢):

وتِجَارٍ مثلَ البهائمِ فازوا بالمُنى في النُّفوسِ والأَحْبابِ
فيهمُ لُكْنَةُ النَّبيطِ ولكنْ تَحْتَها جَاهِليَّةُ الأَعْرَابِ

التناقض الاجتماعى الذي كان يسير في ظل الحضارة ورقي الحياة فى العصر العباسي أتاح الفرصة لاختلاط العرب بغيرهم ، وظهرت نتيجة لذلك آثار سلبية في المجتمع منها انتشار العجمة وتقلد الأعاجم لبعض المناصب في

---

(١) ايليا حاوى ، فن الهجاء وتطوره ، ص٥٧٦ بتصرف .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٣١٨ .

الدولة ، فغاظ شاعرنا ذلك لأن العرب الفصحاء لامكان لهم في مناصب الدولة .. فلم يحفل بالسلطة وهو يهجو ويظهر مثالب عصره وبنيه ، وقد جمع لهؤلاء المهجوين نقيصتين الأولىٰ تتعلق بلغتهم ولسانهم فهم أعاجم لايحسنون النطق بالعربية ، والثانية أنهم في الجهل والتعسف وسوء تقدير الأمور كالأعراب الذين لاعلم لهم ولادين في الجاهلية .

وأكثر مايعيب ابن الرومي علىٰ صاحب اللّكنة قول الشعر وهو في اللغة بليد يقول عنه(١):

لو كان حيّاً سُليمَانَ الذي اعْتَرفَتْ ... لَهُ الغُوَاةُ وأَلْقَتْ بالْمَقَالِيدِ
أَعْيَاهُ شِعْرُ أَبِي حَفْصٍ بِلُكْنَتِهِ ... حَتَّىٰ يُبَلِّد فِيه أيّ تَبْلِيدِ

والذي يلفت نظرنا في هجاء ابن الرومي هو التأني والتدقيق في عرض صوره ، وأداؤها أداء جميلا على الرغم من معناها القبيح أحيانا ، وهذا يرتفع بقيمة الهجاء عنده ، يقول في هجاء مغنية بها لثغة في اللسان ، فلاتخرج الحروف من مخرجها الصحيح(٢):

وَتُحِيلُ الظَّاءَ ضَاداً فإذَا ... هِيَ قَالَتْ : عِظَةٌ ، قَالَتْ : عِضَهْ

وهذا يدل علىٰ أنّ لشاعرنا أُذنا فنية تسمع الجمال وتقدر الفن في كل مصادره .. والغناء من الفنون الشائعة في عصره ، وحين يتنبه إلى عيب في نطق المغنية فهذا يدل علىٰ شدة حساسيته ودقة تصويره لعيوب وعاهات إنسان عصره .

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٢٧٣ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٥٢ .

ابن الرومي في هجائه كان يطلب من أناس عصره أن يقدروا القيم بذاتها من دون نفعها وريحها ، لأنه رأى أن سبب تدني الأخلاق وفساد المجتمع يرجع إلى فقدان المرء لقيمه وأخلاقه الأصيلة ، يقول في هجاء الشعراء[١]:

يَقُولُونَ مالايَفْعلُونَ مَسَبَّةٌ ... مِنَ اللّهِ مَسْبُوبٌ بِها الشّعَراءُ
وَماذَاكَ فِيهم وَحْدَه بَلْ زِيَادَةٌ ... يَقُولُونَ مَالايَفْعَلُ الأُمَراءُ

ابن الرومي في هذه الصورة يهجو آفة رأى أنها شاعت في مجتمعه وهي آفة الكذب . فهذه آفة اجتماعية رذيلة ، استمد شاعرنا معانيه في هذه الصورة من قوله تعالى : {والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهم الغَاوُونَ ، أَلَمْ تَر أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُون ، وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَايَفْعَلُون}[٢]. والظّاهر من الأبيات أن مارمى إليه شاعرنا هو هجاء آفة الكذب بدليل ماألحقه في البيت الثاني ، بأنهم لايكتفون بقول مالايفعلون ، بل يقولون كذلك في مدائحهم مالايفعله الأمراء فليس من المعقول أن يطلق شاعرنا الهجاء لكل الشعراء وهو واحد منهم . ولكن هجاءه كان لصفة الكذب ، فهذه رؤية نقدية من ابن الرومي .

وقد تعددت الصور التي هجا بها آفة الكذب فمن ذلك قوله[٣]:

نُبِّئْتُ أَنّ رِجَالاً لاخَلاقَ لَهُم ... ولَامُفَتِّش صِدْقٍ عِنْد تَفْتِيشِ
مُسلِّطِينَ عَلىٰ الأَحْرارِ فُحْشُهُم ... ونَاكِلِينَ عَنِ القَوْمِ المَفَاحِيشِ
مَنْ كُل مَقْبُوحِ غَيْبِ الوُدّ ظَاهِرُه ... ماشِئْتَ مِن حُسْنِ تَزْوِيقٍ وَتَرْقِيشِ
يُنَفِّشُونَ حَقِيراً مِن أُمُورِهُم ... ولَاتَرَى قَدْرَهُم فِي وَزْنِ تَنْفِيشِ

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٥٢ .
(٢) سورة الشعراء : آية ٢٢٤،٢٢٥،٢٢٦
(٣) الديوان ، ج٣ ، ص٣٤٤ .

وهنا يبدو ابن الرومي حَنِقًا على إنسان عصره ، لما يتصف به من رذائل في مقدمتها الكذب والبهتان ، والتحرش بالآخرين عن طريق إظهار مساوئهم وتحري القبيح من أعمالهم ، ومن ثم التشهير بهم ، ولعل شاعرنا في هذه الصورة يعاني من سخرية بعض معاصريه من شعره ، وهم لايحسنون سوى الكذب واتهام الغير بالفحش . يؤكد هذا قوله في نص آخر(١):

وَقَدْ كانَ مِمَّنْ يَشْهَدُ الزُّورَ مَرَّةً ... بِأَنْزَرَ مَنْزُورٍ وَمَاذَاكَ بِالطَّلْقِ
أَحَلَّ حَرامَ المَدْحِ في غير أَهْله ... فَجُوزِي حرماناً فلم يُؤْتَ مِنْ حَذَقِ

هكذا يصور ابن الرومي تخلي معاصروه خاصة منهم الشعراء عن قيمة إسلامية عظيمة ـ قيمة الصدق ـ سواء في الحديث أو الشّهادة وهذا يدل على ضعف عام في الدين إبّان عصره ، وقلة اهتمام الناس ورعايتهم له ، حتى تفشّت رذيلة الكذب وباتت كما يقول ابن الرومي حرام أحله أناس عصره .

"الهجاء العميق المشحون بقوة عاطفية ذات لون نقدي ، يترك بالنفس مرارة وأسى ، أكثر بكثير من الأساليب القديمة القائمة على الألفاظ الشنيعة ، والأسلوب المباشر"(٢). وابن الرومي كان كثيراً مايعتمد هذا الهجاء وهو يكشف لنا عن حقيقة مجتمعه ومعاصريه ، يقول مظهرا بعض عيوب معاصريه(٣):

ظَلَمَ الشِّعْرُ صَاعِدًا ، وكَذَا كَمْ ... ظَلَمَتْهُ المُلُوكُ بِالتَّفْرِيسِ
بَلْ هُوَ الظَّالِمُ الّذي ظَلَّ يرْقى ... رَاكِباً مَرْكَباً مِنَ التَّدْلِيسِ
وتَولّى وِزَارَتَيْنِ فَأَضْحى الـ ... ـحَقُّ غَضْبَانَ ظَاهِرَ التَّعْبِيسِ

فهذه الصورة لاتمثل واقع المهجو بقدر ماتمثل واقع عصره ، فالشاعر يتصدى للهجو ظاهرا ، فيما يثلب واقع عصره ضمنا ، عصره الذي لايحل

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٣٣٤ .
(٢) عبد الحميد جيده ، الهجاء عند ابن الرومى ، ص٣١٦ .
(٣) الديوان ، ج٣ ، ص٢٩٧ .

فيه المرء المحل اللائق به ، حيث عمّ الزيف والنفاق في ادعاء المرء ماليس له ، دون أن يرفض المجتمع ذلك ، بل قد يُطمع ذلك بعض الفئات أن يجاهروا بالظلم ، ومنهم فئة التجار الذين تعرض لهم ابن الرومي فقال[١]:

رَبِّ أَطْلِقْ يَدَيَّ فِي كُلِّ شَيْخٍ ذِي رِيَاءٍ بِسَمْتِهِ فَسُكُونِهْ
تَاجِرٍ فَاجِرٍ جَمُوحٍ مَنُوعٍ يُرْهِقُ النَّاسَ فِي اقْتِضَاءِ دُيُونِهْ
جَمَعَ المَالَ بِالعَدَالَةِ فِي الظَّـ ـاهِرِ والمُوبِقَاتِ مِن مَكْنُونِهْ

ابن الرومي من خلال هذه الصورة وغيرها في هجاء ونقد المجتمع يعطينا صوراً حية من مجتمعه ، ويعبِّر عن عيوب هذا المجتمع بطريقة فنية ، وقد كان إنساناً عندما تحدث عن عيوب المجتمع والعصر الذي عاش فيه ، واستعمل هجاءه ليدافع عن قيم الخير والحق آخذاعلىٰ أيدي المجرمين ، وابن الرومي تجاوز في هجائه الاجتماعي ، كل ماهو متوارث وتقليد ، فشعره عام لجميع الناس فكان هجاؤه الاجتماعي رسالة أخلاقية ، تحدث فيها إلىٰ مجتمعه وأعلن عن نقائصه من أجل تقويمها والعمل علىٰ ترقي الإنسان في سلم الحضارة، بأسلوب فيه قوة التصوير العاطفي المؤثر ، حين يصور مأساة الإنسان في المجتمع العباسي بل وفي كل مجتمع في أي مكان أو زمان[٢].

فهذه آفات وعلل تصيب الناس في المجتمع المريض ، ومجتمع شاعرنا كان مريضا ، انتشرت فيه المفاسد وساد الظلم ، حتىٰ نقل إلينا ابن الرومي فقدان العدالة الاجتماعية في عصره من خلال أهاجيه للتجار والحجاب وذوي السلطة والنفوذ .

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص٢٩٠-٢٩١ .
(٢) عبد الحميد جيده ، المرجع السابق ، ص٣١٦،٣١٩ بتصرف .

عصر ابن الرومي عصر منافسة في كل شيء ، من ذلك المنافسة في الشعر والصراع في جودته ، في زمن طغت فيه مظاهر الحضارة وشاعت وسائل اللهو من غناء وطرب وماإليها ، وهذه المنافسةلاتقوم إلا على الشعر والتندر به ، فهو معدنها الأصيل ، ولم يفت ابن الرومي أن يهجو الشعراء المعاصرين له ويعيب شعرهم . يقول(١):

وَلَهُ أَبْيَاتُ شِعْرٍ ... أُلِّفَتْ زَوْجاً وفَرْداً
جَمَعَ الإِغْرَابَ طُرّاً ... في قَوافِيهِنّ عَمْداً
وحُرُوفَ المُعْجَمِ الخِلْفَةُ ... أَحْصَاهُنّ عَدّاً
سَرَدَ الكَافَاتِ والمِيمَاتِ ... والدَّالاتِ سَرْداً
وتَرى المَخْفُوضَ مِنْها ... يَطْرُدُ المَرْفُوعُ طَرْداً

هذا المهجو في نظر ابن الرومي لاعهد له بالشعر وقواعده وكل مايفعله أنه يجمع حروف المعجم ويسردها وهو يوهم نفسه أنه يقول شعرا . ثم يهجو ابن الرومي معاصريه ويتّهمهم بقلة الذوق وعدم الفهم حين يقرون مثل هذا النظم السخيف ويتجه لشاعر منهم فيقول(٢):

كُلّ شِعْرٍ جَهِدَتْ نَفْسَكَ فِيه ... وتَكَلّفْتَ نَظْمَه تَفْقِيعُ
لَمْ يَقُلْه إلاّ مُوَطِّن نَفْسٍ ... أَنّه عِنْدَ بَثّه مَصْفُوعُ
فاتْرُكِ الشِّعرَ وارْتَدِعْ مِن قَرِيبٍ ... واعْدُ عَنهُ إلى الّذي تَسْتَطِيعُ

يعد هجاء شاعرنا سلاحاً للدفاع عن القيم ، في عصر لايرحم ولايقدر القيم ، وابن الرومي ينبري بهجائه يدافع عن تلك القيم ويرى أن تقديرها يكون بأداء الأكفاء لها لامن هم دونها ، والشعر عنده قيمة ليس لأي أحد قدرة عليها ، وحين يرى هؤلاء المتشاعرين يتكلفون نظمه لايتردد في هجائهم انتصاراً للجمال ومطالبة بتحقيق التقدم والرقي للإنسان في سلم الحضارة ، في

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص١٨٨ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص١٩٠ .

فيذلك يقول إيليا حاوي : "أنه يطلب من الناس أن يقدروا القيم بذاتها من دون نفعها وربحها"(١).

وعندما يرىٰ منظراً قبيحاً ، أو يسمع صوتا كريها ، أو حتىٰ كلاماً ثقيلاً كأولئك المتشاعرين الذين يتكلفون نظم الشعر،كل ذلك كان يثير شاعرنا ويستفزه ويرىٰ فيه مُناقضاً للجمال الذي أحبه وتصبّاه ، فلايملك نفسه من هجاء كل ذلك منتصرا للجمال ومعرِّضا بالقبح وأهله في شتى صوره وأشكاله .

والشاعر يدرك أنّ الهجّاء لابد أن يَصْدِر عن ثقافة اجتماعية ، ومصادر يعرف منها سقطات الناس وعوراتهم ، وقد كان في هجائه يؤرخ للتطور الاجتماعي في عصره .. وفي بعض صور هجائه تبدو لنا سعة معارفه وثقافته ، يقول مصورا حياة بعض مدعي العلم ومظهرا لمثالب إنسان عصره الجاهل(٢):

لَوْ تَلَفَّفْتَ في كِسَاءِ الكِسَائيّ ... وتلبَّسْتَ فَرْوَةَ الفَرَّاءِ
وتَخَلَّلْتَ بالخَليلِ ، وَأضْحَىٰ ... سِيبَوَيْهٍ لَدَيْكَ رَهْنَ سِبَاءِ
وتكوّنْتَ مِن سَوَادِ أبي الأَسْـ ... ـودِ شَخْصاً يُكنىٰ أبا السَّوْدَاءِ
لأَبَىٰ اللّهُ أنْ يَعُدَّكَ أهْلُ ... العلمِ إلاّ مِن جُمْلَةِ الأَغْبِياءِ

اعتمد ابن الرومي في هذه الصورة علىٰ ألوان البديع من جناس وطباق . مع اقتداره علىٰ انتقاء الألفاظ ، بحيث لايظهر للتكلف فيها أثرا .. وهو يعيب علىٰ بعض معاصريه الجهل وسوء الفهم . مستعرضا الأعلام

---

(١) فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص٥٤٦ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٨٧ .

المشهورين في علوم اللغة والأدب ، وهو يرىٰ أن من الجهل ادعاء العلم ، كما أن من الجهل كثرة الحفظ دون وعي أو فهم ، يقول في ذلك(١):

فإن يَقل:إنّني رَوَيْتُ فكالدّفْـ ـتَر جَهْلاً بِكُلِّ مَـاعْتَقَـدَهْ
أَنْشَدْتَـه منْطِقـي ليشْهَـدُهُ فَغَابَ عَنْهُ عَمَىً ومَـاشَهِدَهْ
وَقـالَ قَـوْلاً بِغَيْـرِ مَعْـرِفَـةٍ إِفْكاً فَمَـا حلَّ إِفكُهُ عُقَدَهْ
وَلاأَنَا المُفْهِم البَهَائِمَ والطَّـ ـيْرَ سُلَيْمَـانُ قَـاهِرَ المَـرَدَهْ
مابَلَغَتْ بِيالخُطوبُ رُتْبَةَ مَنْ تَفْهَمُ عَنْهُ الكِلَابُ والقِـرَدَهْ

هنا يجرد ابن الرومي مهجوّه من أهمّ قيمة في عصره وهي قيمة العلم والفهم ، فمعروف أنّ العصر العباسي عصر ازدهار العلم واتساع الثقافة ، بل هو عصر تنافس في الأدب والعلم ، فمن أشدّ مايوصم به الانسان ويهجا به - في عصر بلغت العلوم فيه مرتبة عظيمة - أشد مايهجا به الجهل .

وشاعرنا يشبه مهجوه في كثرة حفظه دون فهم مايحفظ بالدّفتر الذي تُملأ أوراقه بالعلوم دون أن يعي هو مافيها ، ثم يشبه أفراد عصره الجهلة بالبهائم التي لاتفهم ، بل ويجعل منهم الكلاب والقردة نكاية بهم وتندرا واستخفافا بعقولهم .

الذي دفع شاعرنا إلىٰ مثل هذا الهجاء أنّ بعضهم كان يستهين بشعره ، فتألم لذلك ، حين رأىٰ مَنْ ليس بأهلٍ للنّقد والأدب ينتقد شعره.فثار وكان هجاؤه هو المتنفس الوحيد لغضبه وثورته .

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٢٤٩ .

التطـور الفني لهجـاء ابن الـرومي يتّضـح في الهجـاء السـاخر الـذي استهدف إضحاك الناس علىٰ المهجو وسخريتهم منه ، وقد اعتمد شاعرنا علىٰ فن أصيل في رسم شخصية المهجـو مـن ناحيـة معنـوية أو جسميـة ، وقـد استعـان فيـه الشـاعر بكل معـارف عصـره وبجميع عنـاصر الفكـاهة والهـزل الشائعة بين الناس في ذلك العصر منها قوله في السواد[1]:

وَجْهُكَ . يَاجَعْفَرُ. فِي قُبْحِهِ ... أَوْلَىٰ مِـنْ العَـوْرَةِ بالسَّتْـرِ
كَأنَّما تَـأْوِي إليْـه الدُّجَـىٰ ... إذَا هِـيَ انْفَضَّتْ عَنِ الفَجْرِ
مِحْلَوْ لِكَ أَحْسِـبَ ديبَاجَـهُ ... أسفْتَهُ مـن حُمَـم القِـدْرِ

فـابن الـرومي يرىٰ القبح عـورة .كما يرىٰ في السـواد قبـح ، وله في ذلـك صور كثيرة حسبنا منهـا مايدل علىٰ موقفه من القبـح . يقـول في وجه قبيح .. مصورا نواحي القبح فيه من لون إلىٰ نمش إلىٰ غيره ، يتهكم بصاحبه ويقـول عنه ليس أهلا للعشق . ويتساءل فى سخرية بماذا يمكنـه أن يُعشق[2]:

لَيْتَ شِعْرِي بِمَا تَظُنُّكَ تُصْبِي ... قَلْبَ وُدّانَ ياكَسِير الجَنَاحِ؟
أَبِـوَجْـهٍ كأنَّـه وَجْـهُ قِـرْدٍ ... حائلُ اللّونِ خامدُ المِصْباحِ؟
أيُّحِرْز فيه من الطَّير أنْ لَوْ ... جَعَلُـوهُ فَـزَّاعَـةً فـي قَـراحِ
فيه خَـدّانِ أَنْمَشَـانِ بَعِيـدَا ... نِ لَعَمْرِي عَنْ حُمْرَةِ التُّفَاحِ
نَمْشَـةٌ فَـوقَ صُفْـرَةٍ فَتَـراهُ ... كَوَنِيمِ الذُّبابِ فـي اللُّقَاحِ[3]
أَمْ بِقَـدٍّ كـأنـه قَـدُّ زِقٍّ ... زِيدَ عَـرْضًا بِبَطْنِـكَ المُنْـداحِ

... ...

معشرٌ أَشْبَهُوا القُـرودَ ولكـنْ ... خَالَفُـوهَا فِـي خِفَّةِ الأَرْوَاحِ

مـن يتأمل هذه الصورة يرىٰ كيـف استطاع شاعـرنا أن يخرج بوصف يكـاد يكون متكاملاً لفئة مـن الناس في عصره ـ الخصيـان ـ فبعد أن استنكر عليهـم ولعهم بالمغنيات ، أخذ يلتقـط عيوب أحدهم التقـاطا سـريعا ناقدا ،

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص١٥٠ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٦٣،٦٤ .
(٣) الونيم : سلح الذباب ، اللقاح : نبت يشبه الباذنجان .

فشوّهه تشويهاً غريبًا ، ولم يتركه إلاّ بعد أن جعل منه سخرية للناس ، ومصدراً للضحك ثم أجمل ذلك بأن عقد وجه شبه بين فئة الخصيان وبين القرود ، وجعل السمة الوحيدة التي يمتاز بها الخصيان عن القرود هي خفة الروح .

ابن الرومي في هجائه يقدم لنا نماذج إنسانية موجودة في مجتمعه لايلصق بها عيوبا من خياله ، ولكنه يرىٰ أنها بالفعل تحمل كل نقائص عصرها أو نقائص الإنسانية بوجه عام ، ويعرضها لنا بطريقة تمتعنا ونطرب لها ، من ذلك قوله[1]:

أَقِصَرٌ وعَوَرٌ ... وَصَلَعٌ في واحِدْ؟
شَواهِدُ مَقْبُولَةٌ ... نَاهِيكَ مِنْ شَواهِدْ
تُخْبِرُنا عَنْ رَجُلٍ ... مُسْتَعْمِلِ المَقَافِدْ
أَقْمَأَهُ القَفْدُ فَأَضْـ ... ـحَىٰ قَائِمًا كَقَاعِدْ

تُرى أكان ابن الرومي بهذه الصورة الساخرة الهازئة ، ينتقم من الناس ، أم من القبح فى أي صورة كان؟ ابن الرومي حين يتتبع العاهة الجسدية ويقرنها بالعاهة النفسية ، فهو يجسد بها حقارة النفس ونذالتها ، فالمهجو هنا لم يخلق قميئا ، ولكن كثرة الصفع علىٰ قفاه جعله علىٰ هذه الصورة ، وقد جمع ابن الرومي في صورته هذه الإبداع الفني إلىٰ السخرية التي لاحد لها ، إلىٰ العمق في الأداء . كما في الصورة التالية[2]:

دَحْدَاحَةُ الخِلْقَةِ حَدْبَاؤُها ... قَامَتُها قَامَةُ فَقَّاعَهْ
قَصِيرَةُ القَامَةِ مَقْصُوعَةٌ ... لِلقَمْلِ فَوْقَ الطَّبْلِ قَصَّاعَهْ
تَطْفُرُها مِنْ قِصَرٍ فَأْرَةٌ ... ...

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص١٧٢ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص١٦٨ .

مَشْؤُومَةٌ لِلْخَيْرِ حَصَّادَةٌ ... لَكِنَّهَا لِلشَّرِّ زَرَّاعَةْ
تَضِلُّ فِي السِّرْبَالِ مِنْ قِلَّةٍ ... كَصَعْوَةٍ فِي جَوْفِ قُفَّاعَةْ (١)
لو أنَّها مِلكي ولي ضَيْعَةٌ ... نَصَّبْتُهَا لِلطَّيْرِ فَزَّاعَةْ
أَقْبِحْ بذاك الخَلقِ من مَنظرٍ ... وزَّع فيه القُبحُ أوْزاعَهْ

ابن الرومي في هذه الصورة يستخدم العاهة ـ القصر ـ لتصوير عاهة المهجو النفسية في سخرية وقسوة واستهانة بالمهجو ، فهو يجرده من كل مايصله بانسانيته ، حتىٰ يعده عاهة تشوه الحياة وتسيء إلى الوجود ، وهذه مقدرة شاعرنا الفنية في إحالة العاهات إلىٰ رسوم كاريكاتورية ضاحكة ، وقد جمع في هذه الصورة للمهجوة أغلب صفات الحقارة ، وأظهر العيوب الجسدية حتىٰ تمنىٰ أن لو كان له ضيعة وكانت هذه الإنسانة ملكة ليجعل منها نصبا ـ خيالا ـ يفزع الطيور فلاتقع على أرضه .

كان لابن الرومي قدرة علىٰ التهكم ، وبراعة في الخيال لابداع الصور المضحكة اللاذعة ، ودقة في التصوير ، تتناول القبح في أخفى مظاهره ، وتعرضه في أمانة تفضح عيوبه بجلاء(٢). فعين ابن الرومي الناقدة وروحه الساخرة الفكهة تتمثلان في مواطن كثيرة من هجائه ، يقول في هجاء أصلع (٣):

يَاأَيُّهَا الهَارِبُ مِنْ دَهْرِه ... أَدْرَكَكَ الدَّهْرُ عَلىٰ خَيْلِه
يَسُوقُ مِنْ نُفْرَتِهِ طُرَّةً ... إلىٰ مَدىً يَقْصُرُ عَنْ ثَيْلِه

---

(١) قفاعة : واحدة قفاع : نبات متقفع كالقرون صلابة إذا يبس ، يقال له كف الكلب .
(٢) حنا الفاخورى ، تاريخ الأدب العربى ، ص٥٣٢ بتصرف .
(٣) الديوان ، ج٥ ، ص١١٧ .

فَوَجْهُهُ يَأْخُذُ مِنْ رَأْسِهِ أَخْذَ نَهَارِ الصَّيْفِ مِنْ لَيْلِهِ
مِثْلُ الَّذِي يُرَقِّعُ مِنْ جَيْبِهِ وَهْيًا بِمَا يَأْخُذُ مِنْ ذَيْلِهِ

هذه الصورة وصل فيها الفن إلى ذروته ، فهو يصف هذا الإنسان الذي يهرب من دهره عندما يُغطي صلعته بشعر مؤخرة رأسه ، وهو بذلك يدلل على عجز الإنسان عن تغيير الواقع ، فهو لايستطيع أن يهرب من الدهر فالدهر يلحقه أينما ذهب ويظفر به ، وقد وصل ابن الرومي إلى قمة الجمال الفني فى البيت الثالث ، فخياله الخصب هو الذي أتى بهذه الصورة الجميلة ، فقابل بين الوجه والنهار من ناحية البياض وبين الشعر والليل من ناحية السواد ، ثم بين نهار الصيف الطويل ووجه الأصلع الذي يكبر تجاه رأسه ، وبين ليل الصيف الذي يقصر ويتراجع كما تتراجع إلى الوراء شعيرات هذا الأصلع . فاستطاع شاعرنا أن يخلق هذه المقابلات بخياله الخلاّق النابض بالحس والحياة وأتى بالوصف كالخيال دقيقاً حيّاً نابضاً بالحياة ، وكوّن لنا لوحة فنية خالدة(١).

وابن الرومي ينتقم للجمال مما يشوّهه . يقول في قينة قبيحة(٢):

لَهَا جَبْهَةٌ فِيهَا سَطُوحٌ نَصِيفِ وصدغٌ لها غالٍ بنصفِ رَغيفِ
كأنّ بقَايا المِسْكِ فِي صَحْنِ خدِّها بقايا سمَادٍ فى جِدارٍ كَنيفِ

وهذه الصورة دليل على براعة شاعرنا التي تكون في سخره حين يشبه صورة محسوسة ، أو يخلق من خياله صورة معنوية ، فهو يُحكم التشبيه ، كما يحكم خلق الصورة . وهو في هجاء هذه القينة ، وغيرها من صوره الساخرة والمشوهة ، أظهر لنا قدرة عجيبة في التصوير ، دفعته إلى رسم تلك الصور في الغالب حدة في شعوره بالجمال ، جعلته يشمئز ويثور لمرأى كل قبح ، وذلك لفرط إحساسه بالجمال ونفوره من القبح ، لأن الجمال يولّد القوة في النفس ، بينما الضعف يكون من مصادره القبح .

---

(١) عبد الحميد جيده ، الهجاء عند ابن الرومى ، ص٣٨٢،٣٨٣ بتصرف .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٢٦٢،٢٦٣ .

ابن الرومي في هجائه يُخرج من يذمه عن نطاق الإنسانية ، انظر إليه يشبه المهجو بالكلب ، ثم يفاضل بينهما ، فإذا للكلب صفات تميزه عن المهجو ، كل ذلك بأسلوب ساخر وهجاء موجع لاذع يقول(١):

وَجْهُكَ ياعَمْرو فِيه طُولٌ ... وَفي وُجُوهِ الكِلابِ طُولُ
فَأيْنَ مِنْك الحَيَاءُ قُلْ لِي ... يَاكَلْبُ والكَلْبُ لايَقُولُ
مَقابِحُ الكَلْبِ فِيكَ طُرّاً ... يَزُولُ عَنْها وَلاتَزُولُ
وَفيهِ أشْيَاءُ صالحاتٌ ... حَمَاكَهَا اللّهُ والرَّسُولُ
والكَلْبُ وافٍ وفيكَ غَدْرٌ ... فَفِيكَ عَنْ قَدْرِه سَفُولُ
وَقَدْ يُحامي عَنِ المَواشِي ... وَمَاتُحامي ولاتَصُولُ
وأنْتَ مِنْ أهْلِ بَيْتِ سُوءٍ ... قِصَّتُهُم قِصَّةٌ تَطُولُ
وُجُوهُهم لِلْوَرَىٰ عِظاتٌ ... لكنَّ أقْفَاءَهُم طُبُولُ

فهذا المهجو فقد كل مايربطه بالإنسانية من خلق ، فهو لئيم غادر ، ورث اللؤم عن آبائه وأجداده ، وهو عالة علىٰ الوجود ، وفي هذا الهجاء يخيّل إلينا أن ابن الرومي ينحدر إلىٰ أعماق المهجو ، فيدرس نفسه ، وينقل عنها هذه الصورة الشوهاء ، فكأن التشويه في نفس المهجو ، وابن الرومي لايُعنىٰ بمدىٰ جدارة المهجو بالهجاء ، وإنما يصب جهده في تجريده من كل القيم حتىٰ لَهُوَ فارغ من المعنىٰ ، ولَهُوَ زيادة علىٰ الحياة لامكان له فيها مثله مثل الطلل ، أو البيت الذي لامعنى له في القصيدة ، بل هو زيادة تُشوِّه القصيدة مثل مايشوِّه المهجو الحياة ، وقد لجأ كعادته إلىٰ تفسير المعنىٰ وتقليبه علىٰ كل وجوهه(٢).

مَاإنْ سَأَلْنَاكَ مَاسَأَلْنَا ... إلاّ كَما تُسْأَلُ الطُّلُولُ
مُسْتَفْعِلَنْ فَاعِلُنْ فَعُولُ ... مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعُولُ
بَيْتٌ كَمَعْنَاكَ لَيْسَ فِيه ... مَعْنَىً سِوَىٰ أنّه فُضُولُ

---

(١) الديوان ، ج٥ ، ص١٨٧ .
(٢) إنعام الجندى ، دراسات فى الأدب العربى ، ص١٠٦ بتصرف .

فابن الرومي شديد السخرية ، تواتيه الصورة الفنية ، فتزيد من قسوة هجائه ، وتعينه الكلمة التي ترد في مكانها من المعنى . يقول في نفس المعنى السابق (١):

مأنْتَ إلاّ خَيَالٌ طَافَ طَائِفُه ... ولاهجَائِيكَ إلاّ هَجْرُ وَسْنَانِ
قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُه شَيْئاً فَأَهْجُوه ... حَتّىٰ أزَال ظُنُوني فيه حُسْباني

فهذا المهجو تجرّد من كل قيمه وفضائله حتىٰ غدا كالخيال الذي لاقيمة له ، وابن الرومي يترفع عن هجائه لأنه لايراه شيئا ، وهو بذلك يجرح مهجوه حين يرىٰ أن الهجاء فيه خسارة وهذا منتهىٰ الطعن والازدراء .

العيوب الخِلْقية منها مايتصل بالشكل العام للإنسان ، من قصر ولون ، وعيب فى الوجه ، أو الأنف، وهي عند ابن الرومي نماذج عديدة ووفيرة ولكنا سنجتزىء بعض صوره من هجاء صاحب أنف ضخم يقول (٢):

عَلَيْك وَجْهٌ كَسَاهُ اللّهُ لَعْنَتَه ... كَأَنّ خُرْطُومَه خُرْطُومُ خِنْزِيرِ

الإنسان يركز علىٰ الوجه لأنه مركز الجمال والهيبة ، ومركز الوجه الأنف ، وهذه خطورة الأنف في هجاء ابن الرومي فهو لايرمز بالأنف إلى الأنفة وإنما إلى قبح الشكل ، فإذا تحمل إنسان ما وجه هذا المهجو ثم حدثه أو جالسه فالطامة الكبرىٰ من ذلك الأنف المشوّه كل ذلك يصوره شاعرنا بسخرية فيقول (٣):

وَإِذَا جَلَسْتَ آذَىٰ خَشَا ... مُك مَنْ يَضُمّ المَجْلِسُ
وإذا نَهَضْتَ كَبَا بِوَجْـ ... ـهِكَ لِلْجَبِينِ المِعْطَسُ
فَالأنْفُ مِنْكَ لِعظْمِه ... أبَداً لِرَأْسِك يَعْكِسُ
إنْ كَانَ أنْفُكَ هَكَذا ... فَالفِيلُ عِنْدَك أَفْطَسُ

---

(١) الديوان ، ج٦ ، ص٢٠١ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص١٦٣ .
(٣) الديوان ، ج٣ ، ص٢٧٩ .

مقدرة ابن الرومي الفنية أتاحت له أن يُعنى بالوصف في أهاجيه كما استطاع أن يستقصي أوصاف المهجوين معاينة أو خيالا ، ومن ثم الوصول إلى معانٍ جديدة[١]. فمن ذلك قوله في صاحب الأنف الطويل[٢]:

سَمِعْتُ بعمرو الجِنّي قِدْماً ... ولمْ أرَهُ يَكُونُ مَعَ الأنِيسِ
فَأظْهَرَهُ الإلهُ لنَا بِعَمْرو ... أبي الخُرْطُوم ذي الأنْفِ الرَّئيسِ
نفيسٌ في الأنوفِ علىٰ خسيسٍ ... وقدْ تَجِدُ النَّفيسَ علىٰ خَسِيسِ
إذا عَيْنَاك قُوبِلَتَا بِعَمْرو ... ذَكَرْتَ حَدِيثَ طِسْمٍ أو جُدِيْسِ

وهكذا فقد تبين من هذه الصورة وغيرها أن التصوير الفني عند ابن الرومي لايخلو من الذكاء ، يسعفه خيال متحرك جبّار ، له قوة علىٰ الإيحاء تضمّن القليل من الألفاظ عوالم من المعاني لاتحد . يقول[٣]:

في وجْهِهَا مِنْ أنْفِها رَوْشَنٌ ... أمَا يَراهُ صَاحِبُ الشُّرْطَةْ؟
أقْسَمْتُ أنْ لَوْ كَانَ لي أنفُها ... قَطَطْتُ مِنْ خُرطُومِهِ قَطّهْ

ابن الرومي في هذا النص لم يقصد إلىٰ أية إثارة فنية ، وإنما قصد تسجيل المشهد الذي أمامه ، ولكن في شيء من التهكم والسخرية حتىٰ أقسم لو كان له أنفها لقط منه قطة ، أي لطوله لايرضىٰ أن يتركه علىٰ ماهو عليه لأنه يرىٰ في طوله قبحاً لايطيقه ، ويتعجب من ترك صاحب الشرطة لها ولأنفها .

لقد توافرت فى ابن الرومي مقدرة علىٰ التصوير ، ظهرت في هجائه فهو يخلق صورا جديدة ، ويبتكر زوايا معينة يركز عليها . امتاز معها بقدر كبير من الحساسية ، والمهارة فى تركيب تلك الصور ، وتأليفها ففي الإئتلاف

---

(١) عبد الحميد جيده ، الهجاء عند ابن الرومى ، ص٣٤٨ بتصرف .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص٣٠٣ .
(٣) الديوان ، ج٤ ، ص٦٦ .

جمال . يقول في ذم الروائح الكريهة في مهجوّيه[١]:

تَنفّسَ في وجْهي فَكِدْتُ أَمُوتُ وأَعْرَضَ عنّي سَاعَةً فَحَيِيتُ
وأَنْتَنَنِي حتّىٰ ظَنَنْتُ بِأَنّي وحَقِّكِمُا ياصَاحِبَيَّ خَرَيْتُ

فهذا ابن الرومي حين يلتقط نواحي النقص في هجائه ويلحّ عليها بريشة فنان ساخر ، فقد بالغ في وصف سوء رائحة فم هذا المهجو حتىٰ كاد يموت حين تنفس في وجهه ، وعد انصرافه عنه حياة له .. وكأنه ينفي عن مهجوّه الثقافة الإسلامية أو عدم اتباع تعاليم الدين الذي أمرنا بالنظافة في كل شيء وحض علىٰ استخدام السواك لتطهير الفم وتطييب رائحة النفس . ولايكتفي بذلك بل نراه في صورة أخرىٰ يهجو مغنية فيصف رائحتها الكريهة ويتهمها بالقذارة والنجاسة :

بَخْرَاءُ،وَقْصَاءُ،في مَغَابِنها نَتْنٌ مَجيفٌ ، فكُلّها عُذَرُه[٢]
لاتَغْسِلُ الدَّهْرَ كَفَّها قَذَراً فَكَفُّها طُولَ دَهْرِها غَمِرُه
تُحرِّم الماءَ مِنْ نَجَاسَتِها فَهْيَ . يَدَالدَّهرِ كُلّه . ذَفِرُه[٣]

فليس من الضروري أن تكون العاهة جسمية ، بل ربما كانت عاهة معنوية ، كما عرض لنا ابن الرومي في الصورة السابقة ، وغرضه من كل ذلك هجاء النموذج وتصويره تصويراً ساخراً ، وتشريحه بطريقة فنية تبعث علىٰ الضحك .. يقول في مغنية جمعت العديد من صور القبح :

كَنَزَ اللّهُ فـي كُنَيْـزَةِ نَتْنـاً خَالِصَ النَّوعِ لَيْسَ مِمَّا يُغَشّ
بَخَرٌ يَصْدَعُ الصَّفا،وخُشَامٌ وَصَنانٌ ، فإنَّما هي حَشّ[٤]

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٤٤٨ .
(٢) البخراء : التي تصدر من فمها رائحة كريهة .
الوقصاء : قصيرة العنق .
العذرة : يبس النجو .
(٣) ذفرة : رائحة كريهة . انظر الديوان ، ج٣ ، ص١٣٧ .
(٤) الصنان : الرائحة الكريهة ، الحش : المرحاض .

فَـإذا ماتَحَـدَّثَـتْ أوْ تَغَنَّـتْ طَفِقَـتْ أَنْـفُ النَّدامـىٰ تُخَـشُّ
ريحُها وهيَ حيَّةٌ رِيحُ مَيْتٍ بَاتَ فـي القبْـرِ ثُمَّ أبْـداهُ نَبْـشُ
تَنْفُرُ الأنْفُسُ السَّواكِـنُ مِنْهـا حِيـنَ تَدْنُوُ فَـإنّما هِـيَ وَحْشُ (١)

أرأيت كيف يثأر شاعرنا للجمال في شتى صوره حين يهجو القبح أيا كان مصدره . فهذا نابع من شخصيته التي تكره القبح وتنشد الجمال في كل شيء والتى يستحيل أن تسكت على مالاترضاه .

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٣٣٠ .

من الظواهر الاجتماعية التي لم يرض عنها ابن الرومي وهاجمها في شعره قلة التّدين ، وقد ابتلي في عصره بأناس يطيلون لحاهم ويطلقونها إظهارا للورع وإخفاء للنوايا الخبيثة ، فهجاهم وشهّر بهم من ذلك قوله(١):

إنْ تَطُلْ لِحْيَةٌ عَلَيْك وتَعْرُض ... فَالْمَخَالِي مَعْرُوفَةٌ للحَمِيرِ
عَلّقَ اللّهُ في عَذَارَيْكَ مِخْلاةً ... ولكنّهَا بِغَيْرِ شَعِيرِ
أَلْقِهَا عَنْك ياطَوِيلَةً أوْ لاَ ... فَاحْتَسِبْها شَرَارةً في السَّعِيرِ
لِحيةٌ أُهْمِلَتْ فَسَالَتْ وَفَاضَتْ ... فَإليْها تُشِيرُ كَفُّ المُشِيرِ
فاتّقِ اللّه ذي الجَلالِ وغيِّر ... مُنكَرًا فِيكَ مُمْكِنُ التّغْيِيرِ
أوْ فَقَصِّرْ مِنْها فَحَسْبُك مِنْها ... نِصْفُ شِبْرٍ عَلاَمَةُ التّذْكِيرِ

اعتمد الشاعر على لفظتي "مخلاة" و"حمار" اللّتين تمثل كل منهما صورة في غاية القبح والزراية . فصاحب اللّحية الطويلة التي لادين تحتها ولاخلق بل رياء وشهرة ـ حمار ـ لأنه يحترم نفسه بكبر لحيته وكذلك الذين يحترمونه ويتهيبونه في نظر شاعرنا أغبياء مثله ، لأن هذا المطيل للحيته وهؤلاء المحترمون له اقتصروا في فهم الرجولة وقيمة الإنسان على مظهر خارجي يقترب به إلى الحمار ذي المخلاة ، وقد عرض ابن الرومي هذه المعاني بأسلوبه التفصيلي الساخر ، فذكر شبه المخلاة باللحية ، لكنه أردف بملاحظة كان يراها كما يقول إيليا حاوي : ضرورية في أسلوبه الجامع الواضح ، إن مخلاة هذا المهجو ليس فيها شعير ، وهذا أسلوبه الذي يتميز بالتقاط اللمع والجزئيات ، فالشعير لايذكر مع الإنسان ، ولكنه ذكره امتدادا للسخرية والتحقير ـ كما أن كف المشير ملاحظة حسنة مشهودة ، توسل بها الشاعر ليمثل معنى الغرابة والترويع(٢). ونراه يتصدّى للمعنى ذاته في صورة أخرى فيقول(٣):

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٣٢ .
(٢) فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص٥٠١ بتصرف .
(٣) الديوان ، ج٤ ، ص١٩٢ .

ولِحْيَـة يَحْمِلُـهـا مَـائِــق مِثْلَ الشِّراعَيْن إذَا أُشْرِعا
تَقُـودُه الرِّيـحَ بِهـا صَـاغِـراً قَوْداً عَنِيفاً يُتْعِبُ الأَخْدعا
لَوْ غَاصَ في البَحْرِ بِها غَوْصَةً صَادَ بِهـا حِيتَانَـه أَجْمَعـا

هـذا مثال حي لارتفاع معـاني ابن الرومي ، بعضهـا على هـام البعض الآخر وقد غاظ شاعرنا من إنسان عصره ذلك الزيف والخداع والنفـاق حين يطيـل لحيتـه إظهارا للتقوى والـدين بينمـا يخفي في نفسـه رذائل ومفـاسد ، والصور أو التشبيهات التي شبه اللحية بها في هذا النص ـ الشراعين ـ شبكة الصياد . واستنباط المعاني التي تحدث بها ابن الرومي حول اللحية هي وليدة تأمل وتحديق في كل مايحيط به في المجتمع .

ونحن وإن كنـا نورد مثل هـذه الصور عند ابن الـرومي مما يطعن في الـدين والمظهر الديني ، إلا أننا لانوافقه على السخرية بالملتحين ولكـن عذرنا هنـا أننـا نقدم دراسة فنية لهـذه النصـوص غير ملتزمين بما يرمـي إليـه هـذا الطعـن أو مايمكن أن يطرأ على هـذا الهجـاء من نقـد وتهكـم ، ونحن مـع شاعرنا في عدم إعفاء اللحيـة دون عمل يرضي الله أولاً ثم المجتمـع ثانياً . وإلاّ فمـا الفـرق بين مسلم ملتحـي وغيره من الملتحين أيضـاً . إذ لافـرق بين عربي وأعجمي إلا بالعمل الصالح .

فالعصر العباسي عصر كثر فيه الفساد والبعد عن الدِّين ، وأصبح النفاق والرياء سمة أهل العصر ، حتىٰ أصبح كثير من الناس يتَّخذ من اللِّحا مظهرا للورع ويخفون تحتها النوايا الخبيثة . يتعرض ابن الرومي لتلك القلة ويصف لحاهم بطريقة ساخرة مثيرة للضحك ونحن سنكتفى ببعض النصوص التى تظهر فيها براعة شاعرنا ودقة تصويره ، وإن كنا لانريد الخوض فى موضوع اللّحيةوالتدين[1]:

ولحيةٍ سائلةٍ مُنصَبَّه شَهْباءَ تَحْكِي ذَنَبَ المِذَبَّه

ابن الرومي هنا يحرص علىٰ الصور الطريفة ، والأحداث المبتكرة التي تستبطن معاني لاتتضاءل عرفا عن معاني الهجاء النفسي . فهو حين يهجو صاحب اللحية ويتندر بطول لحيته ، إنما يهجو تدينه ويظهر نفاقه للمجتمع .

وهو كعادته يكرر المعنىٰ ويلح عليه بصور مختلفة ، ويحاول أن يقنع السامع أو القارىء بالتعليل ، ويتصدى للموضوع ويلح به مرارا يقول فيمن أطالوا لحاهم رياء ، وهو يطعن في التدين الكاذب ، والنفاق ، إذا لم تكن اللحية مظهرا للورع والتقوى[2]:

إذا عَرُضَتْ لِحيَةٌ للفتىٰ وطَالَتْ وصَارَتْ إلىٰ سُرَّتِه
فَنُقْصَانُ عَقْلِ الفَتىٰ عِنْدنا بِمقْدارِ مازَادَ فِي لِحيَتِه

هذا إضافة إلىٰ صور كثيرة تعرض فيها ابن الرومي لأولئك الذين يطيلون لحاهم بغير علم ولافقه ، وصوّرهم صورا ساخرة وتندر بهم وبلحاهم.

غير أن ماقدّمنا من صور تفي بالغرض في هذا المجال . وقد كان باعث الهجاء عند ابن الرومى أحيانا كثيرة ، هو تغيظه من حماقة إنسان عصره وجهله لمواضع الفخر الحقيقى فيه ، لقد كانت ثورة ابن الرومى كما يقول إيليا حاوى ، ثورة إنسان العقل والمعرفة الحريص على الكرامة

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص١٧٥ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٤٥١ .

الإنسانية ألاّ تزيف ، وتنمىٰ إلىٰ مَن لاينتمون إليها بفعل حقيقي من حريتهم وكفاءتهم . فشاعرنا ليس عالما اجتماعيا ، بل هو ثائر اجتماعي يطلب حق الأدب والعلم وفضائل النفس[١]. إذ ليس من الطبيعي أن يجل الناس من ليس بأهل للإجلال والتكريم ، فقط لأن مظهره يدعو لذلك . لقد عد ابن الرومى ذلك من النفاق والرياء ، إذ يحكم علىٰ المرء من مظهره وينسىٰ جوهره . ولعله عانىٰ من هذه المعاملات في عصره ، والأحكام الجائرة فى مجتمعه الظالم الذى لايقيس الناس بفضائلهم ولايعرف قيمة للعلم والأدب .

نظر ابن الرومي إلى مجتمعه ، فاستنكر قيوده وأعرافه ، ونظر إلىٰ إنسان عصره فوجده خاليا من القيم ، صار يغدر بأخيه ، ويختان نفسه ، ويظلم غيره ، لايزجره ضمير من دين ، ولاوازع من قانون ، وحُقّ لابن الرومي أن يزهد في أناس عصره ، ويملهم . يقول معلّلا زهده في الناس واعتزالهم[٢]:

وزهّدني في النّاسِ مَعْرِفَتي بِهم ... وطُولَ اخْتِباري صاحبًا بَعْدَ صَاحِبِ
فَلَمْ تُرني الأيّامُ خِلاّ يَسُرّني ... بَوادِيه إلاّ سَاءَني في العَوَاقِبِ
ولاصِرْتُ أدْعُوهُ لدَفْعِ مُلِمّةٍ ... مِنَ الدَّهْرِ إلاّ كَانَ إحْدىٰ النّوائِبِ

فابنَ الرومي يبدأ بوصف تجربته عامة وتحسسها ، فقد زهد في الناس لعلمه ومعرفته بطبائعهم ، ثم يشرع بعد الوصف العام بالتفصيل ، والتخصيص ، فمن الأسباب التي جعلته يزهد فيهم ، اختباره لهم ، فلم يجد فيهم صاحبا يسره أولا إلا ساءت عواقبه وأظهر له وجهه الآخر عند الملمات وبدلا من تقديم العون يكون مصيبة تضاف لمصائب الدهر .

---

(١) ابن الرومى فنه ونفسيته من خلال شعره ، ص١٦٥ ، فن الهجاء ، ص٥٦٨ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج١ ، ص٤١١ .

مالبث ابن الرومي أن رأىٰ الصورة الأولىٰ للإنسان - الممدوح - تتضاءل في نظره وتتصاغر حتىٰ تلاشت واضْمحلّت ، واستقرت الصورة الأخرىٰ لإنسان عصره - المهجو - صورة القبح والصغار تعظم وتكبر . ففزع من ذلك وسجل فزعه هجاء مقذعا لبني عصره فقال(١):

بَلَوْتُ طُعُومَ النّاسِ حتّىٰ لَوَ أنّني ... وَجَدْتُهُمُ أَحْلىٰ مَذَاقًا مِنَ الشّهْدِ
لَقَدْ آن أنْ أسْلاهُمُ وأَمَلَّهُمُ ... فكيْفَ ومَالاقَيْتُ مِنْهُم أخَا رُشْدِ؟
وكيْفَ وقَدْ جرَّبْتُ مِنْ طَبقاتِهم ... تَجاريبَ تدْعو النَّفسَ فِيهمْ إلىٰ الزُّهدِ؟

تبدو في هذه الصورة سعة معارف ابن الرومي وكثرةتجاربه ، وتفاعله مع بني عصره ، فقد استطاع بصفاء ذوقه وجمال خياله ، أن ينقل لنا إحساسه وخبرته ويصور لنا حقيقة الصّراع بين الناس في عصره ، كما مثّل لنا تناقض مجتمعه ، وماساد في عصره من مظاهر الحضارة وألوان الفساد ، والظلم واغتنام الملذات ، حتى افتقد في عصره الناس ، فلاأحد يُرجّى لمدح ، أو يستأهل هجوا(٢):

آيسْتُ مِنْ دهْرِي ومِنْ أَهْلِه ... فَليْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ يُرضىٰ
إنْ رُمْتُ مَدْحاً لمْ أجِدْ أَهْلَه ... أوْ رُمْتُ هَجْواً لمْ أَجِدْ عِرْضا

فابن الرومي يعيش في عصر لاقيمة للإنسان فيه ، حتىٰ أنه لايجد من هو أهل للمدح ، ولامن يسْتأْهِل الهجاء ، وشاعرنا من خلال هجائه لعصره وأفراد مجتمعه يعبر عن عجزه عن التكيف مع واقع عصره ، وعدم رضاه عن معاصريه .

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص١٣٢ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٦٣ .

كان ابن الرومي يكثر من فن التصوير الهزلي ، والعبث بالأشكال المضحكة والمناظر الفكاهية ، والمشابهات الدقيقة ، وأغلب الظن أن مصدر هذا الفن في هجائه هو ولعه بالجمال ، وشدة نفوره من القبح ، فهو هجاء جمالي وفني خالص[١]. يقول في ذم عيون بعض من هجاهم :

حَوْصَاءَ ، خَوْصَاءَ ذَاتَ عَيْنٍ زَرْقَاءَ فِي زُرقَةِ المَضِيرَه [٢]

فهذه عيناها ضيقة وغائرة ، وبها زرقة وآخر أعور فهوفي عوره شبيه بالدجال يقول فيه[٣]:

وكأنك الدّجال مِن عَوَرٍ وإعْوارٍ هُناكا

فهذا الرجل في نظر شاعرنا لم يكتف بقبح ظاهره فهو إضافة إلىٰ عور عينه ، معور - أي قبيح السريرة - أو به ريبة.

وابن الرومي إذاتعرّض للعاهات الجسدية لايخرج في هجائه عن السخرية ، فيتناول العاهة ويكبرها ويجعل منها صورة مشوهة للمهجو . ولكنه في هجاء العاهات النفسية يقتصر علىٰ اشتقاق المعاني من ذاتها ومن العلاقة العميقة الخفية التي توثق بينها وبين سواها ، يقول[٤]:

رُقادَك لاتَسْهَرْ لِي اللّيْلَ ضلّةً ولاتتجشّم فيَّ حَوْك القَصائِدِ
أبي وأبُوكَ الشّيخُ آدمُ تلْتقي مَنَاسِبُنا في ملتقىٰ مِنْهُ واحِدِ
فَلاتهْجَنِي حَسْبي مِنَ الخِزْيِ أنّني وإيّاكَ ضَمّتْنا وِلادَةُ والِدِ

فهذه الأبيات قالها في شاعر هجّاء ، تعرض له فأجهز عليه ابن الرومي كعادته حين يتعرض لبعض من يهاجونه فيجهز عليهم إجهازا بما يتفق له من

---

(١) د. محمد حمود ، ابن الرومي الشاعر المغبون ، ص١٠٥ بتصرف .
(٢) حوصاء : ضيقة العينين ، خوصاء : غائرة العينين . انظر الديوان ، ج٣ ، ص١٦٨ .
(٣) الديوان ، ج٥ ، ص٢٢ .
(٤) الديوان ، ج٢ ، ص٢٣١ .

معان تترجّح بين السخرية الهازئة والحقد المشوب بقليل أو كثير من اللؤم . كما يقول إيليا الحاوى : فهو يتكلف هجاء نفسه عن ذلك الشاعر ، وحسبه أن ينتمي وإياه إلىٰ آدم ولو لم يكن آدم يحمل في صلبه نطفة ذلك الشاعر ، لامتنع عنه الشر حين يقول :

فَلَو لمْ تَكُنْ فِي صُلْبِ آدمَ نُطفَةً لَخرّ له إبليسُ أَوّلَ ساجِدِ

وكأن ابن الرومي يزعم أن ذلك المهجو هو أصل الشر والبلاء ، وإنه لولاه لما طُرد آدم وذريته من الجنة . فابن الرومي تولىٰ هذا المعنىٰ المتداول ـ قصة آدم وإبليس ـ وأناط به أقذع معاني الهجاء من قدرته على تقليب المعنى وتأويله تأويلا ماسخا[١].

يقول العقاد : "الإفحاش وليد الحضارة ، والغلو في الإفحاش وليد التهتك في الحضارة ، متىٰ غلا الشاعر في القذف بأدناس التبذل والخلاعة فهناك عيبان محققان : أحدهما ـ لاشك ـ عيب البيئة التي أشاعت تلك الأدناس أو جعلت الذم بها ذما هينا علىٰ الأسماع ، فلابد للشاعر من المبالغة والإغراق .. والثاني نبحث عنه في قائل الهجو ومدمنه ، فإنه لولا عيب فيه لما اضطر إلىٰ الهجاء ولاأدمنه وأفرط فيه"[٢]. ومن أمثلة فحشه في الهجاء قوله[٣]:

بَخْبَخٍ ، بَخْبَخٍ لِأُمّك ماأَسْوَرَ هِمَّاتِها إلىٰ العَلْيَاءِ
نَاقَضَتْ مَريمَ العفَافَ ، فلَمّا قَاوَمَتْها سَمَتْ إلى حَوّاءِ
فانْتَحتْ في الزِّنا تُكاثِر حوّاء عَديد البَناتِ والأَبْناءِ

---

(١) فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص٥٤٩ بتصرف .
(٢) ابن الرومى حياته من شعره ، ص٢٣٥ .
(٣) الديوان ، ج١ ، ص٧٨ .

فهذا هو اللون القاتم من هجاء ابن الرومي كله إقذاع وسب وهتك للأعراض .. وإن كانت الصورة السابقة فيها شيء من الطعن الخفي إلاّ أن له صورا أخرى شديدة الفحش ونحن نتورع عن ذكر تلك النصوص . ولكن لابد من الإشارة لبعضها وعلى من أراد التوسع الرجوع للديوان .

من صوره التي يظهر فيها الفحش قوله يطعن في نسب مهجوّه[1]:

كَيفَ أَهْجُو امْرءاً كَريماً لَئِيماً ... وَاحِدَ الأُمِّ خِلْفَةَ الآباءِ؟
كيفَ أَهْجُو مُذبْذَباً بيْنَ شتَّىٰ ... لاَإلىٰ هَـٰؤُلاءِ وَلا هَـٰؤلاءِ؟
كيْفَ أَهجُو مَنْ فِيه مُجْتَمَع ... الأنْسابِ طُرّاً ، ومُلْتقىٰ الأَحْياءِ؟

فابن الرومي له أهاج بلغت درجة من الفحش والإقذاع . وكلها يتعرض للأعراض ويطعن في الأنساب ، وقد أسرف شاعرنا في الفحش ، وبسط لسانه بسطاً بذيئا في أعراض مهجويه ، أياً كانوا ، رجالا ونساء ، في غير ماتحرج ، ولم يجد من عصره مايحد إسرافه في هذا المجال ، فهو عصر التبذل والإنحطاط ، فأتىٰ بأشنع من كل ماأتىٰ به شعراء الهجاء[2].

وديوانه مليء بصور كثيرة الفحش . شديدة البذاءة .

عَجَباً لِصُورَتِهِ وكيْفَ تَشَابَهتْ ... مِنْها المَعَالِمُ وهي شَتّىٰ الجَوْهَرِ
لَو جَاءَ يحكي لَوْنَ كُلِّ أَبٍ له ... رَأيْتَ جِلْدَتَه كَيُمنَةِ عَبْقرِ[3]

المطّلع علىٰ ديوان شاعرنا يجد فيه أعمق صور البذاءة يتمطىٰ بها في كل وجه ويسوقها في كل سبيل ، مما لايسيغه الذوق ، ويأنف من ذكره المتأدب ولاقبل لنا بالتمثيل عليها لصراحتها ، ولافتقادها الصفة الفنية ، ولكن نكتفي بما أوردناه من صور هي بعض هجائه الفاحش البذيء .

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٧٩ .
(٢) حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص٥٣٢ بتصرف .
(٣) اليمنة : ضرب من برود اليمن . انظر الديوان ، ج٣ ، ص١٥٧ .

الفصل الرابع

الفصل الرابع

الإنسان في رؤية المتنبي - قادحا -

توطئة

فى هجاء المتنبي يظهر الوجه الآخر للإنسان ، نرىٰ الكائن الحقير الذي يقف مضادا للكائن العظيم الذى تغنىٰ به المتنبي فى مدائحه ، ينغمس في عيوب هى عكس فضائله السابقة ، فالكرم الطبعي الأصيل يقابله عار كبير هو البخل ، فالبخيل يسىء معاملة قصاده ، ويغدر بضيوفه ، وهذا الإنسان المهجو، حقير جبان يخاف ملاقاة الكماة ، ويفر عند النزال ، قليل العقل ، موصوم بالغباء والغفلة ، وقلة العلم ، بل الجهل والبلاهة ، كما أنه عي ركيك القول لايحسن مخاطبةالناس ، يثيرالضحك والسخرية كلما تكلم ، كذوب حلاف ، لايفى بوعده ، لايصلح للأمجاد ، مواهبه لاتجعله جديرا إلا بأحط الأعمال ، ذليل النفس خانع ، يتظاهر بالعزة ولكنه لايصلح لها ، لأن نفسه دنيئة ، ضعيف اليدين ، والضعف من أكبر العيوب[١]. وشر من كل هذا أن الإنسان فى نظر المتنبي فقد قيمه العربية الأصيلة "وفقد القوة في كل شىء ، وأصبح صورة نموذجية للاستسلام والإذعان لما تأتى به الأيام ، فهو جاهل أحمق ، ضعيف التفكير ، قد أطفئت فيه ومضات الذكاء والحس السليم ، وهو صغير النفس تشغله توافه الأمور ، فقد أبسط تقاليد الحياة العربية : تذوق الشعر ومعرفة اللغة ، دفعه الصغار إلى رذائل الأمور من حسد ونميمة ، ولم يبق له سوى مراقبة الآخرين ، بعد أن حادت نفسه عن طريق الفعال الكبيرة"[٢].

فالمتنبي شاعر يؤمن بالقيم الإسلامية وبالقواعد الأخلاقية التى وضعها القرآن ، ويرىٰ فى القوة حماية لتلك القيم والأخلاق ، وبها يمكن إصلاح الفاسد ، فعز عليه أن يحل الضعف محل القوة في عصره ، وتنحل القيم ،

---

(١) المحصول الفكري للمتنبي ، ص١٧٢ بتصرف .

(٢) صدقي إسماعيل ، تجربة المتنبي ، مقدمة موجز ديوان المتنبي ، شرح اليازجي ، اختصره سليمان العيسىٰ ، ص٣٦ .

وتفسد الأخلاق ، فانبرى يهجو إنسان عصره ويسلبه فضائله النفسية ، مع تركيز على نواقصه الجسدية ، ومع ذلك فقد حافظ المتنبي على طابعه الكلاسيكي في هجائه الخالي من الفحش ، فلانكاد نجد له سوى بعض أبيات انحدر فيها نحو المستوى الشعبي ، السائد في عصره . فقد كان يترفع عن البذاءة والفحش في الهجاء لأن شعره يعبر عن تنازع القيم في عصر كثير الاختلال ، لاكرامة للإنسان فيه .

لم يؤخذ المتنبي بمظاهر الحضارة في عصره ، لأنه تناول جذور هذه الحضارة فبدت له أشكالا باهتة لاتمت إلى العنفوان العربي بصلة ، فدان حضارة عصره ، واعتبرها هي التي أفسدت أخلاق الإنسان ، وقتلت فى نفسه بذور التحرر ، وورثت إنسان عصره الجبن والاستغراق فى اللذة ، والصغار ، من أجل ذلك هجا الإنسان في عصره بل هجا العصر بأسره فقال(١):

أَذُمُّ إِلَى هٰذَا الزَّمَانِ أُهَيْلَهُ ... فَأَعْلَمُهُمْ فَدْمٌ ، وَأَحْزَمُهُمْ وَغْدُ
وَأَكْرَمُهُمْ كَلْبٌ ، وَأَبْصَرُهُمْ عَمٍ ... وَأَشْهَدُهُمْ فَهْدٌ ، وَأَشْجَعُهُمْ قِرْدُ
وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَىٰ ... عَدُوّاً لَهُ مَامِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

نظر المتنبي حوله فوجد الرعية مظلومة يسودها كثير من الرذائل التي تجثم على حياة الناس حين تلح عليهم الخطوب ، وغاظه منهم قبولهم الضيم وعدم ردهم لهذا الوباء ، فهجاهم ألذع الهجاء واشتد حنقه على زمانه وخصال أهل زمانه الكريهة "فمثل شاعرنا فى هذا النص اختلال القيم والمقاييس فى عصره ، فالعالم غبي ، والحازم وغد ، والكريم كلب ، والبصير أعمى ، والشجاع قرد ، أي أن القيم والأخلاق انعدمت فى ذلك العصر ، وعاد الناس إلى التوحش ، ولقد دل على بهيمية أبناء عصره من خلال الألفاظ التي نسبها إليهم ، كالكلب والقرد والفهد وماإلى ذلك .. والبيت

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٩٢،٩٣ .

الأخير عميق الدلالة على واقع نفسية شاعرنا لأنه يعبر عن مشكلة الحر الذي يعيش في قوم قد تخلوا عن فضائلهم وقيمهم"(١).

وحين يخص المتنبي أهل عصره بهذا الذم ، فكأنه يصدق ماذهبنا إليه من أن عصور التغير الكبرى تزلزل الإنسان زلزلة يفقد معها قيمه ، ويضيع منه الطريق ، وقد يكون هذا الواقع في ذاته محنة ، لكن الأبعد منها فى الإيجاع أن لايرى الإنسان الحر بدا من صداقة عدوه الذي يزدريه(٢).

هكذا يتضح أن هجاء أبي الطيب المتنبي لأبناء عصره ، وتنازعه معهم كان رد فعل صريح حين رآهم يعبثون بكل ماقدسه من قيم ومثل عليا ، كما كان استنهاضا لهممهم وحثا لهم على نفض غبار الذل والظلم عنهم ، فالعداوة بينه وبين معاصريه ، عداوة معنوية نفسية ، إنها عداوة الحر للعبد عداوة المتعلم للأمي ، والشجاع للجبان . وماإلى ذلك من مناقضات خُلقية ونفسية . كان يهدف من وراء ذلك إلى إصلاح الفرد ومن ثم إصلاح المجتمع وبعث قيمه الأصيلة ، "أعانه في ذلك أنه كان صاحب صوت ضخم لايرتفع به حتى يحدث جلبة شديدة"(٣).

الأخلاق ، والآداب ، والعادات الإسلامية هي الطابع المميز للشخصية المسلمة سواء كانت رجلا أو امرأة . والمتنبي يرى بل يؤكد أن التفريط في تلك الأخلاق التي يعتز بها المرء ويقوى مصدر ضعف والضعف يتولد من الإسراف ، وحين يقول(٤):

إِذَا غَدَرَتْ حَسْنَاءُ وَفَّتْ بِعَهْدِهَا ... فَمِنْ عَهْدِهَا أَنْ لَا يَدُومَ لَهَا عَهْدُ
وَإِنْ عَشِقَتْ كَانَتْ أَشَدَّ صَبَابَةً ... وَإِنْ فَرِكَتْ فَاذْهَبْ فَمَا فِرْكُهَا قَصْدُ

---

(١) إيليا الحاوي ، فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص٥٩٨ .
(٢) وردت بعض ملامح هذا التغير الذي أصاب الإنسان فى العصر العباسي في التمهيد.
(٣) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربي ، دار المعارف بمصر ، ط/تاسعة ١٩٤٣م ، ص٣٤٩ .
(٤) الديوان ، ج٢ ، ص١٠٤،١٠٥ .

وَإِنْ حَقَدَتْ لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهَا رِضًا وَإِنْ رَضِيَتْ لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهَا حِقْدُ
كَذٰلِكَ أَخْلَاقُ النِّسَاءِ وَرُبَّمَا يَضِلُّ بِهَا الهَادِي وَيَخْفَىٰ بِهَا الرُّشْدُ

فكأنما يقرأ أخلاق المرأة من كتاب مفتوح ، وقد وفق غاية التوفيق . فالمرأة لاتعرف التوازن والاعتدال ، لأنها إذا أحبت أسرفت ، وإذا أبغضت أسرفت ، وهي تتلف حياتها وحياة الرجل بهذا الإسراف ، وكأنه يدعو لمبدأ التوازن الذي به تقوىٰ النفوس وتستقر .

وقد يتحامل المتنبي على أخلاق النساء حين يقول[1]:

وَمَنْ خَبَرَ الغوانيِ فالغوانيِ ضِياءٌ فِي بَوَاطِنه ظَلامُ

ولاغرابة أن يقدم لنا المتنبي صورة سيئة عن المرأة وأخلاقها ، فالناس فى عصره بشكل عام فاسدون ، والجوانب السلبية في المرأة لابد أن تظهر للناس ، ولكن المتنبي كعادته لايخص إنسانا بعينه فيعمم هنا الغدر علىٰ جنس حواء والتقلب وتجاوز حدود المعقول دائما .. ولعل شاعرنا يتناسىٰ أن من بين النساء اللاتي يصف أخلاقهن بهذا السوء . من قال عنها وفضلها علىٰ الرجال :

وَلو كانَ النِّساءُ كَمَنْ فقدْنا لفُضِّلتْ النِّساءُ على الرِّجالِ

ولكنها نفس المتنبي ورؤيته للناس في عصره ، فهو يؤاخذ كل بعمله ، وينكر علىٰ الإنسان ترديه في الموبقات والمفاسد ، دون أن يفرق في ذلك بين الذكر والأنثىٰ ، كل همه أن ينتشل إنسان عصره من أسباب الضياع والهلاك ، ويرده إلى القيم المثلىٰ ، والطريقة المستقيمة ، وسلاحه في ذلك الشعر والمنطق العذب . ولعل المتنبي فى تحامله هذا علىٰ المرأة يؤكد قول أنيس المقدسي[2]: "مع أننا نجد في العصر العباسي بعضا من النساء الراقيات علما وثقافة ، وأننا نجد في كتب التاريخ شواهد علىٰ ذلك ، لانجد الأدب يعكس لنا من حالة المرأة مايجعلها في مقام رفيع ..." .

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص١٩٣ .

(٢) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السابعة عشرة ١٩٨٩م ، ص٥٥ .

حين أخذت القيم تنعزل عن السلوك في العصر العباسي ، أخذت تتسرب علل وآفات توهن العزائم ، وتحجب المثل الأعلىٰ وتأذن لليل أن يغشىٰ النهار ، أو هكذا رأىٰ المتنبي حين قال(١):

يَرَىٰ الْجُبَنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ ... وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ
وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً ... وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ
وَلٰكِنْ تَأْخُذُ الآذانُ مِنْهُ ... عَلَىٰ قَدْرِ الْقَرَائِحِ وَالْعُلُومِ

سوء الطبع وصغر الهمة ، أحد أبرز ملامح الضعف في عصر المتنبي ، وقد تعلل نظرته هذه بأنها مقاومة مقصودة لبعض مظاهر التحلل التي أخذت تغزو الحياة الاجتماعية آنذاك ، متبدية في أشكال مختلفة حتىٰ غاضت الهمم ووهنت الكلمة قولا وتلقيا .

ولعل في هذه الصورة كما في غيرها انتفاضة من المتنبي علىٰ الجهل الذى انتشر في عصره والذي رأىٰ فيه موتا للإنسان حين قال(٢):

أَمَاتَكُمُ مِنْ قَبْلِ مَوْتِكُمُ الْجَهْلُ ... وَجَرَّكُمُ مِنْ خِفَّةٍ بِكُمُ النَّمْلُ

صدق شاعرنا إن الجهل موت ، كما أن العلم حياة ، ولكن تصوير المتنبي للجهل بالموت لحقته صورة أبلغ وأعظم إذ جعل الجهل سببا فى الهوان والخفة حتىٰ أن الجاهل لاوزن له ولاقدر، والجهل بالشعر وعدم تذوقه يلحق بصاحبه الزراية والتنقيص في نظر المتنبي فيقول(٣):

أَرَىٰ الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بِذَمِّي ... وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالاَ
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرّاً بِهِ الْمَاءَ الزُّلاَلاَ

في أسلوب حكيم يقول : إنه داء لحساده ، وأعدائه يسقمون به حسدا لذا لايمكن أن يحمدوه لأن مثلهم معه كالمريض الذي يجد الماء الزلال مرا

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٢٤٦ .
(٢)،(٣) الديوان ، ج٣ ، ص٣٧٨،٣٤٤ .

لمرارة فمه ، كذلك هؤلاء إنما يذمونه لنقصانهم وغبائهم ، وعدم إدراكهم فضله وقيمة شعره . فالنقص مستول عليهم ، وهم كما يقول :

لَو أنّ ثَمَّ قُلُوبًا يَعْقِلُونَ بِها أَنْسَاهُمُ الذِّعْرَ مِمّا تَحْتَها الحَسَدَا

ويرى المتنبي أن معاصريه ، الذين انتقدوا شعره وعابوا كلامه لاعقل لهم ولافهم ، وإلا لعلموا ماتحمل أبياته من تهديد ووعيد ، ولشغلهم ذلك عن الحسد له ، وهو متأثر في ذلك بالآية الكريمة {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ . أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}(١).

هجاء أبي الطيب بعيد من أن يكون فيه نكتة لطيفة أو شيء من الظرف وإنما هو تهكم حاد جارح يعجب أكثر مما يضحك . وكثيرا مانجد عنده صوراسخرية حين يجعل من مهجوه أضحوكة شوهاء فيصيبه بخلقه وخلقه ومنزلته الاجتماعية . وينتفع شاعرنا من رذائل مهجوه فى تأكيد صورة الإنسان العظيم في نظره لأن هذه الرذائل منطقية تماما في تضادها مع الفضائل فيقول(٢):

أَيَمُوتُ مِثْلُ أَبِي شُجَاعٍ فَاتِكٌ وَيَعِيشُ حَاسِدُهُ الْخَصِيُّ الأَوْكَعُ
أَيْدٍ مُقَطَّعَةٌ حَوَالَيْ رَأْسِهِ وَقَفاً يَصِيحُ بِهَا أَلاَ مَنْ يَصْفَعُ

... ...

أَبْقَيْتَ أَكْذَبَ كَاذِبٍ أَبْقَيْتَهُ وَأَخَذْتَ أَصْدَقَ مَنْ يَقُولُ وَيَسْمَعُ
وَتَرَكْتَ أَنْتَنَ رِيحَةٍ مَذْمُومَةٍ وَسَلَبْتَ أَطْيَبَ رِيحَةٍ تَتَضَوَّعُ

لقد أفلح المتنبي في تصوير نموذجين متقابلين للإنسان ، حتى لكأننا نراهما بأعيننا ، فنسخط للصورة الكريهة ، وننتشي بالصورة الحسنة . وفي هذه الصورة كما في غيرها ، نرى أن المتنبي لايثور على فلان بقدر مايثور

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٧٩

(٢) الديوان ، ج٣ ، ص١٩ .

علىٰ الضعف والاستكانة في الإنسان . كما أنه لايمجد فلانا بقدر مايمجد القوة المتمثلة في الأخلاق والسيرة الحسنة ، وحين يشكو خلو الدنيا من الكرام ، وعموم اللؤم والفساد في الناس ، فيقول[١]:

أَمَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا كَرِيمُ ... تَزُولُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ الْهُمُومُ
أَمَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا مَكَانٌ ... يُسَرُّ بِأَهْلِهِ الْجَارُ الْمُقِيمُ
تَشَابَهَتِ البَهَائِمُ والعَبِيدَى ... عَلَيْنَا وَالْمَوَالِي وَالصَّمِيمُ
حَصَلتُ بأَرْضِ مِصْرَعَلَىٰعَبِيدٍ ... كَأَنَّ الْحُرَّ بَيْنَهُمُ يَتِيمُ
أُخِذْتُ بِمَدْحِهِ فَرَأَيْتُ لَهْواً ... مَقَالِي لِلْأُحَيْمِقِ يَاحَلِيمُ
وَلَمَّا أَنْ هَجَوْتُ رَأَيْتُ عِيًّا ... مَقَالِي لِابْنِ آوَىٰ يَالَئِيمُ
إِذَا أَتَتِ الْإِسَاءَةُ مِنْ لَئِيمٍ ... وَلَمْ أَلُمِ الْمُسِيءَ فَمَنْ أَلُومُ

يتضح لنا أن حقد الشاعر علىٰ البشر ناشيء من إصرارهم علىٰ المفاسد وتخليهم عن سبل الخير والرشاد ، حتىٰ التبس عليه الناس بالبهائم لعموم فسادهم ولؤم طباعهم وجهلهم ، فالحر بينهم مهان مجفو كاليتيم ، وإن كان تعنيف المتنبي لمعاصريه ، وللبشر عامة كما يقول د. زهدي الخواجا : تعنيف أشبه أن يكون تعنيف الأب لابنه الخائف علىٰ مصيره ، الراغب في توفير الخير له ، وتخليصه من المآزق والآثام[٢]، وقد صرح المتنبي بهذا الهدف في غير ماموضع من ديوانه .

صور المتنبي إنسان عصره في بعض أحواله فكان أدنى جدا من أحط حيوان ضراوة وغدرا ، ولم يسكت شاعرنا عما حاق بالإنسان ، ومابرز بينه وبين أخيه من تظالم وتصارع ، وقد يعتصره الألم حين يرى الإنسان فى عصره وقد تخلىٰ عن قيمه وأصالته فيشبه إنسان عصره بالصنم ويقول[٣]:

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٢٨٢،٢٨٣ .
(٢) موازنة بين الحكمة في شعر أبي الطيب والحكمة فى شعر أبي العلاء ص٤٩٢ بتصرف
(٣) الديوان ، ج٤ ، ص٢٩١،٢٩٣ .

مَازِلْتُ أُضْحِكُ إِبْلِي كُلَّمَا نَظَرَتْ ... إِلَىٰ مَنِ اخْتَضَبَتْ أَخْفَافُهَا بِدَمِ
أُسِيرُهَا بَيْنَ أَصْنَامٍ أُشَاهِدُهَا ... وَلَاأُشَاهِدُ فِيهَا عِفَّةَ الصَّنَمِ
تَوَهَّمَ الْقَوْمُ أَنَّ الْعَجْزَ قَرَّبَنَا ... وَفِي التَّقَرُّبِ مَايَدْعُو إِلَىٰ التُّهَمِ
وَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الإِنْصَافِ قَاطِعَةً ... بَيْنَ الرِّجَالِ وَلَوْ كَانُوا ذَوِي رَحِمِ

في هذه الصورة يرىٰ المتنبي أن الإنسان في عصره بات خليقا بكل مافي اللغة من صفات الوضاعة التي ماوضعت في اللغة إلا لوجود مقابلها في الإنسان حين يتخلىٰ عما به يعز ومايجله عن مرتبة الحيوان ،بل لقد يرىٰ المتنبي أن الأصنام إذا قيست بإنسان عصره عفيفة ، فهي وإن كانت لاتنفع إلا أنها غير موصوفة بالقبائح والفضائح ، والناس لايعفون عن المنكر والقبيح . ثم يلتفت إلى ملمح مهم ، فبعد أن كانت صلة الرحم من أقوىٰ الروابط وأفضل المكارم ، أصبحت المصلحة هي الرابط الوحيد الذي يربط أفراد المجتمع ، فترك الإنصاف يدعو إلىٰ التقاطع بين الناس ولو كانوا ذوي رحم ، فما الظن بمن لارحم بينهم . لقد أصبح سوء المعاملة في عصر المتنبي هو ديدن الناس ، وهم بذلك يبتعدون عن تعاليم الدين ، وإلا فأين هم من قوله تعالى : {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}(١). {وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ}(٢).

هذه الصورة التي صور بها المتنبي إنسان عصره جعلته يقف إلىٰ جوار الفتاة الكريمة ويقرها علىٰ إيثار الموت عن الزواج . ويعلل ذلك بقلة الكفاية في الرجال ، يقول(٣):

وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْواً ... ذَاتُ خِدْرٍ أَرَادَتِ الْمَوْتَ بَعْلاً

---

(١) سورة محمد : آية ٢٢
(٢) سورة الأنفال : آية ٧٥
(٣) الديوان ، ج٣ ، ص٢٤٩ .

إن عصرا افتقد فيه الرجال والأكفاء حتىٰ تؤثر الفتاة الموت علىٰ الزواج ، لهو عصر فساد وشر ، وقد جد شاعرنا في كشف الغشاوة التي رانت على أبناء عصره ، وشخصياتهم العامة ، بما فيها الجوانب الاجتماعية والثقافية وأيضا الفنية ، مشاركة منه فى استعادة الشخصية العربية وصنع حضارة إسلامية تقوىٰ بقوة الإنسان .

إن المتنبي حين يتجاوز الإنسان القبيح في الهجاء إلى التنديد بالزمن ذاته ، يشكو الخلق العام الذي تحدر إليه الإنسان بعدما أدبه الإسلام وهذبه ورقاه ، وظن أنه سيصبر علىٰ تكاليف هذا الرقي زمنا طويلا ، وإذا بالإسراف يرده إلى ماتنكره قيم الإسلام ، فيخون ويغدر ويكذب ، ويتخلىٰ عن إنسانيته كما قال المتنبي[١]:

إنْ مَاتَ مَاتَ بِلاَفَقْدٍ وَلاَأَسَفٍ ... أوْ عَاشَ ، عَاشَ بِلاَخَلْقٍ وَلاَخُلُقِ
مِنْهُ تَعَلَّمَ عَبْدٌ شَقَّ هَامَتَهُ ... خَوْنَ الصَّدِيقِ ، وَدَسَّ الغَدْرِ فِي المَلَقِ
وَحَلْفَ أَلْفِ يَمِينٍ غَيْرَ صَادِقَةٍ ... مَطْرُودَةٍ كَكُعُوبِ الرُّمْحِ فِي نَسَقِ
مَازِلْتُ أَعْرِفُهُ قِرْداً بِلاَذَنَبٍ ... صِفْرَاً مِنَ البَأْسِ مَمْلُوءاً مِنَ النَّزَقِ
كَرِيشَةٍ بِمَهَبِّ الرِّيحِ سَاقِطَةٍ ... لاتَسْتَقِرُّ عَلَىٰ حَالٍ مِنَ الْقَلَقِ

إنسان عصر المتنبي أحمق لايشفيه من حمقه إلا الموت وحين يموت لايترك أثرا بعده ، ولايشعر الناس له بفقد ، لقد عد المتنبي وجود مثل هذا الإنسان الأحمق عالة علىٰ البشرية ، إذ لايعرف إلا الرذائل ، حتىٰ أشبه القرد بغير ذنب ، خلت نفسه من الشجاعة وامتلأت حمقا وطيشا فلايلبث علىٰ حال واحدة ، ويتبع ذلك بنقائصه الجسدية فيقول[٢]:

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٩٨ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص١٠٠ .

تَسْتَغْرِقُ الكَفُّ فَوْدَيْهِ وَمَنْكِبَهُ ... وَتَكْتَسِي مِنْهُ رِيحَ الْجَوْرَبِ الْعَرِقِ
فَسَائِلُوا قَاتِلِيهِ كَيْفَ مَاتَ لَهُمْ ... مَوْتاً مِنَ الضَّرْبِ أَوْ مَوْتاً مِنَ الْفَرَقِ
وَأَيْنَ مَوْقِعُ حَدِّ السَّيْفِ مِنْ شَبَحٍ ... بِغَيْرِ رَأْسٍ وَلاجِسْمٍ وَلاعُنُقِ
لَوْلاَ اللِّئَامُ وَشَيْءٌ مِنْ مُشَابَهَةٍ ... لَكَانَ أَلأَمَ طِفْلٍ لُفَّ فِي خِرَقِ

فهذا هجاء مقذع ، استخدم فيه المتنبي الصور الساخرة . هذا المهجو صغير الرأس قصير العنق حتى أن الكف تستوعب رأسه ، رائحته نتنة ، جبان يموت خوفا قبل أن يموت من الضرب . وهو لدمامته وصغر قدره ، كأن لاأعضاء له . ويؤكد على دور الأصل فيرى أن كل فعل يقوم به المرء له صلة بأصله ، وهذا المهجو لئيم من أصل لئيم ، والمتنبي وهو يهجو هذا الهجاء الساخر إلا أنه يبدي الأسف على إنسان عصره الذي وصل به القبح إلى درجة فقد فيها كل مقوماته الإنسانية ، وهو فى طي هجائه يتمنى أن يسود مجتمعه أمثلة ونماذج جميلة تشعر بالقوة التي طالما نشدها وسعى إليها .

"في شعر المتنبي لون من الفكاهة اللاذعة ، يظهرها أحيانا على مرآة شعره تهكما لاذعا ، وهجوا مقذعا ، أخاذا ، يكون فعلها فى النفس بعيد المدى ، عميق الأثر"(١). ويعرض فى هجائه طائفتين من القبائح والرذائل جسمية ونفسية ، من ذلك قوله(٢):

وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ ... يُقَالُ لَهُ أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى
وَشِعْرٍ مَدَحْتُ بِهِ الكَرْكَدَنَّ ... بَيْنَ القَرِيضِ وَبَيْنَ الرُّقَى
فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحاً لَهُ ... وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوَ الْوَرَى
وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ بِأَصْنَامِهِمْ ... فَأَمَّا بِزِقٍّ رِيَاحٍ فَلاَ

---

(١) محمود البشبيشى ، الحيوية في شعر المتنبي ، صحيفة دار العلوم ، ص١٢٩ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص١٦٧،١٦٨ .

وَتِلْكَ صُمُوتٌ وَذَا نَاطِقٌ إِذَا حَرَّكُوهُ فَسَا أَوْ هَذَى
وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَالَا يَرَى[1]

رأى المتنبي أن هناك ترابط بين العيوب الخُلُقيّة والعاهات الجسدية "فالحقير تنسجم خسة نفسه مع قبح جسمه ، فالنفس عند شاعرنا دائما هي الأساس ، وتأتي قبل الجسم وتضفي من بهائها أو بشاعتها عليه"[1].

والمتنبي يخرج في هذه الصورة من الهجاء الشخصي إلى الهجاء الاجتماعي ، ولكنه لايستخف بالناس لأنهم ناس بل لأنهم رضوا بالمخازي ، ولم ينهضوا للمعالي فهو يحتقر الناس المهملين المفرطين الخانعين للظلم والفساد وعد مديحه لمن لايستحق المدح هجوا للناس الذين أحوجوه لمدحه ، ويرى أن لافرق بين من ضل بعبادة الأصنام ، ومن خضع لسلطان العجم ، بل الفرق أن الأصنام صامتة . وهذا السلطان ناطق بكل ماهو قبيح ورذيل ، والحق أن المتنبي كما يقول الدكتور الشكعة "يؤمن بمذهب القوة إيمانا عميقا جارفا غير آبه بالنتيجة ولو كانت الموت الأحمر"[2]. ولعل من القوة التي آمن بها شاعرنا أن يعرف الإنسان قدر نفسه ، لأن من لم يعرف قدر نفسه غرورا وإعجابا بها خفيت عليه عيوبه ، فيرى الناس من عيوبه ونواقصه مالايراه ويستقبحون منه مايستحسن ، بذلك "عالج شاعرنا أطرافا من علل الإنسانية مبينا لأدوائها ، ويدلى بكثير من الآراء التى تزيد من خبرتنا بالإنسان وطباعه والحياة وتصاريفها ، تعينه فى ذلك عين واعية بصيرة"[3].

ولعل ظروف مجتمع المتنبي وأحداث عصره التي كانت من الضخامة والتنوع والقسوة ، بحيث تجعل الفرد على مفترق طرق ، تدعوه للاختيار ولاتخاذ المواقف الجريئة ، وإلا سيندفع في تيارها ، ويفقد قيمه وأخلاقه

---

(١) المحصول الفكرى للمتنبي ، ص١٧٤ .
(٢) فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين ص٤٢٥ .
(٣) شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص٣٤٧ .

المتوارثة . وهذا ماأظهره المتنبي في شعره سواء في مقام المديح أم في الهجاء . فقد كان يهتف بإنسان عصره أن يحافظ على قيمه وخلقه .

عصر المتنبي عصر ذل وهوان ، لاقدر فيه للأكفاء ، بل الأذلاء والخصيان هم المتسلطين ، ومن أظهر أبيات الهجاء عند المتنبي والتي تدل على هوان المسلمين وانحطاط العصر قوله(١):

مِنْ أَيَّةِ الطُّرْقِ يَأْتِي نَحْوَكَ الكَرَمُ ... أَيْنَ المَحَاجِمُ يَاكَافُورُ وَالْجَلَمُ
جَازَ الأُولَى مَلَكَتْ كَفَّاكَ قَدْرَهُمُ ... فَعَرِّفُوا بِكَ أَنَّ الكَلْبَ فَوْقَهُمُ
لاَشَيْءَ أَقْبَحُ مِنْ فَحْلٍ لَهُ ذَكَرٌ ... تَقُودُهُ أَمَةٌ لَيْسَتْ لَهَا رَحِمُ

هذه صورة شديدة الدلالة على واقع الهجاء في شعر المتنبي - الهجاء الاجتماعي - الذي يكثر فيه التصدي للقيم والعدالة الاجتماعية حين يرى أن تحكم الأمي قليل القدر بالأحرار فجيعة وعقاب لأعظم الآثام ، ويهجو الشعب الذليل الذي قبل بتسلط العبد القزم عليه فيقول(٢):

سَادَاتُ كُلِّ أُنَاسٍ مِنْ نُفُوسِهِمِ ... وَسَادَةُ المُسْلِمِينَ الأَعْبُدُ القَزَمُ
أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكُمْ ... يَاأُمَّةً ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِهَا الأُمَمُ

في هذه الأبيات يتعمق المتنبي شعور بالأسى كما قال الدكتور شوقي ضيف(٣): فالظلم يلقي بأثقاله على الشعب ، وهو جاثم لايتحرك ، ولايرد الظلم والطغيان ، وتتجسد لشاعرنا أسباب المحنة ، وأنها تعود إلى ماأصاب العرب في أخلاقهم ، وفي كرامتهم . فهي قبل أن تكون محنة سياسية محنة خلقية ، جعلت الناس أضعف من أن يثوروا ، وقد تطلبت هذه المحنة من شاعرنا حربا أشد وأعنف من حرب السيوف والرماح ، حربا يحمل فيها الناس على خلقية قويمة جديدة ، يرسم فيها المثل العربية رسما يجسدها لهم ويرفعها أمامهم شعارات يتمثلونها في حياتهم ومعاملاتهم ، ليكونوا بذلك جديرين بالحياة ، وفي الوقت نفسه يصور فيهم النقائص التى جعلتهم يخنعون لظالميهم ، محاولا بذلك تحفيزهم حتى يحطموا الظلم ، ومذكيا فيهم الشعور

---

(١)،(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٢٨٠،٢٨١ .
(٣) فصول في الشعر ونقده ، ص٨٥،٨٦ بتصرف .

بكرامتهم ، ويذكرهم أن عليهم أن يتقيدوا بتعاليم الدين في كل أمور حياتهم ، ولايقتصرون على الأمور الجانبية من الدين كحف الشوارب ، وإعفاء اللحى ، كما هو الحال في العصر الحديث حين شغل الناس أنفسهم ببعض الأمور الجانبية في الدين ، وتركوا أهم غاياته وكأن النفوس بدأت تفرغ من الدين ويستولي عليها الوهن والفساد ، وإذا استشرى هذا المرض في النفوس ، مرضت الأجسام وفسدت الحياة .

صورة الأحدب والجاحظ عند ابن الرومي يقابلها صور عند المتنبي إلا أن قوتها عند المتنبي توحي بعدم الابتسام حين يقول[1]:

وَجُفُونَه مَاتَسْتَقِرُّ كَأَنَّها ... مَطْرُوفَةٌ أو فُتَّ فيها حِصْرَمُ
وإذَا أشَار مُحَدِّثاً فكأنّه ... قِرْدٌ يُقَهْقِه أَوْ عَجُوزٌ تَلْطِمُ
وتَراه أَصْغَرَ ماتَراهُ نَاطِقاً ... ويَكونُ أَكْذَبَ مايَكونُ ويُقْسِمُ
والذّلّ يَظهرُ في الذّليلِ مَوَدَّةً ... وَأوَدّ مِنه لِمَنْ يَوَدّ الأَرْقَمُ
وَمِن العَداوَةِ مَايَنالُكَ نَفْعَه ... ومِن الصّداقَةِ مَايَضُرّ ويَؤْلِمُ
أَفعَالُ مَنْ تَلِدُ الكِرَامُ كَرِيمَةٌ ... وفِعَالُ مَنْ تَلِدُ الأَعَاجِمُ أَعْجَمُ

فالمتنبي في هذه الأبيات يذكرنا بتلك النماذج المشوهة التي ألفناها في شعر ابن الرومي ، غير أن المتنبي في هجائه كالمارد الذي يطأ تحت قدميه أقزام الحقارة والدناءة والصغر في الناس[2].

يغتاظ المتنبي من عصره المتآكل المختل أشد الغيظ ، ويرى أن مايصدر عن الإنسان من فعل هو في الحقيقة نابع من حسبه ونسبه ، فكريم النسب حسن الفعال ، ولئيم النسب سيء الأفعال . والفنان قد ينظر إلى

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص١٥٦،٢٦١ .
(٢) إيليا الحاوى ، فن الهجاء وتطوره عند العرب ص٦٠١ بتصرف .

القبح فينقله علىٰ حقيقته ، كما ينظر إلىٰ الجمال فيرسمه بريشة أو كلمة ، أو لحن موسيقىٰ ساحر ، وإجادته في تصوير القبح أو الجمال ، هي التي تحقق جمال الفن علىٰ أرقىٰ مستوياته . ولعل شاعرنا أجاد في رسم القبح وتصويره فى هذه الأبيات كما أجاد في رسم صور الجمال المختلفة من قبل .

ولايفوتنا أن هناك فرق بين الفنان أو القاص وبين الشاعر ، فالفنان قد يستهدف ظاهرة أو شخصية ويحلل أخلاقا بفلسفة ، فيسبب لها ويومىء إلى نتائجها . في حين أن الشعر انطباع سريع وخواطر الشاعر لايعول عليها في دراسة الإنسان ، لأن شعره ذاتي ويصدر عن ذاته ، وأحكامه لايصح أن تكون كلها حاجة للإصلاح .. والمتنبي كان يكيل لكل إنسان بالمكيال الذي يناسبه .. وإن كان في هجائه نوع مكشوف . حين يذكر من الألفاظ ماينبو عن الذوق والأدب ، ونمسك عن التعرض لهذا النوع الذي تظهر فيه بذاءة لسان المتنبي ، ولعل ذلك يعود إلى اختلاط العرب بالفرس وشيوع بعض ألفاظ الفحش[١].

المتنبي وهو يعبر عن نقمته علىٰ واقع السلطة والمجتمع في عصره ، يغالي في احتقاره لأولئك الحكام ، كما يغالي في احتقار الخانعين الذين رضوا بحكم الظالمين ، إلا أنه بالرغم من ذلك يسمو غاية السمو ، حين يتحقق له فساد الحكام واستبدادهم ، كما يتحقق له أن القوم الذين يتحكمون برقابهم هم أذلاء خانعون ، ويرىٰ أنهم غير جديرين بالحياة فيقول[٢]:

أفَاضِلُ النَّاسِ أَغراضٌ لِذَا الزَّمَنِ ... يَخْلُو مِنَ الهَمِّ أَخْلاَهُمْ مِنَ الفِطَنِ
وإنَّما نَحْنُ فِي جِيلٍ سَوَاسِيَةٍ ... شَرٌّ عَلَى الحرِّ مِنْ سُقمٍ علىٰ بَدَنِ
حَوْلى بِكُلِّ مَكَانٍ مِنهُمُ خِلَقٌ ... تُخطِى إذا جئْتَ فى استِفْهامِها بمَنِ

---

(١) انظر أمثلة على ذلك فى الديوان ، ج١ ، ص٣٣١ ، ج٤ ، ص٢٥٣ وغيرها .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٣٤١ .

في هـذه الصورة يعلن شاعرنا تمرده على المجتمع كمـا يعلن ثورته على الفسـاد والضعف والظلم ، فكل من حوله صغار ، بل بهائم أغبيـاء ، والمتنبي بذلـك يقترب غـاية الاقتراب مـن ابن الـرومي كما يقـول إيليـا الحاوي[١]: "الـذي يعتقـد أن الدهر لاينفـك يأخذ حق الكـرام للـؤماء ، وأن الأغبيـاء يلعبـون فى ظله الماكر" . فـالناس فى نظر المتنبي سواء في النقـائص والمعـايب والشـرور ، حتى أن المرء لايأمـن على نفسه بينهم . فهـم جهال أعداء لذوي الفضل حاسدين لهم كما يقول[٢]:

لَاأقتَرِي بَلَدًا إلاَّ عَلَـى غَـرَرٍ ... وَلَاأَمُـرُّ بِخَلـقٍ غَيْـرِ مُضطَغِـنِ
وَلَاأُعَاشِرُ مِنْ أمْلَاكِهِـمْ أَحَـدًا ... إلاَّ أَحَقَّ بَضَـرِب الـرَّأسِ مِـن وثَنِ
فَقرُ الجهُولِ بِلاعَقلٍ إلَى أدَبٍ ... فَقـرُ الحِمَـارِ بِلارَأسٍ إلَـى رَسَـنِ

أي عصر هذا الذي تحول ناسه إلى وحوش صغار النفوس حتى لايأمن المتنبي على نفسـه فيـه ، فلايزور البلاد إلا وهـو يتـوقع الهلاك لأن نفـوس معـاصريه امتلأت حقدا وحسـدا ، لابد أنه عصر ساد فيـه حكام ظالمون آمن المتنبي بوجوب قتلهـم وسفك دمائهم ، بل وسحقهم كمـا يسحق رأس الوثن فالموت أولى أن يقضي عليهـم فهـم مفسـدة للنظام الاجتمـاعي ، وهـم مـن ناحية تبديد لزمن العالم الذى ينبغي أن يملأ بالقيم الإيجابية ، وهذه الفئة من المجتـع جمعـت إلى الجهل وفقـر العقل سوء الأدب ، ولعـل شـاعرنا في هذه الابيـات لايكشف عن وصف ظاهرة اجتماعية محددة بحدود زمـانية أو مكانية فحسـب ، إنما يكشـف عن رؤية إنسـانية شاملة[٣]. فهـو يندد بالجهل وسـوء الأدب كما يندد بالفساد والانحلال الخُلقي الذي يصيب الإنسان في كل زمان وكل مكان . ولعل الإنسان في عصرنا هذا أحق أن يوصف بنظرة المتنبي هذه

---

(١) فن الهجاء وتطوره عند العرب ص٥٩٦ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٣٤٢ .
(٣) أيمن العشماوى ، قصيدة المديح عند المتنبى ، ص١٢٦ بتصرف .

بعد أن انغمس في لذاته ولم يأخذ من الحضارة سوىٰ الوجه القبيح فاقتنىٰ السلبيات وابتعد عن الصالحات .

الناس في العصر العباسي غشيتهم غواش ، وصارت أخلاقهم وآدابهم وعاداتهم ، كأنها صرح عظيم تسكنه الأشباح ، وقد حاول المتنبي حين رأىٰ ماانتهت إليه الأخلاق والآداب والفضائل في عصره . أن يرد الناس من حوله ويدلهم بواسطة الكلمة ـ الشعر ـ إلىٰ ينابيع الأخلاق والقيم الأصيلة ، وإن كانت بطريق غير مباشر حين يقول[1]:

أنَوْكُ مِن عَبدٍ وَمِن عِرْسِهِ ... مَنْ حَكَّمَ العَبْدَ عَلَىٰ نَفسِهِ
العَبْدُ لاتَفضُلُ أَخْلاَقُه ... عَن فَرجِهِ المُنتِنِ أو ضِرْسِهِ
لايُنجِزُ المِيعادَ فِي يَوْمِهِ ... ولايَعِي مَاقالَ فِي أمسِهِ
فَلاتُرَجِّ الخَيرَ عِندَ امرِيءٍ ... مَرَّتْ يَدُ النَّخَّاسِ فِي رَأسِهِ
وَإنْ عَراكَ الشَّكُّ فِي نَفسِهِ ... بِحَالِهِ فانظُرْ إلَى جِنسِهِ
فَقلَّما يَلؤُمُ فِي ثَوبِهِ ... إلاَّ الذِّى يَلؤُمُ فِي غِرْسِهِ
مَن وَجَدَ المذْهَبَ عنْ قَدرِهِ ... لمْ يَجِدِ المذهَبَ عَن قَنَسِهِ

يشير المتنبي إلى تحكم الفساد في حس الناس حين أساءوا اختيار الحاكم ورضوا أن يحكموا عبدا أحمق جاهلاً علىٰ نفوسهم ، لأن العبد في نظر شاعرنا لاخلاق له ولافضل .

علىٰ الرغم من أن الأبيات السابقة في الهجاء ، وترتفع إلىٰ مستوىٰ عال من الأداء في فن الهجاء فإننا نخطيء إذا وقفنا عند الهجاء الشخصي وحده ، وتركنا ماتحت الكلمات من معان تظهر في تركيز المتنبي علىٰ آفات عصره ، من خيانة وكذب وإفساد الأمانات ، وهي تكشف عن أشياء في نفس

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٣١١، ٣١٣ .

شاعرنا تجسد مايعتريه من ألم لما كان يسود مجتمعه من رذائل وخيانات ، عاقت صلة الناس ببعضهم وساءت معها علاقاتهم الاجتماعية ، وحالت دون استمرار التقدم الأخلاقي .. وكثيرا مانجد الإنسان الوضيع في شعر المتنبي وقد اتصف بصفات ظاهرة تدل علىٰ قبح نفسه ، حتىٰ ليترفع المتنبي عن هجائه كما قال(١):

وَلَيسَ جَمِيلاً عِرضُهُ فَيَصونَهُ ... وليسَ جَميلاً أنْ يَكُونَ جَمِيلاَ
وَيَكذِبُ ماأذْلَلتُهُ بِهِجائِهِ ... لَقَد كَانَ مِن قَبلِ الهِجاءِ ذَلِيلاَ

وهذا حال الإنسان الوضيع ذليل لايهاب جانبه ، ولايكترث له ، كاذب حقير . وقد ساعد المتنبي على ذلك قوة شخصيته ، واعتداده بنفسه ، وإيمانه بشعره وافتخاره به .

ربما يكون التدهور الذي أصاب الإنسان في عصر المتنبي جراء الترف والانغماس في الشهوات ، أدىٰ إلىٰ انحلال الأخلاق ، واندثار القيم ، فالإنسان الذي أتخمته النعم في زمن المتنبي وقبيل زمنه ، صار كما وصف القرآن أمثاله : {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيحَةٍ عَلَيهِم ، هُمُ العَدُوُّ فَاحذَرهُم قَاتَلَهُمُ اللهُ أنَّىٰ يُؤفَكُونَ}(٢).

ولم يكن شاعرنا مرتاحا إلى مجتمعه وأناس عصره ، فعبر عن ذلك بذمه لمعاصريه حين أشار إلى مساوئهم وتسفلهم . من ذلك قوله(٣):

إنِّي نَزلتُ بِكَذَّابِينَ ضَيفُهُم ... عَنِ القِرَى وعَنِ التَّرحَالِ مَحدُودُ
جُودُ الرِّجالِ مِنَ الأيدِي وَجُودُهُمُ ... مِنَ اللِّسانِ فلاكانُوا ولاالجُودُ

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٣٨١ .
(٢) سورة المنافقون : آية ٤،٥،٦
(٣) الديوان ، ج٢ ، ص١٤٢،١٤٣ .

مَايَقبِضُ المَوتُ نَفساً مِن نُفُوسِهِم إلاَّ وَفـي يَدِهِ مِـن نَتنِهـا عُـودُ
مِن كُلِّ رِخْوِ وِكاءِ البَطنِ مُنفَتِقٍ لافـي الـرِّجَالِ ولاالنِّسـوَانِ مَعـدُودُ

لاشـك أن الشـاعر وهو يصـور رذائل مهجـويه ، بلـغ غـاية الإسراف والمستحيـل ، حين جعل الموت يقبـض عودا لينتزع به أرواحهـم لشـدة قرفه وتقززه منهم ، لقذارة أنفسهم ولؤم أخلاقهم .

"إن الكراهية هي التي فتقت للشاعر هذه الصورة المقذعة ، وهذا يدلنا على أن الشعور والخيال كانا متوحدين فى نفس الشاعـر . الأول فاض بالحقد والثانى أبدع الصورة المشوهة الماسخة"(١). وحين رأىٰ المتنبي أن مهجوه قبيح النفس تذكر دمامته ونقائصه الجسمية فأضافها إلىٰ نقائصـه المعنوية ، ثم ينكر علىٰ أهل مصر طاعتهم لعبد خائن فيقول(٢):

أَكُلَّمَا اغتَالَ عبْدُ السُّوء سيِّدَهُ أو خَانَهُ فَلَـهُ فـي مِصـرَ تَمهِيـدُ
صَار الخَصِيُّ إِمَامَ الآبِقِينَ بها فَـالحُرُّ مُستعبَـدٌ والعَبـدُ مَعْبُـودُ
نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَن ثَعَالِبِها فَقَـدْ بَشِمْـنَ وَمَاتَفنَـىٰ العَنَاقِيـدُ

فـالمتنبي لايقف في هجائه عند شخص بعينه بل يتعـداه إلىٰ من ينقادون للعبـد ويولونه أمرهم ، ويأتي بألفاظ تطعن في مهجـوه ويعيره بأعظم صفات يعتز بها الإنسان كالرجولة والحرية ، ويتهم أهل مصر وساداتها في رضوخهم لحكـم العبد الخصي بأنهم غـافلون عن الأراذل حتىٰ عـاثوا فى أمـوال الناس وأتخمهـم الشبع ، وهو بذلـك يحث المصريين علىٰ الثـورة والتمرد علىٰ حكم غير العرب الأحرار . وجريا علىٰ أسلوبه الشائع في استنفاد المعنىٰ علىٰ دفعات ومـراحل ، نراه يتابع حديثه عن عبودية مهجوه ـ كـافور ـ ، وقد جعل من البديع مطية لبلوغ غرضه ـ الهجاء ـ حين قال(٣):

---

(١) إيليا حاوى ، فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص٦١٤ .
(٢)،(٣) الديوان ، ج٢ ، ص١٤٤،١٤٧ .

العَبدُ لَيسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ ... لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيَابِ الحُرِّ مَولُودُ
لَاتَشتَرِ العَبْدَ إِلاَّ والعَصَا مَعَهُ ... إِنَّ العَبِيدَ لأَنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ
مَاكُنتُ أحسَبُنِي أحْيَا إلى زَمَنٍ ... يُسِيءُ بِى فيهِ كَلبٌ وَهوَ مَحمُودُ
ولاتَوَهَّمتُ أنَّ النَاسَ قَدْ فَقِدُوا ... وَأنَّ مِثلَ أبِي البَيضَاءِ مَوجُودُ
وأنَّ ذَا الأَسوَدَ المثقُوبَ مِشفَرُهُ ... تُطِيعُهُ ذِي العَضَارِيطُ الرَّعَادِيدُ
جَوعانُ يأكُلُ مِن زَادِي ويُمسِكُنِي ... لِكَيْ يُقَالَ عَظِيمُ القَدرِ مَقصُودُ
إنَّ امرَأً أَمَةٌ حُبلَى تُدَبِّرُهُ ... لَمُستَضَامٌ سَخِينُ العَينِ مَفئُودُ

يرى المتنبي أن الطبع في الإنسان يغلب التطبع . وقد عبر بألفاظ توافق مقتضى هجائه وإقذاعه ، وعندما يحذر الناس من شراء العبد دون عصا يساق بها ، فهو يريد القول : أن العبد لايستحق العرش وإنما العصا ، وذلك لأن المتنبي يرى أن كثيرا من العبيد لئام النفوس ، لذا ينبغي أن يعاملوا وفقا لطبائع أنفسهم .

وفي هذه الأبيات نلمس ملمحا من ملامح مأساة شاعرنا وهي مأساة القيم التي انهارت وتناقضت وتبدلت ، حتى أصبح أحط الناس ملكا يستبد بالأحرار والأشراف . فهذه مشكلة اغتصاب القيم ، كما أنها مشكلة تقدير الإنسان بإنسانيته . وهذا يدل على أن العصر فعلا عصر تدهور وانحطاط[1]. ويمضي شاعرنا يتهكم ويسخر من مهجوه وينكر على أهل مصر انقيادهم وطاعتهم له ، ويصفهم بالجبن ، والخوف من من لاهيبة له ، وقد جعلهم عضاريط ، أي أنهم يشتغلون بطعامهم وهذان النعتان كما يقول إيليا الحاوى : "يمثلان أحقر مايمكن أن ينعت به إنسان عصرئذ . فإن الرجل

---

(١) إيليا الحاوى ، فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص٦١٧ بتصرف .

الذي يعمل ليأكل هو رمز للشخص الذي انهارت نفسيته وطموحه ، وزالت شهامته ، فلم يعد يهمه شرف العيش ، بل لقمته أكانت ذليلة أم شريفة . هذا الشخص خاصة بالنسبة للمتنبي لاقيمة له إطلاقا لأنه يعتقد أن قيمة الإنسان في طموحه وشرفه وكبر نفسه"[١]. وهذا المهجو لشدة صغاره ، ولنقص في شعوره بالذات كما يرى المتنبي ، يريد أن يقلد العظماء ، ولكن بماذا؟ بأن يبقى المتنبي عنده ويكسب مجدا من قربه وفي ذلك افتخار من المتنبي بشعره وأن الكل يطلب أن يخلد بشعره .

حارب الإسلام التفاضل في الجنس أو اللون أو الثروة ، وسوى بين العبد والسيد ، كما سوى بين الأبيض والأسود ، والعربي وغيرالعربي ، بل لقد رفع العبيد والموالى إلى مقام الإمارة وقيادة الجيش والإمامة في الصلاة ، وجعل التفاضل في التقوى ، ولكن المتنبي متأثر بواقع عصره ـ عصر الطبقات ـ والتميز نراه يهجو إنسان عصره في شخص عبد ـ كافور ـ متهكما بلونه وساخرا من جنسه في أكثر من موضع يقول[٢]:

مَنْ عَلَّمَ الأسوَدَ المَخصِيَّ مَكرُمَةً ... أقَومُهُ البِيضُ أم آباؤُهُ الصِّيدُ
أَمْ أُذْنُهُ فِي يَدِ النَّخَّاسِ دَامِيَةً ... أم قَدرُهُ ، وَهوَ بِالفَلسَينِ مَردُودُ
أولَى اللِّئَامِ كُوَيفِيرٌ بمَعذِرَةٍ ... فِي كُلِّ لُؤمٍ وبَعضُ العُذرِ تَفنِيدُ
وَذَاكَ أنَّ الفُحُولَ البِيضَ عَاجِزَةٌ ... عَنِ الجَمِيلِ فَكيفَ الخِصيَةُ السُّودُ

يرى إيليا الحاوى[٣]أن هذه الأبيات تشتمل على ملامح المأساة التي تختلف مظاهرها عصرا بعد عصر ، وهي مشكلة الذل الذي يستبد بالشرف ، الجاهل الذي لافضائل له وقد قدر له أن يستبد بذي الفضائل . الخصي

---

(١) المرجع السابق ، ص٦١٨ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص١٤٧،١٤٨ .
(٣) فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص٦١٩ بتصرف .

الـذي يستبد بمن يعتزون برجولتهـم ، جمعها المتنبي في هـذه الصور المتوالية فرأينا لفظة "الأسود" تجتمع مع لفظة "الخصي" ثم تلحـق بها لفظة "النخاس" و"الآباء الصيـد" وخاصـة لفظـة "الفحل" التي استنفد بهـا المتنبي جميـع مافي نفســه من احتقار لذلك الإنســان الذي تمثل للمتنبي فيـه مسخـا ، إنه الإنسان عندما يشتد ساعداه وتنحط نفسه ورجولته وأخلاقه .

ونحن نرىٰ أن قيمـة الإنسان لاتحددها أية اعتبارات عـرقية أووراثية . وفهم الأخلاق بهذه الطريقة ، يتنافر مع الإسلام الذي يرد التمايز بين البشر إلى التقوىٰ ، إذ أن قيمة الإنسان مرتبطة بالإنسان نفســه من حيث سلوكه في الحياة وتحرره من النقائص ، وقد أشار المتنبي نفسه إلىٰ أن قيمة الإنسان تنبع من ذاته حين افتخر بنفسه وفعاله لابأصله ونسبه وهو القائل[1]:

لاَبِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِـي فَخَـرْتُ ، لاَبِجُـدُودِي

فهذه دعوة من المتنبي للإنسان أن يفخر بنفسه لابأصله ونسبه ولكنه في الصـورة السـابقة يهجو متنـاسياً دعوته هذه فيهجو بوضـاعة النسـب وحقارة الأصل ، ونحن لانقره علىٰ ذلك ، فإنما المرء بأخلاقه وفعـاله لابأصله وهيئته . فهذه أمور لايد للمرء فيها ، فوجب ألا يؤاخذ عليها .

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٤٦ .

في أزمان الضعف تهن الروابط بين الناس ، ويسود الشك ، وتنعدم الثقة بينهم ، ويتلاشى كل مايعصمهم من التنافر والبغضاء ، ويصيرون مثل بيت متصدع آيلة جدرانه للسقوط .. وقد فشت هذه الآفة حقا في عصر المتنبي فقرع شاعرنا طبول الخطر لبني قومه حتىٰ يتجنبوا أسباب الاختلال ،و يضيقوا منافذه ، ولكنه رأىٰ في إنسان عصره صورة مجسمة للظلم والعدوان فقال(١):

إذَا سَاءَ فِعلُ المَرءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ ... وَصَدَّقَ مَايَعتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ
وَعادَى مُحِبِّيهِ بِقَوْلِ عُدَاتِهِ ... وَأَصْبَحَ فِي لَيلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظلِمِ

الفعل القبيح يبدأ بوهم ، ثم يكون عادة ، فالخطأ منشؤه وهم والإنسان الذي يظن بالناس سوءا يعاني من خلل يكون هذا الخلل في نفسه أو في خلقه ، وحكمه علىٰ الناس وسوء ظنه لايمكن أن يزول قبل أن يصلح مابه من خلل ، فلم لايحب الناس وكأن المتنبي يدعو في هذه الصورة للحب ويناشد إنسان عصره بالحب فلو كان سيء الظن محبا للناس ، عطوفا علىٰ الضعفاء منهم لما أساء الظن بهم . ولكن وكما قيل - السيء يسيء الظن - وهنا يقع الإنسان في دوامة الشك فلايميز عدوه من صديقه . ولعل شاعرنا لم يجد لدعوته قبولا ، ولم يسمع لها صدىٰ في مجتمعه فأعاد النظر فيمن حوله فرأىٰ من إنسان عصره ماجعله يحذرهم ويحذر من خداعهم وغدرهم فقال(٢):

وَلاتَشكَّ إلَى خَلقٍ فَتُشمِتَهُ ... شَكْوَى الجَرِيحِ إلَى الغِربَانِ والرَّخَمِ
وكُن عَلىٰ حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَستُرُهُ ... ولايَغُرَّكَ مِنهُم ثَغرُ مُبتَسِمِ
غَاضَ الوَفاءُ فَمَا تَلقاهُ فِي عِدَةٍ ... وَأعْوَزَ الصِّدقُ فِي الإخبَارِ والقَسَمِ

فالمتنبي حين يقنط من الإنسان هذا القنوط الذي يجعله لايرىٰ في الناس صادقا ، ولاوفيا ، بل يرىٰ فيهم شرا خالصا ، قد يكشف عن نفسه ، فيطلعنا غير قاصد علىٰ مااستقر في نفسه من رؤية يائسة للإنسان ، وأسقط

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٢٦٤ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٢٩٥ .

علىٰ الآخرين جام سخطه وكرهه ، ولعل السبب في ذلك العبقرية المتمردة ، والطموح إلى السطوة والغنىٰ ، وهذا الطموح هو الذي يولد العداوة المتجاوزة الحدود ، والسخط علىٰ الآخرين وإساءة الظن بهم ومن ثم حجب الرائع والجميل فى الإنسان .

إن الأمر في نظر شاعرنا ومن خلال صوره في الهجاء ، هو أمر الروح والضمير ، والرغبة الصادقة الصحيحة في حياة تتوازن فيها حياة الإنسان وعلاقته بربه ومع نفسه ومجتمعه .

الصداقة قيمة إنسانية تعني التمازج بين الأفكار والطباع ، والنظرة للحياة بصورة عامة بين طرفين . وقد تمر الصداقة بحوادث تقطع أوصالها ، كما تمر بمرحلة هادئة يحكمها العقل فتدوم . ولكن أن يخلو الزمن من الأصدقاء ، وتنعدم الصداقة وحين لايجد الإنسان من يركن إليه ، فهذا أمر يدل علىٰ سوء الحال التي وصل إليها البشر ودناءة أخلاقهم . كما يدل علىٰ تقاطع أواصر المحبة بين أفراد المجتمع وعدم التلاؤم . ولعل عصر المتنبي كان عصر يأس وتقاطع مما آل بشاعرنا إلىٰ القول[١]:

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَىٰ المَوتَ شَافِياً ... وحَسْبُ المَنَايا أنْ يَكُنَّ أمَانِيَا
تَمنَّيْتَهَا لمَّا تَمنَّيْتَ أنْ تَرَىٰ ... صَديقاً ، فَأَعيَا أو عَدُوّاً مُدَاجِيَا

تظهر عظمة المرء إذا تركته الحياة بلاأهل ولاصديق ، فتحداها وتحمل مصائبها ثابت الجنان قوي العزيمة ، ولكن حين يتمنى العظيم الموت خلاصا من الحياة التى لاصديق فيها ، ولاعدو .. فهذا يشعرنا بمدىٰ التدهور والفساد الذي ساد فى العصر العباسى حتىٰ بات الإنسان يتمنىٰ أكره الأمور إلىٰ قلبه وهو الموت لأنه وصل إلى حالة من اليأس يصعب معها البقاء لندرة الأصدقاء الأوفياء وهذا المعنىٰ كرره المتنبي حين قال[٢]:

وَحيدٌ مِنَ الخُلانِ فِي كلِّ بَلدَةٍ ... إذا عَظُمَ المَطْلُوبُ قَلَّ المُسَاعِدُ

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٤١٧ .
(٢) الديوان ، ج١ ، ص٣٩٣ .

فهـذا يدل علىٰ قلة الخير في الناس . وأن الأصدقاء الأوفيـاء لايعرفون إلا في أوقات الشدة ، ولكن في عصر المتنبي لاوجود لهم وهذا شر عظيم كما قال[١]:

شَرُّ البِلاَدِ مَكانٌ لاَصَدِيقَ بِهِ وشَـرُّ مَـايَكسِبُ الإنْسـانُ مـايَصِمُ

الـوفاء للصـديق مـن أخلاق العـرب ، والمتنبي يعلم أن مـن الـوفاء للصـديق عـدم توجيه أي شيء إليـه يؤذيه ، لذا رأىٰ أن أبغـض الأمـاكن مايكثر بها الفساد والشر لأن هـذه الآفـات إنما تكثر حين يفتقـد الإنسـان من يعينـه علىٰ مصائبه ويقف إلىٰ جواره يسديه النصح ، وعصـر شاعرنا خلا من هذه القيم . وماأجدر عرب اليوم أن يتمثلوا قيم أجدادهم التي افتقدها المتنبي في أبناء عصره ، من حسن معاشرة الأصدقاء والتأدب معهم ، وماأقرب عصر المتنبي من عصرنا في انحطاط القيم ، وتدني الأخلاق .

ونحن لانغفـل أثر اللغـة التي استخـدمها المتنبي في اشبـاع صـوره التي تضمنها هجاؤه ، ومديحه ـ من قبل ـ فقد أحاط بخصائصها ودقائقها مما كان عونا له على الأداء الرائع البديع ، في شتىٰ أغراضه .

صـدقت رؤية المتنبي للإنسـان في زمنـه وبعد زمنـه فعصـور التغير قـد بعثرت قيم الإنسـان وانحطت بأخلاقـه بحكم التقدم الحضـاري المزيف . ولعـل رؤية شـاعرنا للإنسان في عصره تنطبق إلى حد ما علىٰ إنسـان العصر الحديث وقد يكون هذا من أسباب خلود شعر المتنبي ، فالعواطـف مشتركة بين الناس والتغير الذي يصيب الأخلاق مرفوض يقول[٢]:

إِذَا مَاالنَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ فإنِّى قَدْ أَكلتُهُمُ وَذَاقا
فَلَمْ أَرَوُدَّهُـمْ إلاَّ خِدَاعًـا وَلَمْ أَرَدِينَهُمْ إلاَّ نِفَاقا

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٨٩ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص٤٧ .

هـذا تصوير دقيق رائع ذكي لما آل إليـه الإنسان في عين المتنبي .. إنه يوحي لنـا بمقـدار الخور الـذي أصاب الروح حين يصبـح النـاس على وتيرة واحدة من الفساد والتدني الخلقي وحين يتغشى النفاق ويسـود الخداع بينهم فكيـف يستدام بمثل هؤلاء حضارة ، أو كيف يجري نهر الحيـاة قويا جياشا؟!

الـواقع أن عصـرا هـذه أخلاق أهلـه ، لابد أن يكـون عصـر ضعـف وظلمـة ، والمتنبي بعد خبرته بالنـاس ومعرفته بهم لايجد مـايقابل به غفلتهـم وخداعهم سوى الرمح يرويه منهم غير راحم لهم فيقول[1]:

وَمَن عَرَفَ الأَيَّامَ مَعرِفَتِي بِها ... وَبالنَّـاسِ رَوَّى رُمْحَـهُ غَيـرَ رَاحِمِ
فَليسَ بمَرحُومٍ إذاَ ظَفِرُوا بِهِ ... وَلاَفِـى الرَّدَى الجَـارِي عَلَيهِـم بِآثِمِ

قـد يستحيل الكره إلى ازدراء ، وإذا كـره الإنسـان قـد يرجع عنه إذا اعتـدل المكـروه . أمـا إذا ازدرى فهيهـات أن يعـود ، وشـاعرنا هنـا ازدرى الإنسـان ، ورسـم لـه صورة عجيبـة حين غـابت عـن هـذا الإنسـان فضـائله وضميره ، فضـاهى أشـد الحيـوان ضـراوة ، فلم يجد سـوى القتـل ، وسفـك الـدماء ، دون رحمة ولاشفقة ، لأنه في عصر افتقدت فيـه كل معاني الرحمة والرأفة .

وبعـد فهـذه الشواهد تؤكـد لنـا حقيقة عصر المتنبي ومـاساد فيـه مـن ظواهر التدابر والتحاقد وغيرهـا من الظواهر الذميمـة التي تروج في عصـور التغير الاجتمـاعي ، والتخلـف ، ومابرحنا نجد مثل هـذه الظواهر بين الناس في عصـرنا هذا ، وهو مؤشر لفساد القيم واختلالها ، وكـأن المتنبي كان بعيد الـرؤية حين استهدف الإنسان في هجائه وفي النظرة الشـاملة له في كل زمان ومكان . ولعل هذا ينقض ماقاله أنيس المقدسي[2]: من أن التجدد في المعاني ـ في العصر العباسي ـ انحصر في مجاري البديع ولم يتعدها إلى الفنون الخيالية

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٢٣٨ .
(٢) أمراء الشعر العربى ، ص٩٧ بتصرف .

المبنيـة علىٰ معرفة أوسع في الكـون والإنسان . فالمتنبي بهـذه النظـرات يؤكد حقيقة عكس كلام المقدسي .

آمـن المتنبي بأن العطف علىٰ الآخرين يكمـن في العمـل علىٰ تحريرهـم من كل مايعوق تقدمهم ، كمـا آمن أن السلام في حيـاة الجمـاعة هو إيقاظ القـوة في نفوسهم ، من أجل تجسيـد القيم الإنسانية السـامية ، يقول متحسرا علىٰ العـرب حين خارت قـواهـم ورضخـوا لحكم الأعـاجم مستنكـرا عليهـم ذلك[١]:

وَإنّما النَّـاسُ بالمُلُـوكِ وَمَـا ... تُفلِحُ عُـربٌ مُلُـوكُهـا عَجَـمُ
لَاأدَبُ عِنـدهُـمْ ولاَحَسَـبُ ... ولاعُهُـودٌ لَهُـم ولاذِمَـمُ
بكُـلِّ أرضٍ وطِئتُـهـا أُمَـمٌ ... تُرعَـى بِعبَـدٍ كأنَّهـا غَنَـمُ
يَستَخشِنُ الخَزَّ حِينَ يَلمُسُهُ ... وَكـانَ يُبـرَى بِظُفـرِهِ القلَـمُ

هنـا هجـوم مقابل حب . هجـوم علىٰ حكم الأعـاجم ، وحب للعـرب وأحقيتهم في الحكم ، وفي هذه الصورة يثور المتنبي علىالعرب ويرفض حكم الأعاجم ويبين للعرب أنه لن يكتب لهم فلاح ماداموا قد ذلوا لهم ورضوا حكمهم ، ويعرض بالعبيد الذين استعلوا علىٰ العرب ، وأحالوا حياتهم شقاء وظلما ، حتىٰ لكأنهم كما قال الدكتـور شوقي ضيف[٢]: غنم سائمة لاتملك من أمـرها شيئا ، وأي عبيدهم أولئـك الحكام إنهم في الـدرك الأسفل من صور الإنسـانية ، فلاأدب عنـدهم ، ولاكـرم ، ولاعهود ولاذمـم ، ولاأمـان لهم ، ويسخـر منهـم شـاعرنا حين يذكـرهم ، أنهـم كـانوا عبيـدا جفـاة غلاظـا ، لايعـرفون سوىٰ الحياة الخشنـة القاسية ، بل الحياة الـوحشية التي تطول فيها الأظفـار ، فـإذا لبسوا الحرير وجدوه خشنـا جافيـا ، وذهبـوا يملأون الأرض شرا ونكرا ، كل ذلك تهكما بكبريائهم .

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص١٧٩،١٨٠ .
(٢) فصول في الشعر ونقده ، ص٨٢ بتصرف .

وهنا يؤكد المتنبي على ضرورة التآلف بين الحاكم والرعية ، وأن أي تنافر أو تباين في الأمور الاجتماعية أو اختلاف في الطبائع واللغة لايمكن أن يصلح معه حال السياسة . لذا وجب أن يحكم العرب عربي لاأعجمي حتىٰ يكتب لهم الفلاح .

وشاعرنا يرىٰ أن الهوان كل الهوان أن يرضىٰ عربي بالذل ، فرفع شعارات توحي بالثورة علىٰ حكم الأعاجم وتندد بمن رضي العيش تحت وصايتهم . وله بيت يدل علىٰ أن أناس عصره لافرق بينهم وبين القرود حين قال[1]:

وكُنتُ مِنَ النَّاسِ في مَحفِلٍ فَهاأَنَا في محفِلٍ مِنْ قُرُودِ

فالناس كانوا في عين شاعرنا أناسا حين لم يرضوا سوىٰ بحكم العرب ولم يرضخوا للأعاجم ولكن حين حكموا عليهم العبيد والأعاجم باتوا في نظره قرودا وأوباشا لايحفل بهم ولايكلف نفسه عناء التفكير فيهم .

يرىٰ المتنبي أن المعايير الأخلاقية انعدمت في عصره ، وأصبح الناس لايميزون بين الحق والباطل ، وإنما هم كالأنعام أو هكذا صورهم في قوله[2]:

أرَىٰ أُنَاسَاً وَمحصُولِي عَلَى غَنَمٍ وَذِكرَ جُودٍ وَمَحصُولِي عَلىٰ الكَلِمِ
ورَبَّ مَالٍ فَقيرًا مِن مُرُوَّتِهِ لَم يُثرِ مِنْها كَمَا أَثرَىٰ مِنَ العَدَمِ

أحس المتنبي بالكوارث التي تلح علىٰ بني عصره ، وعبثا استثارهم فلم يستمعوا له فكأنهم غنم يصرفهم الرعاة الباطشون ويغضب شاعرنا لذلك ، ويرىٰ أن هؤلاء الناس ليس لهم من إنسانيتهم سوىٰ الصورة ، إذ لاعقل لهم ويستنكر رضوخهم للظلم ، وتخليهم عن مبادئهم وقيمهم العربية الأصيلة

---

(١) الديوان ، ج٢ ، ص٦٧ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص١٥٦ .

وينعي على معاصريه استكثارهم للمال وفقدهم للمروءة ومعاني الجود ، ويلحق بهذا الشاهد ، شواهد أخرى جيدة تنم على إحساس الشاعر بعصره ، وهوان الناس في زمنه منها قوله(١):

فِي النَّاسِ أَمثِلَةٌ تَدُورُ ، حَياتُها كَمَماتِهَا وَمَمَاتُها كَحَياتِها
هِبتُ النِّكَاحَ حِذَارَ نَسلٍ مِثلِها حَتَّى وَفَرتُ على النِّساءِ بَناتِها

أي عصر هذا الذي وجد فيه أناس حياتهم ومماتهم سواء؟ قطعا لابد أن يكون عصر انحلال وتفسخ ، وهذا شاهد على استخفاف شاعرنا بأهل عصره ، وذمه إياهم ، بأنهم أموات كالأحياء ، أو أحياء كالأموات ، ولذلك خاف أن يتزوج فينسل مثلهم .

ولم يزد المتنبي على تسجيل ظاهرة الحقارة في بني عصره ، وليته فعل ودل على مصدر الحقارة فيهم ، ليريحنا من التساؤلات عن فسولة الناس في زمنه وتدني أخلاقهم ، بل يزيد الأمر سوءا فيقول(٢):

مَنْ لِي بِفَهمِ أُهَيلِ عَصرٍ يَدَّعِي أَنْ يَحسُبَ الهِندِيَّ فِيهِمْ بَاقِلُ

فهذا شاهد مهم في الدلالة على مانستهدفه من نظرة الزراية والتنقيص على أهل عصره ، إذ لايفرقون بين العالم والجاهل .

من خلال هذه الشواهد ، يتحقق لنا أن أبا الطيب كان يتسخط على المجتمع والعصر الذي رأى فيه القيم تختل والفضائل تنحط ، كل ذلك ونفسه تتحرى عن الحقيقة الكبرى ، ومايتفرع عنها من مظاهر العدل والخير واتزان القيم والمقاييس الأخلاقية ، فكأنه بذلك يلزم نفسه بعث القيم العربية في نفوس معاصريه ، كما يلزم نفسه أن يعيد إلى عصره الذميم ، النبل والأخلاق الإنسانية الكريمة .

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٣٥٧ .
(٢) الديوان ، ج٣ ، ص٣٧٧ .

"رأى المتنبي الحياة صراعا مستمرا ومتداولا بين الناس ، والإنسان في هذه الحياة فى قتال مستمر ، وصراع يسيطر عليه مبدأ القوة ، والإنسان في صراعه مع الإنسان يكشف عن لؤم طبع ، وفساد نفس ، وخداع خلق ولايكتفي الإنسان بمصائب القدر في الحياة بل يزيد عليها من فعله مصائب إلى مصائب"(١). وقد نستطيع القول : إن المتنبي يسيء الظن بالإنسان أيما إساءة ، وكأنما لم يلق منهم خيرا فيقول(٢):

كُلَّمَا أنبَتَ الزَّمَانُ قَنَاةً رَكَّبَ المَرءُ في القَنَاةِ سِنَانَا

... ...

وَمُرَادُ النُّفُوسِ أصغَرُ مِنْ أَنْ نَتَعَادَىٰ فِيهِ وأَنْ نَتَفَانَىٰ

يرىٰ شاعرنا أن الإنسان لايكتفي بمصائب الدهر ، بل يزيد عليها ويضيف إليها مصائب بعداوته لغيره ، لكن المتنبي الشقي بإنسان عصره الواجد عليه . لأنه لم يجد فيه مايلبي مثاليته - ويشبع طموحه إلىٰ حياة متكافلة ومجتمع قرير ، يعود إلىٰ نفسه ويحذر بني عصره ، حين يدرك حقيقة الحياة الدنيا ، وأنها متاع الغرور ، وأن الصراع بين الإنسان والإنسان ضلالة ونزق ، والفجور مستقر في النفوس استقرار التقوىٰ فيها ، في البيت الثاني يرىٰ أن مراد النفوس أصغر ، إذا زالت عنه الغواشي ، وتذكر الموت والقبر .

كان عصر المتنبي مزيجا من الغنىٰ المترف ، والفقر المدقع ، ولعل الفقر تسبب في ظهور بعض الصفات الرذيلة ، كالكذب والغدر والخيانة والنفاق والدسائس ، فظهر أثر ذلك المجتمع في شعر المتنبي حين رسم صورة حية لنموذج معين في عصره الذى يكتنفه الرياء والنفاق وإظهار غير مافي الباطن(٣). يقول مصورا ذلك(٤):

---

(١) أيمن العشماوى ، قصيدة المديح عند المتنبى وتطورها الفنى ، ص١٢٤ .

(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٣٧١،٣٧٢ .

(٣) أحمد عبد الله المحسن ، مقدمات سيفيات المتنبى ، ص٨٢ بتصرف .

(٤) الديوان ، ج٢ ، ص٣٣٠ .

غَيرِي بِأكثَرِ هٰذَا النَّاسِ يَنخَدِعُ إنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا أو حدَّثُوا شَجُعُوا
أَهْلُ الحفِيظَـةِ إلاَّ أنْ تُجرِّبَهُـمْ وَفِي التَّجَارِبِ بَعْـدَ الغَـيِّ مَايَـزَعُ

كان المتنبي في هذه الصورة أكثر احتياطا في تعبيره ، فهـو لايذم الناس جميعا لكنه يذم أكثرهم ، فبعد تجاربه وخبرته بالناس طبيعي ألا ينخدع بهم وبمظـاهرهم فقد تغيرت النفـوس ، واتصف الإنسان بصفـات قبيحـة فقد فرغ ضميره وخلـت نفسـه من القيم والآداب التي ورثهـا عـن الأديان والثقـافات السابقة ، وانتكس بفعل ماوصله من عادات وانغمس في لـذاته وعاد أقل من الحيوان وضاعة ، وأصبح لايتصف إلا بأسوأ الصفات وأحط الأخلاق ، فكل ماحصله في حضارته لم يعنـه في السيطـرة علىٰ نفسه ، فظـل كحشـرة لاتنهض حتىٰ تسقط وتقع حسيرة .

بعـد أن كان رأىٰ المتنبي في النـاس أن أكثرهم مخادعـون ، إن قـاتلوا جبنـوا أو حدثوا شجعوا ، عـاد إلى ذم الناس جميعـا وأمعـن في ذلك "يوم تمثـل لـه النـاس تماثيـل من خبـث يتقنـع بالـوداد ، ومـن لـؤم يتستر بنبـل الخلق"(١). حين فسدت نفوسهم وباتت تنطوي علىٰ الخبث فقال(٢):

فَلَمَّا صَـارَ وُدُّ النَّـاسِ خِبًّـا جَزَيْتُ عَلَـى ابْتِسَامٍ بابتِسَامِ
وصِرتُ أشُكُّ فِيمَنْ أصطَفِيهِ لِعِلمِـي أنَّهُ بعـضُ الأنَامِ
وَآنَفُ مِن أخِي لِأبِي وَأُمِّي إذا مَـالَمْ أجِدهُ مِـنَ الكِـرَامِ

في هذه الصورة ينعي المتنبي خصال الآباء والأجداد التي استحـالت في عصـره إلىٰ أشكال محنطة ، حين غلـب اللؤم علىٰ أفراد عصـره متناسين خلق أجدادهم وفضائلهم التي تحلت بها نفوسهم الكبيرة من إباء الضيم ، والشعور بالكـرامة ، والبسالة والكـرم الفياض ، ويعيب علىٰ معـاصريه هـذا التخلي ،

---

(١) فوزى عطوى ، المتنبى شاعر السيف والقلم ، ص٦١ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٢٧٤ .

ويرىٰ أن ذلك عيبا في أخلاقهم ، ولكن العيب الحقيقي حين يكون الإنسان قادرا على التخلق بالفضائل والترفع عن الدنايا ولكنه ينجرف في تيار الانحلال ، فكثرة التلاوم والمؤاخذات ، وشيوع التنافر ، وسوء ظن الإنسان بأخيه الإنسان ناشىء من ثبوت الأنماط الأخلاقية التي تمتد من الواقع منتهية إلى المثل الأعلىٰ الذي تتكامل فيه الفضائل ، وحين يفتقد تكون هذه النظرة للإنسان .

قد يكون ثمة ظواهر غاشية من مخايل المنعة في مجالات مختلفة من مناشط الإنسان ، ربما تكون العلوم والفنون لاتزال تتحرك حركتها فينخدع بها من لايدقق النظر ، ولعل المتنبي أراد منا أن ندقق النظر في الحكم علىٰ الإنسان حين قال[1]:

والنَّاسُ قَدْ نَبَذُوا الحِفاظَ فَمُطلَقٌ ... يَنسَىٰ الَّذِى يُوْلَى وعافٍ يَندمُ
لايَخدَعنَّكَ مِنْ عَدُوٍّ دمعُهُ ... وارْحَم شَبابَكَ مِنْ عَدُوٍّ تَرحمُ
يُؤذِي القَلِيلُ مِنَ اللِّئامِ بِطَبعِهِ ... مَنْ لايَقِلُّ كَما يَقِلُّ ويَلؤُمُ
الظُّلمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإنْ تَجِد ... ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لايَظلِمُ

كأن المتنبي واجه دمار الخلق ، وفناء القيم ، وتعري الإنسان أمام عينيه لأول مرة عن حقيقة مريعة ، وهي أن الإنسان لم يعد إنسانا ، وأية مأساة أعمق من أن تقف النفس أمام الشعور بفراغ الإنسان من قيمه؟ فكأن المتنبي يريد القول : أن الظلم مركب في الإنسان ، لأنه رأى الناس في عصره يتظالمون . وهو في تحذيره يكشف عن جوانب الضعف في الإنسان ، لاليقتله بل ليقويه ، كما يقول[2]:

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٢٥٢،٢٥٣ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٣٦٧ .

رَأيتُكمُ لايَصُونُ العِرضَ جَارُكمُ ولايَدِرُّ علَىٰ مَرعاكُمُ اللَّبَنُ
جَزاءُ كُلِّ قَريبٍ منكُمُ مَلَلٌ وحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنكُمُ ضَغَنُ
وَتَغضَبُونَ علىٰ من نَالَ رِفدكُمُ حَتىٰ يُعَاقِبَهُ التَّنغِيصُ وَالمِنَنُ

في هـذه الصورة لاأثر للتكلف الذي يخرج النص عـن جماله وجاذبيته "وقـد خرج المتنبي هنـا من المعنىٰ الجزئي إلىٰ حديث عـام يكشـف عـن رؤية إنسـانية شاملة للإنسان ، لانراهـا موقوفة علىٰ أفراد بعينهـم في عصـر بعينه ، وإنما هـي قضية الإنسان في كـل عصر ، حينما يعلـو شـأنه فيكثر حساده"(١). وهذا القول من أوجع ألوان الهجاء ، فالمتنبي يصف مهجوه بالتقصير في حق الجوار ، وعـدم الإجارة كمـا يصفـه بالبخـل والغـدر والمن ، والمتنبي يدرك ماتعنيه هذه القيم ـ حسن الجوار ، الكرم مع الجار ـ للعـربي . كما يدرك أن التقصير فيها والذم بنقصها يعد رذيلة وعار في جبين مـن قصر فيها . من هذا الباب كان هجاء المتنبي أشد إيلاما ووقعا في النفس لأنه يثلـب المرء ويجرده من كل فضيلة ومكرمة ، وكأن كلماته سهام قاتلة .

"كان المجتمع الذي يعيش فيه المتنبي علىٰ جانب من التأخر والانحطاط عزز في نفسه هذا العزوف عنـه ، واعتبـاره إياه شرا لايركـن إليـه ، وتبدو صفات هذا المجتمع من خلال شعره ، صورة نموذجية للفسـاد والانهيار ، فقد صور في كثير من العمق والقـوة ملامح هـذا المجتمـع المنهـار"(٢). من ذلك قوله(٣):

وَدَهرٌ نَاسُهُ نَـاسٌ صِغـارٌ وَإنْ كَانَت لهُم جُثَثٌ ضِخَامُ
ومَاأنَا مِنهُمُ بالعَيشِ فِيهمْ ولكِنْ مَعدِنُ الذَّهَبِ الرَّغامُ

---

(١) أيمن العشماوى ، قصيدة المديح عند المتنبي ، ص١٢٥ .
(٢) صـدقى إسمـاعيل ، تجربة المتنبي ، مقـدمة مـوجز ديوان المتنبي شـرح اليـازجى ، اختصره سليمان العيسى .
(٣) الديوان ، ج٤ ، ص١٩٠،١٩١ .

أرَانِبُ غَيرَ أنَّهُمُ مُلُوكٌ مُفَتَّحَةٌ عُيُونُهُمُ نِيَامُ
بِأَجسَامٍ يَحَرُّ القَتْلُ فِيها ومَاأقرانُها إلاّ الطَّعَامُ

من خلال هذه الملامح نستطيع أن نتبين صورة المجتمع السليم الذي كان يعيش كنموذج في نفس المتنبي "فكأنه يريد أن يخلق من أهل عصره رجالا مناضلين ، ويباعد بينهم وبين كل ماهو مثبط للهمم ، ومع ذلك فإذا نظر حوله لم يجد إلا الضعفاء والجبناء ، فإذا هو على عيشه بينهم ، يتفرد دونهم بأخلاقه وأهدافه فهم أشبه مايكونون بعصرهم"(١). وهو بينهم كالذهب حين يخرج من الرغام .

ولقد ظهرت نقمة شاعرنا على أصحاب السلطة في عصره حين وصفهم بأنهم أرانب في المكر والحقارة ، وقد رسم صورة تدل على غباء هؤلاء المسؤولين حين قال : "مفتحة عيونهم نيام" وصور خولهم ، حين يقتصرون على التنعم بالطعام ولايجدون للعُلى ، ولايكدون في سبيل تحقيق الغايات الكبيرة . فهم في نظر شاعرنا غير جديرين بالمناصب التي اغتصبوها ، وتجول نفس شاعرنا جولات في معانيه فيذم الناس والحياة ، ويغضب لنفسه التي وجدت بين أناس يقول فيهم(٢):

خَلِيلُكَ أنتَ لاَمَنْ قُلتَ خِلّي وَإنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ والكَلاَمُ
وشِبهُ الشَّيءِ مُنجَذِبٌ إليهِ وأشبَهُنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ
وَلَمْ أرَ مِثلَ جِيرَانِي وَمِثلي لِمِثلِي عِندَ مِثلِهِم مُقَامُ
بأرضٍ مااشتَهَيتَ رَأيتَ فِيها فَلَيسَ يَفوتُها إلاّ الكِرَامُ

إنسان المتنبي هو خليل نفسه في عصر افتقد الصدق وأصبح المجتمع ميدانا للأثرة والنفاق والأذى ، وقد أدرك شاعرنا مابين أجزاء الكون من

---

(١) إنعام الجندى ، دراسات فى الأدب العربى ، ص٢٤٤ .
(٢) الديوان ، ج٤ ، ص١٩٢،١٩٤ .

ترابط ووجوه شبه ، فالطغام الذين يتسلقون على أكتاف غيرهم إلى المناصب العليا رغم هوانهم علىٰ أنفسهم وعلى الله ، مثل الغبار المتعالى في الجو رغم تفاهته وهذه ظاهرة خطيرة كما يقول محمد عبد العزيز الكفراوي ، لأنها وليدة خيال جامح وفكر ثاقب متحرر(١).

الجانب المظلم في إنسان المتنبي جانب شديد الوضاعة ، فقد يكون الإنسان عنده جبانا لئيما ، كاذبا غادرا ، فاسقا مرائيا ، كما يقول(٢):

أَمَيناً وإخلاَفاً وغدراً وخِسَّةً ... وَجُبناً ، أشَخصاً لحتَ لِي أَمْ مَخَازِيَا
وتُعْجِبُني رِجلاَكَ في النَّعلِ،إنَّني ... رَأيتُكَ ذَا نَعلٍ إذَا كُنتَ حَافِيا
وَإنَّكَ لاَتَدرِي ألَونُكَ أسَودٌ ... مِنَ الجَهلِ أم قَدْ صَارَ أبيَضَ صَافِياَ
وَيُذكِرُني تَخيِيطُ كَعبِكَ شَقَّهُ ... ومَشيَكَ فِي ثَوبٍ مِنَ الزَّيتِ عَارِيَا
ولَوْلاَ فُضُولُ النَّاسِ جِئتُك مادِحاً ... بِما كُنتُ فِي سِرِّي بِهِ لَكَ هَاجِيَا

لقد لخص المتنبي أبرز صفات القبح في بيت واحد ، فالإنسان المهجو عنده جملة مخاز تنحط بصاحبها عن قدر الإنسان ، وتنأىٰ به عن مستوىٰ الرجولة ، وقد تمثلت فيه القبائح والرذائل حتىٰ خيل إلى شاعرنا أن هذا المهجو تجسيد للمخازي جميعها ، ولعل شاعرنا يغتاظ من هذه الرذائل التي كانت شائعة في عصره وفى الناس جميعا ، ولكن غيظه يشتد حين يرىٰ من هم مثال العلم والعبقرية ، يخضعون لأمي جاهل لايميز بين البياض والسواد ، كما لايميز بين المدح والهجاء .

"والمتنبي في هذه الصورة لم يكن أقل تنبها للمنكر من ابن الرومي ، فهو يتلقف مواضع الضعف فيمن يهجوه ، لذلك نراه يذكر تشقيق رجليه

---

(١) الشعر العربى بين الجمود والتطور ، ط/ثانية ١٣٧٨هـ ، نهضة مصر بالفجالة ، ص١٧٢ بتصرف .

(٢) الديوان ، ج٤ ، ص٤٣٢،٤٣٤ .

بتأثير مشيه عاريا ، ويتندر عليه تندرا مسرفا حتىٰ يحوله إلى قرد تتسلىٰ به الثواكل ، ويتحول المتنبي في هجائه من السخط إلى الهزء ، حتىٰ يسحق مهجوه بعنفه"[١]، يقول :

فإنْ كُنتُ لاخَيرًا أفَدتُ فإنَّني ... أفَدتُ بِلحْظِي مِشْفَرَيكَ المَلاَهِيَا

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ... لِيُضحِكَ رَبَّاتِ الحِدَادِ البَوَاكِيَا

وإن كان المتنبي قد جمع في هذا النص بين العيوب الخلقية والعيوب الخلقية فقداتخذ من عرض القبح بمعناه الواسع ، ومجالاته الشاملة في المشاعر والسلوك وسيلة لتهذيب النفس ، وتربية المجتمع بحيث تشتاق نفس المتلقي إلى الجمال وتصبو له ، وتنفر من القبح ، وفي ذلك حث علىٰ الخير ، وبعد عن الشر في كافة صورهما .

الإنسان الدنيء ، متهم بكل النواقص في نفسه وأهله ، فهو شاذ ، مظلم الأصل ، بل الفساد متأصل في أهله ، وعرضه مستباح ، والمتنبي يرىٰ أن العظيم كبير من كبار . والحقير صغير من صغار ، كما يرىٰ أنه أخذ عن أهله لؤم طباعهم وخسة فعالهم ، كما أخذ نقيضه المجد عن قومه وزاد عليه[٢].

والمتنبي يجمع إلىٰ الصفات الخِلْقِيَّة صفات وقبائح خُلُقية فيقول[٣]:

لَحَا اللهُ وَردَانا وأُماً أتَتْ بِهِ ... لهُ كَسَبُ خِنزِيرٍ وخُرطُومُ ثَعلَب

فَما كانَ فيهِ الغدرُ إلاَّ دَلاَلَةً ... علَى أنَّهُ فِيهِ مِنَ الأُمِّ والأَب

على أن المتنبي وهو يهجو ويجرد مهجوه من كل مكرمة وفضيلة وينسب له كل رذيلة لايفوته القبح الظاهر ، فجمال الوجه وحسن الهيئة في نظر شاعرنا تزيد في الهيبة وتدل علىٰ الخصال المحمودة ، وقبح الوجه

---

(١) إيليا حاوى ، فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ص٦٠٥ . + الديوان ج٤ ص٤٢٤

(٢) المحصول الفكرى للمتنبي ، ص١٧٣ بتصرف .

(٣) الديوان ، ج١ ، ص٣٤٢ .

والدمامة تسقط الهيبة ، وتدل على الخصال الذميمة ، والمتنبي يعرض ببعض تلك النقائص فيقول[١]:

فَيابْن كَرَوَّسٍ يَانِصفَ أَعمَىٰ وإنْ تَفخَر فَيانِصفَ البَصِيرِ
تُعادِينَا لِأَنَّا غَيْرُ لُكنٍ وتُبغِضُنا لِأنَّا غَيرُ عُورِ
فَلوْ كُنتَ امْرءا يُهجَىٰ هَجَونَا ولَكِنْ ضَاقَ فِتْرٌعَنْ مَسِيرِ

في هذه الصورة تبرز ريشة الرسام الساخر ، الذي يشبه ابن الرومي إلى حد كبير ، فهذا المهجو جمع إلى الرذائل الخلقية نقائص جسدية ، فهو أعور ، وثقيل اللسان . إضافة إلى أنه ليس له عرض يهجي ، لذلك قل عن الهجاء في عين المتنبي .

وقمة السخرية أن يهزأ بمن يدعون المعرفة بالشعر وهم عن فهمه بعيدون كل البعد ويشبههم بالأعمىٰ من غيرعكاز فيقول[٢]:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجُوزُ عَلَيهِ شُعَرَاءٌ كأنَّها الخَازِبَازِ
وَيَرَىٰ أنَّهُ البَصِيرُ بِهذَا وَهْوَ في العُمْيِ ضَائِعُ العُكَّازِ

فهذا أسلوب المتنبي حين يسخر من إنسان عصره ، يصوره في أقبح الصور ، ويهزأ من كل أفعاله ويضع من قدره إلى الدرك الأدنى ، ويجعل منه نموذجا للحقارة والضعف .

---

(١) الديوان ، ج١ ، ص٢٤٨ .
(٢) الديوان ، ج٢ ، ص٢٩١ .

إذا كـان النجاح في حياة الإنسان غاية، فلامراء أن وسـائله ، وأسبابه تتعلق بالمرء ذاته وبالعلاقة الاجتماعية بينه وبين الآخرين ، ويستحيل أن تتم هذه الغاية دون أن تمر ببعض العقبات والعوائق ، وقد عانىٰ المتنبي من بعض معـوقات نجاحه ، كالحسد الـذي مني به من قبل بعض الشعـراء الـذين كانوا ينافسونه علىٰ منزلته الشعرية ، يقول في ذلك(١):

أَفِي كُلِّ يَومٍ تَحتَ ضِبْنِي شُوَيعِرٌ ضَعِيفٌ يُقاوِينـي ، قَصِيـرٌ يُطَاوِلُ
لِسَانِي بِنُطقِي صَامِتٌ عَنـهُ عَـادِلٌ وقَلبِي بِصَمتِي ضاحِكٌ مِنـهُ هَازِلُ
وَأتعَبُ مَـنْ نَـادَاكَ مَـنْ لاتُجِيبُـهُ وَأغيَظُ مَـنْ عَـادَاكَ مَنْ لاتُشَـاكِلُ
وَمَاالتِّيهُ طِبـّي فِيهِـمِ غَيـرَ أنَّـنِي بَغِيـضٌ إلَـيَّ الجَـاهِلُ المُتَعَـاقِلُ

فـالمتنبي يشدد النكير عليهـم ، ويحتقرهم ، ولايراهـم أهلا لمصـاولته ، فلايحفل بهم ، ويكرر المعنىٰ في موضع آخر ، مؤكدا عدم احتفاله بهم ، فهم أهون عليه من ذلك . بل هم حين يقلدونه ، ويحاولون اللحـاق به في الشعر مثـل القرود التي تحاول تقليد الإنسان في كل شيء إلا في النطـق ، إذ تعجز عن النطق مثل الإنسان ، يقول :

يَرُومُونَ شَأوِي في الكلاَمِ وإنَّما يُحـاكِي الفَتَـىٰ فِيمَـا خَلاَ المنطِـقَ القِـردُ
فَهُمْ فِي جُمُوعٍ لايَرَاها ابنُ دَأيةٍ وَهُـمْ فـي ضَجِيجٍ لايُحِـسُّ بهـا الخُلـدُ(٢)

هـؤلاء المتشاعرين في جموع قليلة ، لايبصرها الغـراب مع حدة بصره، ولايسمع أصواتهم الخلد مع حدة سمعه ، فهم غاية في الحقارة ودقة الشأن ، من هنا كان هجاء أبا الطيـب وجه مـن وجوه الفخـر والعتـو في شعـره ، فلامجال في نظـره للمقارنة بينـه وبين غيره لعظمة شأنه . وليـس كالذى يقول عنه(٣):

---

(١) الديوان ، ج٣ ، ص٢٣٧ .
(٢) ابن دأبه : الغراب ، الخلد : نوع من الفأر أعمى . انظـر الديوان ، ج٢ ، ص١١٠
(٣) الديوان ، ج١ ، ص٣٤١ .

لَمَّا نُسِبتَ فكُنتَ ابناً لِغَيرِ أَبٍ ثُمَّ امتُحِنتَ فَلَم تَرجِع إِلَىٰ أَدَبِ
سُمِّيتَ بالذَّهَبيِّ اليَومَ تَسمِيَةً مُشتَقَّةً مِنْ ذَهَابِ العَقلِ لَاالذَّهَبِ
مُلَقَّبٌ بِكَ مالُقِّبتَ وَيْكَ بِهِ يَاأَيُّها اللَّقَبُ المُلقَىٰ عَلَىٰ اللَّقَبِ

استغل المتنبي هنا اسم المهجو ، فأخذ يكيل إليه صفات الهجاء ويجرده من فضائله فيرىٰ أن لاعقل لديه ولاأدب ، كما أن لاأصل له ولانسب . من هنا سمي بالذهبي ، وهذه التسمية ليست مشتقة من الذهب ، بل من ذهاب العقل ، ثم يقول إنه شين وعار للقب ، فلقبه ملقىٰ علىٰ عار وخزي . وهذا من هجاء المتنبي غير المستحسن .

بعد هذا كله نستطيع القول : أن الهجاء في العصر العباسي تطور تطورا كبيرا في معانيه وأهدافه ، وأسلوبه وألفاظه ، وصوره ، وقد تراوح هذا التطور بين الهبوط إلى درجة السباب والفحش والابتذال ، وبين الارتفاع من الناحية الفنية إلىٰ درجة التصوير الساخر الممتع الذي يدل علىٰ طاقة فنية مبدعة ، وذهنية ساخرة ، تعتمد علىٰ فن أصيل ، وروح مرحة ضاحكة ، وهذا التطور كان أمرا لابد منه خضوعا للعوامل المختلفة التي أثرت في تطور المجتمع نفسه ، واختلاف معاييره وقيمه . والمتنبي حين يقول[1]:

ذُو العَقلِ يَشقَىٰ في النَّعِيمِ بِعَقلِهِ وأَخُو الجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنعَمُ

فهذا يدل علىٰ اتساع وتطور خطير في آفاق الفكرالعربي ، فبينما كان القدامىٰ يحمدون التعقل والتدبر ، فرحين بما يصل إليهم من آثاره أخذ المتنبي يشكو غرقه في ذلك الخضم الواسع ، وينشد النجاة منه ويحسد الواقفين على شواطئه حيث الأمن والدعة ، والغفلة . هذا يؤكد أن الثقافة الحديثة في عصره كانت شرا علىٰ أهلها حيث فتحت أعينهم علىٰ ماحولهم من

---

(١) الديوان ، ج٤ ، ص٢٥١ .

مشاكل ومفارقات ، غفل عنها الجاهلون فاستراحوا وأراحوا ، على حين أطالوا هم التفكير فيها ، والأسى لها ، فأتعبوا أنفسهم وأتعبوا الناس معهم[١].

كل ذلك يمثل يقظة الشاعر لما يدور حوله ، وإحساسه بخطر قوى الشر المتكتلة في كل جهة من جهات الحياة ، وإصرارها على أن يكون لها الغلبة والسلطان ، مما يجعل أزهد الناس فى الصراع مضطرا إلى أن يخوض ضدها حربا مدمرة ، محافظة على شرفه واحتفاظا بحياته ، أو هكذا أراد المتنبي أن يعبر عن تغير الأوضاع فى عصره .

من الشواهد والصور السابقة تبين لنا أن هجاء المتنبي مقذع مؤلم ، امتاز بتلك القوة التي تتغلغل في أجزائه ، هي قوة نفس الشاعر العاتية ، كما امتاز بنقمته على عصره وبنيه ، ثم في اشمئزازه من المهجو واحتقاره له حتى لايكاد يخاطبه إلا بصيغة التصغير ، وهذه الشواهد كلها توحي إلينا أن بوادر الانحلال والتخاذل ، وضعف العزائم والهمم ، قد طفق يغزو هذا الجيل - جيل المتنبي - وأن الأمر أجل من أن يكون هذا الذم بين الشاعر وآحاد بذواتهم ، بل هو النذير بأن الناس قد فقدوا مابه يعزون وتعز حياتهم ، ومابه ينحون نحو الجد لما هو أرقى وأفضل ، ومابه يكون الإنسان أهلا لخلافة الله في الأرض ، وتكون حياته منزهة عن أسباب الاختلال ، قوية زاخرة ، مثمرة ، آمنة .

هجاء المتنبي السابق ، هو نذير الفن الصادق ، بأن ليلا مدلهما كان وشيك الحلول ، وأن نهار الأمة المنيعة المتماسكة كان وشيك الزوال .

---

(١) محمد عبد العزيز الكفراوى ، الشعر العربى بين الجمود والتطور ، ص١٤٨ بتصرف.

يبدو أن الذي يسترعي انتباه القاريء لديوان المتنبي هو القصائد أو الأبيات الظاهرة في القدح .. بيد أن هناك صورا كثيرة أخرىٰ في ثنايا قصائد أخرىٰ ، وأبيات لاتندرج عناوينها تحت القدح ، ولو لم يكن هناك مايصرفنا عن الروية والأناة في انتخاب مثل هذه الشواهد لخرج لنا هذا الفصل مبحثا مستقلا بذاته ، غير أن الوقت والحجم يلزماننا بالاكتفاء بهذه العجالة من أبيات القدح عند شاعر عظيم مثل المتنبي .

والمدقق لاتخفى عليه الصلة بين الإنسان عند المتنبي مدحا وقدحا ، فالإفراط في المدح يقابله إفراط في القدح ، ولايقال هذه علة من العلل الفنية لدى الشاعر ، بل هي علة تلتمس لها أسبابها الوجيهة في طبيعة العصر ، وماكان عليه الإنسان ، فلعل ظروف مجتمع المتنبي وأحداث عصره التي كانت من الضخامة والتنوع والقسوة ، بحيث تجعل الفرد علىٰ مفترق الطرق ، تدعوه للاختيار واتخاذ المواقف الجريئة ، وإلا سيندفع في تيارها ، ويفقد قيمه وأخلاقه ، وهذا ماحاول إظهاره المتنبي في شعره سواء مديحا أو هجاء ، فقد كان يهتف بإنسان عصره أن يحافظ علىٰ تلك القيم والأخلاق ، في عصر متقلب كالعصر العباسي .

فهو كما أسلفنا[1]عصر الإفراط والتفريط ، ومن طبيعته عدم التوازن والتردد بين النقيضين .

---

(١) انظر التمهيد : أبرز ملامح العصرالعباسى سياسيا واجتماعيا .

الفصل الخامس

موازنة

الموازنة

تشمل :

أولا : القيمة الاجتماعية فى صور الشاعرين .

ثانيا : القيمة الفنية فى صورهما .

توطئة

العصر العباسي من أقوىٰ عصور التغير فى تاريخ البشر عامة ، ولعل من أبرز ملامح ذلك العصر وأخطرها هي التعبير عن العلاقة بين ماآل إليه المجتمع الجديد وبين طبيعة الإنسان ، إنها قدرة الشاعر علىٰ تحديد عناصر وملامح العصر والتعبير عن المنحنىٰ الجديد للحياة عن طريق رؤيته لهذه العناصر ، وقد كان لمعظم شعراء هذه المرحلة مواقفهم الفكرية من الحياة والفن ، وكانت لهم رؤيتهم الخاصة ، ونقدهم للمجتمع وتمردهم عليه ، ومن ذلك الحين أصبح المجتمع موضوعا للتأمل ، فأصبح الشاعر يحلل التجارب الموجودة حوله ويسمو بها ، ولم يكن الشعر بديلا عن الدين بل كان وصفا للحياة ونقدا لها وإحساسا بها،فيه النقد والثورة والتمرد والتغيير وخلق موقف عقلى أو فكرى يجعل من الممكن أن يكون للشعر هدف أو غاية تعمل علىٰ تغيير الواقع(١).

وقد كان ابن الرومي والمتنبي من أوائل الشعراء الذين فطنوا إلى هذا الفهم الجديد للشعر ، وحرصوا على نقل هذا الواقع الجديد إلى المتلقي جاعلين منه مداداً لأقلامهم تأسّيا بالقرآن الكريم الذي جعل النفس البشرية بكل مايعتلج فيها من خير وشر موضوعاً للعبرة ، وتقويما للإنسان .

وقد كان لخيالهما الخصب دوره في النَّفاذ إلىٰ بواطن الأشياء ، فقد يقيمان علاقات جديدة بين الأشياء ، ويبرزانها في إطار مختلف عن الواقع المعروف ، يظهر هذا في الاعتماد على التشبيهات والمجازات بأنواعها فى صورهما .

---

(١) محمد زكى العشماوى ، موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى ، ص١٠١ بتصرف .

وفى هذا الفصل سنقوم بعقد موازنة بين رؤيتهما الفكرية كما سنوازن بين رؤيتهما الفنية ـ أو الصور التى أدى بها كل من الشاعرين معانيه .

"والطريف أن ابن الرومي والمتنبي ، على مافي الأول من ضعف ، ومافي الثاني قوة ، يلتقيان في النظرة إلى الدهر والناس .. وأغلب الظن أن عناصر عبقرية هذين الشاعرين تكاد تكون واحدة وإن تباينت تباينا كبيرا في الرباط الذى يؤلف بين تلك العناصر فهذا الرباط هو القوة عند المتنبي ، وهو الضعف عند ابن الرومي"(١).

---

(١) محمد حمود ، ابن الرومى الشاعر المغبون ، ص١٥٩،١٦٠ .

أولاً : القيمة الاجتماعية في صور الشّاعرين :

الشعر الجاهلى بما فيه من قيم فرض نفسه على العصور الأخرى فوجدنا الشعراء يمدحون إذا مدحوا بصفة أو قيمة من تلك التي امتدح بها شعراء العصر الجاهلي ، وإنّما يتفاضل الشعراء فى طريقة أداء وعرض تلك القيمة أو تناولها ، فقد يولّد كل شاعر من نفس الصفة أكثر من صورة ويختار الصورة التي يتخيلها أبلغ في الأداء .

"فالشعراء مثلاً يتناولون الشيء الواحد (قيمة ما) معجبين به ولكن سبب الإعجاب أو مستواه مختلف بينهم ، فإذا بصور أدبية متباينة للشعور الواحد في أصله ، المتعدد بتعدد المشتركين فيه"(١). فالمعاني متوارثة منذ العصر الجاهلى ربّما لم يزد عليها الشعراء المتأخرون شيئا وإنما المدار والتفاضل بين الشعراء هو طريقة العرض فالصور الخيالية هي معرض التجديد والبراعة .

وفي حين أنّ المدائح تختلف على حسب الممدوحين ، فمنهم الملوك والوزراء والكتاب وقادة الجيوش . ولكن حين ننظر في مدائح ابن الرومي أو المتنبي فإن مايعنينا هي نظرة الشاعر للإنسان ـ مادحا ـ بعيدا عن كونه خليفة أو وزيرا أو قائدا ، فالشخصية ذاتها لاتهمنا لذا فنحن نكتفى بإيراد المعاني والنصوص خالية من الإشارة إلى الأشخاص الذين قيلت فيهم ، لأن الملاحظ في مدائح ابن الرومي والمتنبي أنّهما يحاولان رسم صورة مثلى للإنسان ، والشاعر العظيم بموهبته يحاول أن يصل إلى أعمق أعماق الإنسان ليكشف عن فطرته ، وماتأصّل فيها من خير أو شر ، فيحاول أن يطهر

---

(١) أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبى ، ط/سابعة ١٩٦٤م ، مكتبة النهضة المصرية ، ص٢٤٥ .

الإنسان من الرَّذائل ويُحبِّبه في الجميل ، ليس بالطريقة التقريرية ، وإنما عن طريق الأدب العظيم الذي لايمكن أن يكون عاملا من عوامل إفساد الحياة ، لأن الأدب نتاج إنسان عظيم ، يتوخى البحث عن القيم الجمالية ، والقيم الجمالية إصلاح لاإفساد .

وفي العصر العباسي استطاع المديح أن يشتق لنفسه مضامين جديدة إلى جانب مضامينه القديمة ، فإذا كان مداره المعنوي قديما حول صفتي الكرم والشجاعة بصفة أساسية ، مع كل مايمكن أن يبتكر الشاعر من تنويعات في إيراد هاتين الصفتين ، فإنه في العصر العباسى لم يلتزم دائما بالدوران حول هذا المدار ، فقد أصبح الشعراء يلتفتون إلى المعاني التي تتفق وطبيعة عمل الممدوح ، معان جديدة كان لابد أن تدخل في مجال المديح[1].

وقد التفت الشاعران إلى الصفات الخلقية المتوارثة والتي مدح القدماء بها من جمال الوجه وحسن الهيئة ـ المعانى الحسية ـ وجمال المرأة ، ولكن لكل شاعر منها خصيصة اختص بها عن غيره سواء معاصريه أو الشعراء السابقين .

وابن الرومي حين تعرض للصفات الخلقية وامتدح بالمعاني الحسية قرنها بالصفات المعنوية فقلما نجد له أبياتاً يمدح فيها بالمعانى الحسية دون أن يربطها بالمعانى الروحية ـ المعنوية ـ فقد يأتي بمعان متداولة ويضيف عليها من جديده ، فقد يُقيِّد المعنى كما في قوله يمدح بصفات متوارثة ومعان سابقة :

فَيَاقمرًا يُنيرُ بِلاأُفُولٍ وَيَاشَمْساً تُضيءُ بلاغُرُوبٍ[2]

---

(١) عز الدين اسماعيل ، فى الأدب العباسى الرؤية والفن ، ص٣٥٩ بتصرف .
(٢) انظر الفصل الأول ، الصفات الخلقية فى مديح ابن الرومى .

فالعرب اعتادت المديح بالقمر والشمس ولكن ابن الرومي قيّد هذا المعنى حين التفت إلىٰ صفة الاستمرارية ، فجعل من ممدوحه قمرا لايأفِل ، وشمسا لاتغرب ، فهذا هو الجديد الذي أضافه شاعرنا لتلك المعاني المتوارثة كما أن ابن الرومي حاول الخروج عن التقليد في تناول المعاني الموروثة ، وذلك عن طريق إضافة شيء من ثقافته وروح عصره ، نلمس ذلك حين حاول أن يرقىٰ بغزله ووصفه للمرأة إلىٰ مرتبة لاينافسه فيها أحد ، فنظر للمرأة من خلال الطبيعة كما نظر للطبيعة من خلال المرأة[١].

كما التفت ابن الرومي إلىٰ جمال الصوت وامتدح حسن الغناء وبيّن أثره في النفس ، مُتخذا من ترابط الحواس وتبادلها وسيلة إلىٰ بلوغ غايته ، وقد أجاد العقّاد حين قال عنه قد بلغ مرتبة الموسيقيين[٢]. فقد كان يملك حسّاً موسيقيًا ، وكان له ذوق خاص في الغناء وتقدير الصوت .

فرؤية ابن الرومي للإنسان ـ مادحا ـ تشمل الجانب الحسي ، وهو الجانب الذي مدح فيه شاعرنا بالصفات الشكلية أو الحسية ، والشيء الجديد الذى أضافه ابن الرومى لهذا الجانب غير ماتعارف عليه الشعراء وتوارثوه، هو تقييد المطلق من المعاني ، والنظر للطبيعة ومافيها ومحاولة وصف المرأة من خلالها ، ساعده في ذلك دقة ملاحظة ، ويقظة حس .

أما الجانب الآخر وهو الجانب الخُلُقي في مدائحه فسنعرض له بعد أن نرىٰ المتنبي ونظرته للجانب الحسي في الإنسان والمرأة خاصة .

---

(١) انظر الديوان ، ج٦ ، ص١٧٣ .
(٢) ابن الرومى حياته من شعره ص٢٩٠ .

فكما أن ابن الرومي مدح بصفات وقيم متوارثة عن الشعراء العرب وكل ماأضافه شيء يسير يدل على شخصيته وثقافته هو . فإن المتنبي كذلك ورث عن سلفه من الشعراء معاني المديح ، وأسبغ عليها من ثقافته وشخصيته الشيء الكثير .

فهو لم يُهمل الجانب الحسي في مدائحه ، وإن كان المتنبى قد انصرف بشعره عن الغزل ووصف المرأة إلا أن له أبياتا تظهر لنا إعجابه بالجمال الخِلْقي فيمدحه ويصوره تصويرا لائقا بشاعر يبحث عن القوة في كل ماحوله .. والحق أن المتنبي في وصفه للجمال الظاهر لم يُضف جديدا إلى ماعرف عند الشعراء السابقين .

وأغلب أبياته التي عرض فيها للجمال الحسي كان مصدر الجمال فيها كما يقول الأستاذ حسن علوان[١] السبك الحسن والموسيقى البديعة .

والرؤية التي انفرد بها المتنبي عن غيره من الشعراء للمرأة في جمالها الحسي ، هو البساطة والحسن الطبيعي الذي خلقت به يدل على ذلك أبياته التى امتدح فيها البدويات وقدح في الحضريات وأشاد بالحسن الطبيعي الذي لازيف فيه ولاتجميل ، وندّد بالحضريات اللاّتى يستجلبن الحسن بأدوات التجميل ، حين شبه البدويّات بالآرام وشبّه الحضريات بالمعيز ، والبون شاسع بين الصنفين[٢].

وهذا فيه إشارة إلى شخصية أبي الطيب التي لاتقبل الزيف والتصنع .

---

(١) انظر المرأة فى شعر المتنبى ، صحيفة دار العلوم ، ج٤ ، ص١٨٨ .

(٢) انظر الديوان ، ج١ ، ص٢٩١ .

والمتنبي مع ذلك لم يحفل بالجمال الحسي وإن كان وردت لـه أبيات في الغـزل ووصـف المرأة تشيد بالجمـال ولكن كمظهر من مظـاهر القـوة ، التي طالما سعى لها شاعرنا ومجدهـا . وكـأن المتنبي هو الـذي قـال : "إن الجمـال الجسمـانى سحـابة رقيقة ، تطير بهـا بردوة الهـواء ، أو هضبـة ثلجيـة تذيبها حرارة الشمـس ، ومأأحب المحبون قط في الصور الجميلـة جمالها ورونقها ، بل جمال النفوس الكامنة في طياتها!! ولاأبغض المبغضـون في الصور الدميمة قبحهـا ودمامتها ، بل قبح النفـوس المستكنة فيها!! فـإذا اختلـف العنوان على الكتاب في إحدى الحالتين كان الفوز العظيم للجمال النفسي على صاحبه"(١).

هـذا ماتفرد به المتنبي عن غيره وإلاّ فأكثر غزله مـن النوع الحسى على عادة الشعراء السابقين . ولانريد الخوض في مسـألة صـدق المتنبى في غـزله وإحسـاسه بالمرأة لأن الكثير مـن النقـاد أفاضوا في هـذه المسـألة مـن قبل .

في العصـر العبّـاسى أخذت مـوضوعات الشعر تتجدّد تجددا واسعـًا في معـانيها ، وتعرض بصورة أدق وأعمـق ، كما أخذت تدخل عليهـا إضـافات كثيرة ، لم يقـف الشاعر العبـاسى عند ذلك ، فقد أخذ يُنمـي بعـض جوانب هذا الشعر حتى تخرج منه فروع جديدة كثيرة أولهـا : مثـالية الشيم العـربية الـرفيعة التي كان يصف بها الشعـراء ممدوحيهم ، فقد تنـاولوا هذه الشيم ، وأخذوا يفـردونها بمقطـوعات أو قصـائد ، يجردونها لهـا محللين ، مفكـرين ، ملاحظين ، وابن الرومي والمتنبي شأنهما شأن أي شاعر عباسي ، تناولا تلك الشيم شيمة شيمة ، فنجد في مدائحهما ، قطعة في تصـوير الكرم ، وأخرى في تصوير الحلم ، وقطعة في تصوير الحياء ، وأخرى في تصوير الصبر ، والتنفير

---

(١) ادمون روستان ، الشاعر أوسيرانودى برجراك ، ترجمة مصطفـى لطفى المنفلوطى شرح وتقديم اسماعيل اليوسف ، ط/أولى ١٩٨٦م ، ص١٧٦ .

من اليأس ، وقطعة أو قصيدة في الشجاعة والإقدام . إلى آخر تلك القيم والشمائل العربية[١].

وعادة ابن الرومي الحرص على المعاني وتوليدها ، فقد اشتق من الشعر القديم موضوعات جديدة لمقطوعاته وقصائده ، ولم يكتف بها بل مازال يقلبها ويغوص عليها ويكتشف موضوعات أخرى تلهمه بها بيئته الحضارية وحياته العقلية الراقية ، فهو وإن كان ساير من سبقه في موضوع المدح بالصفات المتوارثة من شجاعة وحكمة وكرم وحلم ، وذكاء وعدل وشرف محتد ، وغيرها . إلاّ أنه أفرد منزلةخاصة للمكر والدهاء ليدلل على ضرورة هذه الخصلة وشيوعها بين أبناء عصره ، فقد مدح أشتاتا من ذوي المقامات ، بينهم الوزير ، والقائد والنديم والكاتب والفيلسوف ، فكان الدهاء صفة تتكرر في مدح كل واحد منهم .

فإنسان ابن الرومي ـ مادحا ـ هو فى الواقع انسان ضعيف ليس للقوة فيه مجال لأنه اعتمد على صفةالكيد والختل والدهاء ، والإنسان حين يعمد لهذه الصفات يكون ضعيفا لايقوى على مواجهة العصر ومافيه من تقلبات ، ولعل القلاقل والدسائس والاضطرار الدائم إلى اتقاء الشر ، ومداراة الأقوياء هي التي دعت لوجود هذه الصفة وبروزها في عصر ابن الرومي . ولكن لاننكر أن شخصية الممدوح كانت تكسوها بعض صفات شخصية الشاعر ، وابن الرومي في مدائحه التى تحفل بالمقاطع التأملية في الحرص والإيمان والشرف وقيمة الناس ، وتقلب الدهر والمجتمع المتفاوت الطبقات ، الظالم الميزان ، يبشر بالمتنبي مع فارق بسيط هو أن هذه الأنغام تصدر عن

---

(١) شوقى ضيف ، العصر العباسى الأول ، ص١٨١ بتصرف .

ابن الرومى وهي أشبه مايكون بنواح أرملة مستضعفة ، بينما تصدر عن المتنبي صدور الزئير عن أسد جريح[١].

وكما مدح ابن الرومي بالصفات والشيم العربية المتوارثة ، فكذلك فعل المتنبي . فمن أبرز المعانى التى امتدح بها المتنبى : معاني التفرد والسيادة والسخاء وتشبيه الممدوح بالبحر ، ومعنى البطش والشجاعة ومواكبة الطير للجيش ، وسواها من المعانى التى كان ينعت بها غالبية ممدوحيه ، وقد كانت معانيه عميقة لأنها تصدر عن تفاعل نفسه مع الحياة والأحداث أو عن وصف للمعارك والبطولات ، وقد عرف المتنبي كيف يزاوج بقوة بين المعنى العميق والعاطفة القوية ، مما أتاح له القدرة على إقامة المشاركة الوجدانية بينه وبين سامعيه ، مع أن عاطفته قد تنوعت بتنوع الأشخاص والموضوعات فهو صادق العاطفة في مدح سيف الدولة ، كاذبها في مدح كافور[٢]. ولانريد الاستطراد في بحث الصدق والكذب في العاطفة فقد تعرض لها الكثير من النقاد ولاأظن أننا سنضيف جديدا .

فمديح المتنبي يصلح مدرسة لتربية النفوس الكبيرة ، رغم مايشوبه أحيانا من غلو ممقوت ، فيه فخامة وبراعة تنوعت بتنوع الممدوحين ، فكما بالغ شاعرنا - المتنبي - وصنوه - ابن الرومي - في حديثهما عن الشجاعة والكرم . فقد انزلقا كما يقول الدكتور عز الدين إسماعيل[٣]: كذلك إلى مبالغات في وصف مكانة ممدوحيهم الدينية . غير أن المبالغة الأولى لاضرر منها ، أما المبالغة الثانية فقد كانت في بعض الأحيان تثير الشبهات .. وإن

---

(١) محمد حمود ، ابن الرومى الشاعر المغبون ، ص٩٩ بتصرف .
(٢) محمد حمود ، المتنبى ، ص٨٩،٩٠ بتصرف .
(٣) فى الأدب العباسى ، الرؤية والفن ، ص٣٦٣ بتصرف .

كانت مبالغات ابن الرومي أقلّ وطئا من مبالغات المتنبي حيث لم تزد عن تشبيهات بشهر الصيام ، ووصف للزهاد .

"فإذا صرت إلى أبي الطيب صرت إلى أكثر الناس غلوا ، وأبعدهم فيه همّة ، حتى لو قَدَر ماأخلى منه بيتا واحدا ، وحتى تبلغ به الحال إلى ماهو عنه في غنى ، وله في غيره مندوحه"(١). من ذلك قوله في أحد ممدوحيه :

لَو كانَ ذُو القَرنَينِ أَعْمَل رَأْيَه ... لَمّا أَتَى الظُّلُماتِ صِرْن شُمُوسا
أَوْ كَان صَادفَ رأسَ عازَر سَيفَه ... فِي يومِ مَعرَكَةٍ لأَعْيا عِيسىٰ
أو كان لُجَّ البحرِ مِثْلَ يَمِينَه ... مَاانشقّ حتى جَاز فيه مُوسىٰ
أو كان للنِّيرانِ ضَوءُ جَبينَه ... عُبِدَتْ فصار العَالِمُون مُجُوسا

وغير ذلك من مدائحه المبالغ فيها ، وفخره بنفسه ، حين شبه نفسه تشبيهات مبالغ فيها(٢)، ليس هذا مجال الحديث عنها .

تجدُّد موضوعات الشعر القديمة في العصر العباسى ، هيّأ للشعراء التوسّع في معاني الهجاء ، ومافيه من الأخلاق المذمومة ، فتناولوها بالبسط والتفصيل ، فقد عرف الشعر العباسى لونا آخر من الهجاء ، كان أخف وقعا ، ولم يكن يتجاوز حدّ السخرية من المهجو ، وإثارة الضحك ، وفيه مجال واسع للتفنّن ، ويحتاج إلى قدر غير يسير من الذكاء والفطنة ، فحين أن السّب والقذف لايحتاجان من الشاعر إلاّ إلى معجم لغوي بذيء ، بينما يحتاج التصوير السافر المضحك إلى مخيلة خصبة نشطة ، تعرف كيف تجسّم العيوب فى صورة مثيرة(٣). وربما كان هذا هو اللون الأعم في هجاء ابن

---

(١) ابن رشيق ،العمدة ، ج٢ ، ص٦٣ .
(٢) كأنّي دحوتُ الأرضَ مِن خبرتى بها ... كأنّي بنى الإسكَنْدر السّد من عَزْمي
(٣) عز الدين اسماعيل ، فى الأدب العباسى ، الرؤية والفن ، ص٣٨٦ بتصرف .

الرومي ، تسعفه في ذلك قدرته البارعة على استغلال العيوب الجسدية ، مع أن في هجائه جانب اجتماعي يزري فيه ابن الرومي بمجتمعه وينتقده ، حين يعرض لأشخاص معاصرين له فينتقد أخلاقهم وبعض تصرفاتهم ، ويظهر عيوبهم ، فكأنه يشير إلى مجتمعه الذي سادت فيه تلك الرذائل ، على أن هناك مأخذا على ابن الرومي في هجائه حين يهجو أشخاصا بالفقر ، والقبح حيث أنه تناسى أو غاب عنه أن الإنسان لايد له في وضعه الاجتماعي - الغنى والفقر - ولم يخلق نفسه - فيكون قبيحا أو جميلا - ومن ثم لايمكن أن يحاسب على صورته وإنما يحاسب على أعماله وسلوكه . ونحن نستدل بهذا النوع من هجاء ابن الرومى على نفسيته ، فهذا النوع ليس له مايبرره من حيث القيم الاجتماعية ، وإنما دوافعه شخصية متشائمة غريبة ، وهي شخصية شاعرنا ، والحق أن الهجاء الذي برع فيه هو اللون الذي ابتعد عن الأسلوب الجارح ، وعن سبّ الأعراض والطعن في الدين ، هو اللون الذي اتجه إلى التحليل النفسي حينا ، وإلى النكات الفكهة المرحة حينا آخر ، وهو الأقرب إلى طبيعة الفن الأدبى الراقى[1]. نقصد بذلك صوره الساخرة التى قال عن طبيعتها وأثرها النويهي : "أول أثر لصور السخر والهجاء عند ابن الرومي علينا أنها تحملنا على الضحك الشديد ولكن إن اكتفينا بالضحك وظنّناها لاتُقدم سواه وانصرفنا عنها فما قدّرناها حق قدرها ، إنما نقدرها قدرها حقا حين ينتهي ضحكنا فنعود إليها مرة أخرى ، فإذا بها تثير فينا شعورا مختلفا ، شعورا يصعب التعبير عنه فيه الرثاء لهذا المتألم المجروح ، والرثاء لغيره من المتألمين المجروحين ، بل فيه أيضا الرثاء لهذا البخيل أو الدنيء أو السفيه أو الثقيل أو الشهوانى الذى يسخر الشاعر منه ، فيه الرثاء للإنسانية جمعاء ، والعزاء لنا نحن أيضا عن آلامنا ومصائبنا ، ثم

---

(١) المرجع السابق ، ص٣٨٧ بتصرف .

ينتهي بنا هذا الشعور إلى الاستهانة بها جميعا ، والعلو عليها جميعا ، وذلك هو عزاء الأدب الأعظم"(١).

هذه الملامح أهم مايميز هجاء ابن الرومي ، وإن كان في قدحه للإنسان أضاف بعض الأمور الجديدة ، كما حدث في مديحه حين مدح ببعض القيم الموروثة وزاد عليها بأن مدح بقيم اشتقها من الموروث ، أو استحدثت في عصره فطوعها لمديحه ، وربما يرجع ذلك لثقافاته الأخرى غير العربية ، أو ربما لأنه كان يعيش بخياله في عصر غير عصره .

وفى النهاية ـ فالإنسان في رؤية ابن الرومي ـ قادحا ـ إنسان ذميم منفر لو قُدِّر لشاعرنا أن يحول صوره في القدح إلى رسوم وصور زيتية لأقام بها أظرف معرض للإنسان القبيح في العصر العباسي .

وهو لم يحفل بالحياة من الناحية الأخلاقية إلا بقدر ماترتبط القيم الأخلاقية بتحقيق الإنسان لغايته تحقيقا مثاليا ، كاملا . لذا كان مديحه خلوا من العاطفة ، فغايته الأولى من مديحه هي الحصول على عطاء الممدوح .

بينما نجد أبياته في الهجاء مقدمة على غيرها من أغراض شعره "وإذا قابلنا بين أبياته في الهجاء الشخصي وأبياته التي هجا بها بعض ذوي العاهات النفسية، تبين لنا أنه يتعمد في النوع الأول من الهجاء الأحداث الطاغية بحيث يقتصر ابتكاره عليها ، كما كان يقتصر في النوع الثاني على اشتقاق المعاني من ذاتها ومن العلاقة الخفية التي توثق بينها وبين سواها"(٢).

---

(١) محمد النويهى ، ثقافة الناقد الأدبى ، ص٣٣٥ .

(٢) إيليا حاوى ، ابن الرومى فنه ونفسيته من خلال شعره ، ص١٦٧ .

والعناصر الموسيقية الفنية إلى جانب الخيالية والفكرية واللغوية ، في شعر ابن الرومي تُسبغ على صوره ثوبا جماليا شائقا وتبتعث ألوانا من الانفعالات في نفوس المتذوقين .

بينما ورث المتنبي القيم المتداولة في الشعر العربي قبل أربعة قرون فمدح بها وقدح وذم بما هو ضدها ، وهجاؤه فخر مقلوب فقد كان يهجو أعداءه بضد مايفخر به أو يمدح به أولياءه .

وكما رأينا المتنبي يبالغ في التهويل والتضخيم حين يمدح نراه وقد أولع بالتصغير والتحقير في قدحه وهجائه ، فإذا ازدرى شيئا أو رجلا حقيرا فذلك كما يقول العقاد : "ازدراء يشوبه الضغن ويضاعفه ظل العظمة الملقى عليه ، وإذا عادة المبالغة في الاستصغار موصولة بعادة المبالغة في التفخيم ، أو هي هي ولكن تختلف ناحية النظر طردا وعكسا على حسب اختلاف الشيء المنظور إليه . وأكثر مايرى المتنبي مُصغِّرا حين يهجو مغيظا محنقا ، أو يستخف متعاليا محتقرا"(١).

وهو إذا لم يُصغِّر عدوّه المهجو باللّفظ صغّره بالمعنى كما في قوله :

يُؤْذِي القليلَ من اللّئام بطَبْعه ... مَنْ لايقلّ كما يقلُّ ويَلْؤُم

فكان أعداؤه اللئام عنده شيئا قليلا . "وله في الهجاء القول الممض والكلام المر حتى أن بيتا واحدا من هجائه كان يقوم مقام القصيدة الطويلة في الإيلام وشدة الإيجاع وإصابة المحز ، فهو حين يقول :

فلو كُنتَ امْرءًا تُهجى هَجَوْنا ... ولكِنْ ضَاقَ فِتْرٌ عَن مَسِيرِ

---

(١) مطالعات فى الكتب والحياة ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ط/أولى ، ص١٨٩ .

فهذا منتهى مايصل إليه الاحتقار ، فهو ليس برجل يؤبه له حتى يهجى لأن قدره أضيق من أن يتسع لجولات الهجاء ، فهو كالفتر أقل من أن يتسع لمسير"(١).

وشاعرنا المفتون بالقوة التي هي محك الأخلاق ، وبوتقة الفضائل كثيرا ماتغنى بالوفاء والكرم والصدق والشجاعة ، ومدح هذه الخصال فيمن يمدحهم ، وعدّها أجمل صفات القوة ، وهو حين يقول :

وَماالخَيلُ إلاّ كالصَّديق قَليلةٌ وإنْ كَثُرت فـي عَيْنِ مَنْ لاَيُجَرِّبُ

فإنه يشير إلى ندرة الأصالة والكرم في الرجال ، أليس هذا التعريض بين صفات الرجال وصفات الخيل ، وقلة الرجال الصادقين كقلة الخيل الجيدة في عصره؟ ومعظم صور المتنبى يجمع فيها بين الفكرة والتصوير . "والقوة عنده هي أصل الأخلاق والفضائل والمحور الذى تدور عليه المحامد والمناقب . وهو يحيط بأمور كثيرة في شعره ـ مدحه ، قدحه ـ ولكنه يطبعها جميعا بهذا الطابع"(٢).

والمتنبي في شعره لم يحتفل بالصور والألوان سواء في المدح أو في القدح فجمال الصورة وحسن الثياب لم يكن يعنيه .

فحسب ممدوحه من الجمال الشرف والاستقامة ، ونقاء النفس وترفعها عن الرذائل والمفاسد ، ولايفوته بذلك شرف المبدأ وعزة النفس وإباء الضيم ومتى يفقد الإنسان هذه القيم والفضائل يفقد في نظر المتنبي إنسانيته ويتخلى عنها .

---

(١) على الجارم ، سر نبوغ المتنبى ، صحيفة دار العلوم ، ع/الرابع ، ص٧٤ .
(٢) عباس العقاد ، المرجع السابق ، ص٢٢٨ .

وقد عبر شاعرنا عن ذلك كله ـ مادحا وقادحا ـ بطريقة تدل على عمق فكري ، وسعة خيال ، وصدق إحساس ، ساعده في ذلك ملكة لغوية متفوقة وقد أدت هذه العناصر وظيفتها الابداعية والفنية وذلك عن طريق الموازنة بين الفكر والفن ، ومن ثم تحقق لصور شاعرنا جمالها الفني .

ونستطيع أن نتبين في صوره ـ سواء فى مقام المدح أو القدح ـ خصلتين فنيتين هما كما يقول الدكتور طه حسين : القوام الفني لشعر المتنبي يسرف فيهما أحيانا ويقتصد حينا ، وهي المطابقة والمبالغة ، يستخرج منهما فنونا من الجمال تؤثر في العقل والذوق والحس جميعا فتنشىء شيئا من الموسيقى اليسيرة الحلوة في أكثر الأحيان فالمتنبي يحسن المقابلة بين الأضداد كما يحسن المقابلة بين الألفاظ التي يختارها للدلالة على تلك الأضداد ، ومن ثم يضعها في مواضعها اللائقة(١).

وللمتنبي قدرة فائقة فى استخدام الطباق والتقسيم والمزاوجة والتجنيس فهو حين يقول :

على قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تأْتي العَزائمُ ... وَتأْتي على قَدْرِ الكِرَامِ المكارمُ
وَتعظُمُ في عينِ الصَّغيرِ صِغارُها ... وَتَصغُرُ في عينِ العَظيمِ العَظَائمُ

"فقد وظّف اللغة توظيفاً خاصاً لتحقيق قيمة صوتية وايقاعية هي في حد ذاتها قيمة جمالية ، تكشف عن مزايا أسلوبه ، ولو كان أمر الصياغة عند المتنبي قد وقف عند بلوغ الشكل الإيقاعي وحده لما كان له هذا التأثير وإنما الذي زاد من قيمته أنه يصلنا في ذات الوقت بالرؤية التى ينقلها إلينا عبر الكلمات أو مادتها أو شكلها الإيقاعي"(٢).

---

(١) مع المتنبي ، ص٥٠،٥١ بتصرف .
(٢) د. محمد زكى عشماوى ، موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى ، ص٢٥٢ .

فالمقابلة بين الألفاظ قد صيغت ببراعة ، ثم قد حملت معنىً إنسانيا وكشفت عن حقيقة عامة من حقائق النفس مما يحقق التكامل بين عناصر الصوت والمعنى[١].

* **نتيجة :**

من كل ماتقدم يتضح لنا أن ابن الرومي حين يمدح يخص بمديحه إنساناً بعينه ، وحين يهجو يطعن كذلك في شخص واحد ، أما المتنبي فحين يمدح يمدح الإنسان في كل زمان ومكان حين يتصف بالقيم والفضائل الحميدة كذلك قدحه موجهاً للإنسان كونه إنساناً ، لايأبه للشخص نفسه .

---

(١) المرجع السابق ، ص٢٥١ بتصرف .

ثانياً : القيمة الفنية في صور الشاعرين :

استخلاص صورة الإنسان في كلا حاليه عند ابن الرومي والمتنبي هو هدفنا الذي نتوخى الوصول إليه لكن ينبغي أن نعي أنّنا لسنا علماء نفس أو علماء اجتماع ، وإنما نحن نبحث عن الحقيقة الاجتماعية والنفسية من وجهة نظر الشاعر .. فنحن في دراستنا للأدب نبحث عن الحقيقة والجمال معا.

الحقيقة : من خلال تلك القيم الاجتماعية التي امتدحها الشاعر أو هجاها . والجمال : من خلال الصور والأخيلة التي صور بها تلك القيم وأدى بها المعاني . فالجمال في كل شيء مصدر للإحساس بالقوة ، فكما أن العلم يؤدى إلى قوة العقل ، فإن الفن والأدب يؤديان إلى قوة الروح ، فالقيم والآفات الاجتماعية في مجال المدح أو القدح عند ابن الرومي والمتنبي عُبِّر عنها بصور فنية رائعة ، بحيث لانستطيع أن نفصل بين القيمتين - أي بين المعانى والصور التى عبرت عنها وظهرت بها - .

والقيمة الفنية في صور الشاعرين كثيرة وحيث أن موضوع البحث لايُعنى بالناحية الفنية فقط كان أيسر الجهد أن أسلك في هذا الجانب طريقا عبد قبلى ، فأعول على من سبقوا إلى درس شعر ابن الرومي ، وشعر المتنبي درسا لغويا ، أو درسا بلاغيا ، أستجلى فيه جمال المجازات والكنايات والتشبيهات ، والإيجاز والإطناب ، ومايكون من ألوان البديع ، ألتمس الصور الفنية من خلال ذلك ، صنيع بعض المعاصرين الذين يكتفون بالدراسة الفنية لشعر شاعر ما ، وتحكيم معايير البلاغة فيه ، دون ربط ذلك بالناحية الاجتماعية .

ولاأُماري في أن هذه المعالجات كلها مفيدة ، وتوطىء لدراستي هذه وتعين عليها . إلاّ أنني أرى أنّ فصلها عن القيم الاجتماعية ، والاكتفاء بحصر جمال العمل الأدبي في تطبيق المعايير البلاغية المتعارف عليها فيه حجب ومصادرة لجانب آخر من الجمال الذى يمكن اكتشافه بشىء من المعرفة وزيادة الوعى .

فالصورة باعتبارها المادة التي تتركب من اللغة بدلالاتها اللغوية والموسيقية ، ومن الخيال الذى يجمع بين عناصر التشبيه والاستعارة والكناية والطباق وحسن التعليل ، يمكن أن تكون مجالا ثرا للدراسة الأدبية ولست أدعى الإلمام بجميع تفاصيلها عند الشاعرين في هذا الفصل ، ولكني أصبو إلى الإشارة لبعض صورهما .

ففي العصر العباسى استقرت الأمة العربية وغنيت وأخذت في التفكير الهادىء والافتنان في وسائل العيش ، وتغيرت كثير من تقاليدها الاجتماعية وربما فشا في المجتمع اللهو والعبث وانحلت مقاييس الأخلاق فنشأ عن ذلك حياة عصرية تمتاز بسعة المعارف ، وجمال الخيال ورفاهية العيش وصفاء الذوق ، فإذا موضوعات جديدة ومعان مبتكرة عميقة ، وأخيلة بديعة وأساليب عذبة موسيقية ، فقد امتاز العصر العباسى بحياة ترف شامل ، ومناظر جميلة وفنون مختلفة وحرية اجتماعية كانت لها آثارها في الأدب عامة والشعر خاصة[1]. من هنا تنوعت صور الشعراء وتباينت أذواقهم ، فكان لابد أن تختلف الصور لدى شاعر مسالم كابن الرومي ، عنها لدى شاعر متكبر قوي الشكيمة كالمتنبي ، فحين يريد ابن الرومي أن يُقنع ممدوحه بكفاءته واستحقاقه النوال والتقدير مكتفيا بالقول :

---

(١) د. أحمد الشايب ، أصول النقد الأدبى ، ص٨٤،٨٥ بتصرف .

مِنْ يَحيىٰ عَصَا موسى وذلك أنَّنِي ضربتُ به بَحر النَّدى فتَضَحْضَحا
فياليتَ شِعري إنْ ضَرَبْتُ به الصَّفا أيُبعَث لي منه جداول سُيَّحا؟!

نجد المتنبي يمعن في إظهار قوة ممدوحه وشجاعته فيصور المتصدي له رجلا فظاً غليظا لايعرف الله لكثرة مايسفك من دماء ، فإذا رأى ممدوح المتنبي عاد إلى صوابه وذكر الموت المحتم فنطق الشهادة!!

وُرُبّ مريدٍ ضُرَّه ضَرَّ نفسَه وهادٍ إليه الجيشَ أهْدى وماهَدى
ومُستكبِرٍ لم يعرفْ اللّه ساعةً رأى سيفَه في كفِّه فتَشهَّدا

ثمة ملاحظة يجدر التنويه بها . وهي أن الشاعرين اتفقا في الهجاء فقد كان كل منهما سليط اللّسان قدير التصوير ، يأتي ذلك كله من براعتهما اللّغوية التي سهلت عليهما إلباس المهجو بأقبح الألفاظ ، وأكثرها سخرية ، وتزيين قول الواحد منهما بأنفر الحروف التي تضطر السّامع إلى الضحك على المهجو . وكلاهما قد استخدم اللغة والأسماء والهيئة والأصل والنسب بهجائه ، وعرض بالنساء وبالأهل امعاناً في الأذى والإهانة . مع أن لكل منهما طريقته وذوقه الفني[1].

إن وراء الشكل والمعنى القريب في الصور السابقة عند الشاعرين سواء في المدح أو القدح ، قيمة جمالية بعيدة الغور ، رفيعة الجمال ، متجددة المذاق ، وهي في تصوري قيمة استمدها الشاعران من أحداث عصرهما وتطور المعارف والعلوم إضافة إلى ماتوارثه الإنسان العربى من قيم وأخلاق تجلت في أفعالهم كما تجلت في أقوالهم .

ولما كانت غايتي في هذا الفصل هي الموازنة بين الشاعرين في الرؤية والصورة الفنية ، فلامناص إذاً من درس القيمة الفنية للكشف عن آفاق الجمال في صور الشاعرين والبحث عن أسراره .

---

(١) د. محمد التونجى ، المتنبى مالىء الدنيا وشاغل الناس ، ص١٨٨ بتصرف .

فقد نُعجب بصور الشاعرين سواء في مقام المدح أو مقام القدح وتوحى إلينا لغتها غدقا من المشاعر ، ويستحوذ علينا مافيها من جاذبية وجمال ، ولكن يبقى فى النصوص شيء مالايشكفه إلا وصلها بصاحبها - الشاعر - فتزداد سطوعا وإشراقا .

إذ أن هناك فروقا شخصية بين الشاعرين تجعل وراء جمال كل نص صاحبه بذوقه وثقافته ، وطريقته الخاصة في الابداع الفنى ، إن هذه الصلة لايمكن الإغضاء عنها ، ولاالغض منها في تقويم العمل الفني ، وهى بلاريب تعين على الإحاطة به وبلغته ، والقدرة الواعية على تحليله ، ولانغفل مع كل هذا عنصري الزمان والمكان .

فابن الرومي فنان رهيف الحس ، لايحب العنف شأن الفنانين ، ولكنه عاش فى عصر غلبت عليه القسوة وطبع العنف طابعه على أفراد المجتمع ، إلا أن هذا العنف لم يُنف إحساس ابن الرومي بالجمال وتذوقه له ، والتعبير عنه فى شتّى صوره ، تعينه دقة ملاحظته وقوة ذاكرته ، وسعة خياله وعمق تفكيره .

وقد عبر ابن الرومي عن معانيه بأسلوب خاص تميز به ، فهو بدون شك يقدّم المعنى على المبنى ، فلم يجعل اللّفظ شغلا شاغلا في صناعته ، ولم يحفل به إلا لأداء المعنى الذي يريده ، ولهذا سلم من لعب الجناس اللفظي والمحسنات المموهة مع أنه نشأ في العصر الذى نشأت فيه هذه المحسنات[1].

---

(١) محمد حمود ، ابن الرومى الشاعر المغبون ، ص٨٢،٨٣ بتصرف .

وقد كان ابن الرومي حين يمدح يتناسى الشخص الذى يمدحه ، ويرسم أبهى صورة للجمال والكمال الإنسانى ، وكأنه يحدد صورة مثالية للجمال الذى كان له فى ذائقته سر وسحر خاص ، فهو ليس بالجمال الذى يُرى فيملأ العين ، كما أنه ليس بالجمال السهل البسيط ، بل إنه الجمال الذى يملأ الكيان والوجود بعد أن يبهر العيان ، وابن الرومي بحكم ثقافته وتجاربه يُقوِّم الجمال تقويما علميا ونفسيا وحضاريا ، ويتذوقه تذوقا نهما كأنه يسري فى دمه ليصل إلى الإحساس المطلق بهذا الجمال ، فيزين به قصائده ، لقد كشف عن سر تلك اللذة التي يحدثها الجمال في النفس[١].

ولم يقف عند ذلك . بل لقد تحدث عن الأثر الذى يحدثه الشىء الجميل في النفس ، حين عرض لصورة من صور الجمال وهي الأصوات الجميلة ووقعها في النفس . فقد كان له معها شأن كبير هو أقرب إلى التحليل والتعليل ، وهو حين يشبه أثر الصوت في النفس بأثر منظر طبيعي يرسخ بذلك الإحساس بالجمال ويذكرنا بقول العقاد : "التشبيه أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك ، ومابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان محسوبة بذاتها كما نراها ، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس ، وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لالغيره كان كلامه مطربا مؤثرا . وكانت النفوس تواقه إلى سماعه واستيعابه لأنه يزيد الحياة حياة"[٢].

---

(١) صفية السودانى ، الوصف فى شعر ابن الرومى ، ص٣٤٨ بتصرف .

(٢) انظر محمد مندور ، الشعر المصرى بعد شوقى ، ص٥-٧ ، نقلا عن محمد غنيمى هلال ، النقد الأدبى الحديث ، ط/أولى بدون ، الفجالة ، ص٤٤٧ .

فـالقيمة الفنية لصور ابن الرومي الشعرية أنها تعمـل على تنظيم رؤيته الإنسـانية وتكشف عن المعنى الأعمق للحياة والوجود كمـا عرفه والمتمثل في الخير والجمـال مـن حيث المضمـون والمبنى بطـريقة إيحائيـة رائعـة من حيث الشكـل . فصوره ليست على مستوى واحد من الوضوح والإبهـام في مدائحه وأهاجيه ، بل تختلف اختلافا بينا ، ذلك لأن له فى بعـض موضوعات المديح صور عديدة تشترك حواسه جميعهـا في الاستمتـاع بهـا ، كمـا أن لـه في موضوعات الهجاء صورا أخرى تتراسـل فيهـا جميع حواسـه ، وبذلـك تكثر الصور وتتنوع وتتداخل ، ولكن مع ذلك فابن الرومى لم يحتفـل باللفظ إلا لأداء المعنى ، فهـو لايعمد إلى أدوات التصوير كثيرا ، لـذا جاءت لمحاته من البـديع يسيرة ، لأنه مشغول بتـوليد المعاني واستخراج خفـاياها ، فقـد كان همـه رسم لوحة فنية والتعبير مـن خلالها عن مكنونات نفسـه . وقد نجح في إلبـاس القيم الأخلاقية والاجتمـاعية ألفاظا ترغّبنا فيهـا ومن ثم الدفاع عنها كما استطاع أن يلبس قيما أخرى ألفاظا تنفرنا منها وبالتـالى محاربتها ، وهذا هو دور الفنان الأصيل .

"والمتنبي شـاعر جمع في نفسـه الغرابة إلى الطبيعـة ، وفي شعره الثورة إلى التقليد ، امتازت معانيه بالقوة ، والإجمال البعيد عن التفريع والتفصيل الذي نجده عند ابن الرومى"(١).

رأى الحياة من حوله صغيرة حقيرة ، فتطلع إلى المجد والبطولة وتطلع لحيـاة أفضـل لأنه يحمل بين طيـاته نفسـا عظيمة ، فمـدح وأوصـل ممدوحه للـذروة العليا ، لأنه كان يرى نفسـه من خلال ممدوحه .. وقـد كان ينشد المثـل الأعلى للإنسان في عصـره فلايجده إلا في شخصه ولكنـه يجسـد فضائل

---

(١) محمد حمود ، المتنبي ، ص٨٧ ، ط/أولى ١٩٩٣م .

تلك النفس لممدوحه ، وقد كان بذلك شديد التغلغل في طوايا النفس البشرية ، شديد التفهم لأحوال الزمان والمكان ، عالج الكثير من قضايا مجتمعه بشعره ، فعرض للعادة وأثرها في الحياة ، كما عرض للنقص وأثره في أحكام الإنسان وتلون مظاهره ، وميل الطبيعة البشرية إلى الظلم ، وماإلى ذلك من الأمور التي هي من صميم علم النفس .

كان للمتنبي نوازع نفسية خاصة ، فقد كان يرغب في الملك ويطمح إليه ، ولعله كان مسرفا في طموحه ، هذا الاسراف انعكس على شعره ، فهو حين يمدح يمجد القيمة ذاتها إما للمحافظة عليها وتأكيدها في نفوس العامة مثله في ذلك مثل شعراء العصر الجاهلى بشكل عام ، فقد كان مديحهم موجها إلى القيم أكثر منه إلى الأفراد . أو لأنه كان يدرك أن معاصريه تخلوا عن هذه القيم التي يمدح بها وكان يرى أنه خير من يمثلها ، وبما أنه كان يعد نفسه لملك عظيم فقد رأى أنه لابد لإشاعة هذه القيم والتغنى بها حتى يلفت نظر معاصريه إليه باعتبار أنه الوحيد الذى حافظ على قيم العروبة-كما يفعل بعض المعاصرين حين يدخلون دائرة الانتخابات-، وقد كان المتنبى من أولئك الذين يكبرون أنفسهم أولا ، ويثقون بمواهبهم ، فقد جعل عزمه مطية أمله وأمله فوق نفسه ، ونفسه فوق متناول الآمال فقد كان فى جميع أوجه حياته ، يرى أن الحق للقوة ، وأن المجد لاينال إلا تحت ظل السيوف[١]. فهو كالملك الجبار أو كالشجاع الجريء كما قال عنه ابن رشيق[٢].

وقد كان لعنصري العظمة والقوة في نفس شاعرنا أثرهما الواضح على شعره الذى أصبح قويا يبعث النفس على قراءته ، وروايته ، تبعا للغريزة الانسانية التي تفتن بالقوة ، وتتلمس مظاهر العظمة .

---

(١) على الجارم ، طموح المتنبى ، صحيفة دار العلوم ، ص٦٨ بتصرف .
(٢) العمدة ، ج١ ، ص١٣٣ .

يتضح من كل ماتقدم أن ابن الرومي والمتنبي في أخيلتهما وأسلوبهما في صياغة صورهما جمعا عبقرية الرسم إلى فن التصوير ، "والفرق بين الرسم والتصوير : أن الرسم تخطيط ، والتصوير تعبير ، والرسم نقل ، والتصوير ابتكار ، والرسم تصميم هندسى ، والتصوير هو لغة العواطف ، والمعبر عما يجيش في الخواطر ، ويتغلغل في نواحى النفس الحساسة ، والرسم أقرب إلى العلوم النقلية الهندسية ، والتصوير فن جميل ، يتجلى فيه وحي الضمائر ، وإلهام السرائر ، وأساس الأول الفكر والعلم ، ودعامة الثانى الوجدان والفن الجميل"(١).

وعلى هذا يمكننا القول: إن ابن الرومي شاعر الخيال الرشيق ، والجمال الوثيق ، والوجدان الرقيق ، والمتنبي شاعرالهمة العالية ، والأمل الضخم ، والحكم الحيوية الخالدة ، والفلسفة الاجتماعية الصادقة . وبهذا كتب لشعرهما الخلود .

والحق أن الشاعرين قد عَنِيا بتصوير الحقائق العصرية في صدق وإخلاص ، وكان تصويرهما للحقائق والقيم الاجتماعية أو الأخلاقية تمثيلا وتفسيرا لها ، ولم يكن نقلا دقيقا ، على أنهما اختلفا في أشياء كثيرة سواء في مقام المدح أو القدح ، فقد اختلفا في الشخصية والمزاج ، والنشأة ، والسيرة ، والزمان والمكان ، وفي الصلة بمن يمدحون ، وفي البحور العروضية ، وقد كان كل منهما طرازا خاصا في صوره ، حتى تفاوتت درجاتهما الفنية في صورهما .

---

(١) عبد الحميد حسن ، الخيال فى شعر المتنبى ، صحيفة دار العلوم ، ع/الأول ، ص٩٤ .

وفي شيء من الإجمال يمكننا القول :

(١) إن ابن الرومي كان أضيق من المتنبي فى أفقه العاطفى في مجال المدح لأن مديحه كان طلبا للمال ، ولعل المتنبي يتفق معه في مدائحه لكافور التي لانلمس فيها من صدق العاطفة شيئا إلا أنه كان أوسع أفقا وأسمى عاطفة في مدائحه لسيف الدولة وفاتك . أما في مجال القدح ، فقد كان ابن الرومي يكره كل ماهو ضد الجمال ، ويسلط عليه قدرته على السخرية ، فقد نفر من القبح والدمامة وعمل منهما مثلا أعلى للسوء في لوحات فنية رائعة ، تقوم على البراعة في تجسيد المعايب الخِلْقية والخُلُقية في دعوة صريحة منه للبعد عن كل ماهو قبيح ومزري . وقد يلتقى المتنبي مع ابن الرومي بعض الشيء في تجريد المهجو من الصفات الانسانية ، إلا أن ابن الرومي يتناول المهجو كفرد ، بنكتة لاذعة مضحكة ، وسخرية فيها من الدعابة والقسوة الشيء الكثير ، بينما المتنبي يخلق من مهجوه نموذجا لنوعية معينة من الناس لها صفات خاصة ، تميزهم عن البشر الأسوياء في صور قوية متميزة[١].

(٢) كان الخيال عند كلا الشاعرين ، متناسبا مع أفقهما العاطفي في جهة ، ومع شخصية الممدوح أو المقدوح فيه من جهة أخرى .

فابن الرومي في تكوين أخيلته يميل للوجدان ، فقد كان في حياته العقلية والحسية ممن يستسلمون للوجدان ، وقد كانت انفعالاته النفسية وتموجاتها الوجدانية موجهة توجيها ليّناً رقيقا نحو جميل المظاهر ، أو رشيق المناظر ، أو نحو العواطف المقرونة بالحنان ، والرفق والصداقة ، والوداعة والمواساة ، ولين الجانب ، والنسيب والتشبيب ، أو نحو آلام تحيق بغيره فتهتز لها عواطفه أسى ، أو نحو الطرب بنعيم الحياة ومسراتها .

---

(١) إنعام الجندى ، دراسات فى الأدب العربى ، ص٢٦١ بتصرف .

بينما الذي يقود المتنبي في تكوين أخيلته هو الفكر ، ولم يكن جانب الوجدان هو البارز في حياته ، بل كان الذي يملأ قلبه هو مطامحه البعيدة وآماله الواسعة ، وهمته القوية ، فنحن لانتصور المتنبي إلا وقد تحفزت همته وغلت مراجل مطامعه ، فنرى القلب الطموح ، والهمة الوثابة التي تحاول أن تتخذ نفقا في الأرض أو سلماً في السماء ، وأن تحلّق فتزاحم الكواكب في أبراجها ، أو تنقضّ فتقتنصُ مانال بني الإنسان ، مما لم تشأ الأقدار أن تمكن له فيه ، فالذي يقوده في حياته هوإرادته وفكره ، والذي يقوده في خياله في أكثر الأحوال هو الفكر . لهذا نجد أكثر أخيلته خلوا من العنصر الوجداني ، والتموجات العاطفية ، وإن كان له طائفة من الأخيلة عليها مسحة ظاهرية من رقة الوجدان ، ولكن هذا ليس طبعه الشامل[١].

(٣) وإذا رجعنا إلى الأسلوب فإننا نلاحظ الوضوح متوافرا في جميع الصور ، والقوة أظهر عند المتنبي ، والجمال متجليا عند ابن الرومى ، وسبب ذلك شخصية الشاعرين المختلفة ، وصدى الحقائق في نفوسهما وكيفية تلقي الأحداث فالوضوح للعقل ، والقوة للشعور ، والجمال للذوق .

(٤) كان لقوة الشاعرية في ابن الرومى والمتنبي ، ولغزارة مادتهما ، وسعة ثقافتهما ، وخبرتهما بفن الشعر ، أثر بعيد الغور في معرفة مايصلح لكل معنى من البحور والألفاظ والقوافي ، وبالتالي يجري المعنى البديع واللفظ المطابق ، والخيال الرائع في سَنَن واحد مع موسقية الشعر والقافية ، ولقد اجتمعت هذه الصفات في شعرهما ، وبلغا به الذروة ، فليس عجيبا أن يحيا ، وتستفيض روايته[٢]..

---

(١) عبد الحميد حسن ، الخيال فى شعر المتنبى ، صحيفة دار العلوم ، ع/الأول ، ص٨٤ بتصرف .

(٢) محمود البشبيشى ، الحيوية فى شعر المتنبى ، صحيفة دار العلوم ، ص١٢٩ بتصرف .

ويمكن الاكتفاء بهذا القدر ، فلايفهم مما ذكرت أني فاضلت بين الشاعرين مفاضلة عامة ، بل وقفت عند هذه الأمور التى ربما أجملت الموازنة بينهما ليس غير .

خاتمة

خاتمة

على الرغم من مشقة البحث وعنائه إلا أن مرافقة الإنسان في العصر العباسي ومحاولة العيش في نفس ظروفه وبيئته كانت ممتعة لأنها تمت عبر الكلمة ـ أية كلمة ـ الشّعر الذي تركه لنا شعراء تلك الحقبة التى يخيل إلي بعد الفراغ من البحث والدراسة أنها كانت حقبة فريدة في عصور الأدب العربى وإن كان هناك شبهةٌ بينها وبين عصرنا هذا ، إلا أن العصر العباسى كان عصر القلق والشك والحماس والتوتر والتثاقف والتأميل ، ولكونه كذلك فقد أنجب من المواهب مايعز نظيره في غير عصور التّوتر والتّوهج ، وإن كنت قد آثرت ابن الرومي والمتنبي في دراستي هذه فهذا لايمنع وجود الكثير من المواهب الأخرى والعبقريات التي أنتجها هذا العصر ، ولكن شاعرين مثل ابن الرومي والمتنبي يضفيان على عناء البحث والدراسة متعة لاتوصف ، فضلا عن أننا نخرج بعد كل قراءة لشعرهما ودراسة لفنهما بنفس أكثر جمالا وروح قد امتلأت حبا وخيراً وأملاً ، وذهن وجد في شعرهما محصلة هائلة من الخبرات الإنسانية العظيمة ، كما أنهما من الشعراء القلة الذين نقرأ إنتاجهم الأدبى فلانشعر بالاغتراب بل العكس تمتلىء ذواتنا بالقوة والفخر جراء الانتماء العربى الذي يوحي به شعرهما .

كما أن لهذين الشاعرين قدرة عجيبة فى التواصل مع المتلقي أيا كان حاله وأيا كانت ثقافته .

من أهم نتائج هذا البحث أو ـ الدراسة الأدبية ـ أن الدافع الديني أهم مصدر للطاقة الدافعة للإنسان كى ينجز فعلا ما ـ تغير جذرى اجتماعيا ـ يترتب عليه استحالة الوصول إلى مجتمع جديد إلا إذا حدث تغيير عميق في الضمير الإنساني وظهر شيء جديد يدافع عنه الناس إيمانا به وتمجيدا له . هذه النتيجة توصلت إليها أثناء استعراض عصور التغير الكبرى في التمهيد .

مع تعاقب صور ابن الرومي والمتنبي ومحاولة استجلاء صورة الإنسان من خلال رؤيتهما وصورهما التي كانت تهمس في آذاننا بعبقريتهما ، يشد ابداعهما الفني بمجامع قلوبنا ، فنجد عواطفنا تتحرك نحو الإنسان في عصرهما بالرحمة حينا وبالاشفاق عليه حينا آخر ، وتهتز مشاعرنا مأخوذين به ومبهورين بعظمته وكريم خلاله من جانب .

فقد تجلت لي صورة الإنسان الكريم النسب ، المسلم القوي ، الفيلسوف المحنك ، الفارس العالم ، المجاهد الشجاع ، الصابر النبيل ، التقي الزاهد ، الأبي الوفي ، جمع مكارم الأخلاق كلها ، وجدت فيه صفات الكمال الإنساني - حين يمدحه أي من الشاعرين . ثم وبقدر القوة وبنفس الإحسان أجد صورة أخرى توحي بمدى التناقض في الإنسان ، حين أجد صورة إنسان قاسى في حياته الكثير من الكيد ، وتعامل بالخسة والدسائس ، والشديد من الظلم والمكر والحسد باختصار وجدت صورةمسخ بشري تجمع نفسه كل المخازي والرذائل والسقطات ، فكان أحط من أوضع حيوان .

فلانملك أمام تلك الصورة الشوهاء إلا التقزز ، والإعراض عنها .

هكذا كان حال الإنسان فى العصر العباسى في رؤية شاعرينا ، ففي المدح كان لايضاهى قد بلغ قمة المجد والكمال الإنسانى ، وفي حال القدح أيضا لايضاهى لأنه أحقر من أن ينظر إليه أو يؤبه له .

لقد كان الإنسان في ذلك العصر موزعا بين أمور شتّى لايملك الاختيار لنفسه ، وجد نفسه فجأة يخرج من الصحراء إلى التمدن فرأى أن من التمدن أن يغير نفسه بأن يتخلى عن قيمه ومبادئه كما يغير ملبسه ولو وعى حقيقة الحضارة لعلم أنها لاتقوم إلا على الأخلاق والقيم أولا ، ولايكتب لها الاستمرار إلا بدعامتين : هما الدين والأخلاق .

ولقد نجح ابن الرومي والمتنبي وأفلحا في إيصال حقيقة الإنسان في عصرهما وإظهارها للقارىء والباحث بصورة تشهد بعبقريتهما ودقة حسهما الفني ، وهذه تجربة إنسانية فريدة قادرة على أسر الوجدان والعقل ، بل

قادرة على تمثيل وتصوير النفس الإنسانية في كل أحوالها ، وقد عبر كلا الشاعرين عن كثير من ألوان الصراع الإنساني كما حاولا من خلال شعرهما التصدي لألوان الفساد المستشرية في ذلك العصر ، فقد كان الفساد عاما ، والفسق منتشرا ، حتى في أرقى مدن الدولة وأشهرها ، لقد كان عصر الشاعرين باختصار مرحلة هي نقطة بين الكمال والانحلال ، بين الحرص على الدين غيرةً، وإعلان الفجور تبجحًا ، ظهر لنا ذلك جليا في مدائح الشاعرين وأهاجيهما ، من ذلك قول المتنبي حين رأى سيف الدولة يعزف عن الخمرة ويترك الكأس من يده احتراما لوقت الأذان :

ألا أذِّن فَما أذْكَرتَ ناسي ... ولالينَّتَ قلباً وهو قاسِ

ولاشُغِل الأميرُ عن المعالي ... ولاعن حقِّ خالِقه بكاسي

والحق أن رؤية ابن الرومي والمتنبي للإنسان كانت متأثرة بأوضاع عصرهما وتقلبات أحواله ، واشتراكهما مع كثير من الشعراء السابقين في كثير من المعاني سواء في المدح أو القدح لم يطمس موهبتهما الخلاّقة ، فقد رأينا الكثير من المعاني المبتكرة في صورهما السابقة فوجدنا إبداعا يشرق في دقة عرض للموضوع التقليدي ، لقد كان عنصر القوة ، عنصرا مشتركا بين صور الشاعرين سواء في مقام المدح أو مقام القدح ، فكان كلا منهما يبحث عن القوة سواء في الجمال أو الغنى أو الشجاعة حتى في الصور التى كانت هجاء للإنسان كان الغرض من وراء الهجاء فيها البحث عن القوة والبعد عن الضعف في أي شكل من أشكاله ، وقد عرض الشاعران الفضائل ومكارم الأخلاق في مدائحهما بطريقة توحي بالقوة وتولد الرغبة في التحلى بتلك القيم والمحافظة عليها ، لتقوى أنفسنا ، لأن النفس مفطورة على حب الخير والجمال وفي هذه الصفات قوة ، والإنسان بطبعه يسعى للقوة ..

كما عرضا لنا الرذائل والآفات الاجتماعية بطريقة توحي بالبغض والكره والزراية رغبة في الابتعاد عن الرذائل والشر لأن في هذه الصفات يظهر ضعف الإنسان ، وقد عرضاها لنا بطريقة تبغضها إلينا وذلك رغبة في تقليم أظافر الشر في الإنسان .

وقد تبين لي من خلال درس وتحليل صور الشاعرين أن عاطفتهما فى مقام المديح لم تكن صادقة . فالأول - ابن الرومى - كان يحدوه الخوف والطمع وقد ظهرت هذه الرغبة في معظم مدائحه ، فقد كان خلوا من كل عاطفة أو إحساس بالحب تجاه من يمدح .

وكذلك المتنبي فقد كان يبيع عواطفه .. فقد كان زعيم المتكسبين بمدائحه صراحة .. وإن كنا نجد له قصائد تظهر صدق عاطفته فقد كانت مقصورة على سيف الدولة وفاتك الرومي .

أما في مقام - القدح - فقد تكون عاطفة الشاعرين صادقة بعض الشيء وذلك أنهما كانا يرومان تخليص الإنسان من الرذائل ، وانتشاله من وهدة الضياع والانحلال الأخلاقي . ولو اقتصر الهجاء عندهما على تصوير المساوىء الشخصية أو الاجتماعية وعرضها بقالب يثير فينا الكراهية لتلك المساوىء لبلغ هجاؤهما درجة راقية في الشعر العربي . ولكن لديهما كثير من الهجاء الذي هو من قبيل الطعن الشخصي الذي يراد به الحط من كرامة الشخص ، أو كرامة أهله ، لالقصد إصلاحي بل تشفيا أو تفاخرا .

والهجاء الفنى يقتضي أمرين : الفكاهة أو الدعابة ، وحسن التصوير . الأول : يرفعه عن الخشونة والاقذاع . والثاني يضعه في صف الفنون الجميلة .. وربما وفق الشاعران في بعض صورهما إلى هذه الأمور .

كما تبين لي بعد الدراسة والموازنة ، أن الصور الفنية الرائعة عند ابن الرومي أقوى وأظهر منها عند المتنبى .

وإن التقيا فى جزالة العبارة ودقة التصوير ، وقد استطاع كل منهما أن يجمع في صوره بين أعظم الحقائق الإنسانية ، وبين الصياغة الرائعة الدالة على صدق الشعور وجمال الخيال ..

يصعب علي أن أضع القلم وتحط رحال بحثي ودراستي للإنسان في صور ابن الرومي والمتنبي ، فقد عايشت الإنسان في عصرهما من خلال شعرهما معايشة أبكتني وأضحكتني ربما أكون محقة في فهم الإنسان والتعاطف معه

جرّاء أوضاع عصره ، التي تُذكرني أوضاع عصرنا ، وتصور لي إنسان هذا العصر ولكن افتقد شاعراً أوتي رهافة حسّ ابن الرومي أو حكمة المتنبي ليقدّم تصويراً لائقا بالإنسان في هذا العصر ، هذا لم يمنعني من التساؤل : ترى لو قدّر لشاعر كابن الرومي أو المتنبي التواجد والعيش في عصرنا هذا ماالذي سيقوله وأي صورة سيرسم للإنسان؟؟ في اعتقادي أنه لن يسمح لقلمه ولالفكره بالخوض في ارهاصات هذا الزمن ولاأخلاق إنسانه .. هذا والله أعلم .

وربما يكون الشاعران استطاعا بقدرتهما العجيبة أن ينفذا إلى عقلي ويؤثران على عاطفتي وأنا أقرأ الإنسان فى شعرهما .

* اقتراح :

بعد أن انتهت هذه الدراسة اتضح لي أن الإنسان موضوع متجدد ولكنه لم يُشبع دراسة . من خلال دراستى هذه أوصي أن يُدرس الإنسان فى شعر عصر بأكمله ، أو نثره . أى دراسة أدبية شاملة في عصر مستقل كالعصر الحديث مثلا .

كما اتضح لى أن جانب الصورة الفنية فى شعر المتنبي مثلا لم يحظ بدراسة مستقلة إلى الآن .

هذا ماخرجت به من هذه الدراسة والله أسأل أن أكون قاربت الصواب .. وإلا فهذا جهدى وعلى الله التكلان .

الفهارس

الفهارس

تشمل :

(١) فهرس آيات القرآن الكريم .

(٢) فهرس المصادر والمراجع .

(٣) فهرس الموضوعات .

فهرس آيات القرآن الكريم

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
سورة البقرة		
﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة	٧	٤
﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس	١٤٣	١٨٢
﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا	٢٠٤	٣
﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم	٢٤٧	٩٥
﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله	٢٦٢	١٨١
سورة آل عمران		
﴿ ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون	١٦٩	١٢٤
سورة النساء		
﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها	٨٦	٢١١
سورة الأنعام		
﴿ فلما جن عليه الليل رءا كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لاأحب الآفلين	٧٦	٩٣
فلما رءا القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رءا الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون ...﴾	٧٨	٩٣

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
سورة الأعراف		
﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ...	١٧٩	٢٥٣
﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ...	١٩٩	١٢٢
سورة الأنفال		
﴿ ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى ...	١٧	١١٩
﴿ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ..	٢٥	١٧٠
﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ..	٥٨	٥٢
﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ...	٧٥	٢٥٥
سورة النحل		
﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ...	٥	١٠٠
﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ...	٦	١٠٠
﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى ..		
﴿ عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون	٩٠	١٧٣
سورة الإسراء		
﴿ ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ..	٢٩	٥٥
﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ..	٧٠	٢
سورة الكهف		
﴿ وكان الإنسان أكثر شىء جدلا ...	٥٤	٤

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
سورة المؤمنون		
﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾	٣	٥٦
سورة الفرقان		
﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا	٤٤	٣
وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا	٦٣	٣
سورة الشعراء		
﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالايفعلون	٢٢٤	٢٢٤
سورة الأحزاب		
﴿ إنه كان ظلوما جهولا ...	٧٢	٣
سورة فاطر		
﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ..	٢٧	١٠٠
سورة محمد		
﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ...	٢٢	٢٥٥
سورة الحشر		
﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ...	٩	٢٠٦

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
سورة المنافقون		
﴿كأنهم خشب مسندة ...	٤	٢٦٤
سورة المعارج		
﴿إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا﴾	١٩-٢١	٣
سورة عبس		
﴿قتل الإنسان ماأكفره ...	١٧	٣
سورة الانفطار		
﴿فى أى صورة ماشاء ركبك ...	٨	١٠٠

فهرس المصادر والمراجع

(أ) الكتب :

(١) القرآن الكريم

(٢) إبراهيم المازنى
كتاب : حصاد الهشيم
المطبعة العصرية بمصر ، الطبعة السابعة ١٩٦١م .

(٣) ابن الأثير ـ ضياء الدين ـ
المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر
تحقيق أحمد الحوفى ، بدوى طبانة ، دار نهضة مصر ، ت.ط/بدون .

(٤) ابن خلكان ـ أحمد بن محمد بن أبى بكر ـ
وفيات الأعيان
تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، ج١ ، ١٩٦٨م ، ج٣ ، ١٩٧٠م ، ت.ط/بدون .

(٥) ابن رشيق ـ أبى على الحسن القيروانى ـ
العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م .

(٦) ابن قتيبة ـ أبى محمد عبد الله بن مسلم ـ
أدب الكاتب
تحقيق محمد الدالى ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ .

(٧) أبو اليزيد العجمى
حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم
ت.ط/بدون .

(٨) أحمد أمين
ضحى الإسلام
طبعة مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ١٩٦٤م .

(٩) أحمد الشايب
أصول النقد الأدبى
مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة السابعة ١٩٦٤م .

(١٠) أحمد عبد الله المحسن
مقدمات سيفيات المتنبى
دار العلوم ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

(١١) إنعام الجندى
دراسات فى الأدب العربى
دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٧م .

(١٢) أنيس المقدسى
أمراء الشعرالعربى فى العصر العباسى
دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السابعة عشرة ١٩٨٩م .

(١٣) أيمن محمد زكى العشماوى
قصيدة المديح عند المتنبى وتطورها الفنى
دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م .

(١٤) إيليا سليم الحاوى
فن الهجاء وتطوره عند العرب
دار الكتب اللبنانى ، بيرت ، ت.ط/بدون .

(١٥) إيليا سليم الحاوى
ابن الرومى فنه ونفسيته من خلال شعره
دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م .

(١٦) إيليا سليم الحاوى
فى النقد والأدب ، الجزء الثالث
دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٨٠م .

(١٧) الترمذى ـ الإمام أبو عبد الله محمد بن على الحكيم ـ
أدب النفس
تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح ، طبعة أولى ١٤١٣هـ .

(١٨) جرجى زيدان
تاريخ التمدن الإسلامى
مراجعة الدكتور حسين مؤنس ، طبعة دار الهلال ، بيروت .

(١٩) حسن إبراهيم حسن
تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى
دار النهضة المصرية ١٩٥٩م ، القاهرة ، بدون .

(٢٠) حسن الشماع
المرأة فى غزل أبى الطيب المتنبى
الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ .

(٢١) حنا الفاخورى
تاريخ الأدب العربى
المكتبة البولسية ، طبعة عاشرة ١٩٨٠م .

(٢٢) روفون جيست
ابن الرومى حياته وشعره
ترجمة حسين نصار ، منشورات دار الثقافة ، بيروت ، بدون .

(٢٣) زكى المحاسنى
المتنبى
دار المعارف بمصر ، طبعة رابعة ١٩٧١م .

(٢٤) زهدى صبرى الخواجا
موازنة بين الحكمة فى شعر أبى الطيب المتنبى والحكمة فى شعر أبى العلاء المعرى
دار الأصالة ، الرياض ، طبعة أولى ١٣٩٨هـ .

(٢٥) زهدى صبرى الخواجا
الجانب الخلقى فى الشعر الجاهلى
دار الأصالة ، الرياض ، طبعة أولى ١٤٠٤هـ .

(٢٦) سليمان العيسى
موجز ديوان المتنبى . شرح اليازجى .
دار طلاس بدمشق ، بدون .

(٢٧) سهيل عثمان ومنير كنعان
المحصول الفكرى للمتنبى
دار الإرشاد ، ت.ط/بدون .

(٢٨) شوقى ضيف
تاريخ الأدب العربى ، العصر العباسى الأول
دار المعارف ، طبعة سادسة ، بدون .

(٢٩) شوقى ضيف
الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
دار المعارف ، طبعة تاسعة ، ١٩٦٠م .

(٣٠) شوقى ضيف
فصول فى الشعر ونقده
دار المعارف بمصر ، طبعة ثانية ، بدون .

(٣١) صلاح الدين بسيونى رسلان
القيم فى الإسلام بين الذاتية والموضوعية
دار الثقافة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .

(٣٢) طه أحمد إبراهيم
تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع
دار الندوة ، جدة ، ط/بدون .

(٣٣) طه حسين
مع المتنبى
دار المعارف بمصر ، ط/الثانية عشرة ، بدون .

(٣٤) عباس محمود العقاد
ابن الرومى حياته من شعره
دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، طبعة سابعة ١٩٦٨م .

(٣٥) عباس محمود العقاد
مطالعات فى الكتب والحياة
دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، طبعة أولى ١٤٠٣هـ .

(٣٦) عبد الحميد جيده
الهجاء عند ابن الرومى
المكتب العالمى ، بيروت ، ١٩٧٤م ، ت.ط/بدون .

(٣٧) عبد القاهر الجرجانى
أسرار البلاغة
تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المدنى ، جدة ، طبعة أولى ١٤١٢هـ .

(٣٨) عز الدين إسماعيل
فى الأدب العباسى ـ الرؤية والفن
دار النهضة العربية ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٧٥م .

(٣٩) على ابن سيده الأندلسى
شرح مشكل شعر المتنبى
تحقيق محمد رضوان الداية ، دار المأمون للتراث ، ت.ط/بدون .

(٤٠) فالينتينا إيفاشينا
الثورة التكنولوجية والأدب
ترجمة فخرى لبيب ، بيروت ، ط/بدون .

(٤١) فوزى عطوى
المتنبى شاعر السيف والقلم
دار الفكر العربى ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٨٨م .

(٤٢) محمد التونجى
المتنبى مالىء الدنيا وشاغل الناس
عالم الكتب ، طبعة ثانية ١٤١٣هـ .

(٤٣) محمد حمود
ابن الرومى الشاعر المغبون
دار الفكر اللبنانى ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٩٤م .

(٤٤) محمد حمود
أبو الطيب المتنبى
دار الفكر اللبنانى ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٩٣م .

(٤٥) محمد زكى العشماوى
موقف الشعر من الفن والحياة فى العصر العباسى
دار النهضة العربية ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٨١م .

(٤٦) محمد عبد العزيز الكفراوى
الشعر العربى بين الجمود والتطور
دار نهضة مصر ، الفجالة ، طبعة ثانية ١٣٧٨هـ .

(٤٧) محمد غنيمى هلال
النقد الأدبى الحديث
دار نهضة مصر ، الفجالة ، الطبعة الأولى ، بدون .

(٤٨) محمد النويهى
ثقافة الناقد الأدبى
بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٩م .

(٤٩) محمود حسن أبو تاجى
الحرب فى شعر المتنبى
دار الشروق ، جدة ، طبعة ثانية ١٤٠٠هـ .

(٥٠) مصطفى الشكعة
أبو الطيب المتنبى فى مصر والعراقين
عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

(٥١) مصطفى الشكعة
فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين
عالم الكتب ، بيروت ، طبعة ثانية ١٩٨١م .

(٥٢) مصطفى لطفى المنفلوطى
من الأدب المترجم : الشاعر أوسيرانودى برجراك
رواية للشاعر الفرنسى آدمون روستان ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م .

(٥٣) نورى حمودى القيسى
الأديب والالتزام
دار الحرية ، بغداد ، طبعة أولى ١٤٠٠هـ .

(ب) الدواوين :

(١) **ديوان ابن الرومى** . فى ستة أجزاء
تحقيق عبد الأمير على مهنا ، دار الهلال ، بيروت ، طبعة أولى ١٤١١هـ.

(٢) **ديوان المتنبى** . فى أربعة أجزاء
وضعه عبد الرحمن البرقوقى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، طبعة ثانية ١٤٠٧هـ .

(٣) **ديوان زهير بن أبى سلمى**
دار بيروت للطباعة والنشر ، طبعة أولى ١٤٠٦هـ .

(٤) **ديوان حسان بن ثابت**
دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٨١هـ/١٩٦١م ، ط/بدون .

(٥) **ديوان أبى تمام**
شرح الخطيب التبريزى ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف بمصر ١٩٧٠م .

(٦) **ديوان صفى الدين الحلى**
دار صادر ، بيروت ، ط/بدون .

(ج) الدوريات :

(١) **صحيفة دار العلوم**
أبو الطيب المتنبى بعد ألف سنة . السنة الثانية محرم ١٣٥٥هـ ، العدد الرابع ، الجزء الأول ، السنة الثالثة ، ربيع الأول ١٣٥٥هـ ، العدد الأول ، الجزء الثانى .

(٢) **مجلة جامعة الملك سعود بالرياض ، كلية الآداب**
مجلد رقم ٦ ، عام ١٤١٤هـ .

(٣) **مجلة الخفجى**
العدد الثانى ، السنة السادسة عشرة .

(٤) **مجلة العربى**
العدد ٢٢٦ رمضان ١٣٩٧هـ .

(د) الرسائل والمحاضرات العلمية :

(١) **الوصف فى شعر ابن الرومى**
رسالة ماجستير فى الأدب العربى ، مخطوطة ، مقدمة من أ.صفية السودانى ، إشراف أ.د./طه نعمان ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ١٤٠٥هـ .

(٢) **الصورة الأدبية فى شعر ابن الرومى**
رسالة دكتوراه فى الأدب والنقد ، مخطوطة فى مجلدين ، مقدمة من د.على على صبح ، جامعة الأزهر ، كلية اللغةالعربية ١٣٩٣هـ ، إشراف أ.د/عبد المنعم خفاجى .

(٣) **دراسات فى أدب الدعوة الإسلامية**
مجموعة محاضرات مخطوطة للدكتور محمود عبد ربه فياض ، ألقيت على طلاب السنة التمهيدية بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى عام ١٤١٢هـ.

(٤) **دراسات فى الأدب العربى فى العصر الحديث**
مجموعة محاضرات مخطوطة للدكتور محمود عبد ربه فياض ، ألقيت على طلاب السنة التمهيدية بكلية اللغة العربية عام ١٤١٤هـ .

فهرس الموضوعات

	الصفحة
شكر وتقدير	
المقدمة	أ ـ و
التمهيد :.....	١-١٥
الدراسات السابقة حول الموضوع	٢
الإنسان باعتباره محورا مهما فى عصور التغير الاجتماعى	٦
التغيرات الاجتماعية ودورها فى تغير القيم.....	٧
العصر العباسى وأبرز ملامحه	١٠
ابن الرومى والمتنبى سبب اختيارهما.....	١٣
الفصل الأول : [الإنسان فى رؤية ابن الرومى ـ مادحا ـ]	١٦-٩٦
الصفات الخلقية فى مدائحه	١٩-٣٢
الصفات الخلقية فى مدائحه.....	٣٣-٨٦
الصفات الخلقية والخلقية معا.....	٨٧-٩٦
الفصل الثانى : [الإنسان فى رؤية المتنبى ـ مادحا ـ].....	٩٧-١٩٩
الصفات الخلقية فى مدائحه.....	١٠٠-١١٣
الصفات الخلقية.....	١١٤-١٩٩
الفصل الثالث : الإنسان فى رؤية ابن الرومى ـ قادحا ـ .	٢٠٠-٢٤٦
الفصل الرابع : الإنسان فى رؤية المتنبى ـ قادحا ـ.....	٢٤٧-٢٨٧
الفصل الخامس : الموازنة.....	٢٨٨-٣١٥
القيمة الاجتماعية فى صور الشاعرين.....	٢٩١-٣٠٤
القمية الفنية فى صور الشاعرين.....	٣٠٥-٣١٥

	الصفحة
خاتمة	٣١٦
الفهارس :.....	٣٢١
فهرس آيات القرآن الكريم.....	٣٢٢-٣٢٥
فهرس المصادر والمراجع.....	٣٢٦-٣٣٧
فهرس الموضوعات الإجمالى.....	٣٣٨-٣٣٩